

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

# البرباشة

أو اقتصاد القمامة في تونس  
من مصبّ برج شاكير  
إلى شوارع العاصمة

تحرير وتنسيق

سفيان جاب الله و حنان الشّابي

2025



FTDES

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

# البدباشة

أو اقتصاد القمامة في تونس  
من مصبّ برج شاكير  
إلى شوارع العاصمة

تحرير وتنسيق

سفيان جاب الله و حنان الشّابي

2025



## فريق العمل

### فريق البحث المساعد:

صفوان طرابلسي: البحث الإحصائي  
هالة ماجري: تحليل المعطيات الكيفية  
جيهان عليبي: مراجعة الأدبيات

### فريق البحث الميداني الكيفي:

بسّام عماري  
شيماء يعقوبي  
خلود الزاويدي

### فريق البحث الاتنوغرافي:

بثينة الأديب  
فوزي بيلالي

### فريق البحث الميداني الكمي:

أمير صميذة  
آساور مرابط  
عبد الرحيم الورتاني  
علاء الدين همامي

### فريق إنتاج الفيلم الوثائقي:

عماد المثناني  
مهدي بوهلال  
سليم بنهيبة

### تنسيق وتحرير:

د. سفيان جاب الله و د. حنان الشابي

### مراجعة وتدقيق لغوي:

أمين الحسيني

### بحوث من إنجاز:

د. حسّان الموري  
د. آمال قرامي  
د. رياض بن خليفة  
د. مهى بوهلال  
د. خالد طبابي  
د. ريم السماري  
د. مالك قطاط  
د. إيناس عيسى  
د. رضا كارم  
د. هاجر عرايسية  
فوزي البيلالي  
بثينة الأديب  
زهور وعمارة  
رمزي العلوي  
آية حريز  
سمر الزاويدي

### نشر:



شارع فرنسا - تونس

### تصميم:



alfiniq59@gmail.com

4	مقدمة عامة: هيئة التحرير
3	مدخل خاص 1: مفاتيح سوسيولوجية لوصف وفهم وتفسير اقتصاد النفايات في تونس: د. سفيان جاب الله.
25	مدخل خاص 2: اقتصاد استعادة النفايات في مصب برج شاكير: عندما يعيد البرباشة اختراع نظام تئمين النفايات: د. حنان الشابي.
43	1. البرباشة في تونس كَمَا وكيفا: البروفائل السوسيولوجي للبرباشة. د. هاجر عرايسية.
78	2. اقتفاء الأثر اللتنوغرافي للبرباشة: من مصب برج شاكير إلى شوارع تونس. فوزي بيلالي وبشينة الأديب.
112	3. المجتمع السفلي أو مجتمع الهامش: التغيرات- مثال البرباشة. د. حسان الموري.
130	4. البرباشة: الحلقة المفقودة في سياسات إدارة النفايات في تونس. د. مهى بوهلال.
143	5. عدم المساواة واستمرارية ديناميكيات إعادة التهميش بالبلاد التونسية. د. خالد طبابي.
163	6. نافذة على عالم فارزي النفايات. رياض بن خليفة.
174	7. البثوري من الوطن الطارد إلى الحوز الواعد. د. فوزي السعداوي.
188	8. علاقة البرباش بهويته المهنية: بين الاقتران والملان الأخير. د. ريم السماري
203	9. البرباشة وقوات الأمن: بين العدوانية المجتمعية والسلطوية المؤسساتية. زهور وعمارة
217	10. البرباش في الفضاء العام أو تئمين ما لا ثمن له. رمزي العلوي.
239	11. البرباشة والتربيش: مسودة من أجل قراءة بسيكولوجية نقدية. آية حريز.
254	12. البرباشة: المرض مقابل الغذاء: من أجل فهم علمي لصحة العاملين في القطاع غير النظامي: د. إيناس عيسى ود. مالك قطاط.
287	13. الحياة بين النفايات: مقاربة أنثروبولوجية لعوالم البرباشة في تونس. إحسان الماجدي.
305	14. البرباشات ومهارة البقاء على قيد الحياة: قراءة من منظور جندي. د. آمال قرامي
322	15. البرباش تحت مجهر الدراسات الرجولية: الرجولة بين المصب والحاوية. د. رضا كارم
340	16. البرباشة: فرز للقمامة أم مقاومة لتلوث المناخ؟ سمر الزايد.

## مقدمة عامة

يُعدّ هذا البحث استمراراً لمبادرة علمية رائدة يُشرف عليها المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، بالتعاون مع نخبة من الباحثين والباحثات، قوامها البحث السوسولوجي المستند على دراسات ميدانية معمّقة تُفضي إلى إنتاج معرفة علمية لا تجرّ أطراً نظريّة غربيّة جاهزة، بل تهدف إلى صياغة إطار نظري مبتكر (تونسي الهوية)، يُعنى بتحليل الظواهر المحلية، لاسيما تلك المرتبطة بالهشاشة الاقتصادية والاجتماعية.

انطلق هذا المشروع من خلال دراسة «سوق نهج إسبانيا أو منهج الاقتصاد الشارعي في تونس»<sup>1</sup> والتي حققت صدًى واسعاً على الصعيدين الأكاديمي والإعلامي، ممّا أسهم في إعادة تشكيل التجربة، في نفس الحقل البحثي، الذي عُرف لاحقاً بـ «دراسات ما هو غير نظامي (Informal studies)».

في هذه المرحلة، نسعى إلى وصف وفهم وتفسير ظاهرة «البرباشة: فارزي القمامة»، باعتماد نفس المقاربة العلميّة. ونظراً إلى طابعها المركب فإنّ إنجاز مثل هذه البحوث يتطلب تطوير إشكالية مركبة بدورها تتألّف من جملة من الأسئلة والتوجهات البحثية المتجانسة. ولضمان النجاح في هذا المسعى، من الضروري توفير الحد الأدنى من الموارد المادية اللازمة لتطوير الأدوات المنهجية الأساسية لجمع بيانات عالية الجودة تسمح بتحليل دقيق للظاهرة.

لا يمكن إغفال بأنّ هذا الوضع، أي الذي يُتيح الشراكة بين الباحث العلمي والمناضل الحقوقي والناشط في المجتمع المدني، قد يُثير تساؤلات بشأن القدرة على الحفاظ على النزاهة العلمية أثناء معالجة موضوعات البحث. لذا، ومنذ بداية مشروعنا، وإدراكاً لخصوصية الجماعات المستهدفة، أولينا اهتماماً خاصاً بضمان الموضوعية، على الرغم من أنّ هذا الأمر لا يتطلب بالضرورة الحياد تجاه السياقات والظروف التي نرصدها خلال البحث الميداني.

1 جاب الله، سفيان. نهج إسبانيا أو منهج الاقتصاد الشارعي في تونس: مقارنة سوسيو-أنثروبولوجية. تونس: إصدارات المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2022.

الموضوعية تختلف عن الحياد؛ فاختيار الموضوع، في حدّ ذاته، يعكس بالأساس حاجساً شخصياً للباحث وتحسّساً خاصاً نحو قضية معينة أو الأطراف المتدخلة فيها واستراتيجياتهم. ومع ذلك، يجب أن يظل هذا التحيز ضمن حدود لا تؤدّي إلى التعامل مع الموضوع من منظور إيديولوجي. لذا، عمدنا إلى وضعنة علاقتنا بموضوع البحث لعزل الحدس وما ينبثق عنه من أفكار مسبقة وحسّ مشترك يشوّش على موقعنا كباحثين، من خلال تفكيك الدوافع الشخصية والموضوعية لإجراء الدراسة وتحديد نطاق مساهمة كلّ فاعل في البحث.<sup>2</sup>

في هذه الدراسة، وفي تواصل مع الأعمال البحثية السابقة، قمنا بتبني منهجية إمبيريقية استقرائية، التي تتميز بتوجّوها نحو الاستكشاف وما يُعرف بـ «النظريات المستنبطة» (Grounded Theory)<sup>3</sup> أو «النظريات الميدانية». هذا المنحى يُعزز من قدرتنا على بناء إطار نظري مُستقل يتفاعل بشكل مباشر مع المعطيات الميدانية المستجدة، ممّا يُمكننا من الإجابة على إشكاليات البحث. ونظراً إلى أنّنا نتعامل مع ظاهرة لم تُدرس بشكل كافٍ لتزويدنا بأدوات نظرية ومفاهيم مُسبقة تُغنينا عن الاستكشاف، فإنّنا نجد أنّ التأطير النظري الكلاسيكي قد يُفقدنا الديناميكية الضرورية التي تُمكننا من رصد واكتشاف الممارسات وأنماط التفكير والاستراتيجيات التي لم تُدرس بعد، والتي ظلّت عالقة خارج نطاق النظريات القائمة.<sup>4</sup>

2 HAMEL, Jacques. Qu'est-ce que l'objectivation participante ? Pierre Bourdieu et les problèmes méthodologiques de l'objectivation en sociologie. Socio-logos. Revue de l'association française de sociologie, 2008, no 3.

3 Kaufmann, J., & Singly, F. (2004). L'entretien compréhensif. Paris, Armand Colin. pp. 9.

4 HEINICH, Nathalie. Objets, problématiques, terrains, méthodes : pour un pluralisme méthodique. Sociologie de l'Art, 2006, no 2, p. 9-27.

## ■ منهجية الدراسة:

منهجياً، تُصنّف هذه الدراسة ضمن إطار الدراسات الميدانية المختلطة (Mixed methodology)<sup>5</sup>. ونظراً إلى طبيعة البحث، فإنّ الميدان يكتسي أهمية كبرى خصوصاً في ظلّ شحّ المعلومات المباشرة حول الموضوع، سواءً في المراجع الأكاديمية أو حتى في المصادر التي تتناول البحث بشكل مباشر. يُشير البحث البيبليوغرافي الانتقائي الذي أجريناه للأدبيات المتاحة أنّ معظم الدراسات تُركّز بشكل أساسي على دور الفئة المستهدفة ضمن منظومات تدوير المنتجات أو في إطار اقتصادي بديل قد يحميهم من الهشاشة الاقتصادية والاجتماعية<sup>6</sup>.

المنهجية المختلطة تجمع بين أساليب البحث النوعي والكمي بطريقة متزامنة في دراسة واحدة، بحيث يُساهم كل نهج في تعويض النقائص التي قد يُغفلها الآخر على مستوى جمع وتحليل البيانات.

هذا المنهج يتيح للباحثين استغلال نقاط القوة لكلّ طريقة بحثية بهدف الحصول على فهم أعمق وأشمل للظواهر الاجتماعية. المنهجية المختلطة تُقدّم مزايا عديدة، منها تسهيل الفهم الشامل لأسئلة البحث، بما يجمع بين التفسير والفهم. كما تُعزّز صحة وموثوقية النتائج من خلال التحقق المتبادل بين الأدوات البحثية المختلفة، ممّا يساهم في التأكيد على النتائج من خلال استخدام أكثر من وسيلة بحثية.

بالإضافة إلى ذلك، تُوفّر المنهجية المختلطة مرونة أكبر في تكييف أدوات البحث وأساليبه حسب متطلبات الدراسة، وتقدم بيانات ميدانية ذات قيمة عالية ليس فقط من الناحية الأكاديمية، بل وكذلك في صياغة السياسات العامة وتوجيه تدخلات مختلف المؤسسات سواءً كانت عمومية أو منظمات المجتمع المدني. أخيراً، تُمكن المنهجية المختلطة من تحقيق فهم شامل للقضايا

5 Anadón, M. (2019). «Les méthodes mixtes : implications pour la recherche 'dite' qualitative.» Recherches qualitatives, 38(1), 105–123. <https://doi.org/10.7202/1059650ar>.

6 Mohamadou Adamou et Yoro Sidibé. «Les catégories de déchets récupérés par les chiffonniers sur les décharges d'ordures à Bamako-Mali.» 2022. HAL Archives ouvertes, hal-03762765v2 Florin, Bénédicte. «Les chiffonniers du Caire. Soutiers de la ville ou businessmen des ordures ?» Ethnologie française, vol. 45, no. 3, 2015, p. 487-498. CAIRN.INFO, shs.cairn.info/revue-ethnologie-francaise-2015-3-page-487?lang=fr Hassane, Mouri. L'informel ou la face cachée de la précarité : le cas des chiffonniers de Tunis. Tunis, 2026.

الاجتماعية المعقدة، حيث تأخذ في الاعتبار التوجهات العامة للرأي والممارسة، بالتوازي مع الغوص في تجارب الأفراد وتأويلاتهم / تمثلاتهم لسلوكياتهم<sup>7</sup>.

### ■ مجتمع الدراسة:

مجتمع الدراسة يشمل جميع البرباشة العاملين بصورة غير نظامية في مجال جمع وفرز النفايات في تونس، خاصة مشتقات البلاستيك والزجاج والألنيوم والورق، سواء داخل المصبات أو خارجها، بهدف بيعها إلى الشركات المعنية بإعادة التدوير. تواجه البحوث التي تُركّز على هذه الفئة ثلاث صعوبات رئيسية؛ أولاً، غياب تعداد دقيق وشامل للناشطين في هذا القطاع من قبل الجهات الرسمية، ثانياً، اختلاف مواقع عمل البرباشة، إذ ينشط بعضهم داخل المصبات الرسمية بينما يعمل آخرون في الأماكن العامة مثل الأزقة والشوارع، جامعين أنواعاً محددة من النفايات (البلاستيك والورق وغيرها...)، الأمر الذي تنجر عنه الصعوبة الثالثة، والمتمثلة في تطوير منهجية دقيقة تمكن من ضمان تمثيلها بشكل علمي.

لمواجهة هذه التحديات، يتطلب الأمر تطوير أدوات منهجية تمكّننا من جمع بيانات دقيقة وقابلة للمقارنة، ممّا يعزّز جودة النتائج البحثية.

### ■ أسئلة البحث:

من هم البرباشة في المصبّ وفي الفضاء العام؟ ما هي خصائصهم السوسيو-ديمغرافية؟ لماذا صاروا برباشة؟ وكيف تشكّلت سيرورات تحوّلهم إلى «برباشة»؟ كيف يعيشون هذه التجربة وماهي آثارها على ذواتهم وأجسادهم وواقعهم الموضوعي؟ كيف يمكن فهم هذا الاقتصاد غير النظامي وعلاقاته المركبة والمعقدة مع الدولة والمجتمع في الزمان والمكان؟

### ■ الخطة المنهجية:

تندرج هذه الدراسة ضمن إطار الدراسات المقارنة وتستند، كما أُشير سابقاً، إلى المنهجية

7 CRESWELL, John W. et CLARK, Vicki L. Plano. Designing and conducting mixed methods research. Sages publications, 2017.

المختلطة. تهدف الدراسة إلى الإجابة على الأسئلة البحثية المتعلقة بالإشكالية المطروحة من خلال الاستعانة بالمنهجين الكمي والكيفي عبر جميع مراحل البحث، التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- **مرحلة البحوث المكتبيّة:** قام الباحثون بمراجعة شاملة للدراسات السابقة التي تناولت الإشكالية موضوع البحث، سواء على الصعيد المحلي في تونس أو الدولي، بهدف تحديد خارطة المفاهيم المتدخّلة. كما تضمنت هذه المرحلة تطوير أدوات ومناهج تجميع البيانات، بالإضافة إلى استكشاف الأبعاد التحليلية الممكنة للدراسة.

- **مرحلة تجميع البيانات:** عمل الباحثون في هذه المرحلة على تجميع البيانات المطلوبة والتي ستمكن من الإجابة على أسئلة الإشكالية من خلال المزج بين المنهجين الكمي والكيفي. وذلك في مرحلة أولى من خلال الاستفادة من رصيد الدراسات المكتبية وتجميع أكبر عدد ممكن من المعطيات الثانوية الواردة في البحوث العلمية وتقارير الخبرة الدولية وتخزينها وتأهيلها بحيث تكون جاهزة للتوظيف في سياقات مغايرة. وفي مرحلة ثانية من خلال تقنية المسح الاجتماعي. إذ سيتم، بالتنسيق مع فرق البحث المحلية، تمرير استبيانات ذات تمثيلية عددية داخل المصب وذات تمثيلية نوعية خارجه. ثم في مرحلة ثالثة من خلال تعميق فهمنا لنتائج التوجهات العامة للدراسة الكمية بالاعتماد على مجموعة من المقابلات التفهّمية من ناحية وتقنية الملاحظة من ناحية ثانية. هذا بالإضافة إلى القيام بتجميع عيّنة من المضامين السمعية البصرية (صور، فيديوهات...) التي تؤثّق عمليات الملاحظة.

- **مرحلة تحليل البيانات:** خلال هذه المرحلة، ركّز الباحثون على إجراء التحليلات الإحصائية للنتائج الكميّة باستخدام برنامج الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS). فيما يخصّ الجانب الكيفي من البحث، اعتمد الباحثون على تحليل مضامين المقابلات التفهّمية التي أُجريت مع شركاء البحث، مع الأخذ بعين الاعتبار البيانات الإضافية المستخلصة من تقارير الملاحظات الميدانية.

## ■ عينة الدراسة وأدواتها:

بالنظر إلى طبيعة المنهجية المختلطة المعتمدة في هذه الدراسة، فإن البحث لا يعتمد على عينة واحدة، بل على عينات متعددة تختلف في تكوينها وعدد أفرادها تبعاً لكل مرحلة وأداة مستخدمة

في جمع البيانات الميدانية. وكما أُشير في الجزء السابق، تشتمل الدراسة الميدانية على ثلاث عمليات أو دراسات فرعية:

الدراسة الكمية: خلال هذه المرحلة، تمّ توزيع استبيانات على عيّنة تتألف من 144 وحدة تحليلية (فرد) في الفترة من ماي إلى أوت 2023. ونظرًا إلى طبيعة الدراسة المقارنة، تمّ تقسيم العينة استنادًا إلى مكان العمل كالتالي: 71 وحدة تحليلية داخل المصب، وهذا يُمثّل العدد الكلي للناشطين في المصب خلال الفترة الميدانية، وهذا الرقم يتعارض مع ما ورد في دراسات سابقة أو تصريحات بعض المسؤولين، ممّا يؤكد على غياب بيانات إحصائية دقيقة للفئة المستهدفة. من ناحية أخرى، تمّ إجراء 73 استبيانًا مع البرابشة الناشطين خارج المصب. في هذا السياق، تمّ تحديد عدد من النقاط الثابتة في تونس (المدينة)، بشكل رئيسي في مناطق المنارات، المنازه، ولافيات، حيث يتمّ استجواب جميع شركاء البحث الذين يمرون بهذه النقاط طوال اليوم.

الاستبيان المستخدم في الدراسة، سواءً داخل المصب أو خارجه، شمل تسعة محاور رئيسية. المحور الأول يُغطّي البيانات السوسيوديموغرافية الخاصة بشركاء البحث. المحور الثاني يتناول البيانات السوسيوديموغرافية لأسرهم، مثل الوضع العائلي للأم، الأب، والأبناء. المحور الثالث يجمع البيانات المتعلقة بالوضع الاقتصادي والاجتماعي للأسر، مثل مستوى الدخل، التغطية الاجتماعية، طبيعة العمل، والتنقل.

المحور الرابع يرصد تمثلات أفراد العينة حول مهنتهم وظروف عملهم. المحور الخامس يتناول الممارسات الثقافية والترفيهية لشركاء البحث. المحور السادس يتعلق بالقضايا الصحية. المحور السابع يستكشف تمثلات المشاركين حول قيم الرجولة والفوارق الجندرية. المحور الثامن يركّز على المرجعيات الفكرية والاجتماعية التي تؤثر على سيرورة اتّخاذ القرار. وأخيرًا، المحور التاسع يتطرّق إلى توجّهات الآراء السياسية.

الدراسة الكيفية: على المستوى الميداني استعملنا في هذه المرحلة أدواتين لتجميع البيانات الكيفية. شملت المرحلة الفرعية الأولى إجراء 29 مقابلة بيوغرافية (15 داخل المصب، 14 خارج المصب). إنّ الأدوات المنهجية التفهيمية تفرض نفسها كلّما كنّا نجهل الشروط التي يستند إليها نسق ترابط المعلومات التي تعكس معنى الفعل الاجتماعي لدى الفاعلين<sup>8</sup>. وفي بحثنا بالتّحديد، نحن ندرس تمثلات الفاعلين ورأيهم فيما يتعلق بتجربتهم العلائقية داخل المبادرات التي

8 Blanchet, A., & Gotman, A. (1992). L'enquête et ses méthodes, op.cit. (p. 40-41).

ينخرطون فيها<sup>9</sup>. ويكون انطلاقنا دائماً من الخطاب الذي يكوّنونه حول نشاطهم وفعلهم وسلوكهم وكيفية نسجهم صلاتٍ بالفاعلين الآخرين. وبذلك نكون أقرب إلى المنهجية التفهيمية بالمعنى الفيبري للكلمة والذي يعتبر أنّ الفعل الاجتماعي هو الأساس «سلوك تفاعلي» يبنى على فهم المعنى الذي يُضفيه عليه الفاعلون سواءً أكان هذا المعنى موضوعياً أم ذاتياً<sup>10</sup>.

دليل المقابلات التفهيمية في هذه الدراسة شمل أربعة محاور رئيسية، التي انقسمت بدورها إلى عدّة محاور فرعية. المحور الأول تناول الخصائص السوسيو-ديموغرافية لشركاء البحث، بما في ذلك المعلومات الأولية حول الشخصية التي تساعد في تصنيف الفرد ضمن بروفایل محدد. يتبع ذلك المحور الثاني الذي ركّز على استخراج وتحليل الروايات الشخصية لشركاء البحث بخصوص ظروف نشأتهم من الطفولة حتى بلوغ سنّ الرشد، والتحديات التي واجهتهم ودفعتهم نحو العمل في هذا القطاع.

المحور الثالث رصد العلاقات الاجتماعية لشركاء البحث مع دوائر التنشئة الاجتماعية كالأُسرة والعرش، وكذلك مع البنى الاجتماعية المؤسسية مثل مؤسسات الدولة. أما المحور الرابع والأخير، فقد تركّز بشكل أساسي على الوضع الصحي والاقتصادي لشركاء البحث، مع التركيز على تحديد الجوانب المختلفة للهشاشة التي يعانون منها.

### الفضاء العام (14 مقابلة)

مكان إجراء المقابلة	المهنة ك «برباش»	الحالة المدنية	الجنس	السن	الإسم المستعار
مدينة تونس	جمع القوارير البلاستيكية	عزباء	أنثى	41	سعاد
المنزه	جمع القوارير البلاستيكية	متزوج	ذكر	60	جميل
المنار	كل النفايات	متزوجة	أنثى	63	سلوى
المنزه	جمع الخبز / البلاستيك / ورق «الكردونة»	متزوج	ذكر	36	وليد
مدينة تونس	جمع البلاستيك	متزوج	ذكر	37	حسن
مدينة تونس	جمع البلاستيك	متزوج	ذكر	53	محمد علي

9 Idem.

10 Weber, M. (1965). Essais sur la théorie de la science. Paris : Libraire Plon.

المنار	جمع كل شيء	متزوج	ذكر	37	صابر
المنار	جمع البلاستيك	متزوج	ذكر	54	عبد الله
المنار	«برويطة» لجمع الخبز والبلاستيك	متزوج	ذكر	53	معتز
المنار	الحاويات في الشارع / جمع البلاستيك	عازب	ذكر	43	مراد
المنار	الحاويات في الشارع / جمع البلاستيك	متزوج	ذكر	28	زياد
مدينة تونس	جمع البلاستيك	عازب	ذكر	48	عبد الرحمان
مدينة تونس	جمع كل شيء	متزوجة	أنثى	36	رانية
مدينة تونس	جمع الملابس / البلاستيك / الألبنيوم	متزوجة	أنثى	38	أحلام

### المصب (15 مقابلة)

مكان اجراء المقابلة	المهنة ك'برباش'	الحالة المدنية	الجنس	السن	الاسم المستعار
المصب	جمع مواد الحديد والبلاستيك والالمنيوم	متزوج	ذكر	29	أمير
المصب	يعمل داخل المصب بشاحنته الخاصة	عازب	ذكر	29	سمير
المصب	كل شيء مع التركيز على فرز الملابس ثم بيعها	متزوجة	أنثى	لا تعلم	منجية
المصب	كل شيء	أرملة	أنثى	72	مباركة
المصب	كل شيء مع التركيز على فرز الملابس	متزوجة	أنثى	50	مريم
المصب	فرز البلاستيك	متزوجة	أنثى	53	فاطمة
المصب	كل ما هو معدّ للرسكلة	عازب	ذكر	18	خالد
المصب	فرز الملابس وبيعها / البلاستيك	متزوجة	أنثى	44	حليمة
المصب	بلاستيك / ورق "الكردونة"	متزوج	ذكر	55	سالم

المصب	يملك شاحنة خاصة لنقل النفايات بعد فرزها لبيعها أو لرسكلتها	متزوج	ذكر	49	حاتم
المصب	كل شيء	متزوج	ذكر	43	عمار
المصب	فرز الملابس / البلاستيك	متزوجة	أنثى	56	جميلة
المصب	كل شيء خاصة البلاستيك	مطلق	ذكر	41	بشير
المصب	فرز بلاستيك	متزوجة	أنثى	56	عائشة
المصب	فرز البلاستيك / الملابس	متزوجة	أنثى	48	فتحية

فيما يتعلق بمنهج الملاحظة المعتمد في هذه الدراسة، تمّ استخدام جذاذة ملاحظة تتناول أربعة محاور أساسية: المحور الأول يشمل وصفاً تفصيلياً لسير العمل اليومي داخل المصب وخارجه، مع إيلاء اهتمام خاص بالفوارق الجندرية والعمرية. المحور الثاني يُعنى بتسجيل التوزيع العام للأفراد في الفضاء، طرق استيطانهم لهذا الفضاء، وكيفية تموقعهم ضمنه.

المحور الثالث يعرض طبيعة العلاقات بين الناشطين في القطاع، خاصة أولئك داخل المصب، وكذلك صلاتهم بالفاعلين الآخرين، بما في ذلك الفاعلين المؤسساتيين (علاقات السلطة، صلات التضامن، الهرمية في العلاقات، تقسيم العمل، الصراعات...). المحور الرابع يهدف إلى جمع بيانات حول التحديات والمخاطر التي يواجهها شركاء البحث في أعمالهم واستراتيجيات الوقاية التي يتبعونها. وقد تمّ إنجاز تقريرين لهذه الملاحظات في الفترة الفاصلة بين ماي وأوت بعنوان سنة 2023.

## مفاتيح سوسولوجية لوصف وفهم وتفسير اقتصاد النفايات في تونس

د. سفيان جاب اللّـ

جامعة صفاقس

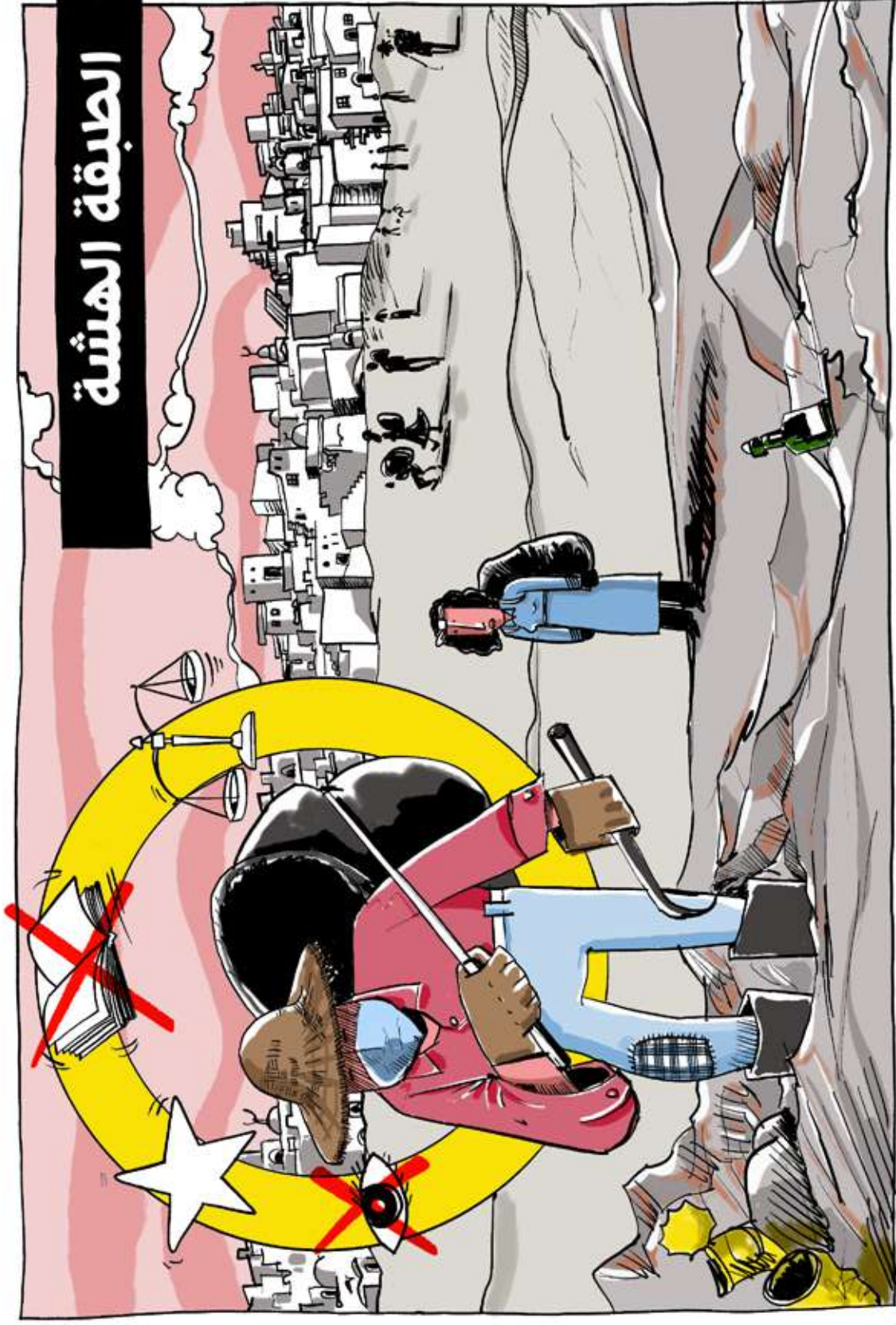
بناءً على الدراسة التي أُجريت حول السوق غير النظامية في نهج إسبانيا، وكذلك الدراسة المتعلقة بالبرباشة داخل مصب برج شاكير وفي مناطق متفرقة من تونس الكبرى، والتي تمّت عبر منهجية بحثية متعدّدة الجوانب، تضمنت تحليلات كميّة دقيقة من خلال استبيانات مصمّمة بعناية فائقة، بالإضافة إلى دراسات كميّة سوسيو-أنثروبولوجية شملت مقابلات بيوغرافية وملاحظات ميدانية سواءً بالمشاركة أو دونها، تمكّنا من رصد خمسة عوامل رئيسية تُسهم في تشكيل الاقتصاد غير الرسمي بالعاصمة تونس:

**1. البريكاريا:** يُمثل مفهوم «البريكاريا» ظاهرة حديثة العهد، ناشئة من بين ركاب التحولات الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة التي تتسم بتذبذب سوق الشغل وعدم استقرارها، بالإضافة إلى هيمنة التّأطير النيوليبرالي للوضعية المهنية. يُستخدم هذا المفهوم لوصف «المرونة الوظيفية» كبديل لغوي ومفهومي عن الإشارات التقليدية إلى العمل الهش. وقد بدأت المجتمعات الأوروبية، التي كانت تركز تقليدياً على العمل كآلية أساسية للاندماج الاجتماعي، تواجه تآكل هذه الأسس منذ ثمانينيات القرن المنصرم.

على هذا الأساس، يُعدّ مصطلح «البريكاريا» تعبيراً عن حالة الهشاشة المهنية، المقترنة بالانفصال عن طبقة البروليتاريا، ويُستخدم لوصف الظروف المهنية المحفوفة بعدم الاستقرار الاقتصادي والتعرّض المستمر للقلق بسبب عدم تحقيق الأمان الوظيفي.

في دراستنا التي أُجريت بالتعاون مع المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية في عام 2022 حول السوق غير النظامية بنهج إسبانيا، تمّ التطرق إلى الوضع الخاص لأفراد لا

# الطبقة الهشة



ينتمون إلى الطبقة العاملة التقليدية وليسوا عاطلين عن العمل، كما أنّهم لا ينشطون داخل إطار نظامي وقانوني. هؤلاء الأفراد يعانون من نقص في الرساميل الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والرمزية. الأمر الذي يُفسر استمرارية وضعهم الهش الذي يتجلى في ظروف عمل غير رسمية وغير قانونية، والجلي بالذكر في هذا المستوى أنّ هذه الهشاشة تستمدّ جذورها من وضعهم الطبقي والفئوي والمجالي الهش (مناطق داخلية محرومة من التنمية، أحياء شعبية فقيرة، عائلات ذات دخل محدود وانقطاع مدرسي عالٍ وأحياناً أمية).

ترمي السياسات الساعية الى مزيد تعميم هذه الظاهرة، أي 'البريكاريا'، وفقاً لتحليلات الاقتصادي البريطاني غاي ستاندينغ، إلى تعزيز المرونة في سوق العمل. هذا التوجّه يؤدي إلى خلق حالة من عدم اليقين المستمر للأفراد حيال مختلف جوانب حياتهم على غرار العمل، السكن، والهوية الشخصية.

الأفراد الذين يندرجون ضمن هذه الفئة الاجتماعية الجديدة لا يواجهون عدم استقرار في الدخل وحسب، بل أيضاً فقداناً للهوية الوظيفية والشخصية؛ إذ يجدون أنفسهم مضطرين إلى العمل في ظروف هشة، خارج نطاق الحماية القانونية، دون عقود عمل رسمية، ضمان اجتماعي، أو تأمين صحي.

تتجلى هذه الخصائص بوضوح في وضع «البرباشة» (جامعي القمامة)، الذين يشتغلون في مكبات/مصبات النفايات والأماكن العامة ضمن قطاع غير منظم وغير قانوني في عمل شاق، مُضِرّ صحياً، وموصوم اجتماعياً.

العاملون في هذا القطاع يقطنون في أحياء شعبية مهمشة مجالياً واقتصادياً من قبل الدولة، وينتمون إلى الطبقات الفقيرة، وغالباً ما ينحدرون هم أو آبائهم من المناطق الداخلية الأكثر فقراً في تونس، وقد نزحت عائلاتهم إلى المدن في الستينات والسبعينات. الانتماء إلى هذه الطبقة يعني الإقصاء من المصعد الاجتماعي، نتيجة لانقطاع مبكّر عن الدراسة بسبب رأسمال ثقافي عائلي ضعيف ورأسمال اقتصادي معدوم، ممّا يحدّ من خيارات الفرد المهنية ويدفعه نحو الانخراط في القطاعات الهشة.

كما هو الحال في نتائج دراستنا حول الباعة غير النظاميين في سوق نهج إسبانيا، تكشف دراستنا حول جامعي القمامة في مصب نفايات «برج شاكير» وفي الفضاء العام في تونس العاصمة، أنّ كلّ المتهنين لهذا النشاط، دون استثناء، ينتمون إلى هذه الطبقة الاجتماعية

الجديدة. كما تؤكد هذه البيانات الاتساق في الأنماط الاجتماعية والاقتصادية التي تحدد ملامح هذه الطبقة في سياقات متعددة داخل المجتمع التونسي.

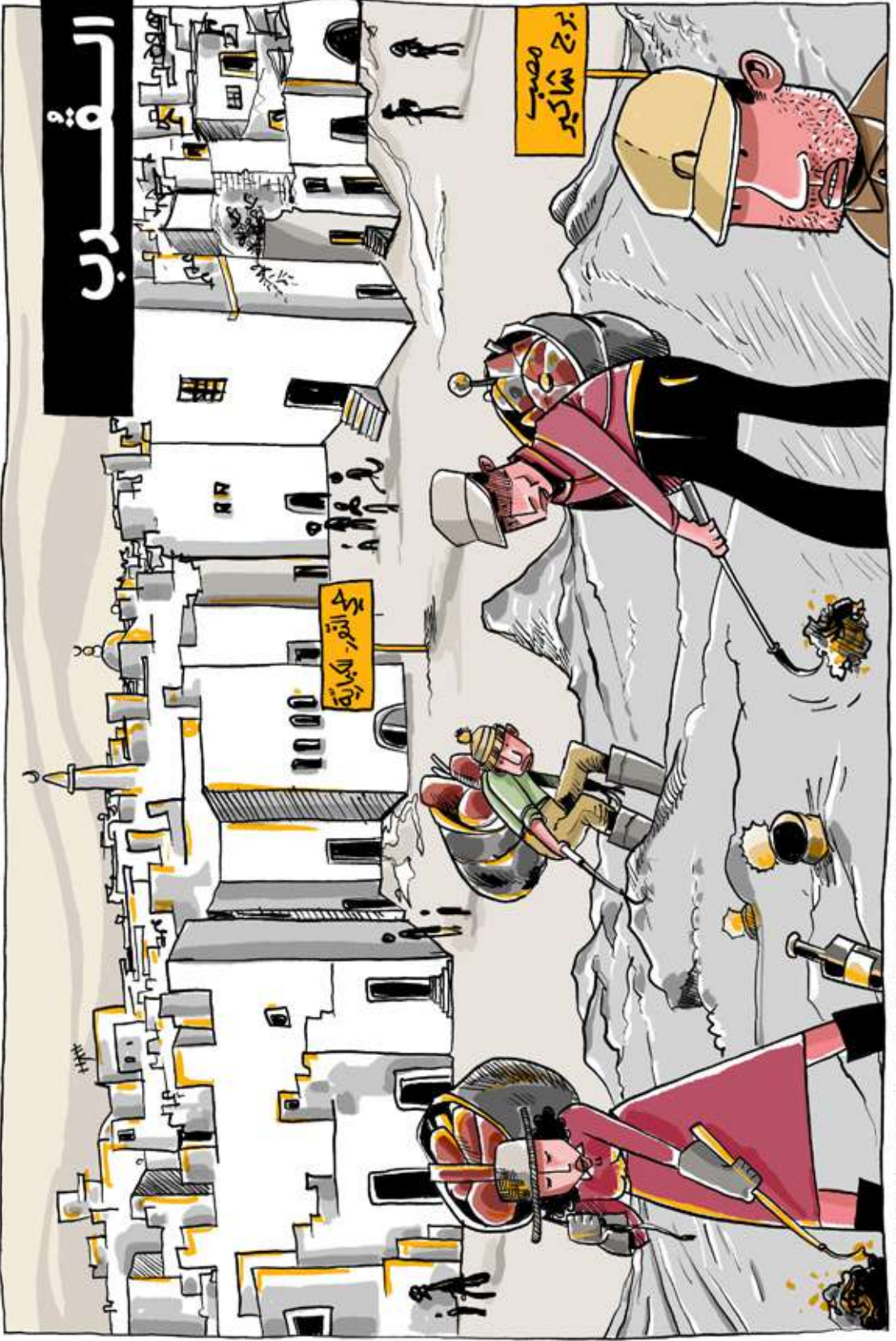
هذه الطبقة تقع في منزلة بين المنزلتين، فلا هي طبقة عاملة (في القطاعين الخاص والعام) ولا هي طبقة معدمة تماما (المثردون ومن هم دون مأوى أو المتسولون). فلا هم عاطلون عن العمل ولا هم طبقياً عمّال، فنشاطهم الهش في إطار غير قانوني ينتج تطبعا خاصا ووضعية خاصة.

**2 القرب:** يسعى أفراد الطبقة الهشة، الذين تمّ استبعادهم تماما من سياسات الدولة واستثنائهم من النسيج الاقتصادي الرسمي، إلى البحث عن مصادر بديلة للعيش. هذه الموارد غالبا ما تكون «قريبة» منهم، مثل الأشخاص المنتمين إلى عائلات معينة، والمنحدرة بدورها من قبائل بعينها، تحتكر فرص الثروة على الحدود الجزائرية أو الليبية، مديرة بذلك عجلة اقتصاد التهريب، أو ما يُعرف اجتماعياً بـ «الكونترا» أو ما أسميناه سلفاً «التوريد الحدودي غير المقنن للسلع». وفي إطار تقسيم العمل الاجتماعي، تقوم الفئة الأقل ثروة ومكانةً وحظاً بشقّ طريقها نحو شوارع العاصمة، في محاكاة تاريخية لتجارة القوافل، ليقتربوا من مصدر اقتصادي آخر، وهو التسوّق غير النظامي في إطار اقتصاد الشارع.

في إطار دراستنا حول نباشي القمامة، ووفقاً لذات الاتجاه، نكتشف الدور الحاسم لمسألة القرب بصورة لا تقبل الجدل. الرواد الأوائل لهذه المهنة كانوا من المنتمين الى عرش الفراشيش، وتحديدًا مجموعة البثوري، الذين نزحوا بأعداد كبيرة من منطقة حاسي الفريد الواقعة بولاية القصرين في أواخر الستينيات والسبعينيات، متجهين نحو ضواحي العاصمة، واستقروا بشكل رئيسي في منطقة الكبارية بالعاصمة، وتحديدًا في أفقر أحيائها، حي النور، المجاور لمصب هنشير اليهودية.

هذا القرب الجغرافي، المقترن بهشاشة وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية، دفع هؤلاء الأفراد إلى التوجّه إلى المصبّ بحثاً عن قوت يومهم. وقد توصلوا إلى اتفاق ضمني مع الدولة، يقضي بحرية النباش في النفايات لقاء الحفاظ على الهدوء، وهو ما يعني تجنّب الاحتجاجات وعدم تسييس حالتهم المتردية. ومع انتهاء صلاحية ذلك المصب وظهور اقتصاد جديد لتدوير النفايات وإعادة استخدامها، وافتتاح مصب جديد، توارث هؤلاء النباشون «الحق» في التوجه نحو المصب الجديد وباتوا قادرين على احتكاره، معتبرين إياه «مورداً قبلياً». هذا الامتياز لم يكن ليتحقّق لولا التضامن الميكانيكي القائم على شبكات القرابة العائلية المنصوية تحت إطار قبلي ينظمها.

# الرفقة



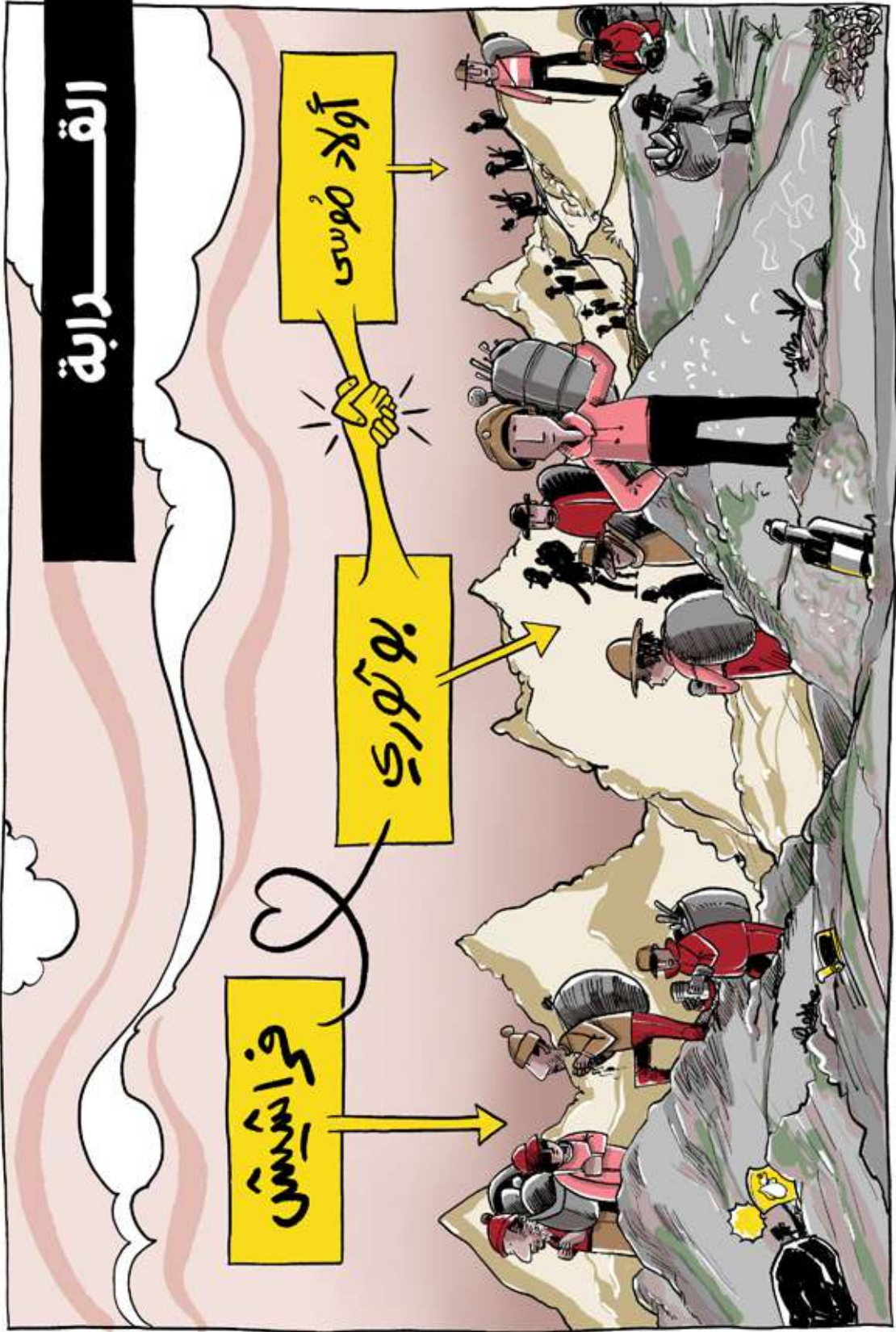
بعد أن تحوّلت علاقات القرابة إلى شبكات تُسهم في توليد النشاط الاقتصادي، اعتمد هؤلاء الأفراد على استراتيجية أساسية لتدعيم نشاطهم الاقتصادي متمثلة في القرب المجالي؛ إذ أنّ هؤلاء الأفراد، الذين غادروا المناطق الحدودية، قدموا إلى العاصمة لبيع السلع المستوردة من قبل مجموعات أخرى تنتمي إلى نفس المجموعة القبلية. هذه الخطوة تطلبت الاستقرار في تونس، والاستيلاء على الشارع وتحويله إلى ملكية قبلية، وهو ما تمّ تحقيقه بوسائل مختلفة، لا سيما الصبر والمقاومة في مواجهاتهم مع الشرطة والقضاء، وكذلك مع أصحاب المتاجر في ذلك الشارع ومنافسين آخرين من الأحياء الشعبية للعاصمة. هذه الاستراتيجية تُظهر رغبة هؤلاء التجّار غير الرسميين في خلق قرب ليس فقط مع الموارد الاقتصادية، ولكن أيضاً مع قلب الحياة الحضرية نفسها، وذلك عبر تحويل الشارع إلى مجال حيوي يُثبت فيه وجودهم كحقيقة لا يمكن تجاهلها في المشهد العمراني.

**3 القرابة:** في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية، تُعنى الدراسات بتحليل ووصف الروابط الدموية والمصاهرة، متخطيةً بذلك الأبعاد البيولوجية لتشمل العلاقات المعترف بها اجتماعياً. على سبيل المثال، في سوق شارع إسبانيا غير النظامية، تتعدّى روابط القرابة الإطار العائلي الضيق لتشمل أعضاءً من نفس المجموعات القبلية الذين لديهم درايةً بنسبهم ولا يندمجون مع مجتمع العاصمة. هؤلاء الأفراد يظهرون تضامناً قوياً فيما بينهم ويحتكرون جزءاً كبيراً من النشاط الاقتصادي في السوق، استناداً إلى القرابة الجينية.

على الرغم من تنوع أسماء العائلات، يتشارك هؤلاء الأفراد في أصل مشترك يعود إلى منطقة غلايقية، مروراً بفروع أولاد خلفه وأولاد مهني، وصولاً إلى قبيلة ماجر. تؤثر هذه البنية الاجتماعية المستندة إلى القرابة بشكل مباشر على ديناميكيات السوق، حيث تشكّل العلاقات القبلية شبكات التحالفات والتبادلات والفرص الاقتصادية. كما تُعزّز هذه الروابط القرابية الشعور بالانتماء المشترك إلى مناطق مهمشة وطبقة اجتماعية هشّة.

من خلال دمج هذه العلاقات العائلية مع التحالفات القبلية، يتحقّق التضامن العائلي، أو «العصبية» كما يصفها ابن خلدون، مانحاً هذه الجماعات الهشّة قوة ومرونة لمواجهة التحديات. هذه اللحمة تُمكنها من التعامل مع النظام الاجتماعي الحديث الذي يعتمد على الوشائج الثانوية، المنظمة بواسطة المصالح والقانون، بينما تستمد منظومتها الاجتماعية قوتها من الوشائج الأولية مثل النسب وروابط الدم والعرف. هكذا، يحوّل أفراد الطبقة الهشّة علاقات القرابة إلى علاقات تضامن وتآزر وتعاون، وبالأساس، إلى علاقات «عمل».

# القراءة



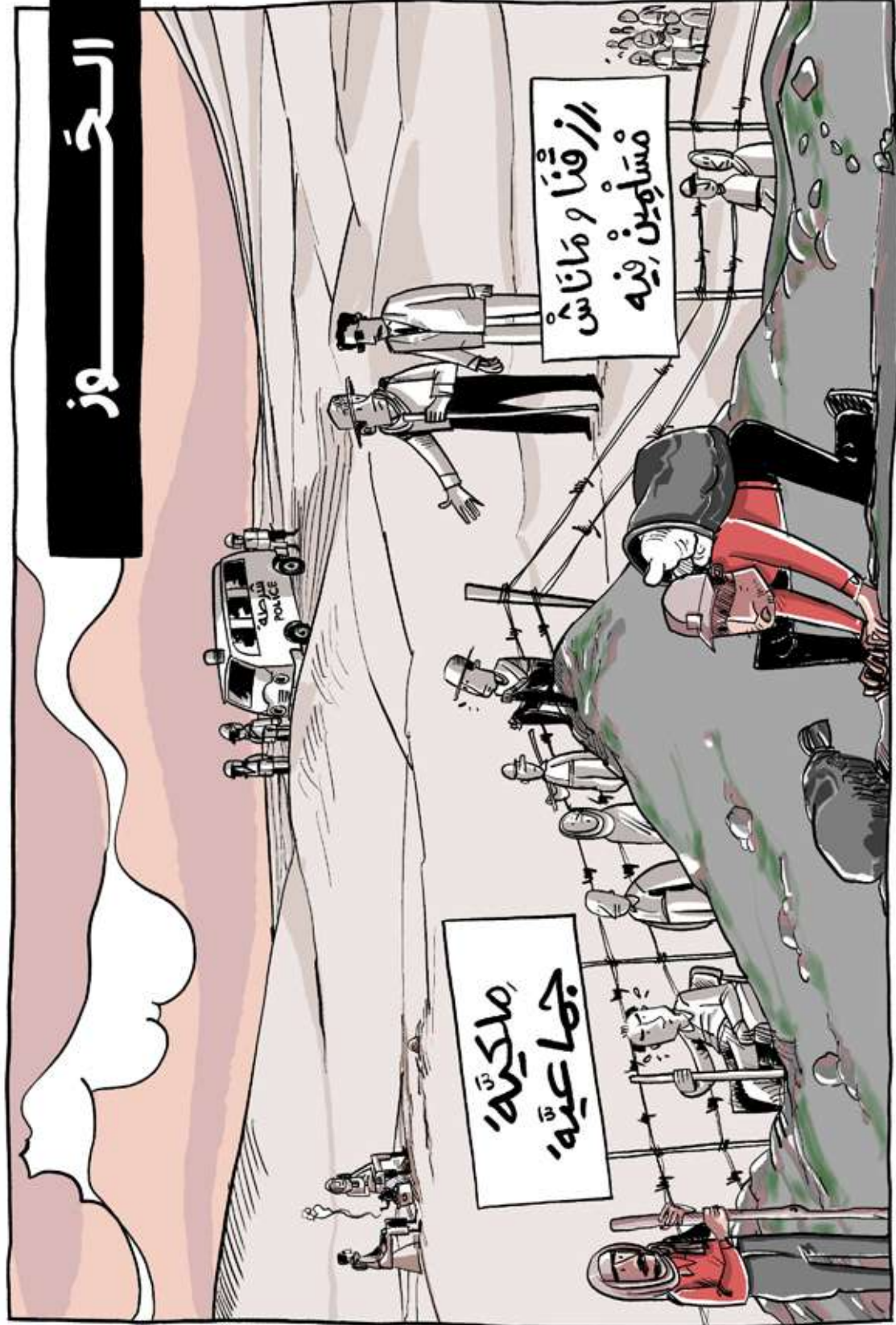
كما هو الحال في سوق نهج إسبانيا، الذي يُعدّ مؤسسة اقتصادية واجتماعية منظمة لكنّها غير نظاميّة، فإنّ نَبَاشي القمامة في مصب برج شاكير قد أسسوا نشاطاً اقتصادياً يعمل خارج نطاق القانون ودون أيّ إطار تنظيمي رسمي. يتمثل هذا النشاط في فرز النفايات وجمع المواد القابلة لإعادة التدوير والمعالجة، مثل البلاستيك، الألمنيوم، الزجاج، المعادن، الورق وغيرها، ومن ثم بيعها مباشرةً إلى الوسطاء والتجار أو شركات إعادة التدوير مباشرةً.

الأغلبية الساحقة للبرابشة الناشطين داخل مصب برج شاكير يقطنون في حي الكبارية، الذي لا يبعد كثيراً عن المصب نفسه. عائلاتهم، التي تنحدر من جهة القصرين وتحديداً من منطقتي حاسي الفريق والمزارع، التي تُعتبر من بين أفقر المناطق في تونس وتعاني من أعلى معدلات التسرّب المدرسي، قد نزحت إلى العاصمة في أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. هؤلاء الأفراد ينتمون إلى الفرع القبلي «البنثوري»، الذي ينتمي بدوره إلى القبيلة الأم: قبيلة الفراشيش.

على مدى عقود، عانت المناطق الداخلية في تونس من تعثّر في مسارات التنمية، التحديث، والديمقراطية، خاصة في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية، ما أدّى إلى ظهور نوعين متباينين من الردود الجماعية. من ناحية، نجد جيل الثمانينات والتسعينات، الذي نشأ في ظلّ دولة راحت تدريجيّاً تتّجه نحو نمط بوليسيّ، وهو جيل متمدرس قاطن في البيئات الحضرية وينتمي إلى الطبقة الوسطى. هذا الجيل، الذي يُعرف بجيل الحركات الاجتماعية، تميّز بتنظيمه وسعيه الحثيث نحو تغيير جذري في البنية الاجتماعية والسياسية من خلال الفعل الجماعي المنظم على غرار النقابات، الأحزاب، الحركات الطلابية، وحتى حركات الأوتراس، مستنداً إلى أهداف استراتيجية واضحة ومحددة، سواء على المدى القصير أو الطويل. من جهة أخرى، نلمس ردود فعل مختلفة تماماً لدى الطبقات الوسطى الدنيا والفقيرة، سواء في الريف أو في الأحياء الحضرية الهشة. هذه الطبقات، التي تفتقر إلى الرأسمال الثقافي والاقتصادي، انخرطت في مسارات فعل جماعية تُعرف بـ«اللاحركات الاجتماعية»، وفقاً لتوصيف الباحث آصف بيات. تتّسم هذه الردود بعدم التنظيم والتسييس، ولا تسعى إلى التغيير الجذري، بل تتجه نحو تحسين الأوضاع الهشة من خلال أنشطة مثل الاقتصاد الحدودي، واقتصاد الشارع، والهجرة السرية، في محاولة لتحقيق تغيير في الوضع دون الدخول في صراع مع الدولة أو النظام القائم.

**4. الاستحواذ التملّكي «الحوز»:** يُعتبر استراتيجية تعتمد على التضامن القبلي، العادات والأعراف (العرف)، والاستفادة من قرب الموارد. وهو يُمثّل نهجاً تبنته مجموعات من الأشخاص الذين ينتمون إلى طبقة اجتماعية هشة، يملكون كل الدوافع للكسب ولا شيء بحوزتهم كي

# الخوف



يخافوا خسارته. هؤلاء الأفراد يُقدمون على الاستحواذ غير القانوني على الممتلكات العامة بهدف استغلالها في أنشطتهم، كما يُظهر ذلك بوضوح في سوق شارع إسبانيا.

مصطلح «الحوز» في اللغة العربية يدلّ على مفهوم الاستحواذ ويحمل بعداً مزدوجاً يتمثّل في السيطرة والاستمرارية. هذه المفاهيم تنظمها أعراف وتشريعات محددة توجّه السلوكيات وأساليب الاستغلال. الاستحواذ بهذا المعنى يمكن أن يظلّ ضمن إطار استغلال الموارد دون أن يتحوّل بالضرورة إلى ملكية فردية أو قانونية معترف بها.

في بعض المناطق، يعتمد تحوّل الاستحواذ إلى ملكية على موازين القوى السائدة، وبشكل خاص في السياقات القبلية حيث تظلّ العصبية القبلية مؤثرة. في هذه المناطق، يُستخدم مصطلح «الاستحواذ الجماعي» للدلالة على الأراضي التي تُدار جماعياً، ممّا يعكس كيفية تأثير العلاقات القبلية والاجتماعية على تعريف وإدارة الملكية.

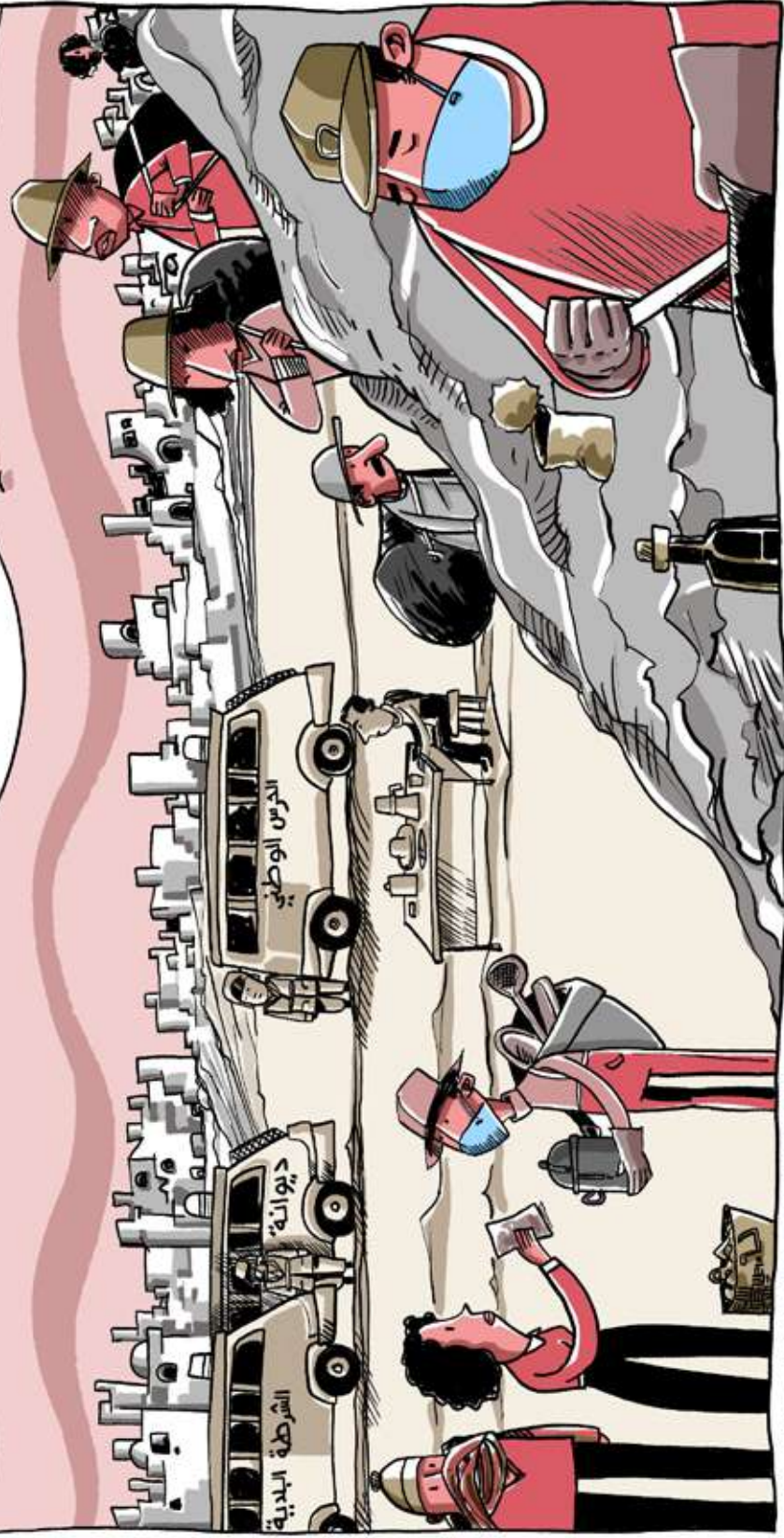
تكشف السجلات التاريخية بوضوح كيف أنّ الاستحواذ كان يُستخدم عبر العصور لأغراض الاستغلال والاستخدام، متخطياً بذلك أشكال الاحتفاظ الأخرى. التحليل التاريخي يُظهر كيف أنّ الاعتراف بالاستحواذ الجماعي على الأراضي كان يحمل بُعداً سياسياً أكثر منه دينياً، ممّا سمح باستخدام هذه الأراضي لتحقيق أهداف اقتصادية واجتماعية.

في حالة سوق نهج إسبانيا ومصب برج شاكير، نجد أنّ مجموعات قبلية مثل الغلايقية في السوق والبتوري في المصب، تسيطر على هذه المجالات. هذه المجموعات، ذات النسب المشترك من حيث الانتماء المجالي والعائلي، تُشكّل كتلتا اقتصادية ومهنيّة متضامنة تمارس الحوز على الموارد وتحوّلها إلى مصادر ريع اقتصادي تحتكرها بالقوّة، وتُقصي الجماعات الأخرى التي تطمح في المنافسة أو السيطرة على المشهد الإقتصادي، غير أنّها قد تُفسح مجالاً ضيقاً لجماعات صغيرة لممارسة النشاط دون السماح لها بأن تكون مرئيّة.

تُمارس السيطرة عادةً بقوة العدد والأجساد، معتمدةً في ذلك على الردع والعنف عند الضرورة لفرض الهيمنة، أو رمزياً من خلال إظهار القوة دون اللجوء المباشر إليها. هذه الهيمنة تخلق واقعاً يُجبر السلطات المحلية، وخاصة الأجهزة الأمنية مثل البوليس والشرطة البلدية، على التعامل مع هذه الجماعات كقوى فاعلة ومؤثرة في هذه المناطق.

**5. السلطة:** تلعب الدولة، عبر أذرعها الأمنية، دوراً محورياً في تشكيل ملامح الاقتصاد

# السلطة الأمنية



غير الرسمي. عبر تاريخ تونس، وعلى الرغم من تقلبات الأنظمة السياسية، دُفعت كيانات مثل الجمارك، الحرس الوطني، الشرطة، وحتى الجيش للإشراف وضبط هذا القطاع الاقتصادي. الغاية من ذلك هي الحيلولة دون تحول الاقتصاد غير الرسمي إلى شبكة إجرامية مسلحة ومستقلة في تنظيمها. ولذلك تسعى هذه القوى الأمنية، بتفويض من الدولة، إلى ضمان الاستقرار والسلم الاجتماعيين.

في الواقع، الاقتصاد غير الرسمي لا يُعتبر ملاذًا حصريًا للمناطق المحرومة والطبقات الفقيرة؛ بل يُشكل أيضًا فرصة لتعزيز المقدرة الشرائية لجزء من الطبقة الوسطى الدنيا في تونس. لذلك، تعتمد الدولة على هذا القطاع كوسيلة لدعم الاقتصاد، ليس فقط للفئات الهشة، بل وكذلك لشريحة كبيرة من الطبقة الوسطى الدنيا، مساهمةً بذلك في الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي.

في الآونة الأخيرة، شهدنا تحولًا في ديناميكيات اقتصاد الشارع مع إغلاق سوق نهج إسبانيا، لكن نشاط البرباشة لا يزال مستمرًا داخل مصب برج شاكير. يعكس هذا التحول تغييرًا في سياسات الدولة، التي تتجه الآن نحو تعزيز المقاربة الأمنية، خاصة فيما يتعلق بتنظيم اقتصاد الشارع.

هذه العوامل الخمسة، التي تقوم على مقاربة ميدانية، لا تستند إلى فرضيات يتم اختبارها بقدر ما تنبثق من أسئلة بحثية تُوجّهنا نحو استقراء معمق للواقع الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي من خلال بحث ميداني مركب ومكثف. الهدف من هذا الاستقراء هو تحقيق فهم سوسيو-أنثروبولوجي دقيق للحالة البحثية، ثم رفع مستوى هذا الفهم لدرجة تمكننا من التعميم على نطاق أوسع بالمقارنة مع حالات أخرى قد تمت دراستها، كما في دراستي «نصّابة سوق نهج إسبانيا» و«برباشة مصب برج شاكير». هذه المقاربة تهدف إلى تعميق الفهم البحثي لظواهر لم تُدرس بشكل كافٍ في المجتمعات الغربية، التي غالبًا ما توفر الأطر النظرية لتشكيل فرضياتنا البحثية.

نطمح من خلال هذا البحث إلى تونّسة العلوم الإنسانية والاجتماعية، بهدف تناول الظواهر التونسية بعيدًا عن تأثير النموذج الكولونيالي للمعرفة. علوم قادرة على معالجة المشكلات الاجتماعية من خلال فهمها كمشكلات بحثية أولاً، ممّا يسدّ الفجوة بين ما تكشفه الظاهرة من جوانب غامضة وما توصلت إليه المعرفة من إجابات، التي نجدها غير كافية لتفسير ما لم نفهمه بعد.

## اقتصاد استعادة النفايات في مصبّ برج شاكير، عندما يعيد «البرباشة» اختراع نظام تّمين النفايات

### د. حنان الشابي

جامعة صفاقس

يُعتَبَرُ استرجاع النفايات القابلة لإعادة التدوير أو الإِستخدام المتكرّر لها نشاطاً غير منظم في تونس، على الرّغم من أنّ الدولة التونسية قد انخرطت بالفعل في صيرورة تّمين النفايات منذ التسعينيات. وكان تفعيل هذه السّياسات من خلال إصدار قوانين وبرامج مثل «ايكولف» (ECOLEF) (النظام العمومي لاستعادة وتّمين المعليات المستعملة) و«لبيب»<sup>11</sup>، بالإضافة إلى مؤسسات أخرى تابعة لهيكل الدعم مثل الوكالة الوطنية للتصرّف في النفايات (ANGED). وقد ساهم التنظيم البيروقراطي الصارم وتحديد أنواع النفايات التي سيتم جمعها وإعادة بيعها، في ظهور شبكة كاملة من الفاعلين غير النظاميين من القائمين على إعادة التدوير، فضلاً عن تجار شبه الجملة الذين يجمعون ويعيدون بيع أنواع أخرى من النفايات مثل الألومنيوم، والزجاج، والنحاس، والمواد المستعملة وما إلى ذلك، والتي تحشد بدورها دائرة أخرى لتدوير النفايات.

لقد تبيّن أنّ نظام استعادة النفايات والاقتصاد الدائري معقد للغاية حيث يعتمد اشتغاله على مساهمة العديد من الفاعلين النظاميين (على غرار الوكالة الوطنية للتصرّف في النفايات، والبلديات، ومصانع التحويل والرحي) وغير النظاميين مثل ملتقطي النفايات. ممّا جعل مساهمة «البرباشة» في اشتغال منظومة تّمين النفايات أمراً مفروضاً. وتُشير كلمة «البرباشة» باللهجة التونسية إلى الشخص الذي ينبش في «القمامة» وفي حاويات النفايات المنزلية ومكبات النفايات.

11 برنامج لدعم رسكلة البلاستيك والورق المقوى وقع تفعيله في 1990

تمثّل دور مصبّ برج شاكير لسنوات عديدة في استقبال النفايات ومعالجتها باستخدام تقنية دفن النفايات، بيد أنّ ظهور فئة أخرى من الفاعلين غير النظاميين، أي البرباشة، داخل هذه المؤسسات المنظّمة غير بالفعل معايير العمل هناك منذ إنشاء مقالب النفايات القديم في المروج. على الرغم من أنّ أنشطة النباش والبحث في النفايات محظورة<sup>12</sup>، إلّا أنّ مكبّ برج شاكير يستوعب أكثر من 300 «برباشاً» (مفرد كلمة برباشة).

لقد مثّل نشاطهم موضوع دراسة العديد من الأبحاث، بما في ذلك البحوث النوعية مثل: العمل الذي قامت به (Claudia Cirelli) و (Bénédicte Florin) كجزء من نهج مقارنة لعمل ملتقطي النفايات في مصر وتركيا والهند والمغرب وتونس. ركّزت هذه الدراسة على تحليل مظاهر الجانب غير النظامي لإدارة النفايات وتأثير التقارب المجالي لمختلف الفاعلين في معالجة النفايات<sup>13</sup>. وفي أمريكا اللاتينية<sup>14</sup>، تحديداً في بوغوتا وليما، أُجريت أبحاث لدراسة تأثير سياسات تنظيم وتقنين أنشطة تجميع النفايات على نشاط البرباشة. أمّا في تونس، فتعتبر الدراسات نادرة وترتكز أساساً على وصف الصورة الاجتماعية لملتقطي النفايات كفتة ناشئة ضعيفة بعد فشل سياسات التنمية، بالإضافة إلى تأثير السياسات البيئية على هذه الفئة الأقلية<sup>15</sup>.

و يندرج عمل عالم الاجتماع التونسي «رضا بوكراع» في نفس النهج من خلال تسليط الضوء على تأثير إغلاق مكب «غار الطّفّل» (Ghar Etfal) في الوطن القبلي على تجارب ملتقطي القمامة<sup>16</sup>.

12 استنادا لمقابلة نصف موجهة أجريت مع مسؤول في الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات علمنا ان نشاط البرباشة غير قانوني و ممنوع.

13 Cirelli, Claudia, Maccaglia, Fbarizio. Territoires des déchets agir en régime de proximité, PUR, Tours, 2019.

Cirelli, Claudia, Florin, Bénédicte. Sociétés urbaines et déchets, PUR, Tours, 2015.

Florin, Bénédicte. Les récupérateurs de déchets à Casablanca : l'« inclusion perverse » de travailleurs à la marge, Sociologie et Société , 47, (1),2015, p. 73-96

14 (Rateau, Mélanie, Tovar, Luisa. « Formalization of waste pickers in Bogota and Lima: Recognize, regulate, and then integrate? », EchoGéo [Online], 47 | 2019, Online since 21 April 2019, connection on 11 August 2021. URL: <http://journals.openedition.org/echogeo/16614> DOI: <https://doi.org/10.4000/echo-geo.16614>

15 Mouri, Hassan. «L'informel ou la face cachée de la précarité : le cas des chiffonniers de Tunis, Latrach, 2016.

16 Boukraa, Ridha. Les conditions de vie des chiffonniers avant et après la fermeture des décharges de Ghar Tfal et Beni Wail au Cap-Bon», Revue Ibla, (214), 2014, pp. 257-282.

وفي هذا السياق، تندرج هذه المساهمة في إطار دراسةٍ اعتمدت على المنهجين الكمي والكيفي، أُجريت في مكبِّ برج شاكير. يهدف البحث إلى الإجابة عن السؤالين المركزيين التاليين؛ كيف تصبح «برباشًا» وما سبب ذلك؟ وكيف ولماذا يمكن لمكب النفايات أو سلة المهملات في الشارع أن تولّد اقتصادًا غير نظامي بأكمله؟

نهدف في هذا الفصل إلى مساءلة منطق الأفعال والممارسات وكذلك المعاملات الاجتماعية التي تنبثق عن التفاعلات الاجتماعية بين الفاعلين في مكب النفايات. ممّا يُمهد إلى تحديد الديناميكيات الاجتماعية التي تمكّن من خلالها «البرباشَة» من إعادة تشكيل مساحة المكب وفقًا لاحتياجات أنشطتهم في التبادل والمعاملات مع الجهات الفاعلة الأخرى (تجار الجملة، الأعوان العاملون في المكب، وغيرهم من البرباشَة، و ما إلى ذلك). كما يرمي المحور إلى توفير معرفة أعمق بالآليات التي حوّل من خلالها «البرباشَة» نشاط استرجاع النفايات من نشاط الحيلة إلى أفعال مترابطة ومنسقة في مجال الاقتصاد الدائري.

ينقسم هذا المقال إلى ثلاثة فصول؛ سنغوص في الفصل الأوّل داخل الخلفيّة الاجتماعية للـ«برباشَة»، بداية من مسارات حياتهم وصولاً إلى فئاتهم وهويّاتهم الاجتماعية. فيما سيُعنى الفصل الثّاني بتحليل ديناميكيات الاستيلاء على المجال في مكب النفايات، مع التركيز بشكل خاص على علاقات القوة التي تتشكّل بين مختلف الفئات من الفاعلين المتداخلين في هذا السياق. أمّا القسم الأخير، فيتناول علاقة التّحويلات والتّغييرات التي تُدخلها الدّولة على مجال التّصرّف في النّفايات وتمثّلات البرباشَة لهذه السيّاسات.

## 1. مسار حياة «البرباشَة» بين الهشاشة الاجتماعية وممارسات الحيلة<sup>17</sup> :

من أبرز نتائج البحث الذي تمّ إجراؤه في مكب برج شاكير هو أنه قد يبدو فضاءً يجمع أشخاصًا من نفس المستوى الاجتماعي والاقتصادي، إلّا أنّ «البرباشَة» لا يشكلون مجموعة متجانسة. حيث يتكوّن المكب من أفراد يقطنون في حي النور ومن عائلات أخرى هاجرت من القصرين إلى العاصمة نهاية الستينات من أجل تحسين ظروفهم المعيشية. وقد استقرت في أطراف العاصمة، قبل قدومها عملت هذه العائلات النّازحة في الزراعة التي لم تعد مربحة ممّا جعل المدينة مكانًا لبناء مستقبل أفضل. 73 % من «البرباشَة» الذين شاركوا في البحث يقطنون في الكبارية وحي

النور وهي مناطق شعبية في تونس الجنوبية بالقرب من المروج. وجدت هذه الأسر نفسها في حالة فقر ونفور اجتماعي. وطبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية لهؤلاء الأشخاص بالإضافة إلى عزلة الأحياء الفقيرة، جعلت فرص بناء روابط اجتماعية بالبيئة الخارجية ضئيلة للغاية<sup>18</sup>. لاسيما أنّ «وصمة الفقر» تجعل الوصول إلى المدينة أمرًا صعبًا للغاية. كما لا يُمارس أكثر من 80% ممن تمّت مقابلتهم أيّ نشاط ثقافي مثل الذهاب إلى السينما أو المسرح أو زيارة المتاحف.

مع انخفاض رأس المال الاجتماعي والثقافي، فإنّ فرص العثور على عمل مستقر لتلبية احتياجات الأسرة منخفضة للغاية: 56% من الآباء و76% من الأمهات العاملين في هذا القطاع الذين تمّت مقابلتهم في مكب النفايات أمّيون.

أساسًا، يؤثّر عمل الآباء في مجال البناء أو القيام بوظائف منخفضة الدخل، على مسار الأطفال الذين يتكونون المدرسة في وقت مبكر جدًا. يقول أحد «البرباشة» البالغ 52 عامًا: «كنا عائلة فقيرة جدًا، عمل والدي في مجال البناء وكان مدمنًا على الكحول أيضًا. تركتُ المدرسة في التاسعة من عمري وبدأت في استخراج النحاس والحديد في مكب نفايات 'اليهودية' في المروج حتى أتمكن من إطعام نفسي. يعمل كلّ من والدي وابني في المكب أيضًا». و في نفس السياق يضيف آخر: «كان والدي برباشًا، وبدأت بدوري هذا العمل منذ سن 14 عامًا بـ'اليهودية'... كنا عائلة فقيرة جدًا ولا أعرف القيام بأيّ شيء آخر. لم أعش طفولتي كالأخرين ولم أشعر يوما بحريّتي في سنّ المراهقة». و يُضيف ضاحكًا: «لا أتذكر أنني كنت مراهقًا أصلا، لقد كسبت رزقي وحدي. لا يمنحك أحدُ المال من دون عمل!».

إنّ النسبة الأكبر من البرباشة القاطنين بـ'حي النور-الكبارية' هم من القصرين، ويتوارث أفراد العائلة هذا العمل من جيل إلى آخر. لقد أتاح مصب 'اليهودية' القديم فرصة لكسب لقمة العيش من خلال الحيلة التي تحوّلت إلى نشاط دائم ومصدر دخل لهؤلاء الأفراد. ولم يكن لإغلاق مصب اليهودية القديم في نهاية التسعينيات أيّ تأثير على استمرارية أنشطة البرباشة؛ إذ ينتقل البرباشة في فضاء النور كلّ صباح للوصول إلى مكب نفايات برج شاكير الجديد الذي فتح أبوابه منذ عام 2000.

18 Castel, Robert. «La dynamique des processus de marginalisation : de la vulnérabilité à la désaffiliation», Cahiers de recherche sociologique, 1994, (22), pp.11-27.  
<https://doi.org/10.7202/1002206ar>

ومع خبراتهم ومعارفهم المكتسبة، يعتبر البرباشة الأكثرِ قَدَمًا في نشاط استرجاع النفايات أنفسهم مختصّي هذه التجارة أو 'رجال أعمال القمامة' مثل ما تصف بنديكت فلوران (Bé-nédicte Florin) ملتقطي النفايات أو «الزبالين» في مصر<sup>19</sup>. يقول رجل يبلغ من العمر 54 عامًا: «لا يستطيع أيّ شخص أن يكون برباشًا. لا يمكن أن تدخل القطاع بهذه السّهولة؛ عليك أن تعرف الوظيفة جيّدًا، وتتقن طرق التعامل مع الناس، وهذا ما تعلمته على مرّ سنوات من الخبرة». ويضيف رجل آخر يبلغ الـ 58 سنة قائلاً: «لم يعد العمل كما كان في الماضي؛ لقد تغيّر كل شيء، وعمّت الفوضى. كان العمل أفضل قبل سنوات حيث كنّا أقل عددا. أمّا الآن، فيمكن لأيّ شخص أن يقول أنّه برباش».

يعتبر البرباشة الذين يعيشون في حي النور أنفسهم «أهل الحرفة» لامتلاكهم معارف ومهارات. أمّا الفئة الأخرى التي تقوم بجمع النفايات من المصبّ فتتكوّن من من يعيشون في الأحياء القريبة من المصب أي من العطار، وبييرين، وبيتر جزار. لا تمتلك هذه الفئة نفس التاريخ المرتبط بنشاط البرباشة، إذ ينتمي أفرادها إلى عائلات مهاجرة استقرت في برج شاكير لكنها استمرت في ممارسة النشاط الزراعي. وشكّل هذا النشاط مصدر دخل لهؤلاء السكان المتعلّقين بقوة بالزراعة. تقول لنا امرأة تبلغ من العمر 62 عامًا: «أنا أصيلة هذا الحي، وبالتحديد أسفل حي العطار. كان والدي يزرعان هذه الأرض حيث أنتم الآن. أنا نفسي زرعت هذه الأرض بيدي. كنا مزارعين نزرع البازلاء والزيتون وما إلى ذلك».

كانت هذه الأراضي الزراعية ملكاً للدولة، ممّا يسمح للسكان بزراعتها لكسب لقمة العيش. من خلال تحليل خطابهم يمكن الاستنتاج بأنّ هؤلاء الأفراد يشعرون بالرضا عن أسلوب حياتهم وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية آنذاك. وقد أثر إنشاء المكب الجديد على تجارب هؤلاء الأفراد الذين وجدوا أنفسهم محرومين من الأراضي التي استولت عليها السلطات. لم يملك هؤلاء الأفراد أي مصادر دخل، ولم يكونوا قادرين على توفير احتياجات أسرهم، وهم مضطرون إلى البقاء على قيد الحياة في أوقات الأزمات<sup>20</sup>.

19 Florin, Bénédicte. Les chiffonniers du Caire. Soutiers de la ville ou businessmen des ordures ? Ethnologie Française, (45), 2015, pp487-498.

20 Aypam, Silvy. Economie de la débrouille à Kinshasa - Informalité, commerce et réseaux sociaux, Karthala, Paris, 2014

لدى «البرباشة» تصور مزدوج لأنفسهم؛ فمن ناحية يؤكدون طبيعة نشاطهم المهنية والمتدنية، ومن ناحية أخرى، يُظهرون الرضا والفخر في خطاباتهم. هذا تصور مزدوج للنفاية؛ فهي مثيرة للاشمئزاز ومرفوضة، ولكنها تُمثل في الآن ذاته مصدر دخل ووسيلة للبقاء. بل ويوضح هذا التصور أنّ جمع النفايات خيار عقلائي للبرباشة. وغالبا ما قمنا بطرح السؤال التالي «هل ترغب في العمل في مصنع، أو منزل، أو غيره؟» فأوحت إجابات البرباشة عن تمثّل مزدوج؛ فهم يريدون الحصول على وظيفة مستقرة من ناحية، ويفضلون البقاء في مكب النفايات من ناحية أخرى، إذ أنّهم يعتبرون العمل في مكب النفايات يوفر شعوراً بالاستقلالية والتّفرّد. يفسّر شاب قائلا: «حاولت الابتعاد عن هذا العمل للحصول على وظيفة أنظف، عملت كحارس أمن وكنت أكسب 500 دينار شهريا؛ غير أنّ العمل هنا أكثر ربحية والأهم من هذا، فأنا أنظم ساعات عملي حسب ما أراه مناسباً».

يعتبر البرباشة، الذين تمّت مقابلتهم، أنّ هذا الانتقال من مزارع معمر في الأرض إلى برباش يقوم بنبش القمامة -أي الأشياء المتسخة التي ليست في مكانها والتي وقع استبعادها من العالم الاجتماعي<sup>21</sup>- هو ما يجعل العمل في المكب تجربة عنيفة. وفي هذا الإطار، تخبرنا امرأة تبلغ من العمر 45 عاماً تسكن في حي بئر الجزار: «الرائحة لا تطاق في الصيف، ولا يمكننا حتى فتح النوافذ. كنت أعمل في هذه الأراضي مع عائلتي فيما مضى، وعندما تمّ إنشاء المكب الجديد لم أملك أي خيار آخر سوى العمل فيه. كان عليّ أن أطعم عائلتي. لم يعمل زوجي بانتظام، ممّا جعل الحياة صعبة للغاية. لم يكن باليد حيلة سوى العمل كبرباشة.»

يثير كل ما سبق التفكير في فعالية السياسة العامة في إدارة النفايات ومسألة عدم المساواة البيئية والاجتماعية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببعضها البعض. بالإضافة إلى استنتاج أنّ الأفراد ليسوا متساوين أمام إشكاليات التلوث والأضرار الناجمة عنها<sup>22</sup>.

من خلال فرز القمامة في مكب النفايات، خلق البرباشة ديناميكية كاملة لاقتصاد النفايات غير النظامي. ومع ذلك، فإنّ هاتين الفئتين ستؤثّران على عمل هذه الديناميكية من خلال أهميّة علاقات القوة؛ إذ أنّ لعبة القوة التي ينخرط فيها البرباشة ستؤدي إلى إعادة تشكيل فضائي.

21 Jeanne, Guien, . Obsolescences : philosophie des techniques et histoire économique à l'épreuve de la réduction de la durée de vie des objets, Thèse de doctorat, Paris 1, école doctorale, 2019.

22 Mattew, Durand, Jaglin, Sylvie. «Gestion des déchets et inégalités environnementales et écologiques, entre vulnérabilité et durabilité», ESO Travaux et Documents, (33), 2011, pp.15-23, p.15.

## 2 ديناميكية الاستيلاء على الأرض والنفايات: لعبة السلطة بين الجهات الفاعلة في المكب :

يُعدّ نشاط الفرز في مكب النفايات نشاطًا معقدًا يثير جانبين مهمين: الشيء المفروز وفضاء الفرز. وتعتبر ديناميكيات علاقات القوة عنصرًا محددًا في اقتصاد النفايات داخل المكب. يتم تغذية لعبة القوة من خلال ديناميكيتين: الاستيلاء على الأشياء (النفايات والشاحنات / عربات نقل القمامة) والاستيلاء على الفضاء (المساحة التي يتم إيداع النفايات على منصاتهما، ومساحات فرز وتجميع النفايات المستردة، ومساحات الراحة الشخصية). ومع ذلك، فإن التفاوت من حيث موارد القوة المتاحة للبرباشة (الأقدمية، وعضوية العشيرة، وشبكة موردي النفايات الموسعة، والمهارة) لا يعني بأيّ حال من الأحوال أنّ البرباشة الذين لديهم موارد طاقة أكبر هم الأكثر هيمنة في مكب النفايات. تُظهر الملاحظات والمقابلات المتعلقة بالسّير الذاتية أنّ لدى جميع البرباشة مهارات وقدرات تفاوضية، بالإضافة إلى تحالفات تعمل على استبدال النظام الذي أنشأه الفاعلون النظاميون لتنظيم مكب النفايات. ووفقًا للمقابلات نصف الموجهة التي أُجريت مع الفاعلين العاملين في الوكالة الوطنية لإدارة النفايات، فإن استعادة النفايات وبيعها ليست أنشطة ينظمها إطار قانوني ولا تدخل ضمن الأنشطة التي تديرها هذه الجهات. كما أنّ تشابك ديناميكية فرز النفايات من قبل البرباشة في الأنشطة المرتبطة بإدارة مكب النفايات أدّى إلى خلق علاقات بينهم وبين الفاعلين العاملين في المكب.

استنادًا إلى خطاب المسؤولين في المكب، فقد أضاف عمل البرباشة مهامّ إضافية إلى عملهم. في هذا السياق، يوضح مسؤول في الوكالة الوطنية لإدارة النفايات أنّ «العمل في مكب النفايات مهمة معقدة للغاية، وقد جعل البرباشة عمل الإدارة أكثر تعقيدًا. ومن الضروري تنسيق العمل واستعادة النفايات من قبل البرباشة. علينا أن ننفذ العمل ولكنه ليس بالأمر الهين؛ إذ يجب على السائقين أن يكونوا حذرين للغاية مع الآلات أين تكون كل خطوة محسوبة. نحن لا ندير عمل البرباشة، بل يقتصر دورنا في الإشراف على تشغيل مكب النفايات لا أكثر، وتبقى مهام السيطرة عليهم وإدارة مشاكلهم أمرًا متروكة للشرطة. إذا تم منعهم في يوم من الأيام من العمل في مكب النفايات، يجب أن تحرص الدولة على منحهم وظائف قارّة». وفي السياق نفسه، يضيف مدير إدارة حماية البيئة والصحة قائلًا: «إنّ هذا العمل ممنوع قانونيًا، غير أنّ البرباشة يحلّون بالفعل مشكلة النفايات في تونس...».

ولدت صعوبة التنسيق بين عمل البرباشة من نبش وفرز للنفايات وما يتطلبه معالجة النفايات من طرف العاملين في المكب توترات. ويختار الفاعلون لتجاوزها إستراتيجية التوافقات حتى يضمنوا بقاء سيرورة العمل<sup>23</sup>.

تسمح هذه الممارسات للبرباشة بالحصول على مرونة أكبر من قبَلِ العاملين في مكب النفايات، من خلال منحهم مزيداً من الوقت لنبش النفايات المودعة عبر السماح لهم بحوز فضاء محدّد للأنشطة اليومية للبرباشة مثل الفرز، بالإضافة إلى الراحة في مساحة المكب وإشعال النار لتحضير الشاي وتسخين الطعام. يحجز بعض البرباشة مساحات لأنفسهم حيث يبنون «فضاءهم الخاص» عن طريق استعمال النفايات غير القابلة للرسكلة كمواد أولية وتكون الفضاءات الخاصة في أطراف المكب. يقضي هؤلاء الأفراد أشهراً في مكب النفايات. الأمر الذي يجعل من هذه الممارسات، الضمنية وغير المعلنة بين البرباشة والفاعلين العاملين في المكب، قادرة على إنشاء مناخ ملائم للعمل لكلتا الفئتين. تعتبر استدامة عملية معالجة النفايات مسألة مهمة بالنسبة إلى المسؤولين. بل ويساعد هذا التوافق<sup>24</sup> البرباشة على تخفيف حدّة النزاعات، حيث يُعدّ الاستيلاء على الفضاءات في مكب النفايات مسألة مهمة بالنسبة إلى البرباشة لأن الحركة داخل هذا الفضاء تمثل مصدر قوة تمنح الاعتراف والشرعية وسط شبكة الفاعلين المرتبطة بفرز وبيع النفايات.

إنّ الاستيلاء على الأرض والاستيلاء على الشيء المسترد (النفايات) ركيزتان أساسيتان في ديناميكيات اقتصاد النفايات داخل المكب. حيث تؤدي ديناميكية الاستيلاء هذه إلى ظهور صراعات بين البرباشة والتي تغذي التجربة اليومية بالمكان. في الواقع، وفقاً للمسح الكمي، يؤكد 98.8% من الأشخاص الذين أُجريت معهم المقابلات وجود صراعات بين البرباشة وأكد 41% منهم أنّ التوترات اندلعت أساساً بسبب الاستيلاء على مساحة النبش والفرز والنفايات.

تُظهر سلسلة الملاحظات التي قمنا بها خلال أيام عمل البرباشة كيف أنّ الصراعات القائمة حول الاستيلاء على الفضاءات هي المحدد الأساسي للتشكّل الفضائي في المكب. وتعتبر أوقات وصول عربات وشاحنات نقل النفايات لحظة حاسمة في يوم عمل البرباشة. يتمتع البرباشة

23 Nachi, Mohamed. « Un régime pragmatique de l'arrangement. L'en-deçà du public, l'au-delà du familial ». Società Mutamento Politica: Rivista Italiana di Sociologia, 12 (23), 2021. pp. 63-79.

24 Arrangement.

بالمعرفة والمهارة الكافية لاكتشاف محتويات الشاحنة الناقلة للنفايات من خلال رؤيتها من أعلى نقطة في المكب. يقول لنا أحد البرابشة في هذا السياق: «أرى الشاحنة تصل من بعيد، فأعرف من أي فضاء آتية ونوع النفايات التي تحملها. و هي مهارة اكتسبتها من خلال التجربة».

يندفع الرجال والنساء، مزودين بـ «أكياسهم الكبيرة» التي يسمونها «التوصيلة»، لحوز مكان استراتيجي بالقرب من الشاحنة، بينما يبطن السائق من سرعته. تكشف هذه اللحظة الحاسمة عن الصراعات والقضايا المحيطة بالتنظيم المكاني والاجتماعي للفرز، وتعكس قدرات البرابشة على فرض قوتهم واكتساب رؤية وشرعية أكبر. يقوم البرابشة الأصغر سنًا بالصعود إلى الشاحنة ويتعمدون عرض قوتهم كرمز للاستيلاء وتملك الشاحنة.

تكون هذه الممارسات الفردية أو الجماعية للاستيلاء على النفايات والشاحنات في المنصة<sup>25</sup>، «كإجابة عن الاحتياجات المعلنة للسيطرة وكإجابة عن الاحتياجات غير المعلنة مثل الاعتراف»<sup>26</sup>.

يظل هؤلاء الشباب متشبثين بالشاحنة إلى أن يقوم السائق بإيداع النفايات على المنصة. أما البرابشة الآخرون من ذكور وإناث، فهم في وضعية رفض وإقصاء معلن من طرف البرابشة الذين استولوا على البضائع مسبقًا. ويكون السب والشتم أداة يستعملها البرابشة لإبعادهم. تعتبر عملية الاستيلاء معقدة لأنها تبدأ ببناء شبكة من الفاعلين تتكون من ناقلي النفايات المتمثلين في سائقي الشاحنات وتجار شبه الجملة. يكون هؤلاء الأفراد أقل ظهوراً في فضاء المكب، غير أنهم يلعبون دورًا محددًا في نشاط البرابشة: «إن الفاعل<sup>27</sup> مدرج في بنية النظام ذاته كشرط ونتيجة لوجود النظام»<sup>28</sup>.

تساهم هذه العوامل في اشتغال ديناميكيات اقتصاد النفايات داخل المكب. إذ يتمتع البرابش، صاحب الشبكة الموسعة من سائقي القمامة والشاحنات في المصانع الصناعية التي تنتج النفايات القابلة لإعادة التدوير وتجار شبه الجملة، بفرصة أكبر للتحكم في دائرة النفايات. واستدامة

25 La plateforme où les déchets sont déposés

26 Zetlaoui Leger, Jodelle. « Qu'est-ce que l'appropriation ? Contribution scientifique et technique sur la notion d'appropriation dans les opérations d'aménagements urbains durables, Union Sociale de l'Habitat, MEDDTL/AD4,2012. pp.12-17.»

27 L'actant.

28 Passeron, Jean Claude. « Acteur, agent, actant: personnages en quête d'un scénario introuvable», revue européenne des sciences sociales, 121, 2001, pp.15-30, p.19.

شبكة العلاقة هذه مرتبطة بمهارة التفاوض الدائم معهم. يُوضّح عز الدين، صاحب الـ 54 عاماً، والذي يعمل في مجال جمع النفايات منذ أن بلغ 12 عاماً مشيراً: «إنها ليست مهمة سهلة كما تعتقدون. يجب أن يملك المرء الكثير من العلاقات خاصة بسائقي الشاحنات. لو اطلّعت على دليل هاتفي لوجدتم أرقاماً كثيرة، فأنا أُجري مكالمات هاتفية لتنظيم عملي. بكلّ بساطة، يوصل السائقون 'بضاعتي' مرة أو مرتين في الأسبوع، إذا حاول أحد تقديم رشوة قصد تخريب صفقتي، أدفع للسائق ضعف المبلغ حتى يحتفظ ببضاعتي. دفعت في أحد المرّات ضعفي ما قدّمه شخص آخر حتّى أتمكّن من تغيير خط سير السائق».

نظراً إلى افتقارهم إلى الشرعية والموارد وإلى عدم اندماجهم في شبكة فاعلين تمكنهم من السيطرة على دائرة النفايات، فإنّ البرباشة الآخرين يتبعون الشاحنة متمسكين بحافة العربة بيد واحدة بينما يحملون الأكياس الكبيرة باليد الأخرى. وكلما أتاحت الفرصة للاقتراب من الشاحنة، زادت فرصتهم لتجميع كمية أكبر من النفايات. 76% ممّن تمت مقابلتهم يعتقدون أنّ الحوار أنجع طريقة لحلّ النزاعات فيما بينهم. ومع ذلك، فإنّ ملاحظة وضعيات النزاعات والمعارك التي اندلعت بينهم تُظهر أنّ مواقفهم وسلوكياتهم تجاه إهانات البرباشة الذين يستولون على الشاحنة «المحجوزة» تختلف من فرد إلى آخر.

فمثلاً، تختار النساء تبني سلوكيّ في هذه الحالات؛ إمّا أن ينتهجن إستراتيجية اللامبالاة ويواصلن عملية البحث عن النفايات، أو يواصلن الانسحاب والبحث في فضاء آخر بعيد عن المشاكل.

في حين أنّ الرّجال البرباشة الذين لا ينتمون إلى العشيرة يقتربون بريئة من الشاحنة ويحاولون تفتيش نفاياتها، متجاهلين الإهانات إمّا بهدوء أو بإظهار رفضهم.

أما كبار السنّ فغالبًا ما يختارون الانسحاب إذا كانوا لا ينتمون إلى العشيرة. حيث يعتبر الانتماء إلى العشيرة أحد العوامل المحددة للوصول إلى النفايات في الحالات التي تكون فيها الشاحنة التي تحمل النفايات موضوع صفقة مبرمة بين السائق والبرباش. يشرح شاب ذو 43 سنة الموقف قائلاً: «الأضعف هنا هم نحن 'الزواولة'، ليس لدينا فرصة لكسب لقمة عيش كريمة. نعرف من يسيطر على الأوضاع هنا، بل ويسيطر على الجميع. حاولنا تقديم شكاوى ضد محتكري الشاحنات لكن دون جدوى. فالقاضي الوحيد في حالتنا هو قانون الأقوى».

وفي نفس السياق توضح سيدة من فضاء العطار: «الانتماء إلى العشيرة مهم طبعاً. فهنا في المكب يستفيد المنتمون إلى نفس العشيرة من حماية ودعم الأعضاء الآخرين؛ فالعشيرة هي والدي، ووالدي، وعائلتي وهي دعمي ورابطتي ووحدتي، وهي الوحيدة التي تحميني».

علاوة على ذلك، تتشكّل سلوكيات البرباشة في هذه المواقف وفقاً للترتيب الذي يتم تحديده من خلال الممارسات المهنية والتقاليد والأعراف والقيم التي يشكلونها فيما بينهم. يؤدي هذا الأمر إلى ظهور ثقافة العمل في مكب النفايات والتي تكون بمثابة معيار لهؤلاء الأفراد. ويخضع تصنيف المقطورات أو الشاحنات التي تنقل النفايات إلى موافقة البرباشة؛ حيث يمكن لجميعهم الوصول إلى حاويات القمامة أو الشاحنات البلدية، في حين تخضع الشاحنات التابعة للشركات الخاصة أو غيرها للاستملاك من قبل إبرام التزام بين السائق والبرباشة.

إنّ إعادة هيكلة الفضاء والرهانات القائمة حول الاستيلاء على النفايات يكوّن قلب النظام الذي بناه هؤلاء البرباشة. ويتم ترتيب هذا النظام بطريقة مستقلة عن طريق الممارسات المهنية وثقافة العمل التي تدور حول تكوين مهنة البرباشة. وفي هذا السياق، فإن الإصلاحات الممكنة ومنطق الدولة «لإضفاء الطابع النظامي» على القطاع لا تحظى بالإجماع بين البرباشة.

### 3. نشاط استعادة النفايات بين رهانات البرباشة ورهانات إصلاحات السلطات العامة فيما يتعلق بإدارة النفايات والتغيرات في ظروف العمل في المكب :

تحتل البرامج الرامية إلى استعادة النفايات وتأسيس الاقتصاد الدائري مكانة مهمة في السياسات الهيكلية للدولة التونسية. وتؤثر إصلاحات الدولة المتعلقة بعمل البرباشة والتغيرات الجوهرية في مكب النفايات وفي سياسة التصرف في النفايات على مستقبل هؤلاء الفاعلين في المكب، إضافة إلى أنها تتضارب أحياناً وتصورهم وإطارهم المرجعي وقيمهم المرتبطة بهذا النشاط.

كما وضّحنا في بداية الفصل، فإن نشاط الاسترجاع لا يتم تنظيمه على الرغم من مساهمة البرباشة في عملية استعادة النفايات. لكن، في السنوات الأخيرة، بدأت الدولة التونسية تولي اهتماماً بعمل البرباشة، سعياً إلى إضفاء الطابع النظامي على هذا النشاط، باعتباره «غير نظامي» إلى حدّ هذه اللحظة. وبحسب مقابلات<sup>29</sup> أجريت مع مسؤولين ببلديتي تونس العاصمة وسكرة،

29 Ces entretiens sont réalisés dans le cadre d'une autre enquête sur le travail des barbécha à la commune

تخطط الدولة التونسية إلى إطلاق مشاريع في إطار الاقتصاد التضامني والاجتماعي لتنظيم عملهم وإضفاء الطابع النظامي عليه، من خلال تزويدهم بأدوات العمل ووزن بضائعهم وتوفير مساحاتٍ للتخزين. سيتم تحديد أسعار الشراء والبيع مسبقاً من قبل الدولة، وسيتم الإشراف على أنشطة البيع والشراء من قِبَل الجهات الفاعلة المؤسسية في البلديات. وسيقودنا إضفاء الطابع المؤسسي على نشاط البرباشة من خلال الإصلاحات وإصدار القوانين التي تحكم أنشطة استرداد المبيعات، إلى التساؤل التالي «من المستفيد من هذه المؤسسة؟ ومن المستفيد الأول من إعادة وضع أسس النظام الذي اخترعه البرباشة برمته؟»<sup>30</sup>.

إن تنظيم العمل أو إضفاء الطابع النظامي قصد وضع نظام آخر وفقاً لتصور السلطات العامة يعني تدمير النظام الذي أنشأه البرباشة بأكمله. يتطلب تنظيم عمل البرباشة إعادة توزيع موارد السلطة وإعادة تنظيم ديناميكياتها<sup>31</sup>. فخلال المقابلات مع الفاعلين المؤسسين<sup>32</sup> العاملين في المكب نيابة عن الشركة الخاصة ومع البرباشة العاملين في المكب، أثار هذا السؤال مواقف مختلفة من فرد إلى آخر حسب وضعهم وقضاياهم وتصورهم لمسألة إدارة النفايات. إن تصور تدخل الدولة في أنشطتهم لا يحظى بالإجماع ويرتبط بتصوراتهم عن عملهم وقصصهم وتجاربهم فردية كانت أو جماعية. خلال الفترة التي قضيناها في مكب النفايات والعمل جنباً إلى جنب مع البرباشة، عاد هذا السؤال إلى الظهور في المناقشات، حيث يعتقد بعض من لديهم شبكات من الفاعلين من مزودي النفايات وشبكات الفاعلين من المشتريين (تجار شبه الجملة والقائمون بإعادة التدوير الأُولي) أنّ تدخل الدولة سيؤثر سلباً على عملهم. إذ تقدم هذه الفئة من البرباشة سلسلة من الحجج المرتبطة بمهاراتهم وخبراتهم العملية وثباتهم في كل عمليات النباش وبرز السلع لتبرير رفضهم. يقول جلال البالغ من العمر 52 عاماً في هذا السياق: «بدأت العمل منذ أن كان عمري 12 عاماً، أقوم بهذا العمل منذ أن كان مكب النفايات القديم في المروج قائماً. تكمن حياتي هنا، ولا أستطيع حقاً أن أعمل في أي مجال آخر، أعرف كل شيء عن النفايات، ولكن لا يستطيع المرء أن يصبح برباشاً بين عشية وضحاها فهي مهمة صعبة ومقرزة. أما الآن، فأضحينا نسمع قصصاً عن إصلاحات النفايات، سمعت بالأمس في الأخبار أن الدولة ستتنظم

de la soukra et de Mniha. Ces données sont citées à titre descriptif de la nature des réformes.

30 Fontaine, Lawrence., Florence, Weber. Les paradoxes de l'économie informelle. A qui profitent les règles ? Karthala, Paris, 2010.

31 Crozier, Michel., Friedberg, Erhard. L'acteur et le système, Du Seuil, Paris, 1977.

32 Les acteurs institutionnels.

القطاع وستعمل على تقليل كمية النفايات التي ستوضع في المكب. لقد بدأ الأمر بالفعل، غير أنّهم لا يدركون شيئاً ممّا يحصل هنا كما ترى!».«

في دراسة عن الزبالين في مصر، بيّنت «بينديكت فلورين» و«كلوديا سيريلي»<sup>33</sup> أنّ إصلاحات الدولة المصرية لقطاع نقل النفايات من خلال إدخال الشركات متعددة الجنسيات، أثارت غضباً بين صفوف الزبالين ترجمت في شكل مظاهرات عديدة. فهم يعتبرون أنفسهم الأفراد الوحيدين القادرين على تسيير الأمور داخل هذا القطاع باعتبارهم متخصصين في النفايات. في الواقع، أكّد 69 % من البرباشة الذين استجابوا للاستبيان أنّ عملهم يتطلب مهارات كبيرة، وقدرة على التعلم<sup>34</sup> وتحديد النفايات المربحة القابلة لإعادة التدوير. كما أكّدوا على امتلاكهم القدرة على الاحتفاظ بالمشتريين والموردين، فضلاً عن أهميّة مهارات التفاوض وحلّ النزاعات لديهم.

من جهة أخرى يعتقد البرباشة أنّ الدولة تهتمّشهم ولا تعترف بخبرتهم المهنية ومعرفتهم بالنفايات ولا حتّى بمساهماتهم في الاقتصاد الدائري؛ حيث يعترض 69 % منهم على أيّ شكل من أشكال السلطة، وهو ما يعكس استقلاليتهم ويفسر رفضهم لتدخل الدولة، متجاهلين واقع العمل داخل المكب. فيما لا يتق أكثر من 50 % منهم في المؤسسات العامة مثل البلديات ومراكز الشرطة والمعتمديّات وغيرها.

عمل 'عز الدين' في مكب النفايات منذ أن كان عمره 12، عامّاً ويُفسّر الوضعيّة قائلاً: «يُدرِك الجميع أننا نساهم في تطوير قطاع إعادة التدوير. عملنا مهم، بيد أنّ السلطات العامة تجهل ما نقوم به من الأساس، بل وتريد تغيير ما تجهله. انظر كيف يريدون فرض الفرز من الشاحنات، إذا قام كل مواطن بفرز قمامته وذهبت هذه النفايات مباشرة إلى القائمين على إعادة التدوير فسنتصوّر جوعاً. لا! لا نريد أن تتدخل الدولة في هذا القطاع، فهي لا تعرف ما الذي يحدث على أرض الواقع. نحن من نعمل ونعيش هنا ونرفض مساعدتهم وإصلاحاتهم. نحن على ما يُرام على هذه الشاكلة، كلّ ما نريده أن تُسقط الدولة هذه القرارات وتسمح لنا بكسب قوت يومنا».

33 Florin, Bénédicte. Réforme, crise, ajustements et malentendus entre acteurs : quand la question des déchets devient un problème public. L'exemple du Caire (Égypte) In : Sociétés urbaines et déchets : Éclairages internationaux [en ligne]. Tours : Presses universitaires François-Rabelais, 2015 (généré le 17 octobre 2023). Disponible sur Internet : <<http://books.openedition.org/puf/fr/7319>>. ISBN : 9782869065444. DOI : <https://doi.org/104000/books.pufr.7319>.

34 Apprentissage.

من جهة أخرى، تأخذ مشكلة تنظيم البرباشة من عددها جانباً آخر بالنسبة إلى الفئة ذات الموارد الأقل، أي الفئة التي لا تملك شبكة من الفاعلين، وليست لها القدرة على السيطرة على فضاءات في المكبّ أو الاستيلاء على النفايات. يعتقد هؤلاء أنّ تدخّل الدولة حلٌّ مثاليٌّ لمشاكلهم. وحسب رأيهم، فإن إصدار القانون المنظم لأنشطة الاسترجاع والبيع والشراء وتحديد أسعار البيع والشراء في المكبّ إستراتيجية ناجعة لوضع حد لحالة عدم اليقين وهيمنة فئة البرباشة التي يُسمونها «البانديّة». حيث يتحكم «البانديّة» حسب خطاب البرباشة في دائرة اقتصاد النفايات داخل المكبّ. يفسّر شاب يبلغ من العمر 38 عاماً مشيراً: « حاولت تقديم شكاوي ضد قطاع الطرق الذين يسيطرون على كلّ شيء عدة مرات. فهم يستولون على كلّ شيء لصالحهم فقط. نحن الأضعف لا نتّاح لنا أي فرصة بسببهم. يجب أن يتغير ذلك ويجب على العدالة أن تأخذ مجراها، من الجيد أن تنظم الدولة كل شيء هنا». وفي السياق ذاته، تضيف البرباشة «سهام» قائلة: « لا قانون يحكم في هذا المكان سوى قانون الأقوى. انظروا إليهم كيف يمنعوننا من الفرز. يصل بنا الأمر إلى قضاء يوم كامل دون فرز أيّ شيء ودون الحصول على أيّة مرابيح!».

قد يبدو في بعض الأحيان أنّ الحصول على تغطية الضمان الاجتماعي والرعاية الصحيّة الطريقة المثالية لتدخل الدولة؛ حيث يرى العديد من البرباشة أنّ الحصول على الرعاية الصحيّة، التي تغطّي مصاريف علاجهم وأدويتهم وتقاعدهم، أمر أساسيٌّ و غايةً في الأهميّة. تُعلّق سهام البالغة الـ 43 من العمر على هذه المسألة مصرّحة التّالي: «صحيح أننا نكسب قوت يومنا ولله الحمد، غير أنّه ليس بالأمر الهين. انظروا إلى هذه الظروف: بين الشتائم والسباب والإساءات. لكن لا شيء أهم في نظري من التغطية الصحيّة، أتمنى فقط الحصول على مميزات الرّعاية الصحيّة لا أكثر، هذا كل ما أطلبه وأرجوه».

علاوة على ذلك، فإن العلاقة مع الدولة تتحدد من خلال الحصول على الرعاية؛ أي أنّ عدم الحصول على الرعاية وعدم وجود تغطية اجتماعية هو علامة على تهميش الدولة وعدم الاعتراف بالبرباشة. يؤكّد «محمد» الأمر قائلاً: «تعمل الدولة ضدّنا فنحن لا نحظى حتى بتغطية اجتماعية تضمن أبسط حقوقنا».

وفقاً لتحليل المقابلات الشخصية، يعتقد بعض البرباشة أنّه في مقدور الدولة التدخل لحلّ المسألة من خلال إعطاء الناس المزيد من الحرية عبر منحهم قروضاً تمكّنهم من بعث مشاريعهم الخاصة والتحوّل من برباش بسيط إلى رواد أعمال مستقلين في قطاع إعادة التدوير.

ما يمكننا رؤيته هو أنّ المفاهيم تضيف الطابع المؤسّساتي على الفروق الدقيقة لدى البرباشة وتأخذ معاني ذاتية وفقاً لتوقعاتهم من الدولة أمام أوضاعهم في مكب النفايات. إنّ إضفاء الطابع النظامي لا يعني فقط التنظيم من خلال قوانين ترتّب عمل البرباشة، بل يعني تحسين الوضع والحصول على اعتراف من السلطة العامة والحفاظ على استقلاليتهم واستدامة نشاطهم.

في الواقع، أثار إغلاق المكب سواً من قبَل السلطات العمومية أو من قبل الجمعيات البيئية رفض البرباشة. وبحسب مقابلة أُجريت مع مدير مشروع مكب برج شاكر، فإن إغلاق المصبّ يُشكل جدلاً حقيقياً ومشكلة حادة. يقول مدير المشروع: «تمّ إخباري ذات يوم أنّ هناك نشطاء في المجتمع يعتصمون عند المدخل قصد إغلاق المكب، غير أنّ البرباشة طاردوهم وطردوهم دون أن يتسنّى لنا الوقت والفرصة للتدخّل من أجل حلّ النزاع. المكبّ مكان لكسب الرزق، إذا أُغلق المكان، سينتهي أمر البرباشة في الشارع. إغلاق المكب قرار يتطلّب الكثير من التفكير والتنظيم».

بحسب الفاعلين المؤسّسين، فإنّ مشكلة مأسسة نشاط الفرز من قبل البرباشة تأخذ بُعداً تقييمياً، وهو ما يمثله عملهم بالنسبة إلى الاقتصاد الوطني بشكل عام والاقتصاد الدائري بشكل خاص. وفي هذا السياق، يشرح لنا أحد الفاعلين المتعمدين مشيراً: «ما تمثّله عمليّات الفرز من قبل البرباشة لا يتعدى 3% من النفايات، أما الباقي، فيضلّ مدفوناً تحت القمامة والرّكام، لذا لا يلعبون دوراً كبيراً في استعادة النفايات. وحتى تكون مساهمتهم مثمرة أكثر، يجب دراستها وتنظيمها بشكل جيد، يجب علينا إنشاء ديناميكية حقيقية لاستعادة النفايات من قبل البرباشة، ومن ثمّ دمجهم تدريجياً داخل النّظام».

إنّ مسألة إضفاء الطابع النظامي على عمل البرباشة عملية معقدة، إذ أنّ السلطات العامة تغض الطرف<sup>35</sup> عن هذه التناقضات بين ما هو نظامي وما هو غير نظامي، فالدولة تقبل ضمناً نشاط البرباشة رغم عدم الاعتراف به قانونياً وبصفة معلنة.

إنّ هذا التسامح الذي أبدته الدولة تجاه جمع النفايات في المكبات ما هي إلاّ وسيلة لإدارة الأزمات الاجتماعية المرتبطة بالتشغيل. وهكذا، فإنّ إغلاق مكب النفايات يخلق مشكلة توظيف

35 Boltanski, Luc. « L'inquiétude sur ce qui est. Pratique, confirmation et critique comme modalités du traitement social de l'incertitude », Cahiers d'anthropologie sociale, vol. 5, no. 1, 2009, pp. 163-179. P165.

حقيقية لأصحاب المصلحة في القطاع العام. يوضح مدير المكبّ المسألة أكثر قائلاً: «أين ستذهب العائلات التي تكسب قوت يومها هنا إذا أغلق المصبّ؟ ستكون الدولة ملزمة بمنحهم وظائف ورواتب. صحيح أنّ عملهم غير نظامي وأنّ المكب ليس مخصصاً لاستيعاب هذا النشاط، ولكنهم يعملون على الأقلّ كما ترون».

يؤدي إضفاء الطابع النظامي على أنشطة ملتقطي النفايات إلى إنشاء منطق جديد للعمل وتنظيم جديد للأقاليم: في أمريكا اللاتينية وبالتحديد في «بوينس آيرس»، أدّى إضفاء الطابع النظامي على أنشطة الكارتونيروس<sup>36</sup> (جامعي النفايات) إلى تقليل انتشارهم في الفضاء الحضري، ممّا أدى إلى تفاقم المشكلة ورفض جميع الإصلاحات. وبالتالي، يمكن أن يكون للتغيرات في عملية استعادة النفايات آثار ضارة على عمل البرباشة. وبالفعل، خلال مراقبة المناقشات العفوية، لاحظنا أنّهم ينظرون إلى وضعهم الحالي على أنّه مهين. كان لحظر دخول النفايات من مخزن الملابس المستعملة «الفريب» (بعد حريق حسب تصريحات أعوان الإدارة) تأثيرات سلبية على عمل البرباشة ممّا أدى إلى تقليص ربحهم اليومي. في الحقيقة، تُمثّل تجارة الملابس المستعملة مورد رزق وفير للبرباشة الذين يقومون بجمع الملابس القديمة وفرزها وإعادة بيعها. تشرح لنا امرأة في هذا السياق: «يا حسرتي على الزمن الجميل، تغيّر كل شيء الآن وما بقي من النفايات شيء، بضع زجاجات تعدّ. فيما مضى، كنّا نلبس الملابس المستعملة ونغسل الكثير ممّا يتبقّى منها ونُعيد بيعه. كان الأمر مربحاً جداً. أمّا الآن، تمنعنا الإدارة بحجة أن الملابس قد تكون سببا في اندلاع الحرائق».

بحسب أحد مديري المكب، يتم نقل الملابس المستعملة إلى مكب زغوان حيث يتم تدميرها بحيث لا تشكل أي خطر. وفي السياق ذاته، بدأت بعض الشركات و المصانع بإعادة تدوير نفاياتها الخاصة (الكرتون، البلاستيك) وبالتالي انخفضت كمية النفايات المنقولة إلى مكب النفايات بشكل كبير. يقول رجل في هذا الصدد: «لم يعد العمل هنا مربحاً أبداً. تستمر كميات النفايات في الانخفاض يوماً بعد يوم، بعد أن أضحت الشركات تعيد تدوير نفاياتها بنفسها. وهو ما أثر على عملنا بشكل كبير ومباشر. كنت أكسب ما يصل إلى 500 دينار في اليوم، قبل عشر سنوات. أمّا الآن، فقد تغيّر الوضع برمّته».

36 Carré, Marie-Noëlle. « Le paradoxe de l'institutionnalisation de la récupération des déchets à Buenos Aires », Tous urbains, no. 5, 2014, pp.50-53. P51.

## خاتمة

حاول هذا المقال فهم مسألة استرجاع النفايات بداية من أسفل الهرم، وذلك من خلال تسليط الضوء على عمل استرجاع النفايات في مصبّ برج شاكير، والكشف عن منطق العمل والممارسات التي تسمح للبرباشة بتأسيس اقتصاد غير تنظيمي للنفايات في المصبّ. ومن خلال تحليل البيانات الكمية والنوعية، تمكّنا من دراسة المسارات الاجتماعية والتجارب الحياتية لهؤلاء الأفراد الذين يعيشون التهميش والإقصاء الاجتماعي.

إنّ تدبير الأمور من خلال استعادة النفايات وفرزها تُشكّل إستراتيجية البقاء التي يستخدمها هؤلاء الأفراد الذين يعيشون على الهامش. يرتكز عمل البرباشة على مكب النفايات، ممّا خلق ديناميكية للاستيلاء على الأراضي والأشياء المستردة. وتتغذى هذه الديناميكية على لعبة القوة التي تجمع بين فئات مختلفة من الفاعلين ذات موارد القوة المتباينة. ساهمت ديناميكية القوة هذه في إعادة تشكيل مساحة مكب النفايات وولادة ممارسات ومعايير وقيم مهنية مختلفة تحكم العلاقات بين البرباشة وتؤسّس نظاما راسخًا بينهم.

ومع ذلك، يجب أن يواجه تثبيت البرباشة في مكب النفايات وثقافة عملهم وممارساتهم المهنية وخبرتهم إلى اختبار الإصلاحات من قبل الدولة والمجتمع العام، فضلا عن الوقوف أمام التغييرات التي تؤثر على قطاع إعادة تدوير النفايات بأكمله.

إنّ إضفاء الطابع المؤسّساتي على هذا النشاط وتنظيمه يؤدي إلى ظهور تصورات دقيقة اعتمادًا على موقع سلطة البرباشة ومواردهم.

إنّ إدخال أنشطة إعادة التدوير أو الرسكلة من قبل المصانع التي تخلصت من نفاياتها يشكل عائقًا يهدد البرباشة.

## البيبلوغرافيا المختارة:

- Aypam, Silvy. Economie de la débrouille à Kinshasa - Informalité, commerce et réseaux sociaux, Karthala, Paris, 2014.
- Boltanski, Luc. « L'inquiétude sur ce qui est. Pratique, confirmation et critique comme modalités du traitement social de l'incertitude », Cahiers d'anthropologie sociale, vol. 5, no. 1, 2009, pp. 163-179. P165
- Carré, Marie-Noëlle. « Le paradoxe de l'institutionnalisation de la récupération des déchets à Buenos Aires », Tous urbains, no. 5, 2014, pp.50-53. P51.
- Florin, Bénédicte. Les chiffonniers du Caire. Soutiers de la ville ou businessmen des ordures ? Ethnologie Française, (45), 2015, pp487-498.
- Florin, Bénédicte. Réforme, crise, ajustements et malentendus entre acteurs : quand la question des déchets devient un problème public. L'exemple du Caire (Égypte) In : Sociétés urbaines et déchets : Éclairages internationaux [en ligne]. Tours : Presses universitaires François-Rabelais, 2015 (généré le 17 octobre 2023). Disponible sur Internet : <<http://books.openedition.org/pufr/7319>>. ISBN : 9782869065444. DOI : <https://doi.org/104000/books.pufr.7319>.
- Fontaine, Lawrence., Florence, Weber. Les paradoxes de l'économie informelle. A qui profitent les règles ? Karthala, Paris, 2010.
- Zetlaoui Leger, Jodelle. « Qu'est-ce que l'appropriation ? Contribution scientifique et technique sur la notion d'appropriation dans les opérations d'aménagements urbains durables, Union Sociale de l'Habitat, MEDDTL/AD4,2012. pp.12-17. »



## البرباشة في تونس كما وكيفا: البروفایل السوسیولوجی للبرباشة

د. هاجر عرايسية

جامعة صفاقس

### الخصائص العامة لمجتمع البحث

#### حجم العينة

شملت الدراسة الميدانية الكمية 144 «برباشًا»: 71 «برباشًا» من داخل مصب النفايات «برج شاكير» أي بنسبة 49.3% و73 «برباشًا» من خارج المصب أو من الفضاء العام بنسبة 50.7%، وللإشارة فإن عدد «البرباشة» القارين في هذا المصب يقدر بـ80 شخصا وهذا يعني أن الدراسة الميدانية شملت تقريبا 100% من العاملين والعاملات فيه. ويعتبر مصب «برج شاكير» أكبر مصب للنفايات في تونس إذ يستوعب نفايات ولايات تونس الكبرى الأربعة: تونس العاصمة، أريانة، منوبة و بن عروس، ويمتد على مساحة 124 هكتارًا ويستقبل حوالي 3 آلاف طن من النفايات المتأتية من 38 بلدية تابعة لولايات تونس الكبرى، وتلقى القمامة بطريقة عشوائية على مساحة تقدر بـ 12 هكتارًا بارتفاع يناهز 30 مترًا<sup>1</sup>.

مكان العمل	العدد	النسبة (%)
داخل المصب	71	49,3
خارج المصب	73	50,7
المجموع	144	100,0

#### الجنس

إذا نظرنا إلى جنس البرباشة، نلاحظ أن الرجال أكثر حضورًا بشكل عام، داخل المصب وخارجه، بنسبة 77.1% أي أكثر من ثلاثة أرباع المستجوبين، أما نسبة النساء فتقدر بـ

1 الوكالة الوطنية للتصريف في النفايات – 2020.

22.9 % من المستجوبين. إذ يسيطر العنصر الرجالي على مهنة البرباش وهذا ما يمكن تفسيره بصعوبة ومشقة هذه المهنة وكثرة الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها البرباش. كما يمكن تفسير ذلك أيضا من خلال حقيقة أنّ النساء يقضين وقتاً أطول في القيام بالأعمال المنزلية ورعاية الأطفال وإعداد الوجبات.

سيطرة العنصر الرجالي على مهنة البرباش يخلق نوعا من الهيمنة الذكورية المترجمة في العدوانية (agressivité) الملاحظة لدى هذه الفئة و خاصة عند مجيء الزوار<sup>2</sup>.

الجنس	العدد	النسبة (%)
ذكر	111	77,1
أنثى	33	22,9
المجموع	144	100,0

## السن

يمثل «البرباشة» في المصب وخارجه فسيفساء تجمع بين فئات عمرية متباينة. 36.8 % من الأفراد المشمولين بالدراسة يقعون ضمن الشريحة العمرية من 35 إلى 45 عاماً، وهي النسبة الأعلى مقارنةً بالفئات الأخرى. تأتي بعدها الفئة العمرية التي تزيد عن 55 عاماً بنسبة 26.4 %، تليها الفئة بين 50 و55 عاماً بنسبة 14.6 % . يعزى هذا التوزيع العمري إلى أنّ هذه الفئات قد أمضت سنوات طويلة في رحلة البحث عن فرص عمل مناسبة دون الوصول إلى نتيجة، وذلك نظراً إلى عدم قدرة سوق العمل على استيعابهم.

كما بيّنت الدراسة أنّ حوالي 20 % من الذين تم استجوابهم تتراوح أعمارهم بين 18 و34 سنة، وهي الفئة العمرية التي غالباً ما تكون في مرحلة البحث عن عمل ضمن سوق الشغل. بينما يمثل القاصرون، أي الذين تقل أعمارهم عن 17 سنة، نسبة 2.1 % فقط من المستجوبين. على الرغم من أنّ هذه النسبة قد تبدو ضئيلة، إلا أنّها تلقي الضوء على حقيقة أنّ مهنة البرباش يمكن للأفراد من مختلف الأعمار ممارستها.

2 Ouled Abdallah, Belaid, le phénomène des déchets en Tunisie : Etude sociologique sur « El barbecha » de Henchir El Yahoudia, FSHST, 1991.

العمر	العدد	النسبة (%)
أقل من 17 سنة	3	2,1
بين 18 و24 سنة	12	8,3
بين 25 و29 سنة	7	4,9
بين 30 و34 سنة	10	6,9
بين 35 و49 سنة	53	36,8
بين 50 و55 سنة	21	14,6
أكثر من 55 سنة	38	26,4
المجموع	144	100,0

### الحالة المدنية

فيما يتعلق بالحالة المدنية للمستجوبين، البيانات تكشف أنّ 67.4 % من العينة المدروسة، أي 97 من أصل 144 مستجوبًا، هم متزوجون ومعظمهم لديهم أبناء. بينما يُشكل الأفراد غير المتزوجين 24.3 % من العينة. أما الأرامل والمطلقين فيمثلون 4.9 % و3.5 % على التوالي. من هذه النسب، يتضح أنّ مهنة البرباش، التي تُعد قطاعًا مهنيًا ذا استقرار محدود، تستقطب بشكل ملحوظ الأفراد المتزوجين أكثر من غيرهم من الحالات المدنية.

الحالة المدنية	العدد	النسبة (%)
أعزب	35	24,3
متزوج	97	67,4
أرمل	7	4,9
مطلق	5	3,5
المجموع	144	100,0

### المستوى التعليمي للمستجوبين

من خلال الجدول أسفله نلاحظ أنّ أفراد عينة البحث أغلبهم من ذوي المستوى التعليمي الابتدائي بنسبة 48.6 % (تقريبًا نصف العينة) ثم تليها فئة المستجوبين الذين لديهم مستوى تعليم ثانوي بنسبة 28.5 %، تليها الفئة التي لم تزاوّل تعليمها بنسبة 22.2 % وأخير فئة حاملي شهادة الدراسات العليا بنسبة 0.7 % أي ما يعادل فردًا واحدًا من أصل 144 مستجوبًا.

في نفس السياق أكد جلّ المبحوثين (حوالي 93 %) أنّ أبناءهم لم يزاولوا التّعليم الجامعي.

وهذا ما يدل على أنّ هذه المهنة تجذب الأشخاص الذين لديهم مستوى تعليم ضعيف ومتوسط أو منعدم (تقريباً ¼ العينة). فما يمكن أن نستنتجه هو أنّ مهنة «البرباش» تعتبر الملاذ الأخير لمن ليس لديهم مستوى تعليمي يمكنهم من الاندماج بسهولة في سوق الشغل، لذلك نجد أنّ أكثر من 70 % من المستجوبين هم من الأميين أو من فئة المستوى الابتدائي.

توجد علاقة سببية ذات اتجاهين بين الفقر والانقطاع عن الدّراسة وصعوبة الاندماج المهني. فالشخص الذي ينشأ في بيئة أسرية محرومة يجني في أغلب الأحيان فشلاً أكاديمياً وصعوبات كبيرة في الاندماج الاجتماعي والمهني، ممّا يؤدي إلى استمرار الفقر وتوريثه.

المستوى التعليمي للمستجوب/ة	العدد	النسبة (%)
لم يزاول التعليم	32	22,2
ابتدائي	70	48,6
ثانوي	41	28,5
جامعي (مرحلة أولى و ثانية)	1	0,7
المجموع	144	100,0

### المستوى التعليمي للأب والأم

من خلال متغير 'المستوى التعليمي للأب' نلاحظ أن آباء أغلبية المستجوبين، داخل وخارج المصّب، لم يزاولوا تعليمهم بحوالي 57 % فيما أكد 25 % أن آباءهم لديهم مستوى تعليمي ابتدائي. 4 % من المستجوبين زاول آباؤهم تعليمًا ثانويًا. مستجوب واحد فقط، أي 0.7 %، أكد أنّ والده لديه مستوى تعليمي جامعي. أما بقية العينة، أي ما يقابل 13.2 % فلا يعرفون المستوى التعليمي لآبائهم.

أما فيما يتعلق بالمستوى التعليمي للأم فقد أكد أكثر من ثلاثة أرباع العينة أي بنسبة 76.4 % أنّ أمهاتهم لم يزاولن تعليمهنّ بينما أقرّ حوالي 14 % من المستجوبين أنّ أمهاتهم لديهنّ مستوى تعليمي ابتدائي فيما جهل حوالي 10 % من المستجوبين المستوى التعليمي لأمهاتهم.

أظهرت نتائج الدراسة الميدانية أنّ هناك علاقة تأثر وتأثير بين مستوى تعليم الوالدين واختيار الأبناء لنشاطهم المهني. فالمستوى التعليمي المرتفع للوالدين يجعل الأبناء يدركون قيمة التعلّم وبلوغ أعلى مراتب التّحصيل العلمي وبالتالي الحصول على وظيفة جيدة. في المقابل فإنّ المستوى التعليمي المتدني للوالدين يمثّل سبباً رئيسياً في إعادة إنتاج الأبناء لنموذج آباؤهم أو أولياء أمورهم، وذلك في سياق يشبه الحلقة المفرغة التي تُورث الأعمال الشاقة جيلاً بعد جيل.

النسبة (%)	العدد	المستوى التعليمي للأب
56,9	82	لم يزاول التعليم
25,0	36	ابتدائي
4,2	6	ثانوي
0,7	1	جامعي (مرحلة أولى و ثانية)
13,2	19	لا اعرف
100,0	144	المجموع
النسبة (%)	العدد	المستوى التعليمي للأم
76,4	110	لم يزاول التعليم
13,9	20	ابتدائي
9,7	14	لا اعرف
100,0	144	المجموع

## مهنة الأب

تحليل البيانات المتعلقة بـ «مهنة الأب» يُظهر أنّ الآباء يشغلون مجموعة متنوعة من المهن، التي تُصنّف في معظمها كمهن هشة ومتواضعة أو مهن متوسطة. تفيد البيانات أنّ 55.6 % من الآباء ينتمون إلى فئة العمال، فيما يعمل 10.4 % من الآباء في نفس المهنة التي يمارسها أبناؤهم، أي كـ «برباشة». بالإضافة إلى ذلك، 9.7 % من الآباء يشتغلون في التجارة أو الصناعات الحرفية، و8.3 % منهم يمارسون مهناً زراعية. يُظهر التحليل أيضاً أنّ 7.6 % من الآباء هم موظفون، و3.5 % عاطلون عن العمل، وحوالي 3 % يعملون في مهن تقنية أو متوسطة. هناك مستجوب واحد فقط صرّح بأنّ والده يمارس مهنة ضمن فئة المهن الحرة، ومستجوب آخر لا يعرف مهنة والده.

مهنة الأب	العدد	النسبة (%)
عاطل عن العمل	5	3,5
برباش	15	10,4
موظف	11	7,6
فلاح	12	8,3
حرفي او تاجر	14	9,7
تقني / مهن وسطي	4	2,8
عامل	80	55,6
مهن حرة (طبيب، محام...)	1	0,7
أخرى	1	0,7
لا اعرف	1	0,7
المجموع	144	100,0

### مهنة الأم

نتائج البحث الميداني تكشف أنّ غالبية المستجوبين، بنسبة تقارب 90 %، أفادوا بأنّ أمهاتهم يعملن كربات بيوت، في حين صرح حوالي 5 % أن أمهاتهم عاملات. بالإضافة إلى ذلك، 5.3 % من الأمهات يمارسن نفس مهنة أبنائهن وهي «برباشة»، و2.3 % منهن يعملن في المجال الزراعي.

بالنظر إلى المستوى التعليمي والوضعية الاقتصادية والاجتماعية للوالدين، يبدو أن هذه العوامل تُقلّل بشكل ملحوظ من فرص الأبناء في النجاح الدراسي أو حتى في مجرد الاستمرارية في التعليم، ممّا يضعف آمالهم في اعتلاء المصعد الاجتماعي<sup>3</sup>. على مستوى آخر، تساهم هذه الشروط الموضوعية في إعادة إنتاج الفقر ووراثة الانتماء الطبقي وامتهان المهن الشاقة، التي غالباً ما تقتصر على الطبقة الفقيرة أو الوسطى الدنيا، مثلما خلّص إليه بيار بورديو من خلال نظريته حول إعادة الإنتاج والرأسمال الثقافي.

مهنة الأم	العدد	النسبة (%)
ربة بيت	125	86,8

3 المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2022 «سوق نهج اسبانيا او منهاج الاقتصاد الشارعي في تونس» دراسة سوسيو انثروبولوجية- تحرير سفيان جاب الله و مجموعة من الباحثين. 286 صفحة.

برباشة	5	3,5
موظف	1	0,7
فلاح	3	2,1
حرفي او تاجر	1	0,7
تقني / مهن وسطي	1	0,7
عامل	7	4,9
أخرى	1	0,7
المجموع	144	100,0

### المستوى التعليمي للشريك

أظهرت نتائج الدراسة أنّ أكثر من نصف المستجوبين، بنسبة 51.4 %، متزوجون من شركاء تقتصر مستوياتهم التعليمية على الابتدائي. كما أفاد 25.7 % من المستجوبين بأنّ شركاءهم حاصلون على تعليم ثانوي. في الوقت ذاته، صرّح 18.3 % من المستجوبين بأنّ شركاءهم لم يتلقوا أيّ تعليم رسمي، وهناك مستجوب واحد فقط أشار إلى أنّ شريكه يمتلك مستوى تعليمي جامعي. بالإضافة إلى ذلك، امتنع حوالي 3 % من العينة عن الإجابة على هذا السؤال.

النسبة (%)	العدد	
18,3	20	لم يزاوّل التعليم
51,4	56	ابتدائي
25,7	28	ثانوي
0,9	1	جامعي (مرحلة أولى و ثانية)
0,9	1	لا اعرف
2.8	3	لا إجابة
100,0	109	المجموع

### مهنة الشريك

وفقاً لتوزيع عينة البحث بناءً على متغيّر مهنة الشريك، تُظهر نتائج البحث الميداني أنّ نسبة «البرباشة» المتزوجين بشريك عاطل عن العمل تصل إلى 64.2 %، وهي نسبة مرتفعة تعكس الظروف الاقتصادية الصعبة والتهميش الذي تعاني منه العديد من

العائلات التونسية، وذلك بسبب افتقارها لدخل ثابت يضمن مستوى معيشي كريم. تأتي بعدها الفئة التي لديها «شريك عامل» بنسبة 25.7 %، يليهم من لديهم شريك يمارس نفس المهنة، أي «برباش»، بنسبة 3.7 %، ومن ثم الشريك الحرفي أو التاجر بنسبة 1.8 %، والشريك الفلاح أو التقني بنسبة 0.9 % لكل منهما. هذه الأرقام تؤكد على ندرة الوظائف المرموقة بين شركاء «البرباشة».

أكثر من 3 % من المستجوبين امتنعوا عن الإجابة على سؤال متعلق بمهنة الشريك، ما قد يشير إلى شعور بعض «البرباشة» بالحرَج من الكشف عن مهن شركائهم، خصوصاً إذا كانوا يعملون في نفس المجال أو في مهن يرونها «غير لائقة».

النسبة (%)	العدد	
64,2	70	عاطل عن العمل / ربة بيت
3,7	4	برباش / برباشة
0,9	1	فلاح
1,8	2	حرفي او تاجر
0,9	1	تقني / مهن وسطي
25,7	28	عامل
2,8	3	لا إجابة
100,0	109	المجموع

## الوضعية الاقتصادية والاجتماعية

- كيف يتم التنقل من مكان الإقامة إلى مكان العمل (وسيلة النقل)؟

نتائج الدراسة الميدانية أظهرت أنّ حوالي 72 % من «البرباشة» العاملين داخل المصّب يستخدمون وسيلة نقل واحدة للتنقل، بينما يتنقل 11.3 % منهم سيراً على الأقدام. بالإضافة إلى ذلك، يستعين 8.5 % من البرباشة بأكثر من وسيلة نقل للوصول إلى مكان عملهم في مصّب النفايات. كما اختار 8.5 % من المستجوبين عدم الإجابة على هذا السؤال.

أما بالنسبة إلى أنواع وسائل النقل التي يستخدمها البرباشة العاملون داخل المصّب، البيانات

تُظهر تنوعاً في الخيارات المتاحة: حوالي 65 % منهم يستخدمون سيارات خاصة، وعادة ما تكون هذه السيارات قديمة وبسيطة. بالإضافة إلى ذلك، يستخدم 15.8 % من البرباشة سيارات جماعية، حيث يتشارك مجموعة منهم في استئجار سيارة خاصة للتنقل من وإلى المصب، وهي طريقة تنقل شائعة رغم كونها غير قانونية، نظراً إلى نقص وسائل النقل العموميّة.

حوالي 7 % من العينة يستخدمون سيارات النقل الجماعي الخاص، وهي عبارة عن وسائل نقل يملكها أفراد يتقاطعون مع البرباشة في ظروف الفقر والهشاشة. استخدام هذه الوسائل ناتج عن عدة عوامل؛ منها نقص وتهالك وسائل النقل العموميّة واكتظاظها، كما أنّ اعتمادها للتنقل شائع في الأحياء الشعبية المزدهمة بالسكان في العاصمة.

#### (n=71) داخل المصب مكان العمل :

النسبة (%)	العدد	
11,3	8	على القدمين
71,8	51	وسيلة نقل واحدة
8,5	6	أكثر من وسيلة نقل
8,5	6	لا إجابة
100,0	71	المجموع

#### (n=73) خارج المصب مكان العمل :

النسبة (%)	العدد	
67,1	49	على القدمين
28,8	21	وسيلة نقل واحدة
4,1	3	أكثر من وسيلة نقل
100,0	73	المجموع

بالنسبة إلى البرباشة الذين يعملون خارج المصب، أفاد غالبية المستجوبين، وتحديداً 67.1 %، بأنهم يتنقلون سيراً على الأقدام من منازلهم إلى حاويات النفايات. في حين يستخدم 28.8 % منهم وسيلة نقل واحدة، ويستقل 4.1 % أكثر من وسيلة نقل للوصول إلى مواقع عملهم.



يستخدم 75 % من البرباشة العاملين خارج المصب درّاجات نارية، بينما يستقل 4.2 % درّاجات هوائية، ويتنقل 20.8 % منهم باستخدام سيارات نقل جماعي.

الفرق في طرق التنقل بين البرباشة العاملين داخل المصب وأولئك العاملين خارجه يرجع بشكل أساسي إلى اختلاف طبيعة العمل في كلا المجالين. فالعمل داخل المصب لا يتطلب التنقل كثيرا خلال فترة الدوام، بينما يحتاج البرباش الذي يعمل في الفضاء العام إلى وسيلة نقل خاصة به للتنقل بها بين الحاويات ولجّر العربة التي يجمع فيها النفايات التي وقع فرزها، حتى يتسنى له بيعها، بينما يحتاج البرباش الذي ينشط داخل المصب إلى وسيلة نقل للذهاب والإياب بين مسكنه ومكان عمله فقط، كما أنّه غير ملزم بجرّ ما تمكن من فرزه وجمعه بغرض بيعه، إذ أنّ هناك وسطاء يأتون يوميًا على عين المكان، أي المصب، لشراء ما جمعه كلّ البرباشة. من المهم ملاحظة أنّ الوسطاء يفرضون الأسعار التي عادة ما يقبلها برباشة المصب دون تفاوض.

#### داخل المصب مكان العمل : (n=57)

النسبة (%)	العدد	
64,9	37	سيارة خاصة
15,8	9	سيارة جماعية
3,5	2	سيارة أجرة فردية
7,0	4	سيارة نقل جماعي
8,8	5	أخرى
100,0	57	المجموع

#### خارج المصب مكان العمل : (n=24)

النسبة (%)	العدد	
75,0	18	دراجة نارية
4,2	1	دراجة هوائية
20,8	5	سيارة نقل جماعي
100,0	24	المجموع

- تنجّمشي تقليّ تقريباً قداش مصروف العائلة في الشهر؟

رداً على سؤال حول «مقدار المصاريف العائلية الشهرية لكل برباش»، كشفت نتائج الدراسة أنّ حوالي 37 % من أفراد العينة، سواءً داخل المصب أو خارجه، ينفقون شهرياً ما بين 501 و750 ديناراً على المصاريف العائلية المتنوعة. بينما يُنفق 27.8 % من المستجوبين ما بين 751 و1000 دينار شهرياً. أما 19.4 % فهم ينفقون أقل من 500 دينار شهرياً. وتبين أنّ 11.1 % من أفراد العينة ينفقون بين 1001 و1500 دينار على المصاريف العائلية بصفة شهرية. في حين صرح 7 أشخاص، ما يعادل حوالي 5% من المستجوبين، بأنهم لا يملكون إجابة محددة حول هذا السؤال.

النسبة (%)	العدد	
19,4	28	أقل من 500 دينار
36,8	53	بين 501 و 750 دينار
27,8	40	بين 751 و 1000 دينار
11,1	16	بين 1001 و 1500 دينار
4,9	7	لا أعرف
100,0	144	المجموع

- إلى أي مدى يمكنك دخلك من تغطية مصاريفك؟

رداً على سؤالنا حول مدى تمكّن «البرباشة» من تغطية مصاريفهم من خلال المداخيل التي يجنونها من عملهم في مجال جمع النفايات، صرّح ما يقارب نصف أفراد العينة، من داخل وخارج المصب، بنسبة 47.2 %، أنّ مداخيلهم من بيع النفايات غير كافية ولا تغطي كامل نفقاتهم الشهرية، وأقرّ حوالي 32 % من المستجوبين بأنهم قادرين على تغطية نفقاتهم لكن بصعوبة أي أنّهم يستطيعون تأمين حاجياتهم الأساسية اليومية بالحد الأدنى المطلوب. فيما أكد 16 % أنّ مداخيلهم تكفيهم فقط لسدّ حاجاتهم الاستهلاكية الأساسية دون التمكن من الادخار. من جهة أخرى أفادنا حوالي 5 % من العينة بأنهم قادرين على تغطية مصاريف الاستهلاك العائلي، بالإضافة إلى الادخار.

فيما يخص توزيع الدخل وفقاً للأولويات في الإنفاق، أفاد 57.6 % من المستجوبين أنّهم يخصصون النسبة الأكبر من دخلهم لتغطية مصاريف الطعام والإعاشة. يعطي 12.5 % من العينة الأولوية لمصاريف الإيجار، في حين 10 % منهم يقدّمون المصاريف المتعلقة بالصحة على بقية المصاريف. بالإضافة إلى ذلك، صرّح 9.7 % من المستجوبين بأنّ مصاريف تعليم أبنائهم تأتي في مقدمة أولوياتهم، وأقر 9 % أنهم ينفقون الجزء الأكبر من مداخيلهم على دفع الفواتير المتنوعة مثل الكهرباء، الماء، والإنترنت، وغيرها من الفواتير.

هناك 0.7 % من العينة يخصصون الجزء الأكبر من دخلهم لمصاريف التنقل، ومثلهم يعطون الأولوية لمصاريف اللباس. يُشار إلى أن هاتين الفئتين تنتميان بشكل أساسي إلى الأفراد غير المتزوجين الذين ينفقون معظم دخلهم على احتياجاتهم الشخصية.

النسبة (%)	العدد	
4,9	7	يكفيكم المصروف و تخبيو
16,0	23	يكفيكم المصروف قد قد و ما تخبيوش
31,9	46	يكفيكم المصروف اما بصعوبة
47,2	68	ما يكفيكمش المصروف
100,0	144	المجموع

- تنجمشي ترتبلي المصاريف من الأهم (المرتبة الأولى)؟

النسبة (%)	العدد	
57,6	82	مصاريف الطعام
12,5	18	مصاريف الكراء
10,4	15	مصاريف الصحة
9,7	14	مصاريف الدراسة
9,0	13	مصاريف الفواتير
0,7	1	مصاريف التنقل
0,7	1	مصاريف اللباس
100,0	144	المجموع

- كان نعطيوك الخيار في الخدمة، هل تختار:

ردًا على سؤال طرحناه على المستجوبين، سواء من داخل المصب أو خارجه، حول أي عمل يختارون لو كانت لديهم الحرية في ذلك. أفاد 40.3 % من أفراد العينة بأنهم يرغبون في بدء مشاريع خاصة بهم. في حين صرح 22.2 % منهم برغبتهم في العمل ضمن الوظيفة العمومية كبديل لتحقيق اندماجهم المهني. يُعزى هذا التفضيل للوظيفة العمومية بين الشباب التونسي، بما في ذلك العاملين في جمع النفايات، إلى الأمان الوظيفي والحماية التي توفرها مقارنةً بالعمل في القطاع الخاص أو الأعمال الحرة. تُعد الوظيفة العمومية مصدرًا دائمًا للدخل الذي يستمر حتى في حال غياب الموظف عن العمل لأسباب مثل المرض أو غيرها من الأضرار الشرعية. وعلى الرغم من أنّ العائد المالي للعمل في الوظيفة العمومية قد يكون محدودًا مقارنةً بالقطاع الخاص، فإنّ الانتداب في الوظيفة العمومية لا يزال حلم معظم الفئات السوسيو- مهنية في تونس.

صرح 22.2 % من المستجوبين بأنهم لو أُتيحت لهم الفرصة لتغيير مهنتهم، لفضّلوا الهجرة إلى الخارج بحثًا عن فرص عمل وظروف عيش أفضل. فيما أعرب 12.5 % من المستجوبين عن رغبتهم في تنظيم قطاع عمل البرباشة وإضفاء الصبغة القانونية على هذه المهنة، التي تستقطب مئات الأيدي العاملة التونسية من مختلف الفئات العمرية والمهنية. على الرغم من الأهمية البيئية والاقتصادية التي يمثلها البرباشة، يظل العمل في مجال فرز النفايات غير مستقر ولا يخضع لتنظيم حكومي. وقد امتنع شخص واحد فقط من إجمالي المستجوبين عن تقديم أيّ إجابة.

النسبة (%)	العدد	
22,2	32	موقع في وظيفة عمومية
40,3	58	فتح مشروع مستقل / الانتصاب للحساب الخاص
2,1	3	موقع في القطاع الخاص
12,5	18	تنظيم أمور الخدمة (البرباشة) و تولي قانونية
22,2	32	تخرج تخدم البرا . تهاجر من تونس
0,7	1	لا أعرف
100,0	144	المجموع

## - هل لديك حساب بنكي؟

ثلاثة أشخاص فقط من مجموع 144 مستجوباً من داخل و خارج المصّب، أي بنسبة 2.1 %، صرّحوا بأنّهم يملكون حسابات بنكيّة، فيما نفى حوالي 9,97 % من أفراد العينة امتلاكهم لحسابات بنكية. يمكن تفسير ذلك بتذبذب المداخيل وعدم الاستقرار في العمل الذي يشترط تمتّع «البرباشة» بصحة جيدة تُحوّل لهم الدّوام بصفة يوميّة ولساعات طويلة، إضافة إلى عدم كفاية الدخل لمجرّد تغطية النفقات الاستهلاكية الأساسية في ظلّ ارتفاع كلفة المعيشة وعدم مواكبة الدخل الفردي لهذا الارتفاع المشطّ في أسعار مختلف المواد الأساسية. فجّل «البرباشة» ليس لديهم دخل منتظم يمكنهم من الادّخار بالرّغم من أنّ الادّخار العائلي يحظى بمكانة مهمة في الثقافة الاقتصادية للتونسيين بمختلف طبقاتهم الاجتماعية.

النسبة (%)	العدد	
2,1	3	نعم
97,9	141	لا
100,0	144	المجموع

## - هل تدفع الأديان للدولة؟

إجابة عن سؤال «هل تدفع الأديان للدولة؟» أفاد 61.1 % من المستجوبين من داخل وخارج المصّب، بأنّهم لا يدفعون أيّة أديان للدولة معلّين ذلك بعدّة أسباب: فقد صرّح 63.6 % منهم بعدم تمتعهم بأيّة خدمات توفّرها الدولة، وأفاد 29.5 % بأنّهم لا يملكون المال الكافي لخلاص الضرائب، بينما صرّح 4.5 % بجهلهم بهذا الإجراء. أمّا 36.8 % من المستجوبين فقد أكّدوا قيامهم بدفع الضرائب في حين امتنع 3 أشخاص من أصل 144 مستجوباً عن الإجابة.

يصنّف عمل «البرباشة» ضمن الأعمال التي تمارس في إطار القطاع الموازي. كما أنّه لا توجد إحصاءات رسمية لعدد «البرباشة» الناشطين في تونس، داخل و خارج المصبّات المخصصة للنفايات، لكن عملهم يظلّ أقرب إلى القطاعات الموازية على غرار المتهربين من الضرائب، لكن ليست لديهم في المقابل أيّة ضمانات في شأن مستقبلهم الذي يكتنفه الغموض. بناءً على صعوبة تحديد دخل «البرباشة» في تونس، فإنّه من العسير على الدولة ضمّهم إلى القاعدة الضريبية

الخاصة بالضرائب المباشرة كالضرائب على المداخل، لكنهم يخضعون بطبيعة الحال إلى الضرائب غير المباشرة كضرائب القيمة المضافة على السلع والخدمات.

النسبة (%)	العدد	
36,8	53	نعم
61,1	88	لا
2,1	3	لا أعرف
100,0	144	المجموع

- علاش ما تدفعش الأديات للدولة؟ (n=88)

النسبة (%)	العدد	
4,5	4	خاطر ما نعرفش
29,5	26	خاطر ما عنديش فلوس
63,6	56	خاطر الدولة ما توفرش لينا في الخدمات
2,3	2	أخرى
100,0	88	المجموع

## تمثلات المهنة وظروف العمل

- كيفاش تعرف نفسك؟

من بين الأسئلة التي طُرحت على المستجوبين من داخل وخارج المصب، السؤال التالي « كيف تُعرّف نفسك؟»: ما يقارب عن نصف المستجوبين وبنسبة 47.8 % يصنفون أنفسهم ضمن فئة «العامل اليومي»، وحوالي 30 % يُقدّمون أنفسهم كعاطلين عن العمل باعتبار أنّ العمل في جمع النفايات هو عمل غير منتظم من حيث الدوام ومن حيث الدخل. 16 % من المستجوبين يصنفون أنفسهم ضمن فئة «العامل الحر» باعتبار أنّ هذا النشاط لا يتطلب الدوام المنتظم في الوقت وليس للعامل في هذا المجال مؤجّر يراقبه أو يمارس عليه سلطة. 5.6% يعتبرون أنفسهم «عملة مؤقتين» إلى حين العثور على شغل مستقر.

النسبة (%)	العدد	
29,9	43	عاطل عن العمل
47,9	69	عامل يومي
16,0	23	عامل حر
5,6	8	عامل مؤقت و ابحاث عن شغل مستقر
0,7	1	أخرى
100,0	144	المجموع

- هل أنت مع أو ضد استخدام كلمة «برباش» لوصف خدمتك؟

عند إجابة المبحوثين عن استفسارنا الذي طُرح على المشاركين من داخل وخارج المصب حول ما إذا كانوا يؤيدون أو يعارضون استخدام مصطلح «برباش» لوصف عملهم، أفاد 43.1 % من المبحوثين بقبولهم الشديد لهذه التسمية، بينما أكد 16.7 % منهم على قبولهم لهذا المصطلح. بالنسبة إلى هذه الشريحة من العينة، العمل ك «برباش» يُعتبر مصدرًا للدخل المادي ووسيلة لتحقيق الذات، بالإضافة إلى كونه رمزًا للشرف وطريقة للتخلص من سلبية العاطلين الذين يربطون العمل في مجال جمع النفايات بالشعور بالخزي.

أكد 30 % من المستجوبين على رفضهم الشديد لاستخدام مصطلح «برباش» لوصف عملهم، وأفاد 6.3 % منهم على رفضهم لهذا التوصيف أيضًا. تعتبر هذه الفئة من المستجوبين النشاط المذكور مهينًا، إذ يلجأ العديد من الأفراد العاملين تحت هذا التصنيف إلى إخفاء طبيعة عملهم عن المحيطين بهم، ويشعرون بالحرج من الإفصاح عنها.

تُعاني الفئة العاملة في المصبات أو في جمع النفايات بالأماكن العامة من نظرة ازدراء ودونية من قبل المجتمع، مما يؤدي إلى إقصائهم اجتماعيًا<sup>4</sup> ويُعد سببًا للعديد من المشكلات، خاصة مع الدائرة الاجتماعية الأقرب، مثل العائلة، التي قد ترفض قبول عمل أحد أفرادها في هذا المجال.

4 CIRELLI, Claudia, FLORIN, Bénédicte, 2015, «introduction vivre des déchets». In : Sociétés urbaines et déchets : éclairages internationaux, Presses universitaires François Rabelais, Tours, 2015.

فيما أشار حوالي 5 % من المستجوبين إلى موقفهم المحايد تجاه استخدام مصطلح «برباش» لوصف عملهم، مبدین عدم اهتمامهم بتأثير هذه التسمية على علاقاتهم الاجتماعية أو بنظرة الآخرين إليهم. يُنظر إلى العمل في مجال جمع النفايات بالنسبة إليهم كأمر لم يكن اختياريًا، بل نتج عن ظروف قاهرة كالبطالة والفقير.

النسبة (%)	العدد	
29,2	42	أرفضها بشدة
6,3	9	أرفضها
4,9	7	محايد / لا يهمني
16,7	24	أقبلها
43,1	62	أقبلها بشدة
100,0	144	المجموع

#### - نوعية النفايات التي تقوم بجمعها؟

فيما يخص نوعية النفايات التي يجمعها البرباشة، داخل وخارج المصب، أكد 90.3 % من المستجوبين (130 شخصًا) على ميلهم وتفضيلهم لجمع النفايات البلاستيكية على النفايات المعدنية أو الورقية، نظرًا إلى توفرها بكثرة وسهولة جمعها ونقلها حتى في غياب وسيلة نقل، بالإضافة إلى سهولة التحكم في حجمها من خلال الضغط عليها وتصغيرها. في المقابل أقرّ حوالي 6 % من المستجوبين أنّهم يستهدفون النفايات المعدنية القابلة للتسويق مثل النحاس والألمنيوم والحديد.

أما فيما يتعلق باستخدام وسائل لجمع النفايات، فقد صرّح ما يقارب 88 % من المستجوبين، داخل وخارج المصب، باستخدامهم لأيديهم أثناء عملية البحث وفرز النفايات في حين يستخدم 12 % فقط من البرباشة آلة حديدية لفرزها. هذه الممارسات تُسلط الضوء على المخاطر الصحية التي قد يتعرض لها البرباشة خلال مزاولتهم لنشاطهم المهني.

النسبة (%)	العدد	
90,3	130	النفايات البلاستيكية
5,6	8	النفايات الحديدية و المعدنية
4,2	6	النفايات الورقية
100,0	144	المجموع

### المخاطر الصحية التي يتعرّض لها البرباشة:

يعمل البرباشة، سواء داخل المصب أو خارجه، غالبًا دون توفر الحماية الكافية مثل أقنعة، قفازات، ملابس واقية، أو أحذية مناسبة، ممّا يعرضهم لمخاطر الإصابات المتنوعة من جروح بسيطة إلى خطيرة، وكذلك للأمراض التي يمكن أن تنتقل عبر النفايات الطبية كنفايات المستشفيات والعمليات الجراحية. غالبًا ما تكون هذه النفايات مصدرًا لروائح كريهة وتنبعث منها ديدان نتيجة تحلل الدم وبقايا الأنسجة، بالإضافة إلى الأمراض الناجمة عن قلة النظافة.

أكد حوالي 80 % من المستجوبين أنهم لا يرتدون أقنعة واقية أثناء العمل، بينما أقرّ 34,7% منهم بعدم استخدام القفازات. في المقابل، يستخدم 65.3 % قفازات واقية أثناء عملية الفرز، سواءً كان ذلك داخل المصب أو خارجه. كما يتعيّن على البرباشة حمل أوزان ثقيلة جدًا، بما في ذلك الأطفال العاملون في هذا المجال، وفي الغالب يتم ذلك بأيديهم العارية، ممّا يزيد من أخطار التعرض للإصابات والأمراض.

وتعدّ مشاكل الجهاز التنفسي، في مصبات النفايات، شائعة جدًا بسبب استنشاق الغازات السامة المنبعثة من مخلفات النفايات ومن عملية حرقها داخل المصب، بالإضافة إلى تسرب عصارة النفايات التي لم تقم معالجتها. وعلاوة على ذلك، فإنّ المشاكل الجلدية التي يتعرض لها البرباشة عديدة بسبب الاتصال المباشر مع المواد المهيجة للجلد كالمواد الكحولية والنفايات الطبية والصناعية. كما لا يمكن أن نغفل عن وجود مخاطر صحية جمة ناتجة عن وجود الفضلات البشرية بسبب عدم وجود مراحيض ممّا يضطر الأشخاص العاملين في المصب إلى

استخدام «المراحيض الطائرة»، كما أنّ وجود مختلف الفضلات في القمامة هو سبب لأضرار خطيرة، وأحياناً مميتة.

في هذا السياق، أفاد 75 % من المستجوبين بتعرضهم لحوادث متنوعة أثناء العمل، تشمل بشكل أساسي الجروح المتراوحة بين البسيطة والخطيرة، الوخز بآلات حادة، السقوط أو الانزلاق، وحوادث السير. بالإضافة إلى ذلك، أكّد العديد من المستجوبين على إصابتهم بأمراض مزمنة، بما في ذلك الأمراض السرطانية، الربو، ومختلف الأمراض المتعلقة بالجهاز التنفسي، ممّا يبرز المخاطر الصحية الكبيرة المرتبطة بطبيعة عملهم في جمع وفرز النفايات.

- أثناء العمل، هل تستعمل؟

لا		نعم		
النسبة (%)	العدد	النسبة (%)	العدد	
79,9	115	20,1	29	كمامة
34,7	50	65,3	94	قفازات
76,4	110	23,6	34	أداة لإلتقاط النفايات

- هل لديك عربة تستعملها في جمع النفايات؟

فيما يتعلق بمسألة نقل النفايات التي يقع فرزها وجمعها، فإنّ أغلب البرباشة لا يمتلكون أيّة وسيلة لهذا الغرض. إذ أكّد حوالي 60 % من المستجوبين، من داخل وخارج المصب، على عدم امتلاكهم لعربات لجر النفايات التي يقع فرزها وتجميعها، فيما يمتلك 25.7 % منهم عربات يدوية ويستخدم 14.6 % عربات تجرّها سيارة أو دراجة نارية.

النسبة (%)	العدد	
25,7	37	عربة تجرّها يدويا
14,6	21	عربة تجر ميكانيكيا (سيارة أو دراجة نارية)
59,7	86	لا املك
100,0	144	المجموع

- هل فما شكون يعاونك من أفراد العائلة في الخدمة؟

إجابةً عن سؤالنا الخاص بوجود أحد من أفراد العائلة للمساعدة من عدمه، نفى معظم المستجوبين من داخل وخارج المصب، بنسبة 84 %، مساعدة طرف آخر لهم أثناء عملهم، فيما أقرّ حوالي 12 % من المستجوبين بمساعدة أحد أفراد العائلة لهم باستمرار، بينما أفاد 3.5 % منهم بوجود من يساعدهم أحياناً فقط.

النسبة (%)	العدد	
11,8	17	نعم دائماً
3,5	5	نعم , ساعات
7,	1	نعم, نادرا
84,0	121	نخدم وحدي
100,0	144	المجموع

### عدد ساعات العمل:

يعتبر نشاط البرباشة داخل المصب بشكل عام نشاطاً بدوام كامل، باستثناء الأشخاص الذين لديهم أنشطة صغيرة أخرى، حيث يقومون بتدعيم دخلهم الشهري من خلال جمع القمامة. فقد يتيح هذا النشاط الحصول على دخل خلال فترات البطالة أو شحّ الموارد المالية.

أقرّ معظم المستجوبين، الذين يمثلون نسبة 83.1 %، بأنّهم يعملون يومياً لمدة تتراوح بين 8 إلى 12 ساعة. من جانب آخر، صرّح 14.1 % منهم بأنّ عدد ساعات العمل اليومي داخل المصب يقل عن 8 ساعات، بينما أكد حوالي 3 % من المستجوبين أنّهم يقضون أكثر من 12 ساعة يومياً داخل المصب. بالنسبة إلى أغلب العاملين في جمع النفايات، يمثل هذا النشاط المصدر الأساسي للدخل، حيث يعتمد عليه الأفراد والأسر التي أجبرتها ظروف الفقر على البحث عن سبل العيش، مما يضطرهم للاعتماد على النفايات التي يتركها باقي أفراد المجتمع من أجل توفير لقمة العيش.

أما خارج المصب، فقد صرح حوالي 70 % من المستجوبين بأنّ عدد ساعات العمل اليومية يتراوح بين 8 و12 ساعة بينما أفاد 19.2 % بأنّهم يقضون أكثر من 12 ساعة يومياً في التنقل بين الحاويات للبحث عن النفايات التي يمكن بيعها. أما 12.3 % فقط من المستجوبين في الفضاء العام صرّحوا بأنّهم يعملون لمدة تقل عن 8 ساعات يومياً.

- هل يمكن أنك تقدر عدد ساعات العمل يوميا:

مكان العمل: داخل المصب (=71n)

النسبة (%)	العدد	
14,1	10	أقل من 8 ساعات
83,1	59	من 8 الى 12 ساعة
2,8	2	أكثر من 12 ساعة
100,0	71	المجموع

مكان العمل: خارج المصب (=73n)

النسبة (%)	العدد	
12,3	9	أقل من 8 ساعات
68,5	50	من 8 الى 12 ساعة
19,2	14	أكثر من 12 ساعة
100,0	73	المجموع

- هل تشتغل في نشاط آخر غير نشاطك الحالي؟

في إجابة عن سؤالنا حول ما إذا كان المستجوبون يمارسون نشاطاً مهنيًا آخر بجانب عملهم كـ«برباشة»، أفاد معظم أفراد العينة، بنسبة تقارب 89.6 %، بأنّ عملهم الحالي كـ«برباشة» هو نشاطهم المهني الوحيد والأساسي. في المقابل، صرّح 10.4 % من المستجوبين بأنّهم يمارسون نشاطاً آخر إلى جانب جمع النفایات. هذه البيانات تعكس الهشاشة الاقتصادية لهذه الفئة من المجتمع التي تنتمي إلى طبقة «البريكاريا»<sup>5</sup> أو «الهامشين»<sup>6</sup>. هذه الطبقة تكافح يومياً لتوفير احتياجاتها الأساسية من خلال الانخراط في أنشطة مجهدّة وغير رسمية، التي لا تُقدّم فرصاً للدخل ضمن الاقتصاد الرسمي أي «الأنشطة التي تولّد مداخيل خارج الاقتصاد الرّسمي التي تنظمه الدولة»<sup>7</sup>.

5 Guy Standing, « the Precariat : The New Dangerous Class », BloomsBury Academic, 2011- 198 pages.

6 الهادي التيمومي، تاريخ تونس الاجتماعي: (1881-1956) صفاقس: (دار محمد عيل الحامي)، 2021، ص 203-204.

7 White Foot William, Street corner society : La structure sociale d'un quartier Italo-Américain, (Paris, édition

قد يواجه الأفراد الذين يختارون مسار العمل الحر تقلبات مفاجئة في العمل، حيث يمكن أن يجدوا أنفسهم فجأة دون عمل أو مصدر دخل. وفي أحيانٍ أخرى، قد يُثقل كاهلهم بالعديد من المهام المطلوبة لإنجازها في وقت قصير، ممّا يدفعهم للعمل بجهد مضاعف لتحقيق دخل إضافي يكفل تغطية النفقات الضرورية لأسرهم خلال الفترات التي ينقطع فيها العمل.

هذا التذبذب في تأمين الدخل، وفي ظل استمرار الأعباء المادية، يفرض نوعاً من الضغط النفسي على الأفراد، ممّا يضعهم في دائرة مستمرة من البحث عن فرص عمل. بالإضافة إلى ذلك، يواجهون ضغطاً إضافياً يتمثل في الحاجة إلى تطوير قدراتهم من خلال التدريب المهني المستمر والتعليم المتواصل، بهدف اكتساب مزايا تنافسية أكبر في سوق العمل المفتوحة<sup>8</sup>.

النسبة (%)	العدد	
10,4	15	نعم
89,6	129	لا
100,0	144	المجموع

- إذا جاتك الفرصة هل تفكر تبدل خدمتك؟

النسبة (%)	العدد	
92,4	133	نعم
5,5	8	لا
2,1	3	لا إجابة
100,0	144	المجموع

إجابة عن السؤال حول ما إذا كان المستجوبون يفكرون في تغيير مهنتهم إن أُتيحت لهم الفرصة، أظهرت نتائج الدراسة أنّ غالبية المشاركين، الذين يمثلون حوالي 92,4 % مستعدون لتغيير نشاطهم الحالي كـ«برباشة»، مع التأكيد على أنّ هذا النشاط هو حل مؤقت لمشكلة بطالتهم. في المقابل، أقرّ 5,5 % من المستجوبين بأنّ جمع النفايات يمثل لهم نشاطاً مهنيّاً دائماً

la découverte, 2002). PP 15-100.

8 .Kevin Doogan, « New Capitalism ? The Transformation of work », Polity, 2009. 234 pages.

والمصدر الرئيسي لدخلهم المالي. أما 2.1 % من المستجوبين فلم يقدموا أيّ إجابة، ممّا قد يشير إلى ترددهم بشأن الاستمرار في العمل كـ «برباشة» أو البحث عن مصادر دخل بديلة.

كشفت البيانات أنّ الأفراد العاملين في مهنة «البرباشة» والراغبين في التحوّل المهني، يستندون في قرارهم إلى مجموعة من العوامل الدافعة. حيث أفاد 26.3 % منهم بأنّ العائد المادي لهذه المهنة لا يرقى إلى تطلعاتهم المالية، في حين أكّد 21.8 % على أنّ العمل ضمن هذا المجال ينطوي على أخطار جسيمة. وأضاف 17.3 % من المستطلعين أنّ الجهد البدني المطلوب في «البرباشة» يفوق قدرتهم على التحمل. من ناحية أخرى، أشار 15.8 % إلى أنّ الوصمة الاجتماعية الملازمة لهذه المهنة تُعرّضهم لمواقف مهينة بشكل يومي، سواء من المارة أو من أقربائهم. وأبرز 4.5 % من المشاركين أن شعورهم بالتهميش وغياب الاعتراف الرسمي بمهنتهم من قبل الدولة والمجتمع يحفزهم على السعي إلى تغيير مسارهم المهني.

- إذا كانت الإجابة نعم، لماذا تفكر في تغيير العمل؟

النسبة (%)	العدد	
17,3	23	شاقة و متعبة
21,8	29	مخطرة فيها برشا ريسك
26,3	35	ما تدخلش برشا فلوس
15,8	21	فيها برشا اهانة و تطيح قدر
12,0	16	ما تعترفش بيها الدولة
4,5	6	ما يعترفش بيها المجتمع
2,3	3	سبب آخر
100,0	133	المجموع

#### الممارسات الثقافية والترفيهية

- باش نذكرك مجموعة من الفضاءات الثقافية وقلي وتيرة زيارتك ليهم.



المجموع	نزورهم يوميًا	نزورهم ديما	نزورهم ساعات	نزورهم بشكل قليل برشا	ما نزورهمش جملة		
144	0	1	9	19	115	العدد	السينما
100,0	0	0,7	6,3	13,2	79,9	النسبة(%)	
144	0	0	2	8	134	العدد	المسرح
100,0	0	0	1,4	5,6	93,1	النسبة(%)	
144	0	0	3	7	134	العدد	المتاحف
100,0	0	0	2,1	4,9	93,1	النسبة(%)	
144	71	17	13	5	38	العدد	المقهى
100,0	49,3	11,8	9,0	3,5	26,4	النسبة(%)	
144	0	1	2	7	134	العدد	المكتبة
100,0	0	7,	1,4	4,9	93,1	النسبة(%)	العمومية
144	0	1	5	10	128	العدد	دار
100,0	0	7,	3,5	6,9	88,9	النسبة(%)	الشباب
144	0	2	5	15	122	العدد	دار
100,0	0	1,4	3,5	10,4	84,7	النسبة(%)	الثقافة
144	0	1	1	2	140	العدد	المعارض
100,0	0	7,	7,	1,4	97,2	النسبة(%)	التشكيلية
144	0	6	7	13	118	العدد	نادي
100,0	0	4,2	4,9	9,0	81,9	النسبة(%)	الانترنت
144	2	13	25	5	99	العدد	الملاعب و
100,0	1,4	9,0	17,4	3,5	68,8	النسبة(%)	القاعات الرياضية
144	0	3	7	12	122	العدد	المهرجانات
100,0	0	2,1	4,9	8,3	84,7	النسبة(%)	
144	1	5	23	3	112	العدد	الحانات
100,0	7,	3,5	16,0	2,1	77,8	النسبة(%)	

هذه الدراسة تناولت أيضًا «الممارسات الثقافية» للبرباشة، حيث تم استعراض مختلف فضاءات الترفيه أمام المستجوبين وتم تحفيزهم لمشاركة معدلات زيارتهم لهذه الأماكن. تُظهر النتائج أنّ المقهى يمثل الوسيلة الثقافية السائدة لدى البرباشة. وفقًا للبحث الميداني، يرتاد

حوالي نصف المستجوبين (49.3%) المقاهي يوميًا، بينما يزورها 11.8% منهم بشكل منتظم. تُظهر الإحصاءات أنّ 9% من المستجوبين يرتادون المقاهي أحياناً، و3.5% يقصدونها بشكل نادر، في حين أنّ 26.4% من العينة لا يرتادون هذا الفضاء على الإطلاق. بالنسبة للعديد من البرباشة، ومثلهم مثل الكثير من اليد العاملة في تونس، يُعتبر المقهى ليس فقط مكاناً للترفيه، بل أيضاً فضاءً لعرض وطلب العمل<sup>9</sup>، ممّا يجعله فضاءً مركزياً ضمن الثقافة المجتمعية لهذه الفئة.

في المقابل، تُظهر النتائج أنّ 93.1% من المستجوبين لا يرتادون المسارح، المتاحف، أو المكتبات العمومية، وأنّ 97.2% منهم لا يترددون على المعارض التشكيلية. بالنسبة إلى السينما، فقط 20.2% من المستجوبين يزورون قاعات العرض، لكن بوتيرة ضعيفة جداً، وهي تقريباً نفس النسبة التي تتراد مناسبتياً نوادي الإنترنت، دور الثقافة، الملاعب والقاعات الرياضية، والحانات، بمعدل عدة مرات في السنة.

هذه الأرقام تعكس أشكالاً عميقة من عدم المساواة الاجتماعية في الوصول إلى الثقافة<sup>10</sup>. إنّ الممارسات الثقافية تكاد تكون منعدمة في حياة أغلب البرباشة بسبب عدم قدرتهم على تخصيص ميزانية للترفيه والاستهلاك الثقافي، فضلاً عن عدم توفر الوقت الكافي لمثل هذه الأنشطة. يذكر أنّ الكثير من البرباشة يعملون لساعات طويلة يوميًا، أحياناً تتجاوز الاثنتي عشرة ساعة، بما في ذلك أيام العطل الأسبوعية وخلال الأعياد ومختلف المناسبات الأخرى. من زاوية أخرى، قد تعتبر هذه الفئة الأنشطة الثقافية مضيعة للوقت، إضافة إلى أنّها لا ترمي إلى أيّ غاية ربحية. تُشير هذه العوامل إلى وجود علاقة عضوية بين الممارسات الثقافية ونمط الحياة اليومي للبرباشة.

9 Ouled Abdallah, Belaid, le phénomène des déchets en Tunisie : Etude sociologique sur « El barbecha » de Henchir El Yahoudia, FSHST,1991

10 Philippe COLLANGDEON, 2005, « Sociologie des pratiques culturelles », Paris, La Découverte 2005, 123 pages.

## خلاصة عامة:

ترتبط ظاهرة جمع النفايات في تونس ارتباطاً وثيقاً باتساع الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين مختلف فئات وطبقات المجتمع، وهي تجذب الأشخاص الذين لم يتمكنوا من الحصول على التعليم الكافي للاندماج في سوق الشغل المهيكلة والذين لا يملكون سكناً لائقاً ولا ينتفعون بالخدمات الصحية أو حتى الغذاء الكافي. فالأشخاص الذين يعملون في مجال جمع النفايات أو «البرباشة» هم من بين الأقل تأهيلاً وينتمون إلى عده طبقات سوسيو مهنية ممتدة إلى عدة أجيال. إذ ليس لديهم خيار آخر سوى أن يعيشوا على فرز نفايات الآخرين. ونظراً إلى غياب الرقابة الإدارية على مصبات النفايات في تونس، فإن هذه المصبات تعتبر فضاءً للعمل متاحاً للعموم. إذ يمكن لمن لم يجد عملاً أو لمن فقد عمله أو لمن واجه صعوبة في تلبية نفقاته الخاصة أو نفقات أسرته أن يجد فيها ضالته بصفة دائمة أو مؤقتة.

على الرغم من أنّ عمل البرباشة يتطلب جهداً بدنياً كبيراً، إلا أنّ دخلهم يظل منخفضاً مقارنةً بما يبذلونه من جهد، ونادراً ما يكون كافياً لتغطية كامل نفقاتهم الاستهلاكية الأساسية. لذلك، تظهر البيانات أنّ الغالبية العظمى من البرباشة مستعدون لتغيير وظائفهم فوراً إذا أُتيحت لهم الفرصة. من الجدير بالذكر أيضاً أنّ قضايا النوع الاجتماعي والعمر تؤخذ في الاعتبار عند تقييم قدرات البرباشة ودخلهم. هذه العوامل تشمل القوة البدنية والقدرة على التوفيق بين الأعمال المنزلية والمهنية، مع الإشارة إلى أنّ البرباشة هم بالأساس من الذكور.

من الزاوية الصحية، يجابه جامعو القمامة في تونس - والذين يعانون أصلاً من ضغوط الفقر - تحديات صحية جمّة ناجمة عن الإجهاد المستمر<sup>11</sup> والتفاعل المباشر مع المواد الضارة، ممّا يؤدي إلى استنشاقهم للملوثات وتناولهم للأغذية المتعفنة.

11 POUSSIN, N., « La réorganisation de leur travail par les éboueurs : de la nécessité d'une prescription pour pouvoir y répliquer », dans CORTEEL, D. et LE LAY, S., (sous la direction de), Les travailleurs des déchets, Paris, Érès, p. 191- 205, 2011.

على الصعيد الاجتماعي، يواجه البرباشة في تونس تهميشاً ونبذاً، ويتعرّضون للوصم والتقليل من قيمة نشاطهم المهني. يُعد مصطلح "البرباش" محملاً بالدلالات السلبية المرتبطة بالنفايات وما صاحبها من أوساخ وروائح كريهة. تُعتبر مهنة جمع القمامة من المهن الأقلّ تقديراً في المجتمع التونسي، ممّا يجعل من الصعب على الكثيرين الاعتراف بعملهم في هذا المجال. وما يزيد الأمر إيلاًماً لدى البرباشة هو أنّ هذه الصورة النمطية السلبية تتناقض مع الدور الحيوي الذي يلعبونه كعناصر خفية في عملية إعادة التدوير وتعزيز «الوظائف الخضراء».

البرباشة هم جزء من طبقة «البريكاريا»، وهو مصطلح يصف الأفراد الذين ينخرطون في الأعمال الحرة والعرضية، والتي تتميز بعدم الاستقرار، المؤقتة، وذات دخل غير ثابت. لا يرتبط هؤلاء الأفراد بعقود عمل رسمية مع أصحاب العمل وبالتالي، لا يستفيدون من الضمان الاجتماعي أو التغطية الصحية. وفي هذا السياق يُعرّف جاي ستاندينج (Guy Standing) البريكاريا على أنّها «تلك الفئة التي تواجه عدداً من حالات عدم الأمان ذات الصلة والمتداخلة في كثير من الأحيان، حيث: أمن سوق العمل، والأمن الوظيفي، وتأمين إعادة إنتاج المهارات، وأمن الدخل، وأمن التمثيل. وهي طبقة أكثر تفكيكاً وهشاشةً من طبقة البروليتاريا. حيث تجمع ظروف العمل العرضي والحر بين فئات مختلفة ومتباعدة»<sup>12</sup>.

بالإضافة إلى التهميش وعدم الاستقرار في الدخل ومدّة العمل، يواجه البرباشة غياب إطار تنظيمي يجمعهم ويضمن حقوقهم ويُنظّم عملهم، كما هو الحال مع التنسيقيات، النقابات، أو الاتحادات العمالية. ربما يعود هذا الغياب إلى عدم التجانس الاجتماعي والاقتصادي، وكذلك التفاوتات في المستويات التعليمية والعمرية بين أفراد هذه الفئة. هذه الخصائص تجعل من الصعب التعامل مع هذه الفئة التي تُصنّف ضمن «طبقة البريكاريا»، وهذا بدوره يزيد من حدّة تهميشها وتفككها.

في المقابل، فإنّ مشاعر عدم الأمان، وعدم الاستقرار، واتّساع الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين «طبقة البريكاريا»، التي تُمثّل طبقة ثورية جديدة، وبين الطبقات الاجتماعية التقليدية

12 Guy Standing, « the Precariat : The New Dangerous Class », BloomsBury Academic, 2011- 198 pages.

الأخرى يمكن أن ينقلب إلى «الشعور بالقمع العام والرغبة في القتال»<sup>13</sup>، إذا لم تسع الدولة إلى إيجاد آليات وتشريعات على مستوى بيئة العمل والتّمثيل العمّالي داخل هذه الطبقة. وفي هذا السّياق يقول جاي ستاندينج (Guy Standing) « البريكاريا أكبر من مجرد حقيقة، لقد نمت بسرعة كبيرة في السنوات الأخيرة. إذا لم يتم القيام بشيء ما لتحسين الأمن وإصلاح التفاوتات الطبقيّة الناشئة، سوف تتحوّل حتماً إلى وحش سياسي»<sup>14</sup>.

13 Guy Standing, Ibid.

14 Guy Standing, Ibid.



## الببليوغرافيا المختارة:

الهادي التيمومي، «2021 تاريخ تونس الاجتماعي: (1881-1956)» - صفاقس: (دار محمد عيل الحامي)، ص 203-204.

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2022 «سوق نهج اسبانيا او منهاج الاقتصاد الشارعي في تونس: دراسة سوسيو انثروبولوجية»- تحرير سفيان جاب الله و مجموعة من الباحثين. 286 صفحة.

COLLANGDEON, Philippe, 2005, «Sociologie des pratiques culturelles », Paris, La Découverte 2005, 123 pages.

CORELLI, Claudia, Florin, Bénédicte, 2015, «Introduction vivre des déchets». In : Sociétés urbaines et déchets : éclairages internationaux, Presses universitaires François Rabelais, Tours,

DOOGAN Kevin, 2009,» New Capitalism ? The Transformation of work «, Polity,. 234 pages.

MICHEL, F, 2011,» Quand tout un univers prend sens dans son rapport à la pénibilité de la tâche. Étude d'une entreprise privée d'éboueurs en Belgique «, dans CORTEEL, D. et LE LAY, S., (sous la direction de), Les travailleurs des déchets, Paris, Érès, pp. 169-190,

OULED ABDALLAH, Belaid, 1991, «Le phénomène des déchets en Tunisie : Etude sociologique sur « El barbecha » de Henchir El Yahoudia», FSHST.

POUSSIN, N., 2011,» La réorganisation de leur travail par les éboueurs : de la nécessité d'une prescription pour pouvoir y répliquer «, dans CORTEEL, D. et LE LAY, S., (sous la direction de), Les travailleurs des déchets, Paris, Érès, pp. 191- 205.

STANDING Guy, 2011, «the Precariat : The New Dangerous Class», BloomsBury Academic, - 198 pages.

WHITE FOOT William, 2002, «Street corner society : La structure sociale d'un quartier Italo-Américain», (Paris, édition la découverte, 2002). PP 15-100.



## بروفایل البرباشنة داخل وخارج المصبّ

## البرباشنة الناشطون داخل المصبّ:

## مكان الولادة

النسبة (%)	العدد	
1,4	1	الغضاوفية
1,4	1	الفحص
5,6	4	القصرين
1,4	1	الكاف
53,5	38	الكبارية
2,8	2	المرناقية
1,4	1	الوردية
1,4	1	باب جديد
1,4	1	باردو
1,4	1	بئر الجزار
2,8	2	تونس
1,4	1	جبل الجلود
1,4	1	جبل الخروب
1,4	1	جندوبة
9,9	7	حاسي الفريد
1,4	1	حفوز
1,4	1	زغوان
1,4	1	سليانة
2,8	2	سيدي حسين
1,4	1	طبرقة
1,4	1	عطار
1,4	1	منوبة
100,0	71	المجموع

بيّنت نتائج الدراسة الميدانية أنّ أكثر من نصف أفراد العينة المستجوبة من داخل مصب النفايات بـرج شاكير، أي بنسبة 53.5 %، وُلدوا في معتمدية الكبارية، وهي من أشهر المناطق الشعبية التي توجد بالضاحية الجنوبية للعاصمة وأكثرها فقراً وتهميشاً، كما يعاني جزء كبير من شبابها وساكنيها من البطالة وانعدام فرص التكوين. وحسب ما صرّح به المستجوبون المنتمون إلى منطقة الكبارية، فإنّ أصولهم تعود إلى قبيلة الفراشيش المتواجدة في ولاية القصرين. كما أنّ حوالي 10 % من المستجوبين ولدوا في منطقة حاسي الفريد التابعة لولاية القصرين أيضاً و5.6 % ولدوا في مركز ولاية القصرين. ما يمكن أن نستنتج منه هو أنّ حوالي 69 % من البرباشة العاملين داخل «مصب بـرج شاكير» يعود أصلهم إلى ولاية القصرين وبالتحديد إلى قبيلة «الفراشيش».

كما تبين أنّ 2.8 % من أفراد العينة وُلدوا في مناطق مختلفة داخل تونس الكبرى، بما في ذلك ولاية تونس العاصمة، مدينة المرقاكية التابعة لولاية منوبة، ومنطقة سيدي حسين التابعة لولاية تونس.

أما باقي أفراد العينة فيتوزعون على مدن تونس الكبرى، ولايات ومدن الشمال، الشمال الغربي والوسط بمعدل شخص واحد لكل ولاية أو مدينة.

ما يمكن أن نستنتج منه هو أنّ أغلبية البرباشة العاملين داخل مصب النفايات «بـرج شاكير» ينحدرون من أوساط حضرية مهمشة وتحتل المراتب الأولى وطنياً من حيث نسب الفقر والبطالة. كما ينحدر بعض البرباشة من أوساط حضرية وريفية مهمشة مجاورة لمصبّات النفايات.

### مكان الإقامة

النسبة (%)	العدد	
73,2	52	الكبارية
2,8	2	المرقاكية
1,4	1	المروج 2
1,4	1	الوردية 5
1,4	1	بورقية

7,0	5	بير الجزائر
1,4	1	جبل الجلود
8,5	6	سيدي حسين
2,8	2	عطار
100,0	71	المجموع

يبين الجدول الخاص بمكان إقامة البرباشة الناشطين داخل مصب «برج شاكير» أنّ أغلبية المستجوبين يقطنون بمعتمدية الكبارية التابعة لولاية تونس بنسبة 73 %، بينما يُقيم 8.5 % من أفراد العينة في منطقة سيدي حسين و 7 % بمنطقة بير الجزائر و 2.8 % بكلّ من معتمديتي المرناقية والعطار، وهي كلّها مناطق سكنية مجاورة للمصبّ.

أما باقي أفراد العينة فيتوزعون بنسب متساوية على بعض الأحياء الشعبية التابعة لولاية تونس: إذ يُقيم 5.2 % في كل من المروج 2، الوردية 5، بورقبة وجبل الجلود بمعدل 1.4 % في كلّ منطقة سكنية.

## البرباشة الناشطون في الفضاء العام

### مكان الولادة

النسبة (%)	العدد	
4,1	3	الجبل الأحمر
1,4	1	الجديدة
1,4	1	الجريصة
2,7	2	العمران
5,5	4	القصرين
2,7	2	القيروان
5,5	4	الكاف
1,4	1	المنزه
2,7	2	المنهلة
1,4	1	المهدية
2,7	2	باب سعدون

1,4	1	باب سويقة
9,6	7	باجة
5,5	4	بنزرت
13,7	10	تونس
6,8	5	جندوية
1,4	1	حي التحرير
9,6	7	حي التضامن
1,4	1	حي هلال
1,4	1	دقة
1,4	1	راس الطابية
5,5	4	سليانة
1,4	1	سوسة
1,4	1	سيدي البحري
1,4	1	سيدي حسين
1,4	1	طويرف
2,7	2	قابس
1,4	1	ماطر
1,4	1	نفزة
100,0	73	المجموع

يبيّن الجدول أعلاه توزيع العينة المستجوبة من البرياشة الذين ينشطون خارج مصب النفايات «برج شاكير»، وفقاً لمكان الولادة. ويُلاحظ أنّ حوالي نصف أفراد العينة، بنسبة 46.7 %، وُلدوا في مختلف أحياء ولاية تونس العاصمة. التوزيع الدقيق لهذه النسبة كالتالي: 13.7 % في تونس العاصمة، 9.6 % في حي التضامن، 4.1 % في الجبل الأحمر، 2.7 % في كل من المنيهلة والعمران وباب سعدون، و11.2 % موزعة بالتساوي بين الأحياء التالية: المنزه، الجديدة، باب سويقة، حي التحرير، حي هلال، راس الطابية، سيدي البحري، وسيدي حسين، بمعدل 1.4 % لكل حي سكني.

حوالي 40 % من أفراد العينة المستجوبة في الفضاء العام وُلدوا في ولايات الشمال والشمال الغربي بتوزيع كالتالي: 11 % في ولاية باجة، 8.2 % في ولاية الكاف، حوالي 7 % في كل من ولاية

بنزرت وولاية سليانة، و6.8% في ولاية جندوبة.

بالنسبة لبقية المستجوبين الناشطين في الفضاء العام، فإنّ توزيعهم حسب مكان الولادة هو كالاتي: 5.5% في ولاية القصرين، 2.7% في كل من ولاية القيروان وولاية قابس، و1.4% في كل من ولاية سوسة وولاية المهدية.

الإحصائيات المستقاة من العمل الميداني تُشير إلى أنّ البرباشة الذين ينشطون داخل المصب غالباً ما ينتمون إلى الأحياء الشعبية لتونس الكبرى وولايات الشمال والوسط. في المقابل، البرباشة العاملون في الفضاء العام يأتون من مجموعة أوسع من الولايات التونسية، شاملة لـ: تونس الكبرى، الشمال، الشمال الغربي، الوسط، الساحل، والجنوب الشرقي، وينحدر أغلبهم من الأحياء الشعبية والفقيرة لهذه الولايات

### مكان الإقامة

النسبة (%)	العدد	
1,4	1	أريانة
1,4	1	الانطلاقة
13,7	10	الجبل الأحمر
2,7	2	الجديدة
1,4	1	الزهروني
1,4	1	العمران
2,7	2	المنار
6,8	5	المنهلة
4,1	3	باب الخضراء
2,7	2	باب العسل
1,4	1	باب جديد
5,5	4	باب سويقة
8,2	6	تونس
4,1	3	حي البساتين
1,4	1	حي التحرير
17,8	13	حي التضامن

2,7	2	حي الزيتين
4,1	3	دوار هيشر
1,4	1	راس الطابية
1,4	1	سيدي البحري
6,8	5	سيدي حسين
1,4	1	طبرية
1,4	1	طريق سكرة
2,7	2	قصر سعيد
1,4	1	لاكنيا
100,0	73	المجموع

البرباشة الذين ينشطون في الفضاء العام، أي خارج مصب النفايات ببرج شاكير، يقطنون بالأحياء الشعبية في ولايات تونس الكبرى، وهي مناطق معروفة بكثافتها السكانية العالية وبارتفاع نسب الفقر والبطالة، وكذلك بقلّة فرص التشغيل الرسمية. البيانات الخاصة بمناطق إقامتهم توضّح التوزيع الآتي: حوالي 18 % من المستجوبين يقيمون في حي التضامن، بينما يسكن حوالي 14 % من أفراد العينة في منطقة الجبل الأحمر، ويقيم 8.2 % في تونس العاصمة. 6.8 % من المستجوبين يسكنون في كل من منطقة المنيهلة وسيدي حسين، و5.5 % في معتمدية باب سويقة بالعاصمة. 4.1 % من أفراد العينة يقطنون في كل من حي باب الخضراء بالعاصمة، حي البساتين، ومنطقة دوار هيشر التابعة لولاية منوبة.

حوالي 13.5 % من المستجوبين يقطنون في الأحياء السكنية التالية، حيث يسكن 2.7 % منهم في كل من المناطق التالية: الجديدة، المنار، باب العسل، حي الزيتين، وقصر السعيد. أمّا النسبة الباقية من العينة، التي تمثل 15.4 %، فهم موزعون بمعدل 1.4 % في كلّ من الأحياء والمناطق السكنية التالية: أريانة، حي الانطلاقة، الزهروني، العمران، باب الجديد، راس الطابية، سيدي البحري، طبرية، طريق سكرة، ولاكنيا. هذه المناطق كلّها تتسم بكثافة سكانية عالية ونسب فقر وبطالة مرتفعة، ممّا يعكس الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة التي يواجهها سكان هذه الأحياء.

## اقتفاء الأثر الاتنوغرافي للبرباشة: من مصبّ برج شاكير إلى شوارع تونس: تقرير امبريقي

### بثينة الأديب

باحثة في علم الاجتماع

### فوزي بيلالي

باحث في علم الاجتماع

### الإطار العام:

يتنزل إنجاز هذا التقرير ضمن الدراسة المنجزة حول ظاهرة البرباشة في تونس، والتي تهدف إلى فهم وتفسير هذا النسق الاجتماعي من خلال تفكيك مختلف تجلياته التي تكتسب مضامينها من خلال التفاعل مع عناصر السياق العام. خلال مشاركتنا في هذا البحث، سعينا إلى المساهمة في تقديم قراءة سوسيولوجية لهذه الظاهرة، معتمدين على تقنية الملاحظة بالمشاركة؛ إذ حرصنا على رصد أهم العناصر التي تُشكّل ديناميكية نشاط التبريش والفاعلين الأساسيين فيها، إضافةً إلى تحديد أهم التفاعلات بينهم بالنظر إلى دورها في تحفيز هذه الديناميكية وضمان استمراريتها. كما يرتكز هذا التقرير بشكل أساسي على قراءة جندرية لواقع الفاعلين في حقل البحث الميداني المنجز؛ حيث حاولنا من خلالها تبيان تأثير متغير النوع الاجتماعي على موازين القوى داخل هذا النسق الاجتماعي ومدى انعكاس ذلك على استمراريته.

### الإطار المكاني والزمني للدراسة وللزيارة الميدانية:

قمنا بتنفيذ سلسلة من الزيارات الميدانية المنهجية بهدف تحديد وتوثيق العناصر الأساسية المؤثثة للمصّب ومنطقة المنار، وذلك لاستخدامها كفضاء لإجراء دراسة إمبريكية. وقد اتّخذنا الإجراءات اللازمة لضمان بدء هذه الزيارات في الساعات الأولى من اليوم، ممّا مكننا من متابعة النشاط الداخلي للمصّب بدقة ورصد العناصر الرئيسية التي تسهم في تشكيل ديناميكية النشاط أو على الأقل التأثير عليها.

يقع مصب برج شاكير في الضاحية الغربية للعاصمة التونسية، ويبعد حوالي 8 كيلومترات. تبلغ مساحته أكثر من 120 هكتارًا من الأراضي الزراعية، منها 12 هكتارًا مخصصة لتجميع الفضلات. تمّ استغلال المصب منذ العام 1999، وهو تاريخ إنشائه، وذلك عقب إغلاق مصب «هنشير اليهودية» بمنطقة المروج. وفقًا للتقسيم الإداري، برج شاكير هو عمادة تابعة لمعمدية سيدي حسين السيجومي. غرب المصب تقع عمادة العطار، التي هي أيضا من عمادات سيدي حسين السيجومي. أمّا من الجنوب، تقع مقبرة العطار، ومن الشرق تحدّه منطقة عسكرية تُغطي الغابة بأكملها وهي المنطقة الوحيدة غير المحاطة بسور. في حين تُحيط بالمصب من الجهات الثلاث الأخرى - الشرقية والغربية والجنوبية - أسوار ثلاثة، ويوجد مدخل وحيد يُستخدم لدخول الشاحنات والعملة والبرباشة. يستقبل المصب يوميًا النفايات من 38 بلدية موزعة على ولايات تونس ومنوبة وأريانة وبن عروس، بكميات تتراوح بين 2700 و3000 طن.

في المرحلة الثانية من البحث، تم اعتماد تقنية الملاحظة في منطقة المنار لدراسة البرباشة في الفضاء العام. المنار هي منطقة سكنية تقع شمال وسط مدينة تونس وتتبع إداريًا معمدية المنزه ضمن ولاية تونس. تُعد هذه المنطقة إلى جانب المنزه، موتوالفيل، وحي النصر من الأحياء الراقية في العاصمة التونسية. جغرافيًا، يحدّ المنار من الجنوب شارع محمد البوعزيزي، ومن الشرق المنزه 6، ومن الشمال المنزه 9، ومن الغرب العمران الأعلى.

فيما يخص التهيئة العمرانية للمصب، فإنّه يتّسم بكثافة عمرانية ضئيلة، إذ يشمل المجال العمراني للمصب العناصر التالية:

**- فضاء خارجي:** تمّ تأسيسه من خلال شراكة مع الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات (ANGED)، وكان مقرراً أن يُستخدم في إعادة تدوير النفايات المعدنية. ومع ذلك، توقّف العمل بهذا المشروع منذ فترة طويلة بسبب تفشي ممارسات الفساد الإداري والمالي داخله. نتيجة لذلك، قررت الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات إغلاق هذا الفضاء مؤقتاً إلى أن يتم الفصل في قضايا الفساد المثارة.

## - فضاء إداري متكوّن من:

• **الميزان:** يُعرف أيضاً بـ «البسكولة» من قِبَلِ العاملين بالمصب، يتألف من مسلك حديدي موضوع عند مدخل المصب، ويمتد لحوالي مترين. تعبره يومياً عشرات الشاحنات التي تحمل النفايات المجمعة من ولايات تونس الكبرى. يُستخدم الميزان لقياس كمية النفايات الواردة إلى المصب بشكل يومي، وعلى أساسه يتم دفع مستحقات الشركة المكلفة بنقل هذه الفضلات. لضمان دقة هذه العملية، تمّ بعث مكتب محاذي للميزان يُشرف عليه موظف مكلف برصد وتسجيل جميع البيانات المتعلقة بهذه العملية.

• **مركز الشرطة الخاص بالمصب.**

• **مضخات التصفية:** تمثل هذه الهياكل الضخمة خزانات عملاقة محاطة بسياج حديدي تحمل لافئات تنبيهية تُحذر من المخاطر المحتملة لمحتوياتها. تُستخدم هذه الخزانات في عملية تنقية المياه الناتجة عن تسرب السوائل من النفايات المتراكمة. يتم استخدام هذه الخزانات لتصفية المياه المتسرّبة من تراكم الفضلات. ورغم تأكيد بعض الأشخاص على فعاليتها، إلا أنّ هناك من يُعرب عن شكوكه بشأن صحة هذه المعلومات.

• **الورشة:** يُطلق عليها تسمية «بارك» (parc): وهي مكان يضم مجموعة من العربات والمجرورات الجديدة والقديمة. تُجرى داخلها أشغال إصلاح وصيانة المعدات المخصصة لنقل الفضلات وتهيئة الفضاء الداخلي للمصب، وتعود ملكية هذه الورشة إلى الشركة التونسية الإيطالية لإدارة النفايات (ECOTI)، التي تُدير المصب.

• **أحواض معالجة النفايات:** يضم المصب خمسة أحواض مخصصة لمعالجة النفايات، حيث يوجد بالقسم الجنوبي الغربي منه حوضان كبيران معدّان لتجميع العصارة الناتجة عن الفضلات، التي عادة ما تكون مياهاً سوداء اللون. وتُعرف هذه الأحواض باسم 'البيسين' (piscine)، وهي تسمية استلهمت من شكلها المشابه للمسابح. في الجهة الشمالية من المصب، يوجد حوضان آخران يعملان كحاجز بين المصب والمنطقة العسكرية المجاورة. وقد تم رصد أعمال بناء في الموقع، وبلاستفسار عن الهدف منها أفاد بعض

العاملين أنّها بغرض إنشاء 'بلات فورم' جديدة، في حين أشار آخرون إلى احتمالية أن تكون أحواضاً جديدة قيد الإنشاء.

• **فضاء الفرز المنصة** أو (Plate-forme): يتألف القسم العلوي من المصب من منطقة تُعرف بـ 'المنصة' أو (Plate-forme). هذا الفضاء مُعدّ جزئياً لاستقبال حمولات النفايات التي تُجمع من مختلف ولايات تونس الكبرى، حيث تتوافد الشاحنات بأعداد كبيرة يومياً منذ الصباح الباكر وعلى مدار الساعة. تنتظر هذه الشاحنات في طابور لتفريغ حمولاتها بناءً على إشارة من المسؤول الذي يُحدّد المكان المناسب لذلك.

السبب وراء هذا الإجراء هو أنّ 'المنصة' هي المكان الوحيد المخصص لإلقاء النفايات. وفقاً لأحد المسؤولين، فإنّ التسمية 'بلات فورم' تأتي من الشكل المستوي للمنصة، وذلك بقوله «إسمها بلات فورم خاطر هك تشوف فيها الفورمة متاعها بلات مستوية». وبالتالي، «البلات فورم» هي المكان المُعدّ لوقوف الشاحنات لإلقاء الفضلات، وهذا التعريف يُجمع عليه جميع العاملين بالمصب وهو تعريف وظيفي لا علاقة له باللغة أو أصولها وجذورها.

تجدر الإشارة إلى أنّ مكان «البلات فورم» يتغيّر بين الحين والآخر؛ نظراً إلى أنّه مكان توضع فيه الفضلات ثم يتمّ طمرها بالتراب، وبعد فترة يصبح صلباً وقادراً على تحمل أوزان الشاحنات. خلال فترة الملاحظة، وبعد تغيير موقع 'المنصة'، دخلت شاحنة إلى الموقع القديم وعلقت فيه، ممّا استدعى استخدام 'البلدوزر' لإنقاذها. يُطلق العمال على البلدوزر اسم 'بيل'، وهي الآلة الوحيدة التي تنتقل بحرية في المصب دون خوف من الغرق بفضل وزنها الذي يقارب 100 طن. وتتمثل مهمتها الأساسية في تسوية أكوام النفايات والتراب لإعداد 'منصة' جديدة.

في اليوم الأول من زيارتنا للمصب، لاحظنا وجود تسعة مواقع مُعدّة للنوم، تُستخدم من قبيل برباشة الليل. على الرغم من تباعدها، إلّا أنّ جميعها متمركزة في الجانب الشرقي من 'البلات فورم'. تُعرف هذه المواقع بأسماء مختلفة؛ فمنهم من يُطلق عليها 'ثريشة'، وهو مصطلح يُستخدم عادةً لوصف مرايض الأغنام، وآخرون يسمونها 'عشة'، بينما يُفضل البعض وصفها بـ 'دار'، حيث يدعوك أحدهم بالقول «إيجا نحكو بحذا الدار». وهناك من يُطلق عليها 'قصري'،

ولا يُعرف إن كان ذلك من باب التندرّ أو الجدية، خاصةً عند سماع تعليقات مثل «هنا عملت الفلوس ومن هنا ندورّ في الدولاب».

هذه المواقع مُشيّدة من مواد مُسترجعة من المصب نفسه، مثل الخشب وأكّاس البلاستيك غير القابل للتدوير، وعادةً ما تكون مربوطة بإحكام أو مُضغوطة. السقف مصنوع من الأخشاب والمعادن من نوع 'طولة' (Tôle)، مُغطى بـ 'الباش البلاستيكي' (Bâche plastique)، مع تثبيت أوزان ثقيلة فوقه لمقاومة الرياح، ممّا يجعله مناسباً لمنع تسرب مياه الأمطار والحماية من الرياح. داخلياً، تحتوي على أسرة مصنوعة يدوياً مزودة بمراتب (Matelas) قد تكون مُستعادة من المصب.

خلال فترة عملنا، شهدنا إزالة هذه المواقع بأمر من رئيس الأمن بالمصب، وتمّ إعادة تركيز أربعة منها بعد أيام؛ اثنان في الجانب الغربي، والبقية في الجانب الشرقي من المصب.

في المصب، يُلاحظ تواجد شاحنات بأعداد تتراوح بين 5 إلى 13، تختلف هذه الأعداد باختلاف الأيام والتوقيينات. العدد الأكبر من الشاحنات يُسجل عادةً في الفترة الصباحية حوالي الساعة 8 صباحاً، وهي الفترة التي تتواجد فيها شاحنات العمل المخصصة للفترة الصباحية وكذلك شاحنات الفترة الليلية التي تستعد للمغادرة. الشاحنات تعود إمّا لبرباشة يجمعون النفايات لحسابهم الخاص ويشترون أيضاً من باقي البرباشة، أو لأشخاص يأتون فقط لشراء ما يجمعه البرباشة.

النوع الأكثر شيوعاً بين الشاحنات هو «Iveco»، «D max»، «Isuzu»، و«OM 40»، ويُلاحظ أنّ النصيب الأكبر من الشاحنات يعود للشاحنات الخفيفة من نوع «D max». كما لوحظ دخول درّاجات نارية، أغلبها من نوع «Forza»، تجرّ عربة، وهؤلاء يكونون إمّا للشراء فقط أو لـ«التربيش» لحسابهم الخاص.

تُظهر الملاحظة أنّ شاحنات 'ديماكس' تبدو في حالة جيّدة نسبياً، وهو ما قد يُعزى إلى ضرورة قطعها لمسافات طويلة، خاصةً تلك القادمة من حي النور بكبارية، ممّا يجعلها عُرضة للفتيش المروري أثناء الرحلة إلى المصب. في المقابل، تُشير حالة الشاحنات الآتية من المناطق

المحيطة بالمصب مثل العطار والزهروني والسيجومي والمرناقية إلى أنها قد لا تكون مؤهلة للجولان، وغالباً ما تفتقر إلى اللوحات المنجمية الأمامية. هذا الوضع أثار فضولنا ودفعنا لطرح سؤالين على مالكي هذه الشاحنات، خصوصاً وأنها تمر بانتظام أمام مركز الأمن: كيف يُسمح لشاحنات غير مؤهلة بالتجول في الطرقات؟ ما هو سبب الجولان دون وجود لوحة منجمية في الجهة الأمامية؟

بخصوص الاستفسار الأول، أفاد بعض السائقين بأنهم يحصلون على شهادات الفحص الفني لمركباتهم بطرق غير قانونية، وذلك بشرائها مباشرة دون الحاجة لزيارة المراكز المعتمدة. أحدهم عبّر عن ذلك قائلاً: «أنا عمري لا مشيت للفازيتا نعطي الـ carte grise لشكون و معاها 70 دينار و تجيني الفازيتا حتى للدار».

أما بالنسبة إلى السؤال الثاني فقد أشارت إجاباتهم إلى أنهم يقومون بذلك لتجنب مخالفات الرادار، أمّا بخصوص عدم مساءلتهم من أعوان المرور في الطريق أو أعوان مركز المصب، فقد أرجعوا الأمر إلى أنهم لا يبتعدون كثيراً عن منطقتهم، وأما فيما يتعلق بأعوان أمن المصب فقد كانت الإجابة الحاسمة «لا عاد هاذوكم متاعنا» دون إطناب في التفسير معتمدين في ذلك على فهم ونباهة المستمع.

في مصب برج شاكير، تنتشر أعداد كبيرة من الحيوانات التي أصبحت جزءاً من النظام البيئي للمكان، أبرزها:

- طائر اللقلق: يُعرف هذا الطائر بالعربية الفصحى باسم "الملك الحزين"، وبالعامية بـ "البلّارج" أو "الحاج قاسم"، وفي المصب يُطلق عليه "الغرنف". يُعد هذا الطائر جزءاً من المشهد الطبيعي في المصب، حيث يتجمع ما بين 68 و74 من هذه الطيور. اللافت للنظر أنّ اللقلق في هذا المصب لا يهاجر شتاءً، بل يظل مقيماً على مدار السنة، وفقاً لما أفاد به البرباشة. أجرى فريق بحثي بقيادة البروفيسور "أندريا فلاك" من معهد ماكس بلانك لعلوم الطيور في ألمانيا دراسة حول تأثير العيش على فضلات المصب على سلوك اللقلق، مشيرين إلى تخليه عن عادات الهجرة بفضل وفرة الغذاء.

- النورس: معروف في المصب بـ «طير»، بكسر الطاء وسكون الراء، هذا الطائر البحري المشاغب أصبح من «المستوطنين» الدائمين في المصب ولا يغادره إلى أي مكان آخر.

- الغراب: يُعتبر عدد الغربان أقل مقارنةً بالقلق والنورس، ولا يتواجد هذا الطائر حيث تُلقى الفضلات، بل في الجهة المغطاة بالتراب من المصب، خاصة قرب الأماكن التي ينام بها برياشة الليل.

- الكلاب: عددها يتراوح بين 48 و53 من الكلاب البالغة والجراء، وهذا العدد قابل للزيادة بما أنّ الجراء لديها مخابئ بعيدة عن حركة المصب، وهي تتنافس مع البرباشة على اللحوم.

هذه الحيوانات تعكس كيف تؤثر بيئة المصب في الحياة البرية وتشكل نظاماً بيئياً معقداً يستحق المزيد من الدراسة والتحليل.

## وصف عام لسير يوم عمل في المصب

بعد اصطاف الشاحنات فوق البلات فورم وإعلان العون عن المكان الذي يجب أن تصب فيه الفضلات، يتأهب البرباشة للفرز وهم يعلمون مسبقاً من أين تأتي هذه الشاحنات، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ شاحنات البلدية التي تجمع الفضلات من الحاويات، خاصة في الفترة الصباحية من بعد الساعة التاسعة صباحاً، يزهد فيها البرباشة عادة لأنها حسب قولهم «تجي منقوضة»، وبمحاولتنا فهم هذه العبارة قال لنا أحدهم: «كميون النهار يجيب الزبلة متاع الليل إلي تعداو عليها البرباشة ومن بعد يفرزوها الزبالة كيف يلموها بالطراكتور وما توصل كان منقوضة، لكن كميونة الليل تجي باهية ما ينفضوهاش برشة».

بعد تحديد نوع الشاحنة، ونحن هنا نتحدث عن الشاحنات الحكومية، يتّخذ البرباش موقفاً معيناً، قد يُقرّر الاصطاف للحصول على حصته، أو قد يختار الانسحاب. ويعود هذا التراجع إما إلى أنّها لا تحمل شيئاً يُذكر أو أنّه قد تمّ حيازتها من قبل شخص ما قبل دخولها المصب.

قد أثار هذا الأمر استغرابنا إلى أن رأينا شاحنة تابعة للجيش الوطني تدخل المصب، لكنّها لم تتّجه نحو المكان الذي تصب به كل الشاحنات. بدلاً من ذلك، انحرفت إلى مكان قريب وبدأت

في تفرغ كمية كبيرة من الخبز. اللافت هو أنّ مجموعة صغيرة متكوّنة من 8 أشخاص فقط تجمّعوا حولها، ولم يقترب أي شخص آخر. بعد الاستفسار، أخبرونا أنّ الشاحنة تم حيازتها قبل دخولها المصب. الطريقة تتضمن تنسيقاً هاتفياً بين سائق الشاحنة والشخص الذي اعتاد حيازتها؛ إذ يتفقان على الثمن وعلى المكان والطريقة. وفي الواقع، هناك شاحنات تُحاز ولا تدخل المصب، خاصة تلك التي تحمل سلعة معينة.

في مصب برج شاكير، يتمّ تحديد نوع الشاحنة -سواء كانت حكومية أو خاصة- ومن ثمّ مصدرها، أي من أي مكان أو أي مصلحة أو أي شركة تأتي. هذا التمييز يُمكن البرباش من تحديد ما إذا كانت الشاحنة تحتوي على مواد قابلة للتبريش أم لا، وبالتالي يتخذ قرار الإقبال أو الإدبار لتوفير وقته، خاصةً مع الشاحنات التي ليس له فيها نصيب لأنّها «تابعة» لفلان أو جماعة معينة.

تعتبر الشاحنات الحكومية من أهم المصادر للفضلات القيمة؛ على سبيل المثال، شاحنة السجن تحمل عددًا هامًا من القوارير البلاستيكية، وكذلك شاحنة الجيش، التي تأتي محملة بقوارير وعلب الألومنيوم من المبيتات العسكرية والثكنات والمستشفى العسكري.

من جانب آخر، لاحظنا أنّ البرباشة يتحاشون الشاحنات القادمة من المستشفيات العمومية، وعند سؤال امرأة عن سبب تجنبها لفضلات المستشفيات، أجابت قائلةً «اللفظ راهي متاع سبيطار ناس مرضى برجي آش من تبريش».

بعد اختيار البرباشة للشاحنة يتجمعون وراءها، وهم عادةً من يفتح بابها الخلفي وقد يصعد فوقها البعض من الشباب خاصة لفرز منفرد والظفر بأكبر كمية قبل أن تشترك فيها الأيدي. وقبل أن تُتمّ الشاحنة إنزال حمولة الفضلات يمكن مشاهدة الأيدي وهي تتخاطف الأكياس المغلقة أو ما يرونها صالحًا قبل ملامستها الأرض.

وقد صُدمنا أوّل مرة ونحن نرى الفضلات تُصبّ من الشاحنة فوق رؤوس البرباشة وهم منهمكون بفرز النفايات ومن ثمة صار مشهداً يومياً مألوفاً. بعد أن تترك الشاحنة وراءها كومة من النفايات، يحيط البعض بها، بينما يقوم البعض الآخر بمراقبتها بانتباه. هناك أشخاص



يقومون بجمع المواد التي «يختصون» بها، ومن بينهم النساء اللواتي عادةً ما يلتقطن القوارير البلاستيكية. أمّا قسم آخر فيقوم بتخصيص مناطق لجمع المواد، ممّا يسهل التنظيم والفرز. يتم تخصيص مناطق مختلفة لجمع القوارير والمعادن والأوراق والكرتون، وهناك أماكن مخصصة لجمع الخبز والمواد الغذائية الأخرى.

ومع كلّ حمولة شاحنة تزداد الكميات وتتنوع السلع، وهو ما يزيد من الأرباح لأنّ هناك سلعاً أغلى من أخرى. في عملية البحث هناك من يلبس القفازات، وهناك من يحيط يديه بلفافة من قماش، وهناك من صنع أداةً تساعده على استخراج المواد ويُسَمونها «الرَبَّاش» و هي التسمية الغالبة والقليل يُسميها «البرباشة» وتتمثل في قضيب حديديّ معقف من الأمام وبه مقبض من قماش يشبه شكله شكل منجل الحصاد، ويستعملونه لأنّه «متنوع الاختصاصات» فهو يسحب كلّ ما استقرّ بعيداً عن البرباش، كما يقبض الجروح عند فتح الأكياس؛ لأنّ فتحها بالأيدي قد يُعرّضهم للجروح لوجود بلور مكسور أو حواف الملبات المعدنية. وبعد أن يملأ أحدهم كيسه الذي عادة ما يكون يدويّ الصنع يسمونه «التوصيلة» يحمله إلى مكان التجميع أو صبّها مباشرة في الـ (Big Bag)، وربما اشتق اسمها من وظيفتها أي أنها توصل السلعة لمكان تجميعها، ثم يعود ثانية حتى يلتقط ما قد يجده أو ينتظر عمل «البلدوزر».

البلدوزر (Bulldozer) المعروف بين العاملين في المصب بـ «البيل»، لا يُعد مجرد آلة لطرح أكوام النفايات التي تُفرغها الشاحنات، بل يُستخدم أيضاً كأداة فعّالة ضمن عمليات التبريش. عملية طرح النفايات تُقدم فرصة للبرباشة لقلب كوم النفايات، حيث يُطلب من سائق البلدوزر أن يقوم بطرح النفايات على أبعد مسافة ممكنة، لتمكين البرباشة من فرز أكبر كمية ممكنة من قاع الأكوام التي تكون خارج متناول أيديهم.

بالنسبة إلى الذين يجمعون المعادن، لـ«البيل» وظيفة أخرى؛ يقوم البرباش بتجميع كومة من المعادن ويطلب من سائق البلدوزر أن يمر فوقها ليضغطها، ممّا يجعلها أصغر حجماً وهو ما يجعل حمولة شاحنته تكون أكبر. في بعض الأحيان، لا تتم هذه العملية بطلب صريح من السائق، بل بمجرد مروره تُرمى تحت الـ «بيل» القطعة المراد ضغطها.

هذا التعاون العفوي في المصّب يُبرز التضامن بين البرباشة والعاملين. وقد تمّ تجاهل هذه الملاحظة بعد أن أفادنا أحد البرباشة بقوله: «خويا هنا ما ثمة شي بلاش لازم آخر النهار نمسوه بحويجة».

آلة 'البوكلان' (Poclairn): تمّ تسمية هذه الآلة في المصّب بـ«العنقة» نتيجة لطول رقبتها أو عنقها، والتي تستخدم بشكل رئيسي لحفر وتوزيع التراب في الـ«بلاتفورم»، ولرمي النفايات في المناطق التي لا تصلها الـ«البيل». وعلاوة على ذلك فإن لها وظيفة أخرى وهي تعبئة شاحنات البرباشة بالـ (Big Bag) وذلك نظرًا إلى ثقل هذه الأكياس التي لا يمكن رفعها بالأيدي لتحميلها في الشاحنة. كما يتولى سائق 'البوكلان' (Poclairn) تحميل الكميات الثقيلة للمعادن في الشاحنات، وحسب إفادة البرباشة فإن كل حمولة بـ 1 دينار تُعطى لسائق العنقة، لكن تجدر الإشارة إلى أنّ الذين يعملون منفردين هم عادة من يستعينون بسائق العنقة لأنّ منهم من يضع الـ (Big Bag) في الشاحنة، ثم يتولى تعبئتها على مراحل وهو فعل من معه جماعة أو شركاء.

أثناء عملية الفرز، ترى البرباشة يأكلون ما تلتقطه أيديهم من الحلوى والشوكولاتة والمرطبات منتهية الصلوحية ويشربون الماء من القوارير البلاستيكية خاصة التي تكون مع نفايات إدارية، ويجتنبون قوارير الماء من شاحنة المستشفى فنفسهم تعافها. تجدر الإشارة إلى أنّ الكميات الهامة من الحلويات والمرطبات «كايك» منتهية الصلوحية تباع في السوق اليومي بالكبارية أو ما يعرف بـ «حومة المرشي». كما يجد البرباشة في المصّب لحوم الدواجن منتهية الصلوحية وغيرها من مشقات الدواجن على غرار 'الصلامي'، و'الكوردون بلو'، و'الإسكالوب'، و'الستيك'.. وقد علمنا أنها تباع لعربات الشواء أو محلات الأكلة الخفيفة، وقد حدثنا عن هذا الموضوع سائقو سيارات الأجرة الفردية بعد أن علموا أنّنا بصدد إجراء بحث عن المصّب والبرباشة، وقد نصحونا بعدم شراء أطعمة تحتوي على لحوم الدواجن ابتداءً من منطقة الزهروني إلى المرقاكية، وخاصة من عند أصحاب العربات المتجولة. وذلك لأنّ هذه الأطعمة غالبًا تكون منتهية الصلاحية ويقومون بشرائها عادة من برباشة مصّب برج شاكير. وبعد سؤالنا أحد البرباشة عن الخطورة المحتملة على الأشخاص الذين يتناولون هذه اللحوم المنتهية الصلاحية، أجاب: «عمرنا كامل ناكلو فيها و لباس، خلي كيف تفوحها مليح والله عالمية».

منذ أول زيارة لنا للمصب، رفض البرباشة بشكل قاطع تصويرهم؛ بل قد واجهنا تهديدات جادة بالعنف. سبب هذا السلوك العدواني يعود إلى عدم معرفتهم بالأسباب والأهداف التي دفعتنا للتواجد بينهم. بالخصوص، كانوا يشعرون بالاستياء من تصوير البرباشة «المزيفين» وتجاهل أنهم وحدهم يُمثّلون البرباشة «الحقيقيين».

هذا الحذر الشديد من تواجدهم بينهم وجدنا له سبباً واحداً لا غير، وسنسوقه بعد ذكر السبب المؤدي لمعرفة:

في يومنا الثامن في المصب وجدنا جمعا من البرباشة جالسين بجانب كيس كبير مليء بالأوراق القديمة أو ما يسمى في عرفهم الـ (imprimé) وكانوا بين الفينة والأخرى يقلبون ما تقع عليه أيديهم من تلك الأوراق، فاقتربنا منهم ورحنا نقبّ معهم تلك الأوراق والتي وجدنا أنّها أكوام من نسخ لبطاقات تعريف وطنية وبطاقات عدد 3 للسوابق العدلية وشهادات إقامة، إلى جانب مطالب شغل والسير الذاتية والصور الشخصية. وفي هذا الإطار قال أحدهم: «و بعد يقلك مينين جاء الإرهاب؟ توا النسخة هاذي يهزها أي واحد يطلع بيها (puce) متاع تاليفون و مولى البطاقة يبقى يبحث. توا هاذي بلاد؟».

يُعبّر آخر وبيده شهادة إقامة: «بالله شوف وبعد يقلك شبك ناغم عالحاكم؟ تي شوف مولاها راو ساقية حفات ومخلص تنابر وتسمع كان أرجع غدوة وفي الآخر هاي في الزبلة». فنظر إليه آخر وقال: «بالك مولاها ما جاش هزها»، فأجابه الأول: «و الله زايد صباب حاكم»، وتعالى ضحكهم ليقطعه آخر: «توا شوف مطالب الخدمة ملوحة ومولاها ما وصل صبهم إلا ما خذا قرض و بعد يقولولو تو نكلموك». طلبنا منهم بكل لطف تصوير هذه الأوراق لكنه طلب قوبل برفض قوي: «بورجولية تنجمو تضررونا راهو بالتصوير و تولينا مشكلة يعني تخرج الحكاية البرّة و الله لا عاد تجي ورقة (imprimé).

من هذا المنطلق، فإنّ رفض البرباشة لتواجدهم في المصب وخاصة التصوير كان مردّه تخوفهم من أن نسجّل بعض التجاوزات أو الأشياء التي تقدر بأنّها خطيرة فيما يتعلق خاصة بالنفايات، وهو ما قد يلفت أنظار السلطات إليهم، ممّا قد يكون سببا في «قطع أرزاقهم» إما بمنعهم من

دخول المصب أو بعدم السماح بإلقاء نفايات تُعدّ من أدوات كسب قوتهم، وبذلك فإن الغموض الذي كان سبباً أساسياً في توتر العلاقة مع البرباشة الذين عمدوا في الأيام الأولى إلى استعمال عبارات بذيئة، وخاصة عند تواجد العنصر النسائي من الباحثات، لكن سرعان ما ساد الهدوء هذه العلاقة بعد بناء علاقة من الألفة خلال المدّة التي قضيناها في البحث.

بعد يوم من العمل الحافل بالمخاطر على جميع الأصعدة؛ منها ما هو جسدي، وصحي، ونفسي، يُطرح سؤال جوهري: لماذا هذه المجازفة وتحمل هذا الكمّ من المخاطر، بالتوازي مع الشعور الدائم بالازدراء نتيجة الإقصاء الاجتماعي لمهنتهم؟ فتعددت الدوافع:

الأطفال همهم الوحيد كان جمع المال لتتيسّر لهم «الحرقة»، أما الشباب فهمهم الزواج بما أنهم من عرش يتزوجون وهم صغار السنّ، أمّا الكهول فيرون أنّ هدفهم هو العيش الكريم، لكن هناك من كان لديه موقف مخالف ووصفهم بأنهم حيتان كبيرة لأنّ منهم من لديه مستودعات كبيرة ولديه عدد كبير من البرباشة يعملون لحسابه، بل أكثر من ذلك، فالمصب ليس إلا مكاناً لاصطياد الشاحنات الهامة حيث يتم الاتفاق على عدم دخول الشاحنات المصب والتوجه مباشرة إلى مستودعاتهم لتفريغ حمولتها، والتي عادة ما تكون «سلعة نظيفة»؛ أي كلّها معادن أو بلاستيك أو أوراق فكلها تباع مباشرة دون الحاجة إلى فرزها.

## المخاطر الصحية في المصب:

أكل الأغذية المنتهية الصلاحية يشكل خطراً على الصحة الإنسان التي قد تصل إلى الموت، لكن يبدو أنّ أجساد البرباشة قد صارت تمتلك نظاماً مناعياً قوياً يساعدها على تحمل هذا الأمر. ومع ذلك، هناك أخطار صحية أخرى في المصب تؤثر على الرجال والنساء على حدّ سواء، بالإضافة إلى أخطار أخرى تهدّد النساء بشكل مخصوص.

بالنسبة إلى الأخطار المشتركة فإننا نجد على رأسها الروائح، التي تبعث على الغثيان وهناك من فريق البحث من تعكّرت حالته الصحية بعد اليوم الأول الذي قضاه في المصب؛ إذ أنّ الرائحة لا تفارق الأنوف حتى بعد العودة إلى المنزل و الاستحمام، والرائحة في المصب هي مزيج بين

رائحة النفايات التي تم جلبها للمصب ورائحة الغاز المنبعث من النفايات المردومة وكذلك رائحة الماء الذي يُمثل عصارة النفايات، والرّكاد في الأحواض.

الخطر المشترك الثاني يتمثل في الآلات، ولاسيما البلدوزرات. فهي تُستخدم في دفع القمامة ويحاول سائقها على الدوام استعمال المنبّه لإبعاد البرباشة عن طريقه بينما يواصل تحركه. ومع ذلك، ما يمنع فعلياً السائق من متابعة سيره هو صراخ البرباشة في حالة اقتراب البلدوزر من أحدهم أو عندما يجد أحدهم نفسه محاصراً بين أكوام النفايات دون أن يكون لديه الوقت الكافي للابتعاد بسرعة. وقد أكد العديد منهم وقوع حوادث وفاة تحت عجلات البلدوزر أو إصابة بعض البرباشة بجروح خطيرة بعد تعرضهم للدهس من قِبَله.

الخطر المشترك الثالث يتعلق بالأشياء الحادة والخطيرة الموجودة في النفايات. فعند فرز القمامة والبحث عن مواد قيمة أو مفيدة، يمكن أن يواجه البرباشة شظايا من البلور، ومسامير معلقة بقطع الخشب، وحواف الملعبات. بالإضافة إلى ذلك، قد توجد أدوية في النفايات، سواء كانت منتهية الصلاحية أو لا تزال صالحة للاستخدام. ومن بين هذه الأدوية قد توجد حقن موصولة بإبر. وقد سمعنا امرأة وجدت كبسولات دواء ذات لونين أزرق وأبيض فقالت لأخرى: « موش قنّيلي فراجمي توجع؟ أهيا حرابش باهية ضربة ضربة كيف إلى عطوهالي في المستوصف» فما كان من المرأة الأخرى إلا أن وضعتها في جيبتها وقالت لها: «يرحم والديك تو نشربها بعد الفطور». كما يجب الإشارة إلى مشكلة البطاريات (Les piles) التي تتواجد في جميع أنحاء المصب، ولكن لا يكثر أحد لأمرها نظرا إلى أنها ليست للبيع أو للشراء.

أما الخطر الصحي الذي يتهدد النساء يكمن في احتمالية الإصابة بأمراض الكلى والالتهابات في المسالك البولية. يتجلى هذا الخطر بشكل غير واضح، وقد تبادر هذا الأمر إلى أذهاننا أثناء الملاحظة المباشرة والتفاعل المستمر مع بيئة المصب. في الواقع، ليس هناك مرافق لقضاء حاجات البشر في المصب. وبمراقبتنا لهم لاحظنا أنّ الرجال يذهبون لقضاء حاجتهم وراء أكداس التراب موجدة في جهة الشمال الشرقي للـ «بلافورم»، بينما لم نرَ نساءً يقمن بذلك. عند سؤال إحدى النساء عن كيفية قضاء حاجتهن، أجابتنا قائلة: «وليدي هادي عباد تعري روحك حطتهم؟ ثمة كان توالاات وحدة في المركز وهاك تشوف بعيدة، والوحدة فينا كيف تتحصر تكبّ على راسها

الـ (Big Bag) وتقضي شورها، وإلا نسيبوها على رواحنا لين نروحو باش نبدلو وهانا مغطين ما بيان شي، وكنا نحصر رواحنا لين نروحو أما وحدة من كثر ما تحصر البولة لين تروح لين كلاويها زعمة سقطت ياخي ولت تلبس في الكوش كي تجي للمصب وفي لخر ولت تصفي مسكينة».

بعد انتهاء العمل في المصب وعند الساعة الرابعة مساءً، يستعد البرباش لبيع سلعهم. يقوم أصحاب الشاحنات بفحص الوزن باستخدام ميزان يدوي يتم وضعه في منتصف قضيب حديدي صلب، ثم يربطون الطرف السفلي من القضيب بالـ (Big Bag) أو الكيس الذي يحتوي على البضائع. يقوم شخصان على الأقل برفع القضيب عاليًا لقراءة الوزن، بينما يقوم مشتري السلعة بالاطلاع على كتلتها. بعد ذلك يتم احتساب ثمن البضاعة، وتجدر الإشارة إلى أن سعر الكيلوغرام يكون عادة أقل بمقدار 100 أو 200 مليم من السعر الذي تدفعه محلات شراء البلاستيك والخردة. هذا التفاوت في السعر يقبله البرباش لأنه لو أراد البيع بثمن السوق عليه كراء شاحنة لنقل سلعته، وقبل ذلك عليه دفع المال لسائق الـ «العنقة» لتحميلها، وبذلك يوفر المال والجهد.

## علاقات القوة في المصب:

كشفت زيارتنا الميدانية للمصب عن جملة من العناصر الحاكمة في تشكيل الديناميكية الداخلية لهذا النسق الاجتماعي، نرصدها بوضوح على مستويين أساسيين:

### • مسرحة الذكورة وفعل «التبريش»:

تُبَيّن ممارسات البرباش داخل فضاء المصب استبطاناً واضحاً للثقافة الذكورية، تعكس موروثاً ثقافياً قديماً تم تجديده من خلال تنشئة اجتماعية تُمَجِّد السلطة الأبوية وتدعم كلّ تمظهرات التضامن العضوي. ممارسات يسعى من خلالها البرباش إلى التحكم في ميزان القوى الفاعلة في المصب من خلال مسرحة ذكوريته التي تمرّ عن طريق مسرحة فعل التبريش. حيث إنّه لا يتوانى عن الإعلان عن حضوره بمجرد الوصول إلى المنصة بلباس رث ومهتر، حاملاً حاوية التجميع البلاستيكية (BIG BAG) على ظهره مصحوبة بألة حديدية حادة تستعمل لتسهيل عملية فرز النفايات، ليعلن بذلك عن تأهبه للدفاع عن نفسه في حال نشوب أي شجار أو محاولة

التعسف عليه خلال عملية الفرز في الآن ذاته. كما أنه يعتمد إلى التقاط المواد الغذائية منتهية الصلاحية (خبز- مشروبات غازية مستعملة- جبن- قوالب الشوكولاتة -علب البسكويت- قوارير الماء المستعملة- بقايا الحوم والأسماك المطهوه...)) الموجودة ضمن أكداس النفايات وتناولها أمام الجميع، مبرهننا بذلك عن فحولته وقدرته على التحدي ومجابهة المخاطر. كما أنّ البرباش يسعى من وقت إلى آخر إلى افتعال المشاكل والصراعات مع زملائه، سعياً منه إلى التذكير بجدارته في التمتع ضمن هذا النسق الاجتماعي والانخراط ضمنه، اعتماداً على العنف اللفظي والجسدي باعتبارهما أداتين لاستعراض القوّة أمام زملائه، خاصة وأنّ أغلب البرباشة يمارسون رياضة المصارعة الرومانية.

إضافة إلى ذلك يحرص البرباش على المجاهرة بتناول أقراص الأدوية (تحديداً أقراص أو حبوب ليريكيا) منتهية الصلاحية المتناثرة في أرجاء المنصة وتعاطي المواد المخدرة. جلّ هذه الممارسات التي تُوظّف في الظاهر للتخفيف من وطأة الواقع الرث وظروف العمل المهينة وغير الإنسانية تستبطن حالة من الإنكار لهذا الواقع من قبل البرباشة.

عناصر تتشابه لتسهم في صياغة الملمح الاجتماعي للبرباش الذي يتجلى في صيغته الثانوية من خلال رفض تواجد العنصر النسائي واندماجه ضمن هذا النسق الاجتماعي. حيث لا يسمح للنساء البرباشة بالغوص في أكداس النفايات إلاّ بشكل جزئي خاصة عندما يتعلق الأمر بأكداس نفايات المصانع أو ما يسمى «بالشايح» ونفايات المستشفيات التي تنخرط ضمن منظومة الحوز. سلوكيات تعكس تمثلاً ذكورياً للفضاء يمرّ عبر تقسيم العمل «المرابلاصتها في الدار» «الخدمة هذي خدمة رجال».

كما أنّ نشاط العنصر النسائي في المنصة ينحصر في فرز أصناف معينة من القمامة تتمثل في المواد البلاستيكية (القوارير بلاستيكية- «المشمع»- علب المشروبات الغازية المصنوعة من مادة الألومنيوم) والمواد الورقية (كرتون- كتب- أوراق...) بالإضافة إلى الخبز والملابس المستعملة دون غيرها.

## • التقسيم المجالي لمنصة المصب في علاقة بالانتماء الجهوي:

يُسمّ التقسيم المجالي لمنصة المصب بتوزيع يحكمه الانتماء الجهوي ليحضر كعنصر مؤثر في الديناميكية الداخلية لنشاط البرباش داخل المصب. حيث نلاحظ منذ الساعات الأولى للزيارة الميدانية تقسيما واضحا للمجال قائمًا على الانتماء الجهوي، يتجسّد في تواجد مكثف للبرباشة 'الفراشيش' المقيمين تحديدا في 'حي النور' التابع إداريا لمعمدية الكبارية من ولاية تونس. تحتل هذه الأغلبية جزءًا كبيرًا من مساحة المنصة معتمدين في ذلك على علاقات القرابة الرابطة بين أغلبية البرباشة الناشطين في المصب مُشكّلةً بذلك صيغة واضحة للتضامن العضوي داخل فضاء المصب. لنجد في المقابل حضورًا نسبيًا لأقلية من برباشة سيدي بوزيد تحديداً من 'أولاد عبد الله' ويتمركز جلهم على أطراف المنصة كعناصر مقيمة بصفة مؤقتة في المصب.

## التوافقات الداخلية والخارجية المحركة والحاكمة لديناميكية نشاط البرباشة داخل المصب.

كشفت الزيارة الميدانية للمصب ولجال نشاط برباشة الفضاء العام عن جملة من التوافقات بين الفاعلين الاجتماعيين الناشطين في هذا الفضاء اعتمادًا على تقنية الملاحظة بالمشاركة. لتبرز لنا مركزية هذه التوافقات في تحريك ديناميكية النسق العام للمصب. حيث يتبين أنّ الانخراط داخل «جماعة برباشة برج شاكير» وممارسة فعل «التبريش» داخل المصب يخضع لضوابط محددة يستحيل دونها ضمان استمرارية النشاط والبقاء داخل هذا الفضاء.

قبل الغوص في توصيف هذه التوافقات المرصودة وجب تحديد الفاعلين الأساسيين في المصب. يمكن تقسيم هؤلاء الفاعلين إلى فاعلين داخليين وآخرين خارجيين:

## • فاعلون داخليون:

- البرباش\_الشراي: (المعروف بين البرباشة بـ«بو ركلة<sup>1</sup>»). يُعتبر جزءًا مركزيًا من نظام

1 توصيف يعتمد صغار البرباشة أو ما يسمى بالبرباشة\_الصناع/ اللقطة كوصم للتعبير عن امتعاضهم من ممارسات الشراي تحديدا فيما يخص تقييم وزن النفايات و تثمين مقابلها المادي. فمن خلال مراقبتنا لميدان الدراسة تبين لنا إنتشار بعض ممارسات الفساد التي تتمثل في محاولة الشراي مغالطة الصناع في تحديد الوزن الحقيقي للكمية المجمعّة من النفايات

التجارة داخل المصب. الغالبية العظمى من الشرايين هم من الفراشيش، سكان حي النور الذي يتبع إدارياً لمعتمدية الكبارية من ولاية تونس. يُعرف البرباشة-الشراية بحياتهم لسيارات إيسوزو 404، وهي سيارات متوسطة الحجم ومتهالكة، مصممة لنقل أكبر كميات ممكنة من النفايات، غالباً ما تتجاوز الحمولة القانونية المسموح بها. تفتقر هذه السيارات إلى شروط السلامة الأساسية وغالباً ما تُخالف قوانين الطرقات والسلامة المرورية في تونس؛ إذ تتجول هذه السيارات في الفضاء العام بمصابيح مكسورة، إطارات مهترئة، وغالباً ما تغيب عنها ملصقات خلاص معلوم الجولان. يؤدّي «الشراي» دور تاجر الجملة داخل فضاء المصب، حيث يستقبل ويجمع النفايات المفروزة من قبل «البرباش-الصانع» أو «اللقاط»، ويقوم بوزنها وتحديد قيمتها المالية التي تُقدم كمقابل مادي لجهود «البرباش-الصانع». ولا يقتصر دور «الشراي» على ذلك فحسب، بل يعمل أيضاً كوسيلة نقل مدفوعة الأجر لـ «البرباش-الصانع»، حيث يقوم يومياً بنقل مجموعة من «البرباشة-الصانع» بمقابل مادي لفرز وجمع النفايات لصالحه.

- البرباشة الصانع أو اللقاط (نساء، رجال، أطفال)

- سائقو الشاحنات

- أعوان الإدارة التابع للوكالة الوطنية للتصرف في النفايات (ANGED)

- عمال الشركة التونسية الإيطالية للتصرف في النفايات (ECOTI) المستغلة للمصب

(سائقو الجرافات، مراقبون ومنظمون لسير العمل)

- أعوان الشرطة

## • فاعلون خارجيون:

- أصحاب مخازن التدوير: وهو تاجر جملة للقمامة يمتلك مصنعاً صغيراً لإعادة تدوير القمامة. منهم من تخصص في مجال تدوير النفايات بعد أن انتفع بدورات تكوينية في هذا المجال، جمع من خلالها جملةً من الخبرات العملية التي سهّلت عليه الاندماج في سوق الشغل

أثناء عملية الوزن، حيث أن «الشراي» أو «بو ركية» خلال عملية التثمين لا يتوانى عن محاولة رفع الحاوية المحملة بالنفايات باستعمال ساقه وهو ما من شأنه التقليل من الوزن الحقيقي للبضاعة المجمعة بشكل ينعكس سلباً على المقابل المادي المقدم للبرباش-الصانع/اللقاط.

كصاحب شركة لتدوير النفايات وفاعل في منظومة الاقتصاد الأخضر. وقد أبرزت تفاعلاتنا مع الناشطين في ميدان الدراسة تأثير أصحاب المخازن على الديناميكية الداخلية لنشاط البرباش داخل المصب، فهم يلعبون دوراً أساسياً في تحديد وتيرة الدورة الاقتصادية تحديداً فيما يخص تحديد الأسعار والتحكم فيها. فوفقاً لتصريحات برباشة المصب فإنّ سعر المواد المجمعّة والتي تختلف قيمتها وفقاً لنوعية المواد المعتمدة في تصنيع النفايات المجمعّة (قارورة، فولاذ، خشب، بلاستيك، ورق...) يتمّ تحديدها بصفة يومية من قبل أصحاب هذه المخازن بالتوافق مع الشرائية، وفقاً لما يخدم مصلحتهم المالية واستناداً إلى متغيّرات المعطى الاقتصادي العام.

## أصناف التوافقات والتحالفات:

### • البرباش\_الشراي والإدارة:

يُعدّ «الشراي» الفاعل الأساسي والمحوري في بيئة المصب، حيث يُمثّل حلقة الوصل الرئيسية بين «البرباش\_الصانع/اللقاط» والمصب كمصدر لتحصيل لقمة العيش. بفضل امتلاكه لوسيلة نقل، وهي سيارة إيسوزو 404، يلعب دوراً حيوياً في النسق السوسيو-اقتصادي للمجتمع المحلي.

من خلال المراقبة الميدانية، تمّ ملاحظة أنّ «الشراي» يقوم بنقل مجموعات من الأفراد بما في ذلك نساء، رجال، وأطفال يُعرفون بـ «البرباش\_الصانع» يومياً مقابل مبلغ رمزي يُقدر بثلاثة دنانير للشخص الواحد. هذا المبلغ يُعتبر اقتصادياً ورمزياً بالنسبة إلى «البرباش\_الصانع/اللقاط» مقارنةً بتكاليف التنقل باستخدام وسائل النقل العمومي، ممّا يجعل خدمة «الشراي» مفضلة ومستدامة للبرباشة في تسهيل تنقلاتهم اليومية إلى المصب ومنه

يتم التنبّث من هوية الركاب من قبل حارس بوابة المصب الذي يعمل بالتنسيق مع بقية العناصر الإدارية خاصة منهم العناصر الأمنية. وقد لاحظنا من خلال الزيارة الميدانية تواجد عدد كبير من «البرباش\_الصانع من فئة الأطفال»<sup>2</sup> والذين تتراوح أعمارهم بين 9 سنوات و18 سنة

2 و تجدر الإشارة إلى تواجد عدد لا يستهان به من الأطفال و أغلبهم يعملون بالليل و سبب ذلك أن مركز الأمن للمصب يكون

أغلبهم من سكان حي النور، وهنا تبرز أهمية التوافقات بين «البرباش\_الشراي» والإدارة. حيث كشفت لنا التفاعلات مع البرباشة أنّ السماح بتواجد هذه الفئة التي تنشط بصفة غير قانونية في فضاء المصب يمر عبر توافقات داخلية تخضع لمقابل مادي يقدر بمبلغ رمزي يتراوح بين 20 و30 دينارًا يتم دفعها بعيدًا على الأنظار.

### • البرباش\_الشراي وسائقو الشاحنات:

من خلال رصدنا لميدان الدراسة، تمكّنا من اكتشاف ثنائية أخرى من التوافقات تربط بين «البرباش\_الشراي» وسائقي الشاحنات، والتي تتجسّد من خلالها ظاهرة حوز النفايات؛ حيث يسعى «البرباش الشراي» إلى فرض سيطرته على مجال فرز نوعية محددة من النفايات، ذلك عن طريق التنسيق مع سائقي الشاحنات المحملة بالنفايات وحجز حمولة الشاحنة لصالحه قبل الوصول إلى المنصة مقابل مبلغ مالي يتراوح بين 30 و50 دينارًا. يصعد «البرباش\_الشراي» إلى الشاحنة بمجرد وصولها إلى المنصة ليشرع في فرز بضاعته معلنا بذلك امتلاكه للحمولة، ليعطي بذلك إشارة الاستعداد للعمل لفريق «البرباش\_الصناع» التابع له. وبمجرد تفريغ شحنة الشاحنة في الحيزّ المجالي المحدد لها يتسارع «البرباش\_الصناع» في الانقضاض على نوعية النفايات المستهدفة، ليتمكنوا من تجميع أكثر كمية ممكنة في حاويات (BIG BAG) ثم تكديسها في حيزّ مجالي خاص «بالبرباش\_الصانع/اللقاط»، ليتمكنوا من تجميعها والتوجّه بها إلى شاحنة «البرباش\_الشراي» المناط بعهدته تقدير القيمة المادية للبضاعة المجمعة وتحديد المقابل المادي لها.

### • بين اللقطة: النساء البرباشة والرجال البرباشة:

إنّ الطابع الذكوري الذي يتّسم به المصب يؤثّر بصفة مباشرة على هذه الصيغة من التوافق الرابطة بين «النساء\_البرباشة» و«الرجال\_البرباشة». من الناحية العددية، فإنّ وجود الرجال يفوق بكثير وجود النساء في المصب؛ حيث سُجّل أقل عدد للرجال بـ 76 رجلاً، بينما بلغ أعلى عدد لهم 157 رجلاً، أمّا فيما يتعلق بالنساء، فقد سُجّلت أقل نسبة لهن بواقع 5 نساء، بينما بلغت أعلى نسبة لهن 10 نساء، وينقسمن على النحو التالي: 8 منهم من منطقة العطار ويعملن

مغلقا، كما أنهم يخجلون من ظهورهم نهارا كبرباشة فهو عمل يرون فيه إهانة لذواتهم

لحسابهن الخاص، وواحدة من منطقة المراقبة تأتي مع زوجها وابنها بسيارة من نوع 'سي 15' (C 15) أما المرأة الأخرى فهي قادمة من منطقة حي النور الكبارية مع عائلتها وتتناوب على المجيء مع نساء أخريات للمصّب لجمع البلاستيك وتحضير الشاي وفرز السلعة وملئها في (Big Bag) أو تجميعها حسب النوع كلّ في مكانه الخاص؛ أي أنّ مجموعة الرجال من حي النور في كلّ مرة يصطحبون امرأة من العائلة. كلهن يلبسن الحجاب ولا يظهر من رؤوسهن إلا دائرة الوجه، كما أنّهن يلبسن كالرجال الجوارب الطويلة ويدخلن تحتها السراويل منتعلات الأحذية الرياضية ويلبسن فوق كلّ هذا لباساً طويلاً وفضفاضاً، وبخصوص هذا اللباس المشترك و«الموحد» أجابت إحدهن «السترة باهية حتى وحدة اطيح وإلا تطلع فوق كوم الزبلة ما تتعراش قدام الرجال وزيد الواحد يحمي روجو مالهاويش».

هذه الكثافة العددية للعنصر الرجالي داخل المصّب مقارنة بالعنصر النسائي، تضع النساء أمام ضرورة خلق جملة من التوافقات التي من شأنها تيسير عملية الاندماج ضمن هذا الفضاء الذكوري. فنجد أنّ «النساء\_البرباشة» يحرصن على جلب المواد الأولية لطهي الشاي، ويعمدن إلى تقديمه للرجال الذين لا يترددون في مشاركة النسوة جلساتهن ضمن فترات الاستراحة في انتظار قدوم جحافل الشاحنات الناقلة للفضلات. لتضحي بذلك هذه الحلقات فضاءً للتواصل الاجتماعي، يتبادل ضمنها البرباشة الأحاديث حول صعوبات الحياة اليومية والتفاعل حول تطورات الأوضاع العامة الاقتصادية والاجتماعية. فمن خلال هذه الجلسات تسعى «النساء\_البرباشة» إلى خلق نسيج من الروابط المعنوية للتأثير على «الرجال\_البرباشة» حتى يقع السماح لهن بالغوص في أكداس القمامة وممارسة عملية الفرز التي تمكنهن من كسب قوتهن اليومي.

### • البرباشة\_الشراية والبرباشة\_الصنّاع أو اللقطة :

التفاعلات بين «البرباش\_الشراي» و«البرباشة\_الصنّاع» تُشكّل نموذجاً للتوافقات الاقتصادية والاجتماعية المعقدة داخل فضاء المصّب. «البرباش\_الشراي» يومياً ينقل مجموعة من الأفراد مقابل مبلغ زهيد يبلغ ثلاثة دنانير، ممّا يُعتبر معلوماً رمزياً واقتصادياً بالنسبة إلى «البرباش\_الصنّاع». هذه التكلفة المخفضة تُعد ميزة كبيرة للبرباشة الذين قد يجدون صعوبة في تحمل تكاليف التنقل العادية.

بالمقابل، يستفيد «البرباش\_الشراي» من استخدام هذه المجموعة لتجميع أكبر كمية من النفايات لصالحه. فور وصولهم إلى المنصة (PLATEFORME)، يزودهم بحاويات بلاستيكية كبيرة الحجم أو (BIG BAG) لتجميع النفايات المفروزة، ومن ثم يقوم بتثمين هذه النفايات من خلال وزنها وتحديد قيمتها المادية.

علاوة على ذلك، بعض النساء البرباشة اللائي يتمتعن ببنية جسدية قوية ولديهن سلطة لسان يخلقن شكلاً من التوافقات مع «البرباش\_الشراي»، حيث يتعهدن بحماية حوزة من النفايات، ممّا يمنع بقية النساء من الغوص فيها. فهنّ يستخدمن العنف الجسدي واللفظي لصدّ زميلاتهن الراغبات في فرز القمامة، ممّا يمكّن «البرباش\_الشراي» من جمع كميات مهمة من المواد البلاستيكية والورقية، بالإضافة إلى تسهيل عملية فرز النفايات لصالح «البرباش\_الشراي» ولصالحهن، إذ أوضحت ذلك بقولها: «نتفاهم معاه مالأول عباية ليا و عباية ليه».

هذه الديناميكيات تظهر كيف أن القوة الاجتماعية والاقتصادية يمكن أن تُستغل لتعزيز المصالح الشخصية ضمن بيئة تنافسية ومعقدة مثل المصب، حيث تلعب القدرة على السيطرة والتفاوض دوراً مركزياً في تحديد من يحصل على ماذا وكيف.

### • الشراي و الشراي:

خلال زيارتنا الميدانية للمصب، برزت ثنائية جديدة توضح الديناميكيات الاقتصادية القائمة بين مجموعة «البرباشة\_الشراية». هذه الثنائية تكشف عن كيفية تمكن البرباش من التحكم في النسق الاقتصادي داخل وخارج المصب. كما أوضح أحد البرباشة خلال المقابلة: «فما شكون في المصب يخدم بجهدو وفما جماعة تخدم بمخها». هذا التصريح يلقي الضوء على القوانين الداخلية الحاكمة لعمليات المصب، حيث أنّ بعض «البرباشة\_الشراية» يمتلكون القدرة على تحديد واستغلال أفضل أنواع النفايات المجمعة.

هؤلاء البرباشة يقومون برصد واختيار أصناف معينة من النفايات التي تعتبر قيّمة، ومن ثم يتفوقون مع سائقي الشاحنات الناقلة للنفايات على حوز هذه الأصناف مقابل مبالغ مادية كبيرة. بعد ذلك، يقومون ببيع هذه النفايات والمساومة عليها مع بقية «البرباشة\_الشراية» المهتمين بتلك الأصناف، ويتم التفويت فيها بمبالغ مالية مهمة.

هذه الديناميكيات تظهر مدى تعقيد النظام الاقتصادي داخل المصب وكيف يعتمد على شبكة من الاتفاقيات والتفاوض لتحقيق الأرباح. تُظهر أيضًا الفجوة بين أولئك الذين يعملون بجد لجمع النفايات وأولئك الذين يستخدمون المعرفة والعلاقات لتحقيق مكاسب اقتصادية كبيرة من خلال التحكم في تدفق النفايات والموارد الثمينة.

### • الإدارة والبرباشة المقيمون في المصب:

على خلاف بقية الثنائيات المرصودة تسود هذه النوعية من الثنائيات أجواء متوترة، نظرا إلى ما تحتويه من استبطان لتحدي السلطة من خلال احتلالهم لمجال مكاني عمومي وخاضع للمراقبة بصفة غير قانونية. حيث لاحظنا من خلال تردنا على هذا الفضاء تواجد عدد من الأكواخ منها القصديرية ومنها المكونة من مواد بلاستيكية على أطراف منصة المصب (PLATE FORME) مقسمة كالاتي: 4 أكواخ للبرباشة أصيلي ولاية سيدي بوزيد، و4 أكواخ للبرباشة أصيلي ولاية القصرين تحديدا منطقة «حاسي الفريد»، وكوخ حديدي تابع للشركة المستغلة للمصب يخصص غالبا «للنساء\_البرباشة» حتى يتمكّن من قضاء فترة الاستراحة داخله.

### • سائقو الجرافات والبرباشة\_الشرابية:

تمثل هذه الثنائية أضعف حلقات التوافقات التي تمّ رصدها في فضاء المصب، حيث أنّ سائقي الجرافات لا يتمتعون بحيّز واسع من الحرية لفرض شروطهم ضمن هذه الصيغ من التحالفات، فهم يخضعون وباستمرار لمراقبة مشدّدة من قبل موظفي الإدارة. حيث أنّ مهمتهم تتمثل في تهيئة مجال المنصة من خلال دفع أكداس القمامة أو ما تبقى منها بعد فرزها، نحو الحوض ليتم إتلافها، ويفسح المجال لوضع شحنات النفايات الجديدة المتوافدة على المصب مكانها. غير أنّ الفترة المتاحة للغوص في أكداس القمامة، التي يتمّ تفريغها وفرزها تبقى محدودة وقصيرة، بشكل يمنع «البرباش\_الصانع أو اللقاط/ة» من الاستغلال الأمثل لشحنة النفايات. هنا تبرز أهمية التوافقات التي يسعى «البرباشة\_الصانع» أو «اللقاطة» إلى صياغتها مع سائقي الشاحنات؛ حيث يحاول إقناعه بتمديد مدة طرح القمامة ومماثلة أعوان الإدارة ليتمكن «اللقاطة» من فرز أكثر ما يمكن من المواد. ولا يتوقف دور سائق القمامة عند ذلك، بل إنّه يساعد «البرباشة» في تجميع النفايات من المواد الفولاذية حتّى يُسهّل عليهم تحميلها في

شاحنة التحميل؛ ذلك من خلال دهسها ومحاولة الضغط عليها باستعمال الرافعة للتحكم في حجمها وتكديس أكثر ما يمكن منها.

### • الشراية وأصحاب مخازن التدوير:

الشراي وأصحاب مخازن تدوير النفايات الموجودة خارج المصب ثنائية تكشف عن تواجد ديناميكية اجتماعية واقتصادية أخرى للبرباشة خارج فضاء المصب. حيث أنّ أصحاب مخازن التدوير التي توجد أغلبها في منطقة «بيرين» يقومون باستقبال أكداص النفايات المفروزة، المجمعّة من قبل «البرباش\_الشراي» لإعادة تدويرها اعتمادا على آلات رحي متخصصة في عجن البلاستيك والورق لإعادة إدماجها في السوق الصناعية.

لعلّ هذا الأمر ما يجعله عنصرا فاعلا في تحديد أسعار مختلف أصناف النفايات. وهنا تبرز أهمية التوافقات بين هذه الثنائية، والتي يسعى فيها كلا الطرفين الضغط على الآخر بهدف التموّج ضمن هذا النسق السوسيو-اقتصادي، إذ يقوم صاحب المخزن بتحديد سعر أصناف النفايات كما يحدد يوميا كمية النفايات الممكن رسكلتها وفق طاقة استيعاب مخزن التدوير التابع له، وهو ما من شأنه التأثير على المردود المادي «للبرباش\_الشراي». لذلك غالبا ما يضطر «البرباش\_الشراي» إلى إعادة تخزين النفايات المفروزة في الفضاء المنزلي الخاص به في انتظار عودة الأسعار إلى نصابها. كما يؤثر هذا السلوك الاقتصادي بصفة مباشرة على أجور «البرباش\_الصانع أو اللقاط» للضغط على الخسائر المادية المنجّرة عن قرارات أصحاب مخازن تدوير النفايات حيث تتغيّر أسعار المواد المجمعّة وفقا لهذه المتغيّرات المرصودة.

### • برباش الفضاء العام وسكان الأحياء

يحرص برباشة الفضاء العام على ابتكار تكتيكات خاصة لتحسين وتيسير عملية فرز وتجميع النفايات، وذلك بالاعتماد على تحالفات استراتيجية مع سكان بعض الأحياء الراقية في الضاحية الجنوبية لتونس العاصمة مثل حي النصر، المنزه، والمنار. هذه الأحياء تُمثّل الحيّز المجالي الذي رُصد من قبل الباحثين لمراقبة نشاط التبريش في الفضاء العام.

من خلال الاتفاقات المبرمة مع بعض السكان، يتم تجميع القوارير المائية الفارغة، الملابس المستعملة، وبقايا الخبز. وتُسَلَّم هذه المواد بشكل منظم إلى البرباشة. هذه الإستراتيجية تُخَفِّف من المجهود البدني المطلوب من البرباشة، وتسمح لهم بتحقيق استثمار أمثل للموارد المتاحة في هذه المناطق.

هذه التحالفات تعكس كيف يمكن للبرباشة استخدام مهاراتهم التفاوضية والتواصلية لتعزيز وضعهم الاقتصادي في سياق معقد وتنافسي.

## التقسيم الزمني للعمل داخل المصب

فيما يخصّ التقسيم الزمني للعمل داخل المصب، رصدنا من خلال الزيارات الميدانية صنفين أساسيين:

### 1 / توقيت رسمي يمتد من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الرابعة بعد الزوال:

لوحظ وجود جميع العناصر الإدارية في المصب، بما في ذلك أعوان الشرطة وموظفي إدارة الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات (ANGED)، وكذلك عمال الشركة التونسية الإيطالية للتصرف في النفايات (ECOTI) المشغلة للمصب (سائقو الجرافات والمراقبون ومنظمو سير العمل).

في انتظار توافد الشحنات الأولى من النفايات، تبدأ سيارات «البرباشة\_الشراية» في الدخول إلى المصب، بعد الخضوع للمراقبة من قبل عون الحراسة، باتجاه المنصة (PLATEFORME) محملة بَعْدَةَ العمل المتمثلة في الحاويات البلاستيكية (BIG BAG) وعدد من «البرباشة\_الصناع/ اللقاط/ة». ويقوم «البرباشة\_الشراية» بنقلهم يومياً إلى المصب مقابل معلوم رمزي (3 دنانير) لتجميع أكبر كمية ممكنة من النفايات لصالحهم. بمجرد الوصول يتجمع جزء من «الرجال\_البرباشة» في شكل مجموعات تنتشر في أرجاء منصة المصب في انتظار وصول الشاحنات، والجزء الآخر يسارع بالانضمام إلى حلقات «النساء\_البرباشة» لشرب الشاي. تضم هذه الحلقة مجموعة من النساء البرباشة لا يتجاوز عددهن 15 برباشة أغلبهن متزوجات، يرتدن المصب بصفة يومية

خلال الفترة الصباحية، عدا يومي السبت والأحد لتحصيل لقمة العيش، ويقيم أغلبهن في المناطق المجاورة للمصب (بئر الجزار- حي العطار- بيرين- سيدي حسين). حيث يحرصن كل يوم على جلب مؤونة الغذاء الخاصة بهن رفقة المواد الأولية لطهي الشاي وتوزيعه على زملائهن من البرباشة ضمن فترات الراحة.

مع توافد أولى شحنات القمامة إلى فضاء المنصة، يقوم عمال الشركة التونسية\_الإيطالية للتصرف في النفايات (ECOTI) المستغلة للمصب (سائقو جرافات، مراقبون ومنظمون لسير العمل) بتوجيه سائقي الشاحنات نحو الأماكن المخصصة لتفريغ شحنات النفايات نظرا إلى أنّ المكان يتغيّر بصفة دورية حتى يتم تهيئته لشحنات اليوم الموالي عن طريق الردم. هذه التقنية تندرج ضمن السياسة المعتمدة من قبل للوكالة الوطنية للتصرف في النفايات من خلال ما يسمى بتقنية الـ (MILLE FEUILLE) حيث يقوم عمال الشركة بجلب كميات من الأتربة وسكبها على بقايا النفايات التي تمّ فرزها مع إضافة طبقة مكملة من الحجارة المكررة أو ما يسمى «بالشرشور».

## 2 / توقيت غير رسمي يمتد من الساعة الرابعة بعد الزوال إلى حدود الساعة الثامنة صباحا من اليوم التالي:

خلفا للفترة الصباحية، تتميز الفترة المسائية للعمل في المصب بحضور نسبي لأعوان الإدارة وأعوان الأمن مقابل تواجد مكثف لفئة الشباب والأطفال، الذين تم رصدهم في صفوف البرباشة الناشطين في منصة المصب بأعداد كبيرة تتجاوز 150 شخصا. تواجد يفسر من جهة بافتقارهم للصفة القانونية كعمال نظرا إلى صغر سنهم حيث تتراوح أعمارهم بين 10 و18 سنة، ومن جهة ثانية يفسر بامتعاضهم من الوصم الاجتماعي المنسوب لممارسة فعل التبريش في الأوساط الاجتماعية، إذ أنّ العمل في الفترة المسائية يُقلّل من إمكانية التعرف على هويتهم ويُبقي ممارستهم لهذا النشاط خفياً عن المقيمين في محيطه الاجتماعي.

بالتفاعل مع عدد من «البرباشة الأطفال والشباب» حول دوافع اختيارهم لممارسة هذا النشاط والاعتماد عليه كمورد رزق، خاصة في مجال زمني ومكاني تتزايد فيه احتمالية التعرض لمخاطر مادية ومعنوية، تبين لنا أنّ الدوافع تراوحت بين ما هو مادي وما هو معنوي. في الجانب المادي

نجد أنّ غزارة المردود المالي الذي يتم تحصيله من المصّب والذي يقدر متوسطه بمبلغ 200 دينار يومياً يمثل دافعا أساسيا للانخراط في هذا النسق الاجتماعي، فهو يُخوّل لهم توفير تكاليف عملية الحرقّة إلى «إيطاليا» بدرجة أولى، إلى جانب توفير ظروف العيش الكريم لهم ولبقية أفراد العائلة بدرجة ثانية، نظرا إلى تدهور الحالة الاجتماعية لأسرهم. كما أنّ العمل في نطاق فضاء اجتماعي تغيب فيه أغلب أشكال الرقابة الاجتماعية، ونعني بذلك المصّب، يمثل دافعا أساسيا لانخراط هذه الفئة الاجتماعية ضمنه، فهو فضاء تتجلى فيه مظاهر التضامن العضوي لتعطي مساحة أوسع من الحرية للفاعلين الناشطين داخله.

«ما نخدمش تحت المارك وما نحبش شكون يحكم فيا»

«لهنا نخدم حر نفسي بين أهلي وإمالي»

«لهنا نجي وقت إيّ نحب على زي راسي ونصوّر الخير والبركة...»

## التقسيم المجالي لتوزيع القمامة داخل المصّب:

يصنّف البرباشة القمامة إلى 3 أصناف أساسية (الشايح\_السيفيل\_الذرات):

- **الشايح:** يتكوّن من نفايات المصانع والمستشفيات (شركات تصنيع المواد الغذائية \_ شركات مصانع الخياطة \_ مستشفيات حكومية \_ مصحات...).
- **السيفيل (Civil):** تتكون من شاحنات القمامة الاستهلاكية المتأتية من المنازل والمطاعم.
- **الذرات:** تتكون من بقايا أكياس النفايات التي تم فرزها والدفن بها نحو الحوض باستعمال الجرافات، بصفة دورية، حتى يتم إفساح المجال لوضع باقي الحمولات من النفايات الواردة على المصّب. حيث يمثل هذا الصنف من القمامة مصدرا مهما لتحصيل أكثر كمية من النفايات من قبل «البرباش\_الصناع» أو ما يسمى بـ «اللقاط» الذي يزاوّل عمله دون أن يكون خاضعا لضغط الزمني.

يلعب تصنيف نوعية النفايات دورا مهما في التقسيم المجالي للنفايات بالمصّب، فنجد أن صنف 'الشايح' يتمّ تكديسه في مدخل المنصة على رقعة ترايبية واضحة تجعل عملية الفرز فيها

سهلة الإنجاز. وبما أنّ هذه النوعية من النفايات تخضع لقانون الحوز، فإنّ «البرباش\_الشاري» يحرص على مراقبة مسار تفريغ شحنة القمامة مدفوعة الثمن بالتنسيق مع عدد من «البرباش\_الصناع أو اللقطة» الذين يشتغلون لصالحه.

فيما يخص صنف السيفيل الذي يشمل نفايات المنازل، والمطاعم، وبقايا ورشات تشييد المنازل، فيتم طرحها في حيز مجالي بعيد نسبياً عن بقية الأصناف نظراً إلى كثافة كمية النفايات الواردة على المصب من هذا الصنف.

يعتبر صنف الدزات مصدراً مهماً لتحصيل الدخل المادي، إذ أنّ عملية إعادة تجميعه عن طريق الجرافات تتيح «للبرباش\_الصناع» المجال لرصد المواد المستهدفة من النفايات والتقاطها بسهولة. كما أنّه يتمكن ضمنها من ممارسة فعل التبريش بعيداً عن الضغوطات؛ حيث لا يكون مضطراً إلى مواكبة وتيرة تفريغ شاحنات النفايات التي تتطلب منه تركيزاً مضاعفاً. حيث يكون «البرباش\_الصانع» مطالباً من جهة بتجميع أكبر كمية من النفايات لتحصيل لقمة العيش والحرص على ضمان سلامته الجسدية في الآن ذاته، وهو ما يجعل هذا الصنف قبلةً لعدد كبير من «البرباش\_الصناع أو اللقطة» تحديداً من فئة الأطفال والشباب الذين يقبلون على الغوص في هذا الصنف من النفايات لفرزها وتحصيل المال.

كما أننا نسجل حضوراً نسبياً للعنصر النسائي من البرباشة في المجال المخصص لصنف «الشايع»، والذي يمكن تفسيره بمنظومة الحوز المسيّرة لهذا الصنف من النفايات. فحضور هذه الفئة ضمن هذا المجال يبقى مشروطاً بالعدد الضئيل للتوافقات التي تصوغها مع بعض «البرباش\_الشرائية»، أو بما تتيحه لها المنظومة الإدارية من شرعية في الاستفادة من بعض الشاحنات من النفايات مثل شاحنة الثكنات العسكرية «كميون العسكر أو الجيش» كما يفضل البرباشة تسميتها، وشاحنة المستشفى العسكري «كميون الميليتار» باعتبار ما لها من صبغة عمومية تجعل من إدماجها في منظومة الحوز مهمة صعبة خاصة أنّها شحنات مراقبة يتم نقلها وتفريغها من قبل أعوان المنظومة العسكرية. في المقابل نسجل حضوراً مكثفاً لهذه الفئة في المجال المكاني المخصص لصنف السيفيل باعتبار الامتداد المجالي للمكان المخصص لهذا الصنف وكثافة الكميات التي تجعل منه مكاناً تتساوى فيه الحظوظ ويسود فيه منطق الجدارة عوضاً

عن منطق القوة والمساومات. ويندرج هذا الحضور لنسجل غيابا شبه كلي للعنصر النسائي من البرباشة ضمن المساحة المخصصة لصنف الدزات؛ وهو غياب يعود إلى صعوبة التبريش في هذا المجال، نظرا إلى الطبيعة الرخوة للأرضية المكونة من أكداش النفايات حديثة التكديس مما يزيد من إمكانية التعرض لمخاطر أثناء القيام بعملية الفرز.

## الملاح السوسيو-أنثروبولوجية للبرباشة: في مصبّ برج شاكير وخارجه:

أسهمت الزيارات الميدانية المنجزة لمجال نشاط البرباشة، داخل وخارج المصب، في صياغة تصور أولي عن الملاح الاجتماعي للبرباش الذي تمّ رصده من خلال جملة من التظاهرات المادية واللامادية لثقافة التبريش، مسهمة بدورها في تشكيل هوية ثقافية خاصة بهم. وقد ساهمت في صياغة جملة متشابكة من الأنساق الاجتماعية الخاضعة بدورها لتأثير متغيرات السياق العام. في هذا الإطار تم رصد بعض الاختلافات التي تميز الملاح الاجتماعي لبرباش المصب عن برباش الفضاء العام.

### • الملاح الاجتماعي لبرباش المصب:

ينحدر أغلب برباشة مصب برج شاكير من ولاية القصرين تحديدا من معتمدية «حاسي الفريد»، والتي تم تصنيفها كأكثر المناطق الفقيرة في تونس. يقيم أغلبهم في منطقة حي النور التابعة إداريا لمعتمدية الكبارية من ولاية تونس. تطغى النزعة القبلية على العلاقات الرابطة بين البرباشة المقيمين في هذا الحيز المكاني، لتتجلى من خلال تظاهرات التضامن العضوي التي تسود جماعة البرباشة؛ حيث أنّ أغلب سكان حي النور من الفراشيش يمارسون نشاط التبريش ويعتمدون عليه كمصدر للدخل القار. كما أنّ توزيع الأنشطة والأدوار داخل هذه الوحدة الاجتماعية يخضع للتقسيم التقليدي للعمل، ويستبطن بدوره تصورا ذكوريا للفضاء العام ولتموقع المرأة ضمنه؛ وهو ما يفسر رفض العنصر الرجالي لانخراط العنصر النسائي عموما في الديناميكية الداخلية للمصب «المرأ عندنا ماتخدمش بلاصتها في الدار». كما أنّ العامل الوراثي يلعب دورا هاما في ضمان استمرارية هذه الوحدة الاجتماعية إذ أنّ أغلب البرباشة

الناشطين ضمن هذه الجماعة تناقلوا قوانين ممارسة نشاط التبريش عن طريق أفراد العائلة.

في المقابل نجد أن فئة قليلة التحقت بميدان التبريش لأسباب أخرى تتلخص كالآتي: تعرضها لحادث شغل انجر عنه التوقف عن مزاولة العمل / تدهور الأوضاع الاقتصادية للمؤسسة المشغلة مما أدى إلى التخلي عن خدمات عدد كبير من اليد العاملة ضمن المؤسسة / تدهور الوضع العام إثر أزمة الكوفيد التي أضرت بالمؤسسات الصغرى وأدت إلى إفلاسها. كما أن أغلب البرباشة من أصحاب السوابق العدلية.

يرفض عدد كبير من «البرباشة\_الصناع» من فئة الشبان وصمهم بالبرباشة، ويفضلون صفة «عامل يومي» و«خادم حزام» نظرا إلى ما يحمله من دلالات التهميش الاجتماعي التي من شأنها تعميق الإحساس بالضميم لدى هذه الفئة الاجتماعية.

### «الحقرة موجودة تمسك الكيان متاعك»

#### «نصوروا الخير و البركة في المصب أما ديمما يقعد مصب»

على النقيض من ذلك، نجد أن النساء الناشطات في مصب النفايات يُقْمَنَ في المناطق المجاورة للمصب مثل حي العطار، بئر الجزار، سيدي حسين، وبيرين. أغلبهن مارسن الفلاحة كنشاط اقتصادي رئيسي، قبل أن يُجبرن على تغيير مصدر رزقهن والانخراط في نشاط جمع القمامة وإعادة تدويرها، وذلك إثر قيام الدولة بمصادرة أراضيهن لإنشاء المصب.

هذا المصب بات يُمثل لهن مصدرا هاما لتحصيل دخل مالي معتبر، نظرا إلى قربها الجغرافي من أماكن سكنها. بعضهن اخترن ممارسة هذا النشاط بنسق موسمي يتوقف على احتياجاتهن الاقتصادية، في حين تُمارسه أخريات بصورة دائمة، معتبرات إياه المصدر الرئيسي والوحيد للعيش.

#### • الملحق الاجتماعي لبرباش خارج المصب\_ برباش الفضاء العام:

برباش الفضاء العام هو برباش حديث الانخراط في ممارسة نشاط التبريش. ينحدر أغلبهم من مناطق الشمال الغربي (باجة-جندوبة-سليانة). يتخذون من أحياء شمال الضاحية

الجنوبية لتونس العاصمة (حي النصر-المنزه-المنار) حيزا مجاليا لممارسة نشاط التبريش وتحصيل رزقهم اليومي، وتغيب كل أشكال التضامن العضوي في تشكيل ملامح هذه الوحدة الاجتماعية حيث نلاحظ غياب علاقات القرابة بين البرباشة الناشطين ضمن هذا الحيز المكاني.

يتراوح متوسط الأعمار بين 17 و60 سنة بالنسبة إلى «الرجال البرباشة» وبين 40 و50 سنة لدى «النساء البرباشة»، أغلبهم مقيمون في الأحياء الشعبية المتاخمة لهذه المناطق (حي التضامن-حي البساتين). أغلب النساء البرباشة كن يعملن مساعدات منزليات، بينما تتراوح وضعية الرجال البرباشة بين من تم الاستغناء عن خدماته إثر تعرضه لحادث عمل أو إفلاس الشركة المشغلة له جراء الأزمة الاقتصادية المترتبة عن أزمة الكوفيد وبين من خسر مشروعه الخاص خلال أزمة الكوفيد. وهو ما دفعهم للانخراط في نشاط التبريش الذي يوفر لهم موردا وفيرا للمال. حيث تختص النساء البرباشة في تجميع المواد البلاستيكية، والخبز والكرتون، إلى جانب تجميع الملابس المستعملة.

نرصد اختلافاً على مستوى وسائل العمل المعتمدة لدى برباشة الفضاء العام حيث أنّ أغلبية الرجال البرباشة يمتلكون دراجات نارية إما من نوع (Forza) أو (Peugeot 103)، يتم تركيب عربة بها من الخلف وهي يدوية الصنع وتسمى «البرويطة» تصنع من حديد مع عجلتين لدراجة نارية، ويوضع بها (Big Bag) لأنها الأداة الوحيدة القادرة على استيعاب أكبر كمية من القوارير البلاستيكية، مع وضع أكياس تعلق على حاشية العربة المجرورة وتسمى «الشكارة»، كما درج اللسان التونسي على تسميتها على خلاف معجم المصب حيث تسمى «التوصيلة» لتجميع علب الألمنيوم للمشروبات الغازية والكحولية وكذلك الخبز. لنجد في المقابل أنّ النساء البرباشة يعتمدن أساسا، في ممارسة نشاط التبريش، على حاوية البلاستيكية (BIG BAG) لتجميع النفايات المفروزة.

كما أننا نرصد تمظهرها مختلفا لمنطق الحوز في الفضاء العام. إذ نلمس تواجده بصفة حصرية لدى العنصر النسائي. حيث يتمركز تموقع أغلب النساء البرباشة أمام الفضاءات الطبية والمراكز التجارية (مركز مقني -MONPRIX) باعتبارها مصدراً وفيراً للنفايات. كما أنّ هذا التموقع يكشف اختياراً إستراتيجياً من قبل النساء البرباشة اللواتي يعتمدنه للتمويه عن الممارسات غير القانونية المتمثلة في نشاط التسول.

فيما يخص وتيرة ممارسة نشاط التبريش، فقد رصدنا من خلال الزيارات الميدانية وتيرة متصاعدة لحركية البرباشة في الفضاء العام تزداد مع ارتفاع درجات الحرارة مع حلول فصل الصيف، إلى جانب تزايد أعداد اليد العاملة الموسمية (نساء- شباب) العائدة لوفرة كمية النفايات.

فعل التبريش في الفضاء العام يتبع مجموعة من القوانين الداخلية التي تنظم العمل بين الأفراد في هذا المجال، ومن أهم هذه القوانين هو العرف المشهود له بينهم. وفقاً لهذا العرف، يجب على الشخص الذي يرغب في التبريش أن يلتزم بتلك القواعد ولا يخالفها. يتمثل هذا العرف في أن الشخص الذي يصل أولاً إلى حاوية الفرز يصبح حائزاً حقيقياً على الحاويات التي تكون أمامه. ويجب على الأشخاص الذين يأتون بعده أن ينتظروا حتى ينتهي الشخص الأول. وقد شهدنا أكثر من مرة أن هناك أعوان بلدية يقومون بفحص محتوى الحاويات قبل تفريغ الفضلات لينتقي ما يعتبر صالحاً للبيع.

على عكس المصعب، هناك بعض الأشياء التي تختفي من الفضاء العام، ونحن نشير بذلك إلى فضلات الشركات والمنشآت العمومية التي ليس لها مكان آخر للتخلص منها سوى مصب برج شاكير. بمعنى آخر، يكتفي برباشة الشارع بفحص ما يتم تركه في الحاويات من قبل المواطنين والمارة، والتي تقتصر عادةً على القوارير البلاستيكية وعلب الألومنيوم. ومن جهة أخرى، توفر حاويات الشارع «فرصاً» للبرباشة، حيث يقوم بعض المواطنين بتجميع القوارير ثم يقدمونها لهم دون عناء جمعها. يمكن أيضاً للمواطنين أن يتصلوا بالبرباشة لإعطائهم أشياء قديمة لديهم والتي لا تزال صالحة للاستخدام، مثل الملابس والأجهزة الكهرومنزلية والأثاث، وهذا يعتبر مصدراً هاماً للدخل. وقد أفادنا أحد المبحوثين بقوله: «أنا ضد كلمة برياش و أنا في الحقيقة تاجر كيف ندبر حاجات مكسرة و إلا ناقصة حاجة نصلح و نبيع في السوق و نصور الخير والبركة»، وكأننا هنا أمام صيرورة في شكل المهنة ليستحيل التبريش مرحلة تمهيدية لامتهان التجارة.

أدوات التبريش هي عربات الأطفال (poussette) وعادة ما يستعملها الطاعنون في السن، وخاصة النساء اللاتي يضعن عليها كيسا كبيرا لجمع القوارير البلاستيكية، وعلب الألومنيوم، والخبز.

## نماذج البرباشة

من خلال ملاحظتنا لبرباشة كل من برج شاكير والفضاء العام بمنطقة المنار، ارتأينا تقسيم البرباشة إلى أربعة نماذج:

### 1/ البرباش «الحقيقي»:

هم العمال الذين يعملون في مصب القمامة ويعتبرون هذا العمل مهنة خاصة بالنسبة إليهم. في الماضي، كان البرباشة في مصب «اليهودية» يحملون شارات، ويتلقون متابعة صحية من إدارة المصب. وعلى هذا الأساس يرى هذا الصنف من البرباشة أنهم يشكلون هيكلًا منظمًا، وقد استقيننا هذا أيضًا من قول أحدهم متذمّرًا من مسلسل تونسيّ عرض مشاهد حول برباشة وهميين على حدّ وصفه: «بربي علاش يشوهو فينا، علاش ما صوروناش أحنّا، أحنّا البرباشة بالحق موش فروخ تمثّل». إذًا لا يمكن اعتبار شخص ما برباشًا إلا متى اشتغل في المصب.

### 2/ البرباش «النظامي» :

وهما نوعان: عون النظافة وعون البستنة وكلاهما من أعوان الدولة، وهما اليد الأولى التي تصل إلى نفايات الحاويات والفضلات في الفضاء العام، وهو ما يفسح لهم المجال لجمع أكبر كمية من البلاستيك وكل ما يمكن بيعه.

### 3/ البرباش «البورجوازي»:

ربما يبدو أنّ التصنيف يحمل خطأ دلاليًا، بل ويتضمن تناقضًا بين مفردتيه، ولكننا عمدنا إلى استعماله، أي التصنيف، للإشارة إلى الموظف العام أو العون الذي يتيح له منصبه الوصول إلى الأوراق المستعملة، والمعروفة في لسان المصب بمصطلح (l'imprimé). هذه الأوراق قابلة لإعادة التدوير. وعوض التخلص منها كفضلات، يقوم هذا العون ببيعها، وهذا ما أثار غرابة أحد البرباشة في المصب وهو يروي لنا حادثة عاينها: «يا معلّم راهو ثمة دخلاء تتصور مشيت نبيع في الـ (imprimé) نلقا واحد مكستم و هبط من (Golf 7) كرادن باعهم بـ 36 دينار وخرج معناها صاحبي أذاكة كلالي رزقي».

## 4 / منتحل صفة البرباش :

هذا النوع من البرباشة يتواجد خارج المصب، ولقد قررنا تسميته بـ «منتحلي صفة البرباش» نظراً إلى أن هنالك فئة أغلب أفرادها يكونون في مرحلة متقدمة من العمر من الجنسين يمتلكون طريقة خاصة في فعل التبريش ما يميزهم عن غيرهم، فتراهم يجلسون عادة بالقرب من حاويات القمامة أو في المنطقة المحيطة بها ويتواجدون هناك بصورة منتظمة. وعادةً ما يكون لديهم عربة أطفال يحملون فيها كيساً بلاستيكيًا وقد وضعوا فيه بعض القوارير البلاستيكية لا تتجاوز كتلتها كيلوغرامين اثنين، وعلى الرغم من وجود عديد القوارير الملقاة في الشارع. ربما يكون هذا السلوك محاولة منهم لجذب انتباه المارة وإظهار صعوبة الحياة وضيق العيش الذي يواجهونه. وبمجرد مرور أحدهم يتبعون إحدى الطرق التالية:

**أ-** مناداة المارّ وطلب إعانة مالية منه، معتمدين في ذلك على وابل من الدعوات الصالحات والتذكير بدرجات المتصدقين وما ينتظرهم من أجر وإن أعطيته مالا فهو لله و ليس لعباده، وهي الطريقة الأقل تأثيراً في المارة؛ بل قد تنشئ أثراً عكسياً حيث تسمع ردّات فعل من قبيل «صبح لي خلك» أو «ولات خدمة و يستبهلو في العباد» أو قد تسمع أحدهم يكرر جملة عادة ما تتكرر في شوارعنا « تي بدارها وبفلوسها و عاملينها ريق ينحيو بيه في فلوس الناس».

**ب-** الطريقة الثانية تتمثل في انتظار مرور أحدهم حتى تسمع صوت تنهيدة عميقة أو تأوه مع زفير طويل وإطلاق عبارات من قبيل: «يا ربي تعاوّنّي» أو «الله لا تحوّننا» أو الإكثار من الحمد والشكر كدليل على القناعة بالحال وهذه الظروف الصعبة.

**ج-** الطريقة الثالثة وهي أن يبادر هذا الصنف بتحية صباحية أو سلام يعقبه وابل من الدعوات من نوع: «ربي يفتحها في وجهك هالصباح» أو «ربي يسترک و يعطيك ما تتمنى» أو «صباح الخير يا وجه السعد والخير»، وهي طريقة لها وقع على المارة بحسب من يبادر بدفع المال من عدمه بعد تعرّضه لهذا النوع من «التحيّل العاطفي»، وهي تأتي في درجة الأكثر تأثيراً بعد الطريقة الرابعة.

د- الطريقة الرابعة تتمثل في جلوس هذا الصنف بطريقة تُوحى بالتعب والإرهاك أو يقوم بتصريف القوارير في بطء شديد، أو تجده يأكل خبزا ويتبع اللقمة بشربة ماء وهو مشهد يوحى لمن يراه أول مرة على الاحتياج الشديد وهي أكثر طريقة تعطي أكلها خاصة مع متساكني تلك المنطقة.

### خاتمة :

حاولت هذه الدراسة الإثنوغرافية لمصب برج شاكير رصد عدد من العوامل الرئيسية التي تسهم في فهم «ظاهرة التبريش». من خلال تجربة التماهي والاندماج في ميدان الدراسة، أصبح من الواضح أنّ فعل التبريش يندرج ضمن نسق اجتماعي يتضمن العديد من العناصر المتشابهة. كما ظهر بشكل جليّ خصوصية هذا النسق في قدرته على التكيف مع البيئة الاجتماعية والمادية التي يتواجد ضمنها. لتترجم على أرض الواقع من خلال جملة من القوانين والضوابط المنظمة للديناميكية الداخلية والخارجية لهذا النسق.

كما تتجلى هذه الخصوصية أيضاً من خلال التوافقات القائمة بين الفاعلين الرئيسيين في ميدان البحث، والتي تكشف إلى حدّ معيّن عن وجود نزعة فردانية واضحة من أجل حماية المصالح الفرديّة، وذلك من خلال السعي إلى السيطرة على العناصر المتحكمة في سيرورة هذا النسق. ويتم ذلك بطريقة تضمن استدامة هذا النسق كوحدة بناءية فاعلة في المجتمع تؤثر وتتأثر بمتغيرات السياق الاجتماعي عموماً.

## المجتمع السفلي أو مجتمع الهامش: التغيرات- مثال البرباشة

### د. حسن الموري

جامعة تونس المنار

تتنزل هذه الورقة في إطار رصد التحولات والتغيرات التي شهدتها ظاهرة «البرباشة» في تونس من خلال تتبع هذه الظاهرة منذ تقريبا عشر سنوات، حتى نحاول فهم مسارات تطورها في إطار واقع اجتماعي متغير، وكذلك من خلال علم اجتماع الهامشية الذي يمكن أن يساعدنا على تفكيك الظاهرة والأسس التي تقوم عليها وكيفية تنظيمها واشتغالها والبحث في التناقضات التي ترسم وجودها وارتباطاتها النسقية بالفاعلين الاجتماعيين ضمن بنية منظومة عمل البرباشة أو من الأطراف الأخرى المتداخلة.

منذ أن أنجزنا العمل الأول حول البرباشة<sup>1</sup> يبدو أن هناك تحولات وتغيرات تستدعي تحليلها على محك البحث الميداني الذي أنجزناه سنة 2012 والدراسة الميدانية حول المصب المراقب ببرج شاكير سنة 2023 التي قام بها مجموعة من الباحثين.

### نتائج دراسة البرباشة في 2012

كان الهدف الأساسي للدراسة هو البحث في واقع معقد ومتشابك للبرباشة، حيث تعلق الأمر بتحليل شروط ومبررات وجود هذه الفئة الاجتماعية، عن تاريخها، وأصولها الاجتماعية وعلاقة هذه الفئة الاجتماعية بالاختلال الاقتصادي والتنموي بين المناطق والإقصاء من المنظومة الاقتصادية الشكلية. وعلى الرغم من الدور الحاسم الذي تلعبه هذه الفئة في حماية البيئة، فإنها تعيش حالة تهميش قسوية وخاصة عدم الاعتراف بها وبالمهمة النبيلة التي تقوم بها بقطع النظر عن الجانب المعاشي وراء هذا النشاط. ليس هذا فحسب، بل يعاني هذا النشاط والمنخرطون فيه الوصم الاجتماعي.

1 Hassane Mouri, l'informel ou la face cachée de la précarité : le cas des chiffonniers de Tunis, Tunisie 2016

هكذا فإنّ مستقبل البشرية لا يمكن أن يبني على الظلم، واليأس الاجتماعي، والخوف وتدهور التنوع البيولوجي. إنّ الرهانات التي تواجه المجتمع التونسي مثل المسألة الديموغرافية، والتشغيل، والتعليم، والتماسك الاجتماعي، والصحة، وتغيّر المناخ، والتصرف في النفايات، والأمن أصبحت مسألة ملحة.

تندرج مواجهة المخاطر البيئية بكل أنواعها في إطار تطبيق مبادئ التنمية «المستدامة» ومجرياتها ومصاحباتها، كما ترتبط المسألة البيئية أيضا ارتباطا وثيقا بمكافحة عدم المساواة الاجتماعية والهامشية.

تطرقت الدراسة أيضا إلى مسألة الحكم الاجتماعي أو الوصم (stigmatisation) الذي يصف هذه الفئة الاجتماعية بتسميات مثل «برباشة» في تونس أو «زبالين» في مصر، وهي دلالة على المكانة المتدهورة وتحقير لهذه الفئة في مجتمعات شديدة الهرمية والتراتبية الاجتماعية، حيث تفرض المجموعات الاجتماعية المتنفذة هكذا نعوت للفئات الأقل حظوة.

### الإشكالية الكامنة وراء هذه الدراسة تدور حول محورين رئيسيين:

يتناول المحور الأول الجانب الخفي للهباشة (précarité) وللعطوبة (vulnérabilité) التي تعاني منها فئة البرباشة في تونس، وكيف تحوّل هذا العمل شيئا فشيئا من نشاط ظرفي إلى نشاط له هيكلته وضوابطه الخاصة، حتى أصبح يُعبّر عن خفايا أخرى تضمها التسمية الموصومة.

أما المحور الثاني فيحاول تحليل وتفسير القطاع غير المهيكل أو اللاشكلي المرتبط بتدوير النفايات وانتشار هذا النشاط في مجتمع تحت (la société d'en bas) متأزم<sup>2</sup>.

بالإضافة إلى الجانب الاقتصادي المحض، الذي أفرزته الأزمة الاجتماعية والقيمية التي يعيشها المجتمع التونسي حاليا، بيّنت الدراسة أنّ الوضع المتردي الذي تعيشه هذه الفئة الاجتماعية يمكن تفسيره أساسا بحقيقة أنّ النظام القائم؛ النظام الاجتماعي والسياسي هو نظام ينتج التفاوت

2 Rosa Bonheur Collectif, La ville vue d'en bas. Travail et production de l'espace populaire Paris, Éditions Amsterdam, 2019, 227 p.

ويعيد إنتاج هرمية اجتماعية مقبولة، ربما كان أجبر هذه الفئة وغيرها من الفئات الأخرى على العيش على هامش المجتمع وتحديدا على هامش المنظومة الاقتصادية الشكلية.

لمعالجة الإشكالية المطروحة في هذه الدراسة، تمّ الاعتماد على مقارنة منهجية متعددة الأبعاد، حيث قام الباحث بدراسة بليوغرافية لرسم تاريخ الظاهرة في تونس- وهي ليست جديدة كما يعتقد البعض- ثم دراسة ميدانية بالمعايشة في المصب المراقب ببرج شاكير، وإجراء مقابلات مع البرباشة الذين يشتغلون بالنهار والفرق التي تعمل بالليل، كما تناولت أيضا الدراسة بالبحث عديد الفاعلين المتداخلين في هذه المنظومة.

ويتناول الفصل الأول من الدراسة مسألة التأسيس النظري لعلم اجتماع البيئية، وتقتصر الدراسة شرح كيفية تكييف علم الاجتماع مع الموضوعات البيئية، كما تمّ تتبع تاريخ علاقات علم الاجتماع بدراسة الظواهر البيئية وربط كل ذلك بالأسس والتيارات النظرية لمؤسسي علم الاجتماع، حيث شكلت هذه الشذرات الأولى قاعدة نظرية وابستمولوجية مهمة لتأسيس علم اجتماع يهتم بالظواهر البيئية.

خصصت الدراسة جانبا مهما منها لتفسير الروابط بين أزمة منوال التنمية في تونس، وخاصة في أرياف المنطقة الغربية شمالا ووسطا وجنوبا، وعلاقة كل ذلك بالنتائج المترتبة عن السياسات التنموية مثل البطالة، والفقر، والهجرة الداخلية، واختلال التوازنات بين الأرياف والمدن خاصة منها الساحلية<sup>3</sup>، وظهور الفئات الهامشية التي تكفلت بنفسها وطورت استراتيجيات تأقلم خاصة بها (Résilience) حتى تؤمن الحد الأدنى للعيش.

اتخذت الدراسة موقفا نقديا من السياسة البيئية في تونس وتطوراتها، وهي سياسات عمومية لم تكن في أغلبها تعبر عن احتياجات المجتمع أو عن إشكاليات حقيقية تمسّ الواقع المحلي والعام للبلاد بقدر ما كانت سياسات مرتبطة بما تُخطط له الدوائر الدولية والمنظمات غير الحكومية والجهات المانحة، وهي مؤسسات لا يمكن أن تأخذ مكان المجتمع التونسي أو منظمات المجتمع المدني في تحديد الأولويات في التدخل البيئي، وهذا في تقديرنا ما أنتج التهميش واختلال التوازن بين المناطق وحتى بين الأحياء في نفس المدينة.

3 Hassine Dimassi, Gouvernorat de Kasserine : Réalité et perspectives, 2012, Texte Inédit, UGTT,

ويعرض الفصل الأخير من الدراسة اشتغال القطاع اللاشكلي المرتبط بتدوير النفايات، وانتشار هذا القطاع في مجتمع متأزم من خلال النظر في الاقتصاد غير الرسمي والهشاشة، من هذا المنظور، وتعبئة المفاهيم الرئيسية مثل: الاقتصاد اللاشكلي، والفقر، والهشاشة، والتهميش، ومجتمع المخاطر، والتنمية الحضرية، والتنمية المستدامة. تمكّن الباحث من اختراق هذا المجتمع المغلق، وبيّن تشكّل العمل الشبكي الذي يفعل الروابط الأولية (lien inscrit) كما يقول (Guy Bajoit)<sup>4</sup> على غرار القرابة العائلية، والعروضية، والنسب، ثم في درجة ثانية الانتماء الجهوي وصولاً إلى التجاور (Proximité).

### أهم النتائج التي توصلت هذه الدراسة الميدانية:

كانت عواقب تحديث المجتمع التونسي وخيمة على البيئة. فالاستثمارات الضخمة، وإنشاء أقطاب صناعية مثل قابس وصفاقس، ومعالجة المحاصيل الزراعية، لم تأخذ في الاعتبار الآثار البيئية والخلل البيئي الذي نشهده هذه الأيام.

تعتبر الدراسة أنّ السياسات العمومية البيئية فشلت أمام التحديات البيئية الكبرى، وخاصة فيما يتعلّق بالمناطق الصناعية، ومشكلة التصرف في النفايات المنزلية والصناعية خاصة بعد اندماج المجتمع التونسي في سياق استهلاكي مجحف واستيراد سلع استهلاكية أغلبها ملوثة.

يجب أن نتذكر ملاحظة (Benout Dugay) في كتابه «الاستهلاك، المستهلك ومشتقات الاستهلاك»<sup>5</sup>، حيث قدّم العصور الأربعة المتميزة للاستهلاك: «الإنتاج الضخم / الاستهلاك الضخم؛ زيادة العرض من المنتجات والإنتاجية / المجتمع الاستهلاكي؛ التقدم التكنولوجي المذهل والفردانية / عصر مجتمع الاستهلاك المفرط: السلع المتنقلة والاستجابة الفورية لمجتمع الاستهلاك.

يعيش المجتمع التونسي، دون أن يدعي مصادرة الواقع طبعاً، تكتيفاً لهذه المراحل الأربع للاستهلاك، عبر جمهرة الاستهلاك وإمدادات المنتجات، والاستهلاك غير العقلاني، والفردانية

4 Guy Bajoit Abraham et Franssen, les jeunes dans la compétition culturelle, Ed. PUF. Paris, 1995, Collection sociologie d'aujourd'hui.

5 Dugay Benout, 2015, « consommer, consumer, dérivés de la consommation », Ed. Liber

المتصاعدة. هكذا تميّزت هذه الفترة بتطور ملحوظ لكميات النفايات من جميع الأنواع التي تتراكم على امتداد البصر.

ومن المفارقات أنّ انتشار النفايات هذا يشكل مصدرا للحياة والكسب للفئات الاجتماعية الأكثر هشاشة وضعفا في المجتمع التونسي.

من خلال تحليل الفئات الفقيرة، وبعيدا عن الجانب الاقتصادي المحض، يمكن تسليط الضوء على الأزمة الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع التونسي. حيث أدّى عدم المساواة والحيث الاجتماعي الناتج عن النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي إلى أنّ تعيش فئة البرباشة على هامش المجتمع، مستبعدة من المجتمع الاستهلاكي، لكنها تعيش وتستغلّ تطوّر هذا النمط الاستهلاكي المنتج لمزيد من النفايات لاستعادتها وإعادة تدويرها.

قبل سنوات 2000، كان على مجتمع البرباشة أن يُعيد إنتاج هذه المهنة، ولكن دون الخروج من حالة الهشاشة والفقير؛ إذ ينحدرون من عائلات كان نشاطها الرئيسي مقتصرًا على الفلاحة وتعود أصولهم الى المناطق الداخلية، التي تعاني إلى اليوم أزمة هيكلية خاصة لصغار ومتوسطي الفلاحين والمجتمع الريفي عموما.

منذ تغيير السياسات العمومية وخاصة في مجال تحديث المجتمع، عرف المجتمع «التحتي»، كما يدعي (Georges Balandier<sup>6</sup>) في كتابه «المعنى والقوة: «الديناميات الاجتماعية»، توسعا بحكم السياسات والبرامج الاقتصادية الليبرالية، وأنّ هناك تغييرًا واضحًا وجليًا في البنى الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات ذات «التقليديويات المزعومة» (Pseudo-traditionalisme).

عرفت فئة البرباشة تحولًا في علاقة بتثمين البلاستيك. وبصرف النظر عن تحسين ظروف معيشتها، تحوّلت فئة البرباشة إلى فاعلين اجتماعيين في مجال التنمية في مجال البيئة، ولكن من المفارقات أنهم ظلّوا موصومين بمهنة «مدنّسة».

متروكة لمصيرها (livrée à elle-même)، طوّرت فئة البرباشة إستراتيجيات تأقلم معقدة

6 Georges Balandier, Sens et puissance, Les dynamiques sociales, Paris, PUF, 2004, P. 129

---

للاستمرار في العمل في مجال أصبح مربحا بشكل متزايد. ولا تزال الأشكال القديمة للتضامن بين البرباشة تعمل ضمن منطوق اجتماعي متأصل في تشكّل الروابط الأولية.

يعتبر القطاع اللاشكلي قيّدًا على الاقتصاد الرسمي، ولكن هذه الصورة النمطية تتجاهل التجارب الإيجابية للقطاع غير الرسمي، مثل الفئات الاجتماعية الضعيفة والمستبعدة من النظام الاقتصادي المعترف به، والتي حوّلت الأنشطة التي يرفضها المجتمع إلى فرص للبقاء والحياة. إنّ إهمال مؤسسات الدولة للبرباشة وظروف عملهم أو عيشهم أو تطوّرهم جعل وضع أغلب هذه الفئات غامضًا وصعبًا، خاصة على مستوى الاهتمام بهذه الفئة على المستوى الصحي والرعاية الاجتماعية وعدم الاعتراف على الأقل بالدور المهم الذي تقوم به على المستوى البيئي والاقتصادي.

لعبت المنظمات غير الحكومية دورا هاما في تحسيس المجتمع بشكل عام، وهيئات الدولة بشكل خاص، حول واقع هذه الفئة وحول أهمية النشاط الذي تقوم به بالنسبة إلى البيئة والتنمية المستدامة.

كان الهدف من هذه الدراسة هو فتح أفق جديد للبحث السوسيوولوجي في المجال البيئي والتنمية يتناول بالدرس فاعلين هم في الأصل مهمّشون، والتساؤل عن الواقع الاجتماعي المعقد للبرباشة في تونس، هذه الفئة المحقرة التي مرّ على وجودها أكثر من قرنين، وهي تعمل في صمت وتعوّل على ذاتها وعلى روابطها الأولية بعيدا عن المؤسسات الرسمية.

## البرباشة اليوم: التحولات والرهانات

### تفاقم الأزمة الاقتصادية والاجتماعية: وتوسع دائرة الهامش: البرباشة، مثالا

لابد من البداية أن نعطي، ولو لمحة بسيطة، عن مفهوم الهامشية والهامش، من منظور سوسيولوجي، حتى نؤطر توجّه هذه الورقة ونضع القارئ ضمن فضاء مفاهيمي محدد. يتناول مفهوم الهامشية الواقع الاجتماعي والاقتصادي للأفراد والجماعات التي تعيش خارج الأطر الاجتماعية الشكلية أو التي تمّ إقصاؤها من المنظومة الاقتصادية والاجتماعية وحتى المجالية. برز مفهوم الهامشية على إثر الأزمة الاقتصادية الهيكلية التي عرفتها المنظومة الرأسمالية العالمية في السبعينيات من القرن الماضي. كان للتحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتمخضة عن الأزمة بروز مفاهيم جديدة لتكييف الواقع، وبدأ شيئاً فشيئاً هذا المفهوم يعوض مصطلح الفقر الذي كان له تراث طويل من الإستعمالات في العلوم الإنسانية. وعلى الرغم من الاستخدامات المكثفة لهذا المفهوم حتى ربما جعلته ملتبسا أو أحيانا سطحيا، تمّ العمل عليه نظرياً حتى تغيّر تدريجياً وأصبحت له إجراءات على مستوى الاستخدام وتكييف وتفسير الظواهر الاجتماعية. ويقول روبرت كاسل (Robert Castel) «التفكير في الديناميات والرهانات الاجتماعية ونتائجها النهائية على الإقصاء الاجتماعي تمكن من تحديد الهامشية وهشاشة الأفراد والجماعات والعطوبة (vulnérabilité) وكل أشكال الاضطراب الاجتماعي والخروج من الانخراط (désaffiliation) في نسق الاقتصاد المنظم، كل ذلك يؤدي إلى الاضطراب وانهايار المنظومات»<sup>7</sup>. هكذا بدأ التهميش والهامشية تتوسع اجتماعيا من خلال حرمان الأفراد والجماعات من الوصول (accès) إلى الخدمات الاجتماعية مثل المدرسة والصحة والعمل المأجور، هذا ما دفع عديد الفئات إلى العيش على الهامش والتحوّز بالأحياء الهامشية التي هي أصلا فقيرة ومععدة.

أدت الأزمة الاقتصادية في تونس منذ بداية القرن الحادي والعشرين ونموذج التنمية المتوارث عن الحقبة الاستعمارية إلى نتائج وخيمة ومعقدة خاصة على مختلف الفئات الاجتماعية الهشة، وامتد ذلك إلى الفئات الوسطى التي تفقرت بحكم وهن الدولة وتراجع دورها الاجتماعي.

أخذت فئة «البرباشة» بعداً أكثر تنوعاً وتجزراً في الواقع المجتمعي التونسي، خاصة في المراحل

7 Robert Castel, La dynamique des processus de marginalisation : de la vulnérabilité à la désaffiliation, in Cahiers de recherche sociologique, Numéro 22, 1994

الحالية المتميزة بتأزم الاقتصاد الرسمي وتوسّع دائرة اقتصاد الهامش أو اللاشكلي. عرفت هذه الفئة، عبر أكثر من قرنين من الزمن، تحولات وتغيرات وإعادة تشكّل في علاقة بالمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع. تفيد بعض الإحصائيات أنّ عدد البرباشة يفوق 150 ألف شخص ينشطون في مجال النفايات؛ من بينهم ما يناهز 70 ألف «برباش» ينتشر أكثر من نصفهم بجهة تونس الكبرى. هذه التقديرات الرسمية تخفي التنوع والتعدد للبرباشة، فالأطر الرسمية تتعامل مع الظاهرة وكأنها كتلة واحدة، في حين أنّ التمايز بين فئات البرباشة يعبر بشكل واضح عن عمق الأزمة الاجتماعية والاقتصادية التي يمرّ بها المجتمع التونسي حاليا. فبالنسبة إلى العديد من الباحثين وعديد المؤسسات البحثية والمجتمعية يُعدّ ارتفاع وانخفاض عدد البرباشة كأحد المؤشرات الدالة على الأزمة الاجتماعية وتطور التهميش.

### محاولة تصنيفية للبرباشة:

أفاد العمل الميداني أنّ فئة البرباشة لا يمكن أن تكون كتلة واحدة، بل تخفي هذه التسمية مجموعات مندرجة عديدة، ويمكن أن تكون متخصصة في مجال لجمع النفايات في مجال آخر.

فئة أولى يمكن أن نطلق عليها البرباش المحترف (Professionnel) وهي فئة تطور عددها ونشاطها مع تغير تهيئة المصبات المراقبة، وتحمل هذه الفئة تراخيص النشاط على المصبات من قبل الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات. ما يزال العمل على المصبات المراقبة يعتمد على الروابط الأولية العروش والعائلات كما يعتمد على تشغيل الإناث والذكور والأطفال.

فئة ثانية من البرباش المؤقت وهي فئة تبرز مع اشتداد التأزم الاقتصادي والاجتماعي وتختفي كلما توفر العمل الموسمي الزراعي: مواسم جني الزيتون والحصاد وغيرها. كما يتكثف أيضا عمل هذه الفئة في الصيف خاصة مع تنامي الاستهلاك وتوفر المادة المجمعة.

فئة ثالثة برباشة الشوارع. تعد هذه الفئة بين حوالي 80 ألف و100 ألف في البلاد التونسية، ويعتبر العمل على هذه الفئة معقداً جدا نظرا إلى حالة الالتباس بين العمل على تجميع النفايات القابلة للتدوير والتسول واستعطاف المارة. تشمل هذه الفئة عمل كبار السن والشباب والنساء وحتى الأطفال، حيث أصبح وجودها مكثفا في الشوارع الرئيسية والفرعية للمدينة وفي الأحياء دون تمييز.

فئة رابعة وهي حراس العمارات وعملة البلديات الذين يجمعون المواد القابلة للتدوير وخاصة الثمينة منها.

تعتبر هذه المحاولة التصنيفية غير نهائية؛ فهي قابلة للمراجعة والتدقيق على ضوء أي معطيات ميدانية جديدة يمكن أن تثري أو تغيّر هذا التصنيف المؤقت للبرباشة.

### العمل الشبكي للبرباشة وظهور فئة جديدة من المقاول:

منذ عام 2000، شهدت سياسات إدارة النفايات وإعادة تدوير المواد القابلة لذلك تحولاً مهماً، أسهم في نمو وتطور هذه الظاهرة، خاصة من خلال الأساليب، وطرق العمل ومن خلال أشكال التنظيم.

كما سبق وأشرنا في دراستنا السابقة حول الظاهرة، يتأسس العمل لهذه الفئة على الروابط الاجتماعية الأولية أو كما يعبر عن ذلك غي باجوا (Guy Bajoit) بروابط التنشئة الاجتماعية (lien inscrit) كما تعتمد أيضاً على الروابط المبنية على المصالح (Lien construit).

يتجلى ذلك ميدانياً من خلال انتماء البرباشة إلى «عروش» وعائلات ممتدة معروفة المنشأ في تونس. تتوزع هذه العروش أساساً على مناطق التهميش والتناقضات وهي جهات مثل الشمال والوسط الغربي وبعض المناطق الفقيرة القريبة من الساحل. تتميز مناطق منشأ البرباشة بإمكانات اقتصادية مهمة وخاصة الفلاحة وعلى مخزون مائي يمكنها من الإقلاع التنموي وبالتالي الحدّ من الهامشية. ولكن وعلى العكس من ذلك شكّلت هذه المناطق المهد الأساس للظاهرة. ما يميّز هذه الفئة هو حفاظها على روابطها المجالية، فبالرغم من عيشها على تخوم المدن الكبرى وخاصة إقليم تونس العاصمة، إلا أنّها حافظت على تواصلها مع مناطق المنشأ وعلى الروابط العائلية الأولية.

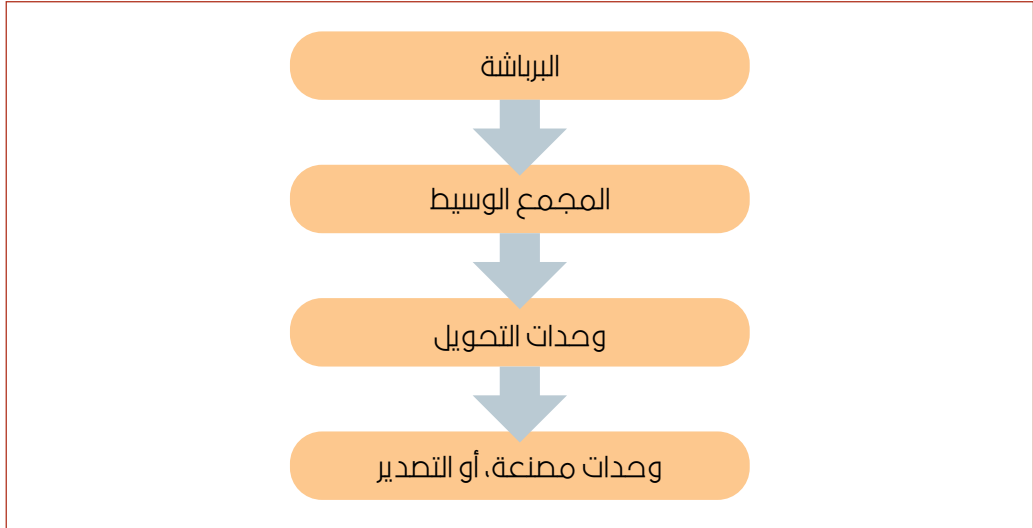
يبدو أنّ عمل برباشة الشارع فردي في ظاهره، ويقوم على المنافسة المجالية وسرعة التنقل لاغتنام أقصى ما يمكن من المواد القابلة للرسكلة، ولكن وعلى العكس من ذلك يقوم عمل برباشة المصبات المراقبة على العمل العائلي والعروشي حيث تكون الهيمنة والسيطرة للعائلات والعروش الأكثر عدداً وعدّة، بحيث تتحكم في مجال المصب وترسم طبيعة العلاقات خاصة بالمؤسسات

الإدارية والأمنية وبالشركات المستغلة للمصبات المراقبة. تلعب هذه العائلات دورا حاسما في تحديد من يدخل إلى المصب للعمل وتعديل الصراعات وفض النزاعات القائمة، كما تلعب دورا تضامنيا أساسيا في حالات الحوادث أو الموت.

على هذا الأساس يتأسس العمل الشبكي داخل المصبات أو خارجها للعمل وبيع المواد المجمعة، إذ تقوم العلاقات تحديدا على مجال من الثقة المتبادلة بين البرباش وصاحب مستودع التجميع. غالبا ما تتأسس أرضية الثقة بين الطرفين على البعد القرابي أكثر منها على علاقات أخرى.

تبرز صورة العمل على النحو التالي:

يبيّن الرسم التالي العمل الشبكي الذي تتأسس عليه هذه المهنة، إذ ينطلق العمل من البرباش مروراً بالوسيط وصولاً إلى وحدات التحويل «جراشة النفايات» (Broyage des déchets). ثم بعد ذلك يباع المنتج إما للمؤسسات التحويل أو التصدير.



تكشف المعطيات الميدانية أنّ سلسلة بيع وتحويل النفايات القابلة للرسكلة يسيطر عليها، في أغلبها، أبناء البرباش الذين تمرّسوا بالمهنة وتوارثوا استغلال النفايات القابلة للرسكلة بطرق وتسميات مغايرة وهذا ما يطلق عليه باتريك شامباني (Patrick Champagne) التابع (Succession).

ويمكن القول أنّ هذا التحوّل الكيفي هو نتاج التغيرات التي شهدتها المهنة، وأنّ إعادة إنتاج العمل تمّت بكيفية أكثر نوعية.

### مهنة تعيد إنتاج الهامشية والإقصاء؛ أو عندما تغيب الدولة:

أدت الأزمة الاقتصادية في تونس، إلى توسّع ظاهرة «البرباشة» بأنماط عديدة ومختلفة وإعادة تشكّل المهنة على نحو جديد. تقول المؤشرات الإحصائية للوكالة الوطنية للتصرف في النفايات أنّ عدد البرباشة اليوم يفوق 150 ألف ناشط في هذا المجال، تحوز المدن الكبرى على أكثر من النصف. وتجدر الملاحظة أنّ هذا العدد يحوز على مرونة كبيرة؛ إذ يتقلص أو يتمدد هذا الرقم وفق حدّة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي يمر بها المجتمع عموماً.

بدأت في تونس، وخاصة منذ بداية الألفية الثالثة، حالة من التراجع والتراخي في حوكمة الهامش وأشكال الرقابة عليه، التي تتكثف لأهداف أمنية وليس لأهداف تنموية، التي أصبحت في التمشي الليبرالي للدولة مكلفة مالياً. بدأ منذ ذلك يتأسّس في الأحياء الطرفية وفي المناطق الداخلية وخاصة الحدودية منها مبدأ التعويل على الذات (Auto-prise en charge) أو التكفل بالذات، مفعلة في ذلك الروابط الأولية والجماعوية (القراية) كحصن للحماية والدفاع من سطوة الدولة ومؤسساتها. وتبيّن من خلال الأزمات المتتالية والانتفاضات الاجتماعية ضعف التعامل مع هذه الوضعية المأزومة، إن لم نقل غياب الحلول والبدائل للدولة لهذه الفئات المهمشة. استفحل النشاط اللاشكلي وانتشر في كامل البلاد ولم يعد مقتصرًا على المناطق الحدودية، بل تسرّب إلى كلّ المدن والقرى.

ويقول نعوم تشومسكي أنّ «البنية الاقتصادية التي أسستها الدولة الرأسمالية أوجدت نمط علاقة يمكن أن يوصف بالتهميشي من قبل الطبقات الرأسمالية للطبقات الخاضعة لها، فالتهميش عملية مركبة تتم في الإطار الداخلي للمنظومة المهيمنة في مواجهة الفئات والطبقات الاجتماعية الضعيفة اقتصادياً من خلال إقصائها المنظم من عملية اتخاذ القرار»<sup>8</sup>.

8 Noam Chomsky, Les conséquences du capitalisme. Du mécontentement à la résistance, 2019, Ed. LUX, P. 256

لأن تواصلت ظاهرة «البرباشة» كما عهدناها، إلا أنها تطورت في أنساق جديدة منها ظاهرة برباشة الشوارع وعمال البلديات المكلفين بجمع النفايات، كما تطورت أيضا فئات الوسطاء بينهم وبين مصانع الرسكلة والتحويل التي تستقبل آلاف الأطنان من النفايات المتنوعة. كما تشكلت أيضًا مجموعات صغيرة تحتكر المهنة في مناطق محدّدة وتشتغل خارج كلّ الأطر الرسمية وتتعامل بالأساس مع البرباشة الوقتيين أو البرباشة «الصغار» الذين يحوزون على كميات صغيرة.

تتعرض فئة برباشة الشوارع، وخاصة المشتغلين بالليل، إلى العنف بشتى أنواعه من قبل أصحاب المحلات، «ينثرون القمامة المجمعة بحثًا عن قارورات البلاستيك، نحن نقوم بالتنظيف، وهم ينثرون القمامة هكذا أصبحت شوارعنا متسخة» يقول صاحب مطعم. كما يتعرضون إلى العنف من قبل عمال البلديات وغيرهم.

تحضر الدولة ومؤسساتها عبر خطاب الإدماج الاجتماعي للفئات المهمشة، ولكنها تغيب على مستوى الفعل والممارسة، ومن هنا يتشكّل لدى هذه الفئات شعورٌ بالغبن والإقصاء، شعورٌ مضاعفٌ يتأتّى من تحوّلهم إلى مادة للخطاب السياسي والإعلامي، لكن في المقابل لاتزال أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية تروح تحت وطأة الفقر والوصم.

### البرباشة مجتمع المخاطر

يعتبر أولريش بيك وأنتوني جيدينز عالمًا اجتماع بارزَيْن في مجال علم اجتماع المخاطر. قدّم أولريش بيك مفهوم «مجتمع المخاطر»، مسلطًا الضوء على ظهور مجتمع يتعامل مع الآثار السلبية للحدّثة والحاجة إلى إدارة المخاطر.

بيّنت مختلف الدراسات الميدانية أنّ عمل البرباشة سواءً في الشارع أو في المصبات المراقبة معرّض إلى عديد المخاطر خاصة منها الصحية والبيئية وكذلك الأمنية.

كما كشفت الدراسة الاثنوغرافية<sup>9</sup> والدراسة التي قمنا بها منذ أكثر من عشر سنوات أنّ هذه المهنة محفوفة بالمخاطر إن لم نقل هي «مهنة المخاطر».

وتنقسم هذه المخاطر إلى عدة أنواع لعلّ أبرزها:

### الحوادث القاتلة:

منذ تهيئة المصب، كشفت عديد التقارير عن وجود حوادث قاتلة تعرض لها البرباشة خلال عملهم في المصب. يعتبر عمل الآلات، وخاصة البلدوزر، فرصة مهمة للبرباشة لتقليب النفايات وبالتالي الحصول على أكثر قدر ممكن من المواد المجمعّة، ولكن هذه العملية عادة ما تُعرض البرباشة الذين يتسابقون للسيطرة على الفضاء، بما تعكسه من سيطرة على المواد، إلى الحوادث منها القاتلة.

### المخاطر الصحية:

يتعرض البرباشة يوميا إلى حوادث مثل الجروح والتقرّحات المنجّرة عن: شظايا البلور المكسور، والمسامير العالقة بالخشب وحواف الملبّات، وكذلك الحقن الموصولة بالإبرة؛ وخاصة حقن الأنسولين أو الأنواع التي تشابهها<sup>10</sup>، وحقن المخدرات، وتلك الملوثة بالأمراض المعدية، وحتى التعفنّية (الأمراض المنقولة جنسيا).

### مخاطر العنف والصراع:

يعتبر المصب المراقب أو الشارع مسرحا للهيمنة والتحكم في مجال العمل الذي يقوم على التنافس الحاد. يُعيد هذا الفضاء إنتاج المنظومة الاجتماعية التقليدية الجماعية من حيث الهيمنة الذكورية وسيطرة العروش على مجال العمل. فكلما زاد التوتر وتحوّل إلى عنف كلما تم استدعاء المنظومة الجماعية العروشية، لذلك يتحوّل المصب إلى فضاء صراع عنيف. من أوّل

9 بثينة الأديب وفوزي بيلالي، اقتفاء الأثر الاثنوغرافي للبرباشة: من مصبّ برج شاكير إلى شوارع تونس: تقرير امبريقي

10 الدراسة الإثنوغرافية

---

ضحايا هذا العنف الفئات الأكثر هشاشة وهم الأطفال والنساء وكبار السن.

### مخاطر بيئية:

تشمل المخاطر البيئية مجموعة واسعة من التهديدات التي تؤثر على البيئة وصحة الإنسان، وتتنوع هذه المخاطر من الأمراض المعدية التي يمكن أن تخرج من المصب المراقب إلى الأحياء السكنية للبرباشة كما يتأثر أيضا البرباشة، بالاختلالات البيئية داخل المصب مثل تسرب غاز البوتان (Butane) واستنشاق المواد الكيميائية السامة الناجمة عن التعفنت أو عن تسربها إلى المصب بالرغم من منع ذلك إجرائيا وقانونيا.

## اشتغال المجتمع السفلي: نهاية الأشكال القديمة لـ«التربيش» أم نهاية مهنة:

منذ بداية ظهور هذه المهنة، بدأت تبرز تغيّرات عميقة على العمل، وأشكال التنظيم، وأدوات الاشتغال في هذا المجال. هكذا بدأ القطع شيئاً فشيئاً مع حمل البضاعة على الظهر لتعوّضها العربات المدفوعة من قبل البرباشة إلى تكاثر الدراجات النارية والسيارات التي تمكّن العامل من سرعة الحركة والتنقل إلى المناطق المعروفة «بجودة» البضاعة. كما أصبح المشتغلون بهذه المهنة من مستويات تعليمية مهمة من التعليم الثانوي إلى أصحاب الشهادات العليا. هذا المستوى التعليمي له تأثير مهم على تطور المهنة وتغيّر أساليب العمل.

لكن التغيّرات التي سوف تطرأ على هذه المهنة أبعد من ذلك بكثير؛ حيث ترتبط أساساً بالسياسات العمومية للتصرّف في النفايات. إذ تتصارع اليوم مقاربتان للتصرف في النفايات: المقاربة الأولى تقوم على إعدام النفايات نهائياً عبر حرقها وإتلافها وهذه المقاربة لن تترك المجال أمام برباشة المصبات المراقبة.

أما المقاربة الثانية وهي تقوم على تثمين النفايات أو ما يعرف بـ (TMB Traitement mécano-biologique des déchets)، هذه المقاربة أيضاً سوف تنهي عمل البرباشة حتى من الشوارع، باعتبار أنّ كل النفايات التي تجمع سوف تتحول إلى مواد مرسكلة تباع بأثمان باهظة. وتسيطر على هذه المقاربات الشركات المتعددة الجنسية التي تروّج إلى التكنولوجيا الجديدة من ناحية، وإلى أيضاً السيطرة على منتوج المصبات المراقبة من غاز، وأسمدة عضوية، وبلاستيك قابل للرسكلة.

### من سوق الخردة إلى السوق العالمية

بيّنت آخر تقديرات الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات أنّ كمية النفايات المنزلية المنتجة سنوياً بتونس بلغت حوالي 2.5 مليون طن، يتم التصرف في أكثر من ثلثها بالمعالجة والتثمين، وأنّ حجم سوق النفايات في تونس يبلغ أكثر من 100 مليون يورو.

ونظراً إلى أهميّة هذه السوق وتزايد الطلب الداخلي والعالمي على المواد المرسكلة، تطورت في هذا السياق رهانات جديدة وتشكل فاعلون جدّد سيطروا على المواد المجمعّة، كلّ في اختصاصه

---

مثل المواد البلاستيكية والمعادن والقماش وغيرها. ارتسمت وحدات تحويل هذه على أطراف الأحياء الفقيرة أو الهامشية، مستغلة تنامي ظاهرة البرباشة وكثرة الوسطاء.

تطورت صادرات المواد البلاستيكية، التي تمّ تحويلها، إلى أسواق مثل الصين والهند بشكل مطرد في علاقة مفصلية مع زيادة الطلب العالمي على مشتقات البترول ومنها مادة البلاستيك؛ وبالتالي غلاء أسعار هذه المواد. ولئن لم تكشف عديد الجهات عن الحجم الحقيقي لصادرات المواد البلاستيكية، فإنّ نمو عدد هذه الشركات يمكن أن يؤشّر إلى أهمية هذه السوق؛ حيث توجد حاليا تقريبا أكثر من 50 شركة مصدرة جزئيا أو كليا لهذه المواد حسب بعض المعطيات الميدانية.

## خاتمة

كان لنتائج المنوال التنموي الموروث عن الحقبة الاستعمارية الأثر الكبير على الفئات الهشة والمعطوبة، إذ تفاقمت ظاهرة الهجرة من المناطق الداخلية إلى الحواضر، التي كانت بدورها عاجزة عن استيعاب هذا الفائض السكاني وإدماجه في سوق الشغل. فغياب السياسة التنموية الدامجة أدّى إلى توسّع فئة المهمشين التي كانت تقعات على أي شيء حتى القمامة، والتي تجد نفسها وجها لوجه مع العمل الهش أو الهجرة الدولية بشتى الطرق والوسائل.

كان المظهر المعبر عن فشل هذه السياسات العمومية هو توسّع فئة البرباشة التي أصبحت في كل المدن والقرى ولم تعد خاصة بالذكور، بل تأثنت تدريجيا، كما تُشغل أيضا الأطفال خاصة في فترات الصيف.

لئن تلعب هذه المهن دورا بيئيا مهما وفي تنظيف المدن من النفايات الصلبة، إلا أنها أيضا تُعدّ تعبيرا اجتماعيا عن الإقصاء والهامشية والحيث الاجتماعي.

ما انفكت ظاهرة البرباشة تتطور وتتغير وفق عديد الأبعاد؛ حيث انتقلنا من البرباشة الكفافية (Subsistance) إلى البرباش المقاول (Entrepreneur) الذي أسّس لشبكات علائقية متعددة، بدءا من تجميع المواد مرورا بتحويلها وصولا إلى تصديرها. تمفصلت هذه التحولات مع تزايد الطلب العالمي على المواد البلاستيكية في المقام الأول، وكذلك نظرا إلى تطوّر السياسات العمومية البيئية التي تُشجّع على إعادة تدوير المواد المستعملة.

ارتبطت الأشكال الجديدة للفقر بتدهور سوق العمل وضعف الروابط الاجتماعية<sup>11</sup>، وأدى ذلك إلى تغيّر مقاييس الفقر؛ حيث برزت محددات جديدة منها الفقر المطلق أو الفقر النسبي، أو مقاربات جديدة تسمى «الذاتية» التي تركز أساسا على الظروف المعيشية. كما ركزت عديد الدراسات على حالة عدم الاستقرار الذي ينظر إليه على أنه توازن هش مثل حالة البرباشة.

11 Serge Paugam, La société française et ses pauvres. L'expérience du Revenu minimum d'insertion, Politix. Revue des sciences sociales du politique Année 1993 24/ pp. 215-218

---

## الببليوغرافيا المختارة:

Bajoit Guy et Franssen Abraham, les jeunes dans la compétition culturelle, Ed. PUF. Paris, 1995, Collection sociologie d'aujourd'hui.

Balandier Georges, Sens et puissance, Les dynamiques sociales, Paris, PUF, 2004.

Benout Dugay, « consommer, consumer, dérivés de la consommation », Ed. Liber 2015

Bonheur Rosa, Collectif, La ville vue d'en bas. Travail et production de l'espace populaire Paris, Éditions Amsterdam, 2019.

Champagne Patrick, « Conflit de générations » ou crise de la succession ? Dans Gérontologie et société Gérontologie et société 1981/3 (vol.1981/3 (vol. 4 / n° 18)4 / n° 18, Éditions Fondation Nationale de Gérontologie Fondation Nationale de Gérontologie

Castel Robert, La dynamique des processus de marginalisation : de la vulnérabilité à la désaffiliation, in Cahiers de recherche sociologique, Numéro 22, 1994

Chomsky Noam, Les conséquences du capitalisme. Du mécontentement à la résistance, 2019, Ed. LUX.

Dimassi Hassine, Gouvernorat de Kasserine : Réalité et perspectives, 2012, Texte Inédit, UGTT.

Mouri Hassane, l'informel ou la face cachée de la précarité : le cas des chiffonniers de Tunis, Tunisie 2016, Ed ISSHT et Ed Latrach

Paugam Serge, La société française et ses pauvres. L'expérience du Revenu minimum d'insertion, Politix. Revue des sciences sociales du politique Année 1993 24/ pp. 215-218

## «البرباشة»: «الحلقة المفقودة» في سياسات إدارة النفايات بتونس

د. مهي بوهلال

مقدمة:

تمثل إدارة النفايات أحد التحديات الرئيسية لمجتمعاتنا المعاصرة، خصوصاً مع النسق السريع للتحضر وتغلغل الثقافة الاستهلاكية، الأمر الذي جعل حجم النفايات في تزايد مستمر. ولعلّ ما زاد من حدّة الظاهرة عجز القطاع المهيكّل عن إدارتها. من ناحية أخرى، وأمام تفاقم أوجه عدم المساواة وارتفاع نسب الفقر، أصبحت استعادة النفايات مصدر دخل للفئات المهمّشة اقتصادياً واجتماعياً. وفي ظلّ عدم قدرة النظم الرسمية على التصرف في النفايات بشكل ناجع، أصبح نشاط الجهات الفاعلة غير النظامية (الأيادي الخفية) أساسياً لتحرير المدن من نفاياتها. لذلك فإنّ تنظيم هذا القطاع لا يندرج فقط ضمن المنطق النظامي البسيط، بل المنطق غير النظامي كذلك، والذي أعتبر لفترة طويلة، وفي أحسن الأحوال، انتقالياً إن لم يكن طفيلياً<sup>12 13</sup>

16 15 14

في هذا الإطار يندرج دور «البرباشة» أو فارزي القمامة بتونس، حيث يُشغّل هؤلاء الفاعلون غير الرسميين مجالات جمع النفايات واستعادتها وإعادة تدويرها، في ظل شبكة كبيرة ومعقدة من الجهات الفاعلة الرسمية وغير الرسمية والتي تجعل من استعادة النفايات نشاطها

12 Cirelli, Claudia et Florin Bénédicte, « Introduction : Vivre des déchets » dir. Sociétés urbaines et déchets: éclairages internationaux. Tours. France. Presses universitaires François-Rabelais. 2015, 450 ppp.

13 Durand, Mathieu, Djellouli Yamna, et Naoarine Cyrille, « Gestion des Déchets ». Presses universitaires de Rennes. 2015. www.pur-editions.fr,

14 Debout Lise et Florin Bébédicte, « Chiffonniers et entreprises privées internationales », Égypte/Monde arabe [En ligne], 8 | 2011, document 8, mis en ligne le 01 septembre 2012, consulté le 20 octobre 2023. URL : <http://journals.openedition.org/ema/3036> ; DOI : <https://doi.org/104000/ema.3036>

15 Cirelli C et Florin B, 2016, « Les récupérateur-e-s des déchets : entre marginalisation et reconnaissance », Mouvement des idées et des luttes. <https://mouvements.info/recuperateurs-de-dechets/>

16 Joxe Simon, « Quand les pauvres vivent des déchets des riches. Recyclage et inégalités à Buenos Aires », Métropolitiques, 2022. <https://metropolitiques.eu/Quand-les-pauvres-vivent-des-dechets-des-riches.html>

تتنزل هذه الورقة البحثية ضمن دراسة شاملة حول البرباشة، حيث تتمثل الإشكالية العامة لهذه الدراسة في: «كيف ولماذا تصبح برباشاً؟ وكيف ولماذا يمكن لمكب القمامة أو القمامة أن يولّد اقتصاداً غير نظامي بأكمله؟». وسيوجّه هذا السؤال عملنا، وسيسمح لنا بتقديم ردود مستنيرة وشاملة باستخدام مجموعة متنوعة من مصادر البيانات. وفي هذا الإطار يهدف هذا البحث إلى فهم مدى اعتراف سياسات التصرف في النفايات في تونس بالنشاط غير الرسمي من خلال قطاع «البرباشة» والذي عرف تطوراً هاماً بعد 2011.

يركز البحث على دراسة العلاقة بين النظامي وغير النظامي في قطاع إدارة النفايات؛ وتحديدًا قطاع إعادة التدوير من خلال «البرباشة». ولعلّ من الأسئلة التي تطرح نفسها بقوة في هذا المستوى: هل يمكن إصلاح منظومة النفايات في تونس بالتغاضي عن قطاع البرباشة غير النظامي؟ أم على نقيض ذلك، هل يحتاج النظام إلى مؤسسة/هيكله هذا القطاع عبر إزاحة/إلغاء البرباشة؟ هل يتلخص الحل في إضفاء الطابع الرسمي على نشاط البرباشة؟ أم يتعيّن علينا أن نبدأ في دمج آرائهم في تحليلاتنا السياسية؟

تتنظم الدراسة حول أربعة أقسام رئيسية: يقدم القسم الأول لمحة عامة وموجزة حول منظومة النفايات في تونس وأهم الأسس التي تقوم عليها سياسة إعادة التدوير. فيما يهتم القسم الثاني بمدى اعتراف القطاع الرسمي بدور البرباشة في منظومة إعادة التدوير. في حين يحاول القسم الثالث فهم التحديات التي تواجه البرباشة. وأخيراً، يقترح القسم الرابع توصيات سياسية تهدف إلى تدعيم دور البرباشة في منظومة إعادة التدوير.

17 Chaabane Nour El Houda, « Si les Barbéchas avaient un statut, ils sauveraient nos villes de l'insalubrité », Nawaat 2014.

18 نور الهدى شعبان، محمد سميح الباجي عكاز، «مصّب نفايات برج شاكير : وهم الحياة الكريمة خلف تلال النفايات»، نواة ، 2015.

19 Mouri Hassen, « l'informel ou la face cachée de la précarité : le cas des chiffonniers de Tunis », Edition Latrach, 2016.

20 Blaise Lilia, « L'unité de recyclage Des barbechas à Ettadhamen », Un projet pilote basé sur les principes de l'économie sociale et solidaire, International Alert, 2020.

## منهجية الدراسة

من الناحية المنهجية، استندت الدراسة إلى مراجعة واستعراض الأدبيات حول مشكل جامعي القمامة في تونس وفي مناطق أخرى من العالم. إضافة إلى ذلك، قامت منهجية العمل في هذه الورقة البحثية، بشكل رئيسي، على المقابلات مع المسؤولين في إدارة النفايات بمصب برج شاكير؛ وعددها 04 مقابلات، بالتوازي مع مقابلات مع البرباشة داخل المصب وعددها 16 مقابلة. بالإضافة إلى ذلك، تمّ تخصيص زيارات ميدانية لمكب برج شاكير، حيث اعتمدت منهجية العمل على منهج الملاحظة بالمشاركة (observation participant).

### تحديث منظومة إدارة النفايات في تونس: تأكيد على ضرورة الفرز وإعادة التدوير

مقارنة ببقية الدول العربية، تعدّ البلاد التونسية سبّاقة في خلق إطار قانوني ومؤسسي لإدارة النفايات بشكل ناجح؛ إذ وقع الشروع في تقنيته منذ بداية التسعينات. حيث توالى خلال هذه الفترة مجموعة من اللوائح، والقوانين، والمراسيم، والأوامر المتعلقة بتحسين إدارة النفايات. وقد استندت في مجملها إلى مجموعة من المبادئ أهمها: إنشاء مدافن نفايات خاضعة للرقابة ومراكز نقل، إغلاق وإعادة تهيئة مدافن النفايات العشوائية، إضافة إلى إنشاء أنظمة متكاملة لإدارة النفايات (الجمع والفرز والمعالجة والتثمين، إلخ). وقد تمثّل الهدف الرئيسي لمختلف هذه الإصلاحات في خلق خدمة في شكل شبكة تقوم على جمع النفايات ونقلها إلى المكبات المراقبة لدفنها بطريقة تخضع لعدة شروط تقنية وبيئية.

وعموما عرف قطاع إدارة النفايات الحضرية بتونس تغييرات عميقة، ارتبطت بموجة تحديث الخدمات العامة التي شهدتها أغلب بلدان العالم النامي. حيث ارتكزت إجراءات الإصلاح عموما على؛ اللامركزية، تحرير المبادرة، التخصص، ديمقراطية العمل المحلي، والتشاركية. كما تأثرت الإصلاحات في مجال إدارة النفايات بمبادئ التنمية المستدامة وترسيخها التدريجي، خصوصاً إثر التزايد المستمر في إنتاج القمامة وما انجر عنه من مشاكل بيئية وتأثير سلبي على جودة حياة السكان. وبعد أن كانت إدارة النفايات تستند بشكل أساسي إلى تقنيات التخلص (الحرق، الدفن)<sup>21</sup>، أصبحت تعتمد على الحدّ من الاستهلاك، والاستعادة، وإعادة التدوير، والتثمين في إطار

21 Wilson, David C., "Development drivers for waste management". Waste Management and Research, vol.

سياسة تحويل المناطق التي يتم التضحية بها من أجل استقبال النفايات إلى مناطق تستفيد من وجود النفايات<sup>22</sup>. وفي هذا السياق ظهر مفهوم الإدارة المتكاملة للنفايات، الذي يشير تعريفه العام إلى طريقة مخططة للإدارة باستخدام تقنيات مختلفة؛ ويقصد به عادة التقليل إلى أدنى حد من كمية النفايات التي يتعيّن التخلص منها عن طريق زيادة دعم «استردادها». وهذا التقاطع بين النفايات والتنمية المستدامة في بلدان الجنوب، بهدف الحد من استخدام مدافن القمامة للخروج من منطق «القضاء» أو «التخلص»، أدّى إلى بروز رؤية جديدة لما يسمى بالقطاع غير النظامي لجامعي القمامة والذين يمثلون القوة الرئيسية لفرز النفايات من المصدر. خاصة في البلدان العربية، حيث يصعب تطبيق ممارسة الفرز الانتقائي للنفايات سواء في الأحياء الغنية أو الفقيرة، فهي مهمة تعود وفقاً للثقافة المجتمعية إلى «الزبال».

في تونس تعتبر الإدارة المتكاملة والمستدامة للنفايات إستراتيجية وطنية تقوم بالأساس على تشجيع إنشاء قنوات الاستعادة لتجنب تدفق كميات كبيرة من النفايات إلى مواقع التخلص (مدافن النفايات). وعموما تتميز هذه المنظومات بأهمية التفاعل بين المشغلين من القطاعين العام والخاص وبين الدوائر الرسمية وغير الرسمية؛ حيث يلعب «البرباشة» دوراً أساسياً في الفرز من المصدر وفي تزويد هذه القطاعات بالمواد الأولية لضمان اشتغالها.

إلا أنّ هذه الإستراتيجية واجهت نقصاً في الموارد في سياق التحضر السريع وفشل السلطات العمومية في ضمان جمع النفايات بكفاءة. ومع تعدد وتوالي أزمات النفايات في تونس (أزمة النفايات بجرية، صفاقس، النفايات الإيطالية...) أصبح من الجلي أنّ ملف النفايات يُدار بشكل سيّء للغاية؛ حيث تعالت الأصوات التي تتهم الدولة بسوء التصرف والفساد وفشل المنظومة القائمة أساساً على دفن النفايات<sup>23 24</sup>.

25.no 3. 2007, p. 198-207.

22 Durand, Mathieu, Djellouli Yamna, et Naoarine Cyrile, 2015, Op Cit.

23 بوهلال مهي، « المدلول السياسي لأزمة النفايات: دراسة مقارنة بين تونس و لبنان » مركز دراسات الوحدة العربية، مجلة المستقبل العربي عدد 532، 2023.

24 بوهلال مهي، « اللجوء إلى المدخل التشاركي لاحتواء الأزمات في تونس: أزمة النفايات بصفاقس » مبادرة الاصلاح العربي، 2023.

## على ماذا يقوم قطاع إعادة التدوير في تونس؟

منذ التسعينات احتلت فكرة استعادة النفايات وإعادة تدويرها موقعا استراتيجيا في سياسة إدارة النفايات في تونس، ومثلت أحد العناصر المؤسسة لهذه السياسة. وقد تمّ ترجمة ذلك من خلال ظهور مجموعة من القوانين المنظمة لقطاع إعادة التدوير (جدول). في المقابل يشترط الإطار القانوني تهيئة مدافن النفايات الخاضعة للرقابة لإيداع النفايات النهائية والتي لم يعد من الممكن استردادها.

### النصوص التنظيمية التي تحدد الإطار القانوني لاستعادة النفايات وإعادة تدويرها في تونس

يحدد سياق استعادة النفايات عن طريق إعادة الاستخدام، وإعادة التدوير، وجميع الإجراءات الأخرى الرامية إلى استعادة المواد القابلة لإعادة الاستخدام واستخدامها كمصدر للطاقة.	القانون الإطاري 41-96 لسنة 1996
الذي يحدد الشروط والأحكام لاستعادة وإدارة العبوات المستعملة.	المرسوم 1102-97 المؤرخ 02/06/1997
ينص على مواصفات فرز النفايات غير الخطرة واستعادتها ونقلها.	المرفق 2 من القانون 14-2001 المؤرخ 30 جانفي 2001
يرتبط بتحويل المواد العضوية الموجودة في النفايات المنزلية إلى سماد، ويرتبط إعادة التدوير بالأحري بالمواد المتأتية أيضا من النفايات المنزلية ولكن أيضا من قنوات الاستعادة.	الإستراتيجية الجديدة للإدارة المتكاملة و المستدامة للنفايات في تونس للفترة 2006-2016

في إطار استراتيجيتها لاستعادة النفايات وإعادة تدويرها، كرّست تونس الكثير من الجهد لإنشاء منظومات منها: ايكولف (تهم العبوات البلاستيكية)، وايكوزيت (لإعادة تدوير الزيوت المستعملة)، وايكوفيلتر، وغيرها من منظومات الاستعادة وإعادة التدوير. وتجدر الإشارة إلى كون النظام قد منح الأولوية إلى استعادة النفايات البلاستيكية من خلال برنامج ايكولف<sup>25</sup>؛

25 ايكولف هو القطاع الأول لاستعادة صنف معين من النفايات في تونس والذي استفاد من إطار قانوني (المرسوم 1102-97 لعام 02/06/1997 منقح بالأمر 843 / 2001). يستفيد هذا القطاع من نظام عام لاستعادة العبوات البلاستيكية (زجاجات المياه وعلب المشروبات الغازية والأكياس والأغطية). ومنذ جانفي 1998، يتعين على جميع المنتجين استعادة المعلبات المستعملة لمنتجاتهم. حاليا، انضمت جميع الشركات المصنعة للمياه والمشروبات الغازية والعصائر ومشتقات الحليب تقريبا إلى نظام ايكولف. وأنشئت شبكة من نقاط Eco-Lef لجمع ونقل نفايات التغليف، ولا سيما في المدن الكبيرة. يأتي التمويل اللازم لإدارة نظام ايكولف من مصدرين رئيسيين: ضريبة حماية البيئة التي يتم فرضها على المواد البلاستيكية المستوردة، ولكن أيضا عقود العضوية الموقعة من قبل

حيث يحتل إنتاج البلاستيك المرتبة الثانية بعد النفايات العضوية بنسبة تقدر بـ 11 % من مجموع النفايات. ومع ذلك، وعلى الرغم من وجود مختلف قطاعات الاستعادة والتثمين، وإطار تنظيمي مفصل وألوية لقطاع النفايات في السياسة البيئية الوطنية، يعد ضعف الاستعادة وإعادة التدوير الخلل الرئيسي للإدارة الحالية للنفايات المنزلية في تونس. ويرتبط ذلك أساساً حسب الدراسات المنجزة بضعف توافر المواد الخام، وبالتالي بعدم كفاءة الفرز عند المصدر، والذي يرجع بدوره إلى نقص الوعي البيئي لدى المواطن التونسي<sup>26 27 28</sup>.

### العلاقة بين النظامي وغير النظامي في قطاع إعادة التدوير: دور «البرباشة» بين الاعتراف والتهميش

تعتمد إدارة النفايات في تونس على نظام متعدد الأبعاد تتخرب فيه مختلف الجهات والمؤسسات، سواء كانت في القطاعين العام والخاص أو بين الجهات النظامية وغير النظامية في مجال الاسترداد. ويحيلنا هذا النظام «المركب» أو «المختلط» لإدارة النفايات الحضرية في تونس، والذي يجمع من ناحية بين النظام المؤسسي والرسمي لإدارة النفايات الساعي إلى استعادة معينة للمواد والتخلص من المواد الأخرى وبين المبادرات الخاصة وغير النظامية والتي تشغل المواقع الشاغرة في المقاربة المركزية من ناحية أخرى، إلى محاولة تحليل واستقراء العلاقة بين ما هو نظامي «عمومي وخاص» وما هو غير نظامي «البرباشة» .

تجدر الإشارة في هذا المستوى إلى أنّ الأطراف الرسمية التي تمت مقابلتها في إطار العمل الميداني (رئيس مركز الشرطة ببرج شاكير، ممثل عن شركة ايكوتي، ممثلين عن الوكالة الوطنية

#### منتجي المنتجات المعبأة لصالح الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات

- 26 Moretto Luisa, et Azaitraoui Mustapha, « la valorisation des déchets urbains à Sfax (Tunisie) : Entre réformes politiques et récupération informelle », in Sociétés urbaines et déchets : Eclairages internationaux, Tours. France. Presses universitaires François-Rabelais, 2015, p 369-395.
- 27 Banque mondiale, Projet régional de gestion des déchets solides dans les pays du Mashreq et du Maghreb, Rapport du Pays (Tunisie), Mediterranean Environmental Technical Assistance Programme, <http://www.ecomed.com.tn/>, 2004.
- 28 Sweep-Net, Rapport pays sur la gestion des déchets solides en Tunisie, [www.sweep-net.org](http://www.sweep-net.org), 2010, (consulté le 29 octobre 2014).

لإدارة النفايات) أجمعت على غياب أيّ إطار قانوني ينظم وجود البرباشة داخل المصب.

**«لا يوجد أي إطار قانوني ينظم وجودهم؛ لا توجد أي تعليمات واضحة بالنسبة إليهم»**  
(رئيس مركز الشرطة).

**«لا يوجد إطار قانوني ينظم وجودهم في المصب؛ هم أضعف حلقة في المصب»**  
(ممثل شركة ايكوتي).

على الرغم من غياب إطار قانوني يُتيح لهم ممارسة أنشطتهم داخل المصب، إلا أنّ السلطات تغضّ الطرف عن ذلك وتسمح لهم بالعمل داخله. وهذا الأمر ليس بحديث العهد، بل يضرب بجذوره إلى ما قبل الثورة، ولعلّ الوضع كان أكثر تنظيمًا في تلك الفترة. إذ تُشير بعض المصادر إلى أنّ البرباشة في الماضي كانت لديهم شارات تسمح لهم بالدخول إلى المصب، ممّا ساعد في تحديد هوياتهم وتنظيم وجودهم في المكان. ولكن بعد الثورة، شهد عدد البرباشة زيادة كبيرة بسبب تفاقم حالة الهشاشة الاقتصادية والاجتماعية بعد 2011.

**«في عهد بن علي كان العمل منظّمًا، كنا نملك شارات تحمل هوياتنا، ولم يكن هناك دخلاء. أما منذ الثورة ونتيجة الاحتياج والظروف الصعبة استسهل الناس العمل بالمصب»** (برباش/ عم جلال).

إلا أنّ السماح لهم بالتواجد داخل المصب لا يعني وجود أيّ ارتباط بينهم وبين بقية الأطراف المتدخلة في إدارة النفايات ببرج شاكير؛ بل على العكس شدّد ممثلو السلطة الرسمية على غياب أي نوع من العلاقات التي تربطهم بالبرباشة، كما أكدوا أنّ الشرطة هي الطرف الوحيد الذي يتعامل مع البرباشة بشكل مباشر، في إشارة واضحة إلى تصنيفهم كأطراف خارجة عن القانون ولا يمكن التعامل معهم إلاّ عن طريق من يعملون على حماية القانون. وهذا ما يفسر وجود مركز للشرطة داخل المكب.

**«نحن كمؤسسة البرباشة خارج منظومتنا، ونعتبر أنّ التبريش ممنوع والبرباشة ممنوعون. وأنا أتيت بالشرطة لينظفوا لي المكان من البرباشة»**  
(ممثل عن الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات)

**«ليست لنا أي علاقة بالبرباشة. هو قطاع مهمش و غير نظامي، نحاول ردهم بالشرطة في صورة ما وقعت مشكلة» (ممثل عن شركة ايكوتي)**

في المقابل تباينت الآراء حول إمكانية الاستغناء عنهم أو ضرورة إدماجهم كجزء من منظومة إدارة النفايات في تونس. فمنهم من يرى أن دورهم أساسي في عملية الفرز والاسترداد؛ ممّا يساهم في إعادة تدوير نسبة هامة من النفايات القابلة للرسكلة، ويقلّل من حجم النفايات النهائية التي يجب التخلص منها، علاوة على كون هذه المهنة توفر عددًا هامًا من مواطن الشغل المباشرة (البرباشة) وغير المباشرة (مثال العاملين في معامل الرسكلة). إلاّ أنّه من الضروري تنظيمهم وتقنين وجودهم من طرف الدولة.

**«لا يمكن الاستغناء عنهم. هناك نسبة كبيرة من النفايات التي يتم رسكلتها بفضلهم، إضافة إلى أهمية دورهم في التشغيل؛ 1000 شخص على الأقل مستفيدون بطريقة غير مباشرة مثل معامل رسكلة البلاستيك» (ممثل عن شركة ايكوتي)**

**«لا نستطيع الاستغناء عنهم لأنهم يقومون بعملية الفرز، دورهم مهم جدا في إدارة النفايات والتقليل منها، لكن يجب أن يكون وجودهم قانوني» (ممثل عن الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات)**

على النقيض من ذلك، لا يرى حاملو الرأي المخالف ضيّرًا في الاستغناء عنهم، بل ووصل بهم الأمر إلى تهميش دورهم «البرباش لا يصل إلى 2 % من كمية النفايات التي يمكن استعادتها» (ممثل عن الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات) و يضيف أنّه «من غير الممكن إدماجهم في المنظومة الرسمية» (خاصة نتيجة ارتفاع الدخل اليومي للبرباش «الأجر الأدنى الذي يجنيه البرباش هو 70 دينار في اليوم وهذا بالنسبة للخدام العادي»). وبالتالي فالدولة مطالبة إمّا بتوفير أجور عالية جدًا تمكنها من إدماج البرباشة والاستفادة منهم بشكل مباشر، وهو أمر مستبعد، أو على الدولة أن تعمل على «تغيير المنظومة وتحويل وجهة النفايات حتى تضطر البرباش إلى قبول العمل والإدماج بشروطها الخاصة». وفي الواقع يمثل الدخل اليومي المحترم للبرباش نقطة توافق بين مختلف المستجوبين، رغم الاعتراف بأنّ ظروفهم الاجتماعية الصعبة هي التي دفعتهم للعيش على القمامة.

**«الظروف المادية هي التي أجبرتهم على العمل هنا. هذا العمل صعب للغاية، لكن طالما قبلوا هذا الوضع أظن أنهم يتمتعون بدخل محترم»**  
(رئيس مركز شرطة مصب برج شاكير)

يذهب رئيس المركز إلى اعتبار أنه ليس لهم أي دور مؤثر في منظومة النفايات حسب رأيه: «بالنسبة إلى الوكالة أو الشركة هم يضعون النفايات في المصب سواء فيها نفايات بلاستيكية أو لا». وهي تعتبر وجهة نظر لشاهد عيان من داخل المصب، تنسف في الواقع كل الشعارات التي تستعملها الأطراف الرسمية حول الإدارة المتكاملة للنفايات وإستراتيجية الفرز والاستعادة وإعادة التدوير. وتبين أنّ سياسة التخلص مازالت تهيمن بشدة على إدارة النفايات في تونس، رغم الإصلاحات التي طرأت على هذه المنظومة على المستوى القانوني والمؤسسي.

كما يعتبر رئيس مركز الشرطة بـبرج شاكير أنه: «بطبيعة الحال يمكن الاستغناء عن البرباشة؛ عدم وجودهم لا يؤثر أبدا، بل على العكس العمل يصبح أسهل». ويبدو أنّ هذا الرأي متأثراً أساساً من الصعوبات التي يواجهها أعوان الشرطة في السيطرة على الوضع داخل المصب، خاصة عند حدوث بعض المناوشات بين البرباشة أو بين البرباشة والأطراف الأخرى في المصب (أعوان الشركة، أعوان الوكالة، سائقو الشاحنات...). وقد ساهمت الملاحظة بالمشاركة داخل المصب في الوقوف على حدة التوتر الذي يرافق دخول الشاحنات إلى المصب ويرافق عملية الفرز التي يسيطر عليها منطق الضغط والقوة والهيمنة في كثير من الأحيان. خاصة أنّ البرباش يجد نفسه في مواجهة مع بقية البرباشة من ناحية ومع الجرافات التي تتدخل بسرعة لإزاحة النفايات بحجة إفساح المجال لإستقبال نفايات جديدة من ناحية أخرى. هذا فضلا عن أنّ الأعوان يؤكدون على وجود أعداد من البرباشة الذين يأتون إلى المكب تحت تأثير المواد المخدرة، ممّا يزيد من تشنج الأجواء.

### التحديات التي يواجهها «البرباشة» في تونس:

يواجه جامعو القمامة «البرباشة» في تونس كما في بلدان أخرى تحديات عديدة ومتنوعة اجتماعية وصحية واقتصادية؛ فعلى المستوى الاجتماعي يُصنّف الذين يقاتلون من/ على القمامة في أسفل الترتيب الاجتماعي: «فالنفايات هي أولا وقبل كل شيء مكان / رتبة موجودة في القاع /

الأسفل. وأولئك الذين يعيشون على هذه البقايا يتعرضون لنفس عملية الاستبعاد التي تستهدف القمامة»<sup>29</sup>. ولعل هذا الشعور بالازدراء يمثل عائقاً اجتماعياً رئيسياً لدى البرباشة وهم أول من يقوم بتحقيق هذه المهنة.

### «بما أنها فضلات فهي مهنة سيئة» (برباش / حمة)

كما أنهم لا يتوانون عن التعبير عن رغبتهم في تغيير عملهم. «عندما أجد عملاً آخر سوف أترك هذا العمل» (برباشة / حياة)

على الرغم من تعرض البرباشة لخطر الإصابة بعدة أمراض نتيجة لاتصالهم اليومي بالنفايات، إلا أنّ العديد منهم يفضلون الصمت وعدم الكشف عن حوادث العمل والمشاكل الصحية التي يواجهونها.

تظهر التحديات التي تواجه البرباشة بوضوح، خصوصاً فيما يتعلق بعلاقتهم مع السلطة؛ إذ يعتقد معظم البرباشة الذين تم استطلاع آراؤهم أنّه قد وقع استبعادهم عمدًا من أجندة الدولة فيما يتعلق بإدارة النفايات. كما يرون أنّ العلاقة بينهم وبين السلطة سيئة ومشحونة بالتوتر، خاصة نظرًا إلى أنّ مصبّ برج شاكير بشكل خاص يُعتبر ملجأً للأفراد الخارجين عن القانون. من ناحية أخرى يرى البرباشة أنّ الحكومة لا تعترف بعملهم وبدورهم الأساسي في عملية فرز النفايات.

### «الدولة لا تحيط بنا علماء من الأساس» (برباش / حمة)

كما يرى العديد منهم أنّ على الدولة تنظيم قطاع البرباشة وتقنينه، ويعتقدون أنّ هذا الإجراء سيسهم بشكل كبير في تحسين وضعية العديد منهم، ولا سيما الأطفال الذين يعملون في المصب. إذ يمكن للدولة أن تقوم بالتكفل بهم وتكوينهم في مجالات أخرى بعيدًا عن التعامل مع النفايات. كما يمكن أن يساهم ذلك في ضمان حقوق الفئات الأكثر هشاشة في قطاع البرباشة كالنساء وكبار السن وفاقدى السند العائلي (العروضية) في هذا المجال.

29 Lhuillier Dominique, Cochin Yann, « Des déchets et des hommes », Paris, Desclée de Brouwer, coll. « Sociologie clinique », 1999, 185 p.

**«أكيد تنظيم البرباشة من طرف الدولة سيفيدني. عندها ستصبح لدي تغطية اجتماعية» (برباش / أحمد)**

**«الدولة يجب أن تنظم البرباشة. أكيد ستفيدني وتفيد كل من ليس له سند، وتوفر المساواة في العمل دون أن تستفرد فئة بغالبية النفايات. فالكل يسلب؛ العروشية تسيطر على هذا المجال» (برباش / عم جلال)**

إلا أنّ فكرة تنظيم القطاع ومنحه إطاراً قانونياً لا تحظى بإجماع كلّ البرباشة، خاصة أولئك الذين يتمتعون بدخل مرتفع نسبياً ومن مصلحتهم أن يظلّ هذا القطاع لا مرئياً، كما أنّ هذا العمل يمنحهم الاستقلال والحرية نظراً إلى غياب أرباب عمل.

كما يفتقر البرباشة في برج شاكير إلى هيكل نقابي أو جمعياتي ينظم تحركاتهم ويتبنى مطالبهم ويمثلهم أمام السلطة بشقيها المحلي والمركزي، ويوجد استثناء وحيد ويتمثّل في جمعية «برباشة تونس» بحي التضامن والتي تم إنشاؤها بدعم من منظمة «أنترناشيونال أليرت»<sup>30</sup>. ولعلّ ذلك ما يفسر، ولو بشكل جزئي، ندرة أو غياب الاحتجاجات في صفوف البرباشة.

**«كان احتجاجنا مرة وحدة عندما أغلق المصب مدة تزيد عن الشهر... فدون عمل عانى كل العاملين هنا» (برباش / حمة)**

كما تجدر الإشارة إلى أنّ الاحتجاج يكون في أغلب الأحيان بين البرباشة، خاصة من النساء ضد الرجال؛ حيث تواجه نساء البرباشة ببرج شاكير تحديات إضافية مقارنة بالرجال، تجعل من عملهن في المصب أكثر صعوبة وأقل مردود مادي في مجال عمل يسيطر عليه الذكور بشكل كبير رغم التزايد المتواصل لعدد النساء في هذا المجال.

**«قمنا بالاحتجاج من قبل على الأوضاع كنساء وأغلقنا الباب لأن الرجال يمنعونا من**

30 تعتبر هذه الجمعية نقابة شبه رسمية لأنها تعمل على تكريس الشفافية و تقترح وسائل للحماية و للوقاية و تعزز مبدأ العدالة الاجتماعية. قامت الجمعية بعدة حملات توعوية بضرورة الفرز من المصدر. اليوم الجمعية مازالت موجودة قانونيا إلا أنه مع فقدانها لمقرها الذي استردته بلدية حي التضامن أصبح نشاط الجمعية ضعيف جدا خاصة بعد افلاس وحدة الرسكلة التي مولتها «أنترناشيونال أليرت» .

العمل معهم» (برباشة / حياة)

«احتجاجنا كنساء يكون في أغلب الأحيان في شكل شكاوى شخصية لكن لم يتم سماعنا وتم تهديدنا بالطرد» (برباشة / السيدة)

وعموما يفتقر البرباشة إلى آليات الاحتجاج المختلفة؛ ومنها التفاوض والحوار. ولعل أبرز مثال على ذلك التعاطي العنيف الذي قام به البرباشة ضد حملة «سكّر المصّب».

«البرباشة في حملة سكّر المصّب<sup>31</sup> ضربوا المحتجين وكسروا الخيمة واستعملوا كل الأساليب، بما في ذلك الأسلحة بيضاء؛ فالحملة ستقطع أرزاقهم» (ممثل عن الوكالة الوطنية لإدارة النفايات)

اعتبر البرباشة أنّ النشاط يسعون إلى قطع أرزاقهم، وقد أدّى ذلك إلى تحوّل وقفة احتجاجية، نفذتها الحملة على الطريق المؤدية إلى مكب برج شاكير، إلى مناقشات عنيفة حيث انهدم البرباشة بالضرب والعصي على نشاط الحملة. واليوم أصبح تقريبا من المستحيل الاقتراب من المكب أو التصوير في محيطه. ولم تتوقف المسألة عند ذلك الحد حيث أكد أعضاء الحملة تلقيهم لعدد التهديدات، وفسروا ذلك بأنّ الحملة هدّدت بشكل مباشر مصالح المافيا أو «البارونات» كما تتم تسميتهم والذين يتحكمون في البرباشة ويحققون أرباحًا طائلة من المكب. ورغم محاولة النشاط الدخول في حوارات مباشرة مع البرباشة لإقناعهم بأنّ الحملة لا تستهدفهم، بل تسعى إلى بقائهم في منظومة إدارة النفايات، ولكن في ظروف أحسن تضمن لهم حقوقهم مثل تشغيلهم في مراكز الفرز وإعادة التدوير. إلا أنّ كل هذه المحاولات لم تنجح، وكان من الصعب حسب النشاط إيجاد صيغة للتوافق مع البرباشة (بوهلال، 2023<sup>32</sup>).

### الدروس المستفادة:

يمثل «البرباشة» اليوم ركيزة أساسية من ركائز الفرز من المصدر واستعادة النفايات في

31 حملة سكّر المصّب هي حملة منظمة ضمت مجموعة من شباب المجتمع المدني إضافة إلى أعضاء من المجلس البلدي لسبيدي حسين تأسست إثر حريق مكب برج شاكير يوم 5 جولية 2019 حيث كان مطلبها الرئيسي إغلاق مصب برج شاكير (بوهلال، 2023)

32 مهى بوهلال، الحراك البيئي ضد مشكل النفايات في تونس، مبادرة الإصلاح العربي، 2023، بصدد النشر

تونس. ورغم كلّ محاولات إنكار وتهميش دور البرباشة في إدارة النفايات إلا أنّهم يمثلون، ودون شك، قوة الفرز الرئيسية إن لم نقل الوحيدة التي تغذي قطاع إعادة التدوير وتثمين النفايات.

الدروس المستفادة هنا هي أنّه لا يمكن اليوم الحديث عن إصلاح منظومة النفايات في ضلّ إنكار وتهميش دور قطاع البرباشة غير النظامي. يجب أن تقوم الإصلاحات المقترحة على مبدأ الانتقال العادل بالنسبة إلى «البرباشة» حيث يمكن أن تحرم إعادة هيكلة هذا القطاع هؤلاء الأشخاص الذين يعانون عموماً من التهميش الاقتصادي والاجتماعي من دخل بالغ الأهمية. على الدولة أن تجد الصيغة الملائمة التي تتمكن من خلالها إدماج البرباشة في منظومة النفايات. مع العلم أنه ليس هناك جدوى من مجرد إضفاء الطابع الرسمي على عملهم إذ لم تبدأ الدولة فعلياً في دمج آرائهم في صناعة السياسات المتعلقة بإدارة النفايات. ومن الضروري قبل كلّ شيء أن يكون هناك هيكل قانوني ينخرط فيه البرباشة ليمثلهم في التفاوض مع الأطراف الأخرى، ويمكنهم من آليات التعبير والاحتجاج الضرورية لتحسين أوضاعهم من ناحية وبلورة تصورهم حول مشاكل إدارة النفايات وطرق إصلاحها من ناحية أخرى.

## عدم المساواة واستمرارية ديناميكيات إعادة التمهيش بالبلاد التونسية: دراسة حالة مجتمع البرباشة

د. خالد طبّابي

### مقدمة

يتنزل هذا المحور في إطار الدراسة المعنونة بـ: البرباشة أو اقتصاد القمامة في تونس. ويتمحور البحث العام للدراسة: لماذا وكيف يصير فرد ما أو مجموعة من الأفراد برباشة؟ وسؤال لماذا هو سؤال تفسيري، أما كيف فهو سؤال تفهيمي؛ وبالتالي المراوحة بين الفهم والتفسير. وفي هذا الإطار يحاول هذا المحور فهم ديناميكية التمهيش والعوامل البنوية لإعادة إنتاج التفجير وتكريس مبدأ عدم المساواة التي يعاني منها العاملون والعاملات في جمع القمامة.

في إطار العمل الميداني تمّ جمع بيانات كمية وكيفية واثنوغرافية، وفي هذا المحور سنتناول المعطيات الكمية باعتبار أنّ العوامل البنوية ليست حالة عفوية وتتجاوز نطاق الأفراد (البرباشة) وسنوضح هذا لاحقا، وجدير بالذكر أننا سنستخدم بعض المعطيات الكيفية والاثنوغرافية أحيانا وذلك لتعزيز النتائج السوسيولوجية والمعرفية.

تقريبا في كل تراب الجمهورية التونسية، وعلى مدار اليوم وبالقرب من القمامة والحاويات سيشهد المرء بسطاء من الناس يجمعون النفايات المتكدسة هنا وهناك، ومن ثمّة يقومون بعملية بيعها. وفي مصب برج شاكير الواقع على الجهة الغربية لولاية تونس، وتحديدًا في معتمدية «سيدي حسين»، يجتمع المئات من المواطنين والمواطنات في ذلك الفضاء، وبوسائلهم البدائية وفي ظروف بيئية كارثية، يقومون هم أيضا بجمع القمامة وبيعها.

تؤكد هذه المشاهد اليومية والدراماتيكية على وجود الفقر والفقراء في كامل أنحاء البلاد التونسية، ففي عصر التقدّم والحداثة والعولة لا أحد يُريد العمل في ظروف تتسم بالإهانة والدونية، ولا أحد يطمح إلى العمل في فضاءات تعيش على وقع كارثة بيئية. ولكن اتّسع رقعة الهامشين أجبرت الفقراء على الكفاح من أجل البقاء، وفضّلت هذه الفئات جمع القمامة وبيعها بدل عمليات الاستيلاء على ممتلكات الدولة والأغنياء.

لا يحيا مجتمع البرباشة في جزيرة معزولة، بل هو في ارتباط شديد بالديناميكيات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والمجتمعية التونسية، والسياسات العابرة للوطنية. ومن الوهلة الأولى يتّضح أنّ البرباش ينتمي إلى فئة المهمشين والفقراء. ويُشكّل الفقر ظاهرة معقدة وبناء اجتماعي (Construction sociale) غامض وموضوع للدراسة، فحتى اليوم فإنّ ملامح الفقر محدّدة بصعوبة في العالم الأكاديمي سواء كان سوسيولوجيا، أو تاريخيا، أو اقتصاديا، أو فلسفياً. ومع ذلك فإنّ الحقائق واضحة وملموسة ويمكن التعرف عليها بسهولة، فالفقر هو ظاهرة اجتماعية محسوسة في أيّ مجتمع. ومع ذلك لا يزال تعريف الفقر وتصوره ومقاربتة وقياسه أمراً مُعقّداً<sup>33</sup>. وفي إطار هذا اللبس والغموض فإنّنا لا نزعم تقديم تعريف للفقر أو للتهميش وإنّما سنبحث عن: هل أنّ التهميش هو ديناميكية وسيرورة ثقافية ومجتمعية أم هو حالة بنيوية نتاج سياسات حكومية وطنية وعابرة للقومية؟ ومن خلال البيانات الكمية والحالة البحثية، يُعالج هذا المحور العوامل البنوية التي ساهمت في تكريس عدم المساواة.

### عدم المساواة بين الجهات وهجرة سكان المناطق الداخلية: مجتمع القصرين مثالا

من خلال الاستنطاقات الميدانية، يستخلص باحثو المنتدى<sup>34</sup> أنّ العديد من العاملين في جمع القمامة هم من أصول جغرافية وعشائرية قصارنية (نسبة لولاية القصرين ومن عرش الفراشيش أساسا من عرش البثوري). ويدفعنا هذا الانتماء الجغرافي إلى البحث عن العوامل الطاردة نحو تونس العاصمة وسبب انخراطهم في نشاط جمع القمامة.

جغرافياً تقع ولاية القصرين في إقليم الوسط الغربي. وقبل سنة 2011، يُعد هذا الإقليم من أقل مناطق البلاد حظاً في مستوى الانتفاع بثروات البلاد. فمنذ أنّ اتّجهت الدولة التونسية نحو تحرير المبادرة الخاصّة وتعميق الاندماج في السوق الرأسمالية العالمية خلال السبعينيات، حين انتصرت حكومة الهادي نويرة إلى مبادئ اقتصاد السوق، استولى الشريط الساحلي على أكثر من ثلاثة أرباع الاستثمارات وخاصّة في الصناعة والسياحة، وتوسعت ديناميكية عدم المساواة بين الجهات بعد دخول تونس في برنامج الإصلاحات الهيكلية بعد سنة 1986، الأمر الذي عبّد

33 - Raphaëlle Bisiaux, « Sociologie de la pauvreté, une confrontation empirique : Delhi et Bogotà », L'économie politique, vol 4, n0 56, 2012, pp 63, 83. P 64.

34 نعني بالمنتدى: المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

الطريق نحو شكل ثنائية سواحل دواخل والموروثة منذ الفترة الكولونيالية.

يسجّل معدّل الإنفاق السنوي للفرد الواحد في إقليم الوسط الغربي أضعف نسبة في البلاد، وفق مختلف الدراسات الوطنية المنجزة من قبل المعهد الإحصاء الوطني حول الاستهلاك ومستوى عيش الأسر التونسيّة. ويسجّل الفقر في هذا الإقليم أعلى مستوى مقارنة بسائر مناطق البلاد الأخرى حيث بلغ 19.7 % سنة 1980 و 12.8 % سنة 2005<sup>35</sup>.

يشهد الوسط الغربي قبل سنة 2011 أعلى نسبة أميّة في البلاد، وتسجّل النسبة العامة للبطالة في جهة الوسط الغربي ارتفاعاً؛ حيث بلغت 14.9 % قبل سنة 2011 وهو ما يتجاوز نسبياً المعدّل الوطني ( 14.2 %). وفضلاً عن ذلك تسجّل نسب أصحاب الشهادات الجامعية العاطلين عن العمل ارتفاعاً في ولايات الوسط الغربي ( 33.6 % كنسبة عامة) وهي على التوالي 32.3 % و 35.9 % و 32.4 % بكلّ من سيدي بوزيد والقصرين والقيروان. وترتفع نسبة الأمية والعاطلين في سياق تراجع فيه إنتاج الجهة للخضر من نسبة 27 % من الإنتاج الوطني إلى 17 % فقط<sup>36</sup>.

رغم محاولات الدولة قبل الثورة التونسية إيجاد مواطن شغل في القطاع الزراعي في ولاية القصرين، إلا أن هذا التوجه ظلّ محدوداً وذلك بسبب خمس عوامل مختلفة<sup>37</sup>:

- 1/ تراجع مساحات المستغلات: فعلى مستوى الوسط الغربي جرى تسجيل تراجع ب 25,000 هكتار بين عامي 1995 و 2005.
- 2/ تواصل تشتت الملكية العقارية.
- 3/ تواصل ارتفاع أسعار المدخلات الزراعية مع برنامج إعادة الهيكلة الاقتصادية القطاعي.

35 عائشة التائب، «الخلافة الاقتصادية والاجتماعية للثورة في تونس»، في: ثورة تونس الأسباب والسيقات والتحديات، مجموعة مؤلفين، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 69.

36 المرجع نفسه، ص 69، 70.

37 حمادي التيزاوي، «الحساسية الاجتماعية المفرطة لاقتصاد محليّ هشّ وغير مهيكّل»، في: الثورة التونسية القادح المحلي تحت مجهر العلوم الإنسانية، إشراف: المولدي الأحمر، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 248.

4/ تراجع بعض الموارد الطبيعية للجهة.

5/ عدم تطور أسعار المواد الزراعية الأكثر حضورا في الجهة بالتوازي مع ارتفاع تكاليف الإنتاج.

في ولاية القصرين نسجل غيابا ملحوظا للحضارة الصناعية وللاستثمارات الأجنبية سواء كان ذلك قبل الثورة أو بعدها. كما يتجسّد التهميش في هشاشة المرافق الثقافية والبنية التحتية والخدمات العمومية بالجهة. واستمرت هذه الوضعية حتى في سياق انتقالي بعد الثورة التونسية.

بعد سنة 2011، استمرت ديناميكية التهميش بولاية القصرين. فعلى الرغم من ارتفاع نسب التعليم في تونس، إلاّ أنّه لا يزال، إلى حدود سنة 2015، أكثر من «ثلث سكانها يزرع تحت الأمية، ولا زال الانقطاع المبكر عن التعليم يعصف بنصفهم مسجّلاً نسبةً هي الأعلى في البلاد. وعلى ذلك نصف سكان القصرين غير عاملين، بينما يندرج عمل 20 % ممن يعمل منهم في إطار غير مرخص به، كما أنّ قرابة ثلثي السكان لا يتمتعون بنظام التأمينات الاجتماعية، وأغلبهم غير راضٍ عن الخدمات الصحية والتعليمية والإدارية في الولاية. والقطاع العام هو المشغل الأضعف في القصرين، وهو ما يعكس استمرار غياب بدائل اجتماعية واقتصادية تنموية عمومية يمكنها أن تقطع مع وضعية الفقر والتهميش للسكان»<sup>38</sup>.

تعتبر التجارة الحدودية التونسية الجزائرية أحد الأنشطة الاقتصادية والتاريخية التي ميّزت مجتمع القصرين. ولكن «الكنترا»، بصفتها الملاذ الأخير للعيش والاسترزاق لفئات عديدة من جهة القصرين، أصبحت صعبة المنال بعد سنة 2011، وخاصة للفئات الأشد فقرا وتهميشاً، وذلك: «بفعل الحاجز الذي أقامته الجزائر على جانبها من الحدود، وأيضاً لتدهور الوضع الأمني بعد سنة 2011، وما رافق ذلك من استحكام المقاربة الأمنية وحدها في مواجهة المجموعات الجهادية المسلحة، دون استناد إلى معالجة شاملة للوضع تقوم على إشراك المواطنين في القرار المتعلق بالأمن والحدود يأخذ بالاعتبار مطالبهم وأولوياتهم»<sup>39</sup>.

38 ألفة للموم، «أسئلة الثورة التونسية: عينة القصرين»، السفير العربي، 21/01/2016. الموقع: assafirarabi.com

39 المرجع نفسه.

بشكل عام ومكثف، لم تستطع الحكومات المتعاقبة بعد سنة 2011 معالجة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية بولاية القصرين، ولم تتمكن من تقليص التفاوت السوسيو-اقتصادي بين الجهات. فعلى سبيل المثال ورغم أنّ كّل الحكومات قد قدّمت وعودا بالتوظيف، إلا أنّ معدّلات البطالة قد ارتفعت في سنة 2017، وبلغت «626 ألف نسمة على مستوى الجمهورية ووصلت نسبتها إلى 15.3%. وفي المناطق الداخلية تصل إلى 19%. وفي بعض المناطق، خاصّة في جنوب البلاد، يتجاوز المعدّل 20%، بل ويتجاوز 25% في بعض الولايات، وهذا هو الحال مع: قبلي (25.3%)، قابس (25.8%)، قفصة (27.3%)، تطاوين (32.4%)، وتصل في القصرين إلى 22.3%»<sup>40</sup>. وهكذا فإن الوضع الاقتصادي والاجتماعي زاد تعقيدا بعد الثورة التونسية. فوفقا لمحمود بن رمضان: «يتأثر الشباب والمناطق المهملة اليوم أكثر بكثير ممّا كانوا عليه قبل سنة 2010، فهم محاصرون في ديناميكية رجعية وفي التخلف. فبين الدولة ومناطقها «اللعبة عبارة عن لعبة مجموع سلبي» (Le jeu est un jeu à somme négative)<sup>41</sup>.

إنّ الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي عصفت بولاية القصرين سواءً كان ذلك قبل الثورة أو بعدها، في سياق ارتطمت فيه الحركات الاحتجاجية باليأس وارتفعت فيه مشاعر الإحساس بالدونية والمظلومية، قد أدّت إلى هجرة الجماعات السكانية نحو المدن الكبرى ومن بينها تونس العاصمة. وقد اختارت فئات عديدة الاشتغال بالقطاع التجاري أو الاقتصاد الشارعي مثل سوق نهج إسبانيا<sup>42</sup>، وآخرون عمال يوميين، وانخرط آخرون في نشاط جمع القمامة. ولكن المفارقة السوسيوولوجية اللافتة للانتباه أنّ عدم المساواة لا يتجسد فقط بين الجهات وإنّما داخل الجهة الواحدة أيضا.

40 Ben Romdhane, (Mahmoud), Tunisie: La Démocratie enqueté d'Etat, (Sud Editions, Tunis, 2018), 151.

41 Ibid.

42 لمزيد القراءة يمكن للقارئ العودة إلى: سوق نهج إسبانيا أو منهاج الاقتصاد الشارعي في تونس، مقارنة سوسيوأنثروبولوجية، تحرير وتنسيق: سفيان جاب الله، المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2022.

## عدم المساواة: قراءة من خلال معالجة بعض البيانات الكمية

### اللاعدالة في الإنفاق داخل الجهة الواحدة وتنامي مشاعر الحرمان

تُعتبر قيمة المصاريف اليومية والشهرية والسنوية أحد المؤشرات التي تحدد وجود المساواة أو عدم وجودها سواء كان ذلك في كامل الفضاء الجغرافي- الوطني أو داخل الجهة الواحدة (الإقليم أو الولاية). وفي هذا الإطار يستكشف هذا العنصر مدى تجسيد مبدأ المساواة في الإنفاق داخل الجهة الواحدة.

جدول عدد 1: قيمة المصاريف العائلية للبرباشة حسب الشهر ووفقا للعينة المستجوبة

النسبة (%)	العدد	
19,4	28	أقل من 500 دينار
36,8	53	بين 501 و 750 دينار
27,8	40	بين 751 و 1000 دينار
11,1	16	بين 1001 و 1500 دينار
4,9	7	لا أعرف
100,0	144	المجموع

المصدر: العمل الميداني.

من حيث الإنفاق تعاني فئة البرباشة من عدم المساواة داخل الجهة الواحدة، وتوضح هذه اللامساواة في «تونس الكبرى والشمال الشرقي حيث يبلغ مؤشر جيني تباعا 0.316 و 0.315، بينما يبدو عدم المساواة أقل حدة في منطقتي الجنوب: الجنوب الغربي (0.261) والجنوب الشرقي (0.281). تبعت هذه الأرقام على الاعتقاد بأن عدم المساواة في الدخل أكثر ارتفاعا في المدن الكبرى حيث تبرز الفجوة الاجتماعية التي تعاني منها على وجه الخصوص المناطق المحيطة بهذه الحواضر مثل تونس وصفاقس وسوسة، وهي ظاهرة تفاقمت بعد ثورة 14 جانفي 2011»<sup>43</sup>. وهكذا فإنّ فئة البرباشة تعاني من عدم المساواة في الدخل داخل الجهة الواحدة (تونس الكبرى)، فهم فئات يعيشون على الهامش الاجتماعي والاقتصادي للمدينة.

43 عزام مجبوب، عدم المساواة في تونس، ترجمة: سمير الربحي، (تونس: المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2022) ص 73.

باستعارة من دراسته الأنثروبولوجية بين الإيطالي ستيفانو بونتيجا أنّ التراب التونسي منظم بشكل غير متكافئ. فقد استفادت جهات عبر تاريخها من مشاريع التنمية بينما تركت مناطق أخرى لتدبير الفئات. ولكن «لا يقتصر التهميش على الأفراد أو الطبقات أو الفئات الاجتماعية فحسب، بل يشمل كلّ المنطقة وكذلك الأقسام المتنوعة منه داخليا»<sup>44</sup>، وبالتالي فإنّ عدم المساواة دائم الحضور سواءً كان داخل كلّ التراب التونسي أو حتى داخل الجهة أو الإقليم أو الولاية الواحدة. وتُسهم الفجوة الاجتماعية في الدخل والإنفاق في تنامي مشاعر الحرمان النسبي فقد «يحصل تحسّن دخل (أ) بشكل ملموس، إلا أنّ معدّل التحسن عند (ب) هو ضعف المعدّل عند (أ)، وتزداد قراءة هذا الضعف تعقيدا وغموضا في حالة شعور (أ) بالظلم، ما دام أنّه لا يملك ما يستحقه بالمقارنة مع (ب) المحظوظ، وهذا ما يُؤلّد لدى (أ) ما يسميه علم الاجتماع الحرمان النسبي الذي يعتبر أكبر حافز للاحتجاج على الظلم واللامساواة واللاعدالة»<sup>45</sup>.

يبدو من خلال المعطيات الكمية أعلاه تدني قيمة المصاريف العائلية الشهرية لمجتمع البرباشة، ولمزيد التفحص والتثبت فيما مدى تلبية هذه المصاريف للحاجيات الأساسية وادّخار بعض المبالغ المالية، طرح باحثو المنتدى سؤالاً عن هذه الوضعية لتكون الإجابة كما التالي:

جدول عدد 2: إلى أيّ مدى يمكن للدخل الشهري أن يلبّي تغطية المصاريف العائلية حسب

العينة المستجوبة

النسبة (%)	العدد	
4,9	7	يمكنني تلبية حاجياتي الأساسية وأدخر بعض المال
16,0	23	يمكنني تلبية حاجياتي الأساسية دون ادخار
31,9	46	يمكن تلبية حاجياتي الأساسية ولكن بصعوبة
47,2	68	الدخل لا يلبّي حاجياتي الأساسية
100,0	144	المجموع

المصدر: العمل الميداني.

44 Pontiggia, (Stefano), Revolutionary Tunisia, Inequality, Marginality And Power, (Lexington Books, Lanham, Maryland, 2021), 6.

45 عبد الواحد أوامن «تاريخ الحركات الاحتجاجية بين المفهوم والنظريات»، في الحركات الاحتجاجية في الوطن العربي: دراسة في متغيرات الاستقرار والاستقرار والأنظمة السياسية، إعداد وتأليف: المصطفى بوجعوب، (برلين: المركز الديمقراطي العربي للدراسات الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية، 2016)، ص 44-22، ص 37.

لا يمكن للدخل الشهري أن يُلبّي الحاجيات الأساسية والضرورية لفئة واسعة من البرباشة (47.2 %) وإن كان يلبي لبعض العاملين في جمع القمامة فهو بصعوبة (31.9 %)، وهذا ما يُعزّز الفكرة القائلة بأنّ هذه الفئة تعاني من الغبن والحرمان نتاج سياسات عدم المساواة في الدخل والإنفاق.

## جمع القمامة من أجل البقاء

جدول عدد 3: ترتيب المصاريف حسب الأولوية وفقا لعينة الدراسة

النسبة (%)	العدد	
57,6	82	مصاريف الطعام
12,5	18	مصاريف الكراء
10,4	15	مصاريف الصحة
9,7	14	مصاريف الدراسة
9,0	13	مصاريف الفواتير
0,7	1	مصاريف التنقل
0,7	1	مصاريف اللباس
100,0	144	المجموع

المصدر: العمل الميداني.

يتصدر الانفاق على الطعام طليعة المصاريف العائلية، وهكذا فقد انخرط مجتمع البرباشة في التغيرات في هيكلية الإنفاق الأسري في تونس. فوفقا لنتائج المسح الوطني حول الإنفاق والاستهلاك ومستوى عيش الأسر لسنة 2021<sup>46</sup>، عرفت هيكلية الإنفاق العائلي تغييرا يخالف المنحى الذي اتبعته في العشرية السابقة. فعلى سبيل المثال ارتفعت حصّة التغذية في إجمالي الإنفاق من 28.9 % سنة 2015 إلى 30.1 % سنة 2021 بعد أن عرفت منحى تنازلي لعدّة عقود، وبلغت هذه النسبة حوالي 35 % بالنسبة للأسر الأقل إنفاقا. من جهة أخرى تراجعت حصة النفقات المخصصة للنقل بثلاث نقاط مئوية سنة 2021، بينما سجلت حصة النفقات الخاصة بـ«الرعاية

46 <https://www.ins.tn/ar/publication/ntayj-almsh-alwtny-hwl-alanfaq-walasthlak-wmstwy-ysh-alasr-lsnt-2021>.

الصحية والشخصية» ارتفاعاً هاماً مقارنة بسنة 2015، وذلك تزامناً مع تفاقم الأزمة الصحية. وبالمثل فإنه بعد المصاريف على الطعام تنفق عينة الدراسة وبنسبة 12.5 % على الكراء، ثم المصاريف الصحية بنسبة 10.4 % وذلك في سياق ارتفعت فيه الأزمة الصحية بالبلاد التونسية خاصة في فترات كوفيد 19 وما بعدها حيث يؤكد 56.9 % من أفراد العينة أنّ حالتهم الصحية والنفسية قد تدهورت بعد الكوفيد. وهكذا فإنّ العاملين في جمع القمامة يشتغلون من أجل الطعام والعلاج بمعنى آخر بغاية البقاء، حيث أنّ مداخيلهم الشهرية لا تسمح لهم بالمصيف، واقتناء اللباس، والانخراط في الحياة الترفيهية، والوصول إلى المقومات الثقافية الحديثة. حيث أنّ الشعارات المرفوعة خلال انتفاضة الربيف 2008 أو في 17 ديسمبر 2010 من «شغل حرية كرامة وطنية» أو «التشغيل استحقاق يا عصابة السراق» «ترجم مسألة الكرامة التي اعتبر المحتجون أنّها استبيحت وأنهم عازمون على استرجاعها. وهذه الكرامة لا تنحصر في الشغل والسكن والأمن الغذائي، بل تتعدى ذلك كلّ إلى المقومات الثقافية الحديثة للحياة الكريمة»<sup>47</sup>.

### عاملون وعاملات دون حماية اجتماعية

تعد المنظومة التونسية للضمان الاجتماعي مكسباً سياسياً واجتماعياً وساهمت في الحدّ من الفقر وعدم المساواة، لكنها تحمل في طياتها تفاوتاً بين الفئات الاجتماعية خاصة فيما يتعلق بالمخاطر المغطاة والمنافع المسداة<sup>48</sup>. ومع هذا يؤكد 90.3 % من عينة الدراسة أنهم غير منخرطين في الضمان الاجتماعي.

بالمقارنة مع مهن أخرى وهشّة، فقد بيّنت أمانة بلكله<sup>49</sup> أنّ صغار الصيادين وبحارة الصيد الساحلي يعيشون تحت وطأة ظروف صعبة، من أبرزها غياب الضمان الاجتماعي؛ فقد بيّنت أنّ حوالي 88 % من بحارة الصيد الساحلي بجزيرة قرقنة لا يتمتعون بالتغطية الاجتماعية، أما في شبه الجزيرة الجرجيسية فإن 10 % فقط من الصيادين التقليديين يتمتعون بالضمان

47 - أحمد خواجه «الممارسات الثقافية ودورها في اندلاع الثورة في ولايتي سيدي بوزيد والقصرين»، في الثورة التونسية: القادح المحلي تحت مجهر العلوم الإنسانية، إشراف: المولدي الأحمر، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 181-213، ص 186.

48 عزام محجوب، المرجع السابق، ص 279، 280.

49 أمانة بن كله، دراسة حول صغار بحارة ووضعية الصيد الساحلي في جرجيس وقرقنة وطبلبة، (تونس: المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2021).

الاجتماعي. وينطبق هذا الحال على أغلب الصيادين التقليديين وبحّارة الصيد الساحلي بالبلاد التونسية.

إنّ عدم انخراط الفئات الهشة أو العاملين في تشغلين غير نظامي أو غير مهيكَل يجد تفسيراته في التحديات التي تواجهها المنظومة التونسية للضمان الاجتماعي ومن أبرزها: « الغياب التام لتغطية عمّال القطاع غير المهيكَل الذين يتزايدون باستمرار، ويقدر المعهد الوطني للإحصاء عددهم ب 1598700 شخصًا من بينهم 381000 امرأة، وذلك في الثلاثي الرابع من سنة 2019 أي قبل الجائحة، ويتوزعون بين 810800 أجير و680300 عامل مستقل. ويُشكل التشغيل غير المهيكَل اليوم إحدى الصعوبات الكبرى التي تواجهها الحماية الاجتماعية وعاملا من عوامل تفاقم عدم المساواة. كما تكشف إحصائيات صناديق الضمان الاجتماعي أنّ عدد المضمونين الاجتماعيين ومن يؤول إليهم الحق لا يمثلون سوى 65.02 % من مجموع السكان، ممّا يشير إلى أنّ ثلث السكان لازال خارج التغطية الاجتماعية القائمة على المساهمات»<sup>50</sup>.

### عدم المساواة في الصحة

يعاني عدد هام من أفراد العينة من أمراض مزمنة وغير مزمنة تتلخص في التالي:

9.7 % يعانون من مرض السكري.

8.3 % لديهم ضغط الدم.

4.9 % يشكون من أمراض تتعلق بالقلب.

يعاني 10.4 % منهم من ضيق التنفس.

37.5 % منهم لديهم نقص في النظر.

يشكو 13,9 % من مرض الروماتيزم.

علاوة على الأمراض فإن هناك 13.9 % من المستجوبين كانوا قد تعرضوا لإصابات بإبرة مستعملة خلال شهر أفريل سنة 2023، وفي الفترة نفسها تعرّض 32.6 % من عينة الدراسة إلى الإصابة بجسم حاد. ورغم الإصابات إلا أنّ 32.0 % فقط من قاموا بزيارة الطبيب، في حين أنّ البقية اكتفوا بتنظيف الجراح وتعقيمها بأساليب تقليدية (مثل التنظيف والضغط على الجرح

وتغطيته). وتأتي هذه الآلام والأمراض والإصابات في سياق يؤكد فيه 38.9 % من المستجوبين أنهم لا يملكون دفاتر للعلاج والتأمين على المرض.

بالمقارنة مع استطلاعات ودراسات أخرى، فقد كشف المسح العنقودي متعدد المؤشرات -2018- أن 62.3 % من الرجال المستجوبين (من 15 إلى 49 سنة) و 78.2 % من النساء المستجوبات بأنهم يتمتعون بتأمين على المرض. ومن بين هؤلاء المتمتعين بالتغطية، لا يمثل المنتفعون بتغطية الصندوق الوطني للتأمين على المرض إلا 78.3 % من الرجال و 74.9 % من النساء. وينتفع 4.2 % من الرجال و 5.8 % من النساء بالمساعدة الطبية المجانية، بينما تغطي المساعدة الطبية بتعريفه منخفضة 14.7 % من الرجال و 16.2 % من النساء<sup>51</sup>.

ساهمت إصلاحات التأمين على المرض سنة 2004 وإنشاء الصندوق الوطني للتأمين على المرض في تفاقم عدم المساواة حيث انفتح هذا الإصلاح على القطاع الخاص وعمل على إرباك وهشاشة وتدهور القطاع العام، فضعف الاستثمارات في القطاع العام أدت إلى نتائج سلبية تتلخص في تراجع مالية المؤسسات الصحية العمومية؛ وبالتالي عدم المساواة في الوصول إلى خدمات ورعاية صحية بين الطبقات الاجتماعية. وهكذا فإنّ البرباش باعتبار انتماءاته الطبقية الهشة والفقيرة فهو لا يمكنه الحصول على رعاية صحية عمومية وبجودة عالية. إذن فالتفاوت في مجال الصحة مرتبط بعدم المساواة وأشكال التمييز وهذا ما يوضّحه المؤطر أسفله:

## المؤطر عدد 1

تصف بوابة عدم المساواة في الصحة (HealthInequalityPortal) اللامساواة بأنها «ما تكتسبه الحالة الصحية لمجموعات من الأشخاص من اختلافات هامة وعديمة الفائدة وغير منصفة ومجحفة ومنتظمة ويمكن تفاديها بوسائل معقولة». ويمكن رصدها بين السكان وبين المجموعات داخل السكان وفي شكل سَلَم متفاوت التدرّج، كما يمكن رصدها بين البلدان والجهات، وهي مرتبطة بالظروف الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، الظروف التي يولد فيها الأفراد ويكبرون ويعيشون ويعملون ويشيخون. تعني هذه اللامساواة غالباً أنه كلما كان المركز الاجتماعي والاقتصادي لفرد أو مجموعة ما أقل تميّزاً كان ذلك مرتبط بحالة صحيّة متدنّية. فالتفاوت في مجال الصحة مرتبط بالتالي بلامساواة أشمل وبأشكال من التمييز داخل المجتمع مثل العنصرية والتمييز بين الجنسين والفوارق الاقتصادية والاجتماعية. المرجع: عزام محجوب، المرجع السابق، ص 198.

## جمع القمامة: المخاطر، المشقة والحلم بالبديل

يؤكد 87.5 % من أفراد العينة أنهم يستعملون الأيدي أثناء جمع النفايات، في حين أن 12.5 % يستعملون آلة حديدية. أما عن تعبئة القمامة فإنّ 25.7 % من أفراد العينة يقومون بتعبئة النفايات في عربات يدوية و 14.6 % يمتلكون عربات جر ميكانيكية سواء من خلال ربطها بالسيارات أو دراجات نارية، في حين أن 59.7 % لا يمتلكون عربات؛ وبالتالي يحملون القمامة فوق ظهورهم وبقوّة أجسادهم. وفي إطار العمل بوسائل وتقنيات بدائية، تعرض 75 % من العينة المستجوبة إلى حوادث شغل تتمثل في جراح وانزلاقات وأضرار بدنية كبيرة.

علاوة على ذلك يعاني العاملون في مصب برج شكير من غياب منظومة الصرف الصحي، ويرتفع سقف المعاناة خاصة عند النساء، حيث لاحظ باحثو المنتدى غياباً كلياً لمنظومة الصرف الصحي في المنطقة المخصصة لفرز النفايات (المنصة - PLATEFORME)، وهو ما من شأنه أن يضع البرباشة أمام حتمية ابتكار وسائل بدائية لقضاء حاجاتهم؛ فالنساء مثلاً يعتمدن على حاوية تجميع النفايات (BIG BAG) لقضاء حاجتهن، ويضطررن في كل مرة إلى التخفي تحت

الحاوية نظرا إلى عدم قدرتهن المادية على اقتناء الحفاضات الصحية كبديل لقضاء حاجتهن.

الجمع بالأيدي والتعبئة بالعربات اليدوية والتعرض إلى حوادث شغل وانزلاقات أرضية وغياب منظومة الصرف الصحي، كلها عوامل تُشجع على تغيير العمل إن توافرت الفرص؛ حيث يصرح 92.4 % أنهم يقبلون بتغيير عملهم إن توفرت الفرصة مقابل 5.6 % لا يقبلون بتغيير مهنتهم. ويأتي هذا التفكير في التغيير على اعتبار أن 17.3 % من المستجوبين يعتبرون أن المهنة شاقة، و 21.8 % يعتبرونها خطيرة، و 26.3 % يرونها لا تلبى الحاجيات السوسيو اقتصادية، أما 15.8 % يعتبرون أن عملهم يتسم بالإهانة، في حين يرى 12 % أن مهنتهم لا تنال الاعتراف من الدولة و 4,5 % يعتبرون عملهم لا يعترف به المجتمع.

وفي إطار الحلم بالتغيير والبحث عن بدائل مهنية أخرى، يُحبذ 22.2 % من أفراد العينة العمل في الوظيفة العمومية، ويمكن القول أن الحلم بالعمل في الخدمة العمومية ليس حكرا أو حلما لبعض العالمين في جمع القمامة، ففي دراسته بين زهير بن جنات<sup>52</sup> أن 14 % فقط من الشباب المنجمي المستجوب مهتم بالعمل الحر وقطاع التجارة والخدمات، في حين أن الوظيفة والخدمة العمومية هي التي لاتزال الأكثر طلبا. ولكن في دراسة فئة البرباشة قد يختلف الأمر قليلا، إذ يحبذ 40.3 % فتح مشاريع خاصة ومستقلة، و 2.1 % يريدون العمل بالقطاع الخاص، في حين أن هناك 12.5 % فقط من يريدون تنظيم قطاع ومهنة البرباش قانونيا، أما 22.2 % يحلمون بالهجرة والبحث عن فضاء آخر يتجسد فيه ملامح الحلم. وتتصاعد الرغبة في التغيير في سياق لا يشعر فيه العاملون في جمع القمامة أنهم عاملون ينالون الاعتراف السياسي والإداري والاجتماعي والمجتمعي، حيث يرى 29.9 % أنفسهم عاطلين عن العمل، و 47.9 % يعتبرون أنفسهم عمالاً يوميين، في حين يرى 16 % أنفسهم كأصحاب مهن حرة، أما 5.6 % فيعتبرون أنفسهم عمالاً مؤقتين وباحثين عن شغل مستقر. وبالتالي فإن العاملين في أشكال تشغيل هشة وغير مستقرة، مثل جمع القمامة، يُعرفون أنفسهم أنهم عاطلون عن العمل أو عمال يوميون ومؤقتون وباحثون عن شغل ولا ينتمون إلى فئة العمال والموظفين المستقرين، بل هم منخرطون

52 Zouheir Ben Jannet, « Jeunes, Etat et dynamique de la révolution en Tunisie. Enquête dans le Bassin-Minier de Gafsa », In, ChristianaConstantopoulou (S/D), Récits de la crise : mythes et réalités de la société contemporaine, collection logiques sociales, (Paris, l'Harmattan, 2017), p 292, 293.

في جيش المهمشين والعاطلين. وتتطابق هذه الاستنتاجات الميدانية والتمثلات الاجتماعية مع دراسة المنجي حامد حول المجتمع المنجمي، رغم الاختلافات الجوهرية والبنوية في الخصوصية الاقتصادية والاجتماعية المحلية. ففي الحوض المنجمي يُعتبر «المرتبّ الشهري القار دليلاً شكلياً على عمل رسمي يُعبّر عنه في المجتمع بـ «مسمار في حيط»، ويُوفر لصاحبه امتيازات أجيير مثل الاقتراض من البنك والارتقاء المهني والحوافز المتعلقة بالتأمين. وهو ما يعني ضمناً أنّ أغلب سكّان الحوض المنجمي يمارسون أعمالاً غير قارة بدل البطالة، ولكنهم يعتبرونها بطالة لأنهم تعودوا بدور شركة فسفاط قفصة المركزي في ذلك وشريكها في رسم سياسات التشغيل محلياً، وهو الدولة المسؤول الأول في نظرهم عن التشغيل»<sup>53</sup>. وهكذا تكون الهجرة أو الحلم بالاستقرار في الوظيفة العمومية أو فتح مشاريع خاصة ومستقلة أحد البدائل التي تجعل من البرباش وكل العاملين في تشغيل هش يشعرون بالاستقرار والحماية الاجتماعية والاقتصادية.

### الدولة: عدم الاعتراف والتعويل على الشبكات التضامنية

باعتبار أنّ غالبية العاملين في جمع القمامة لا يشعرون بالاستقرار في الوظيفة، فإنّهم لا يشعرون أيضاً بوجود الدولة باعتبارها كياناً يُرسخ قيم العدالة الاجتماعية. ومقابل هذا الإحساس فإنّ 61.1 % من المستجوبين لا يدفعون الأداءات للدولة، وذلك لاعتبار عدم توافر الموارد المادية ( 29.5 %) أمّا 63.6 % لا يدفعون الأداءات لأن الدولة لا توفر لهم الخدمات الاجتماعية والاقتصادية والصحية (الخ).

علاوة على عدم دفع الأداءات، فإنّ أغلب العاملين في جمع القمامة لا يلجؤون إلى الدولة ومؤسساتها أثناء الاقتراض، بل يعولون على متانة الحلقات والشبكات الاجتماعية التضامنية. فقد بيّنت نتائج البحث أنّ 41.7 % من أفراد العينة يقترضون الأموال من عند الأقارب، و 20.8 % من شبكات الصداقة، و 13.9 % يقترضون من عند شبكات الجيران.

تجد الشبكات التضامنية تفسيراتها في أنّ العديد من العاملين في جمع القمامة، وخاصة داخل مصب برج شاكير، ينتمون إلى نفس مكان الإقامة وبالتالي قوّة شبكات الحي، حيث أنّ 53.5 % من أفراد العينة والعاملين داخل المصب وُلدوا بالكبارية، و 73.2 % منهم يسكنون بالكبارية

53 المنجي حامد، «مفارقات التنمية في الحوض المنجمي»، (تونس: مجمع الأطرش، 2021) ص 170.

أيضاً. وهكذا فإن الشبكات الاجتماعية وقوتها مثل شبكات القرابة والحي والجيران تلعب أدواراً تضامنية ومجتمعية مهمة.

### السياسات الاقتصادية والاجتماعية وإعادة ديناميكية التهميش

إنّ عدم المساواة التي يعاني منها مجتمع البرباشة ليست حالة عفوية ولا يمكن تفسيرها بأطروحة أوسكار لويس حول فكرة «ثقافة الفقر»، والتي تعني «ليست مجرد تكيف مع مجموعة من الظروف الموضوعية للمجتمع ككل. بل بمجرد وجوده (ثقافة الفقر) فإنه يميل إلى الانتقال من جيل إلى جيل بسبب تأثيره على الأطفال. بحلول الوقت الذي يبلغ فيه أطفال الأحياء الفقيرة سنّ السادسة أو السابعة، يكونون قد استوعبوا بشكل عام القيم والعادات الأساسية لثقافتهم الفرعية (Leur subculture) ولم يكونوا مؤهلين نفسانياً للاستفادة الكاملة من أيّ تغيرات أو تطورات قد تحدث لحياتهم»<sup>54</sup>. بل أنّ عدم المساواة في تونس هي حالة بنيوية فـ«الهامشية هي مسألة بنيوية منظوميّة (نسقيّة) تحتكم على آليات إعادة إنتاج وضعها وضمان استمراريتها مهما توفرت إمكانيات التّغيير العميق»<sup>55</sup>.

في سياقات تاريخية معاصرة، فإنّ التهميش وإعادة إنتاج التّفكير هو نتيجة سياسات الإصلاحات الهيكلية التي انطلقت في ثمانينات القرن الماضي، والتي كان لها تأثير في تقليل مساحة استقلالية الدولة في التخطيط الاقتصادي وخلق فرص عمل. وساهمت تلك التجربة في عبء الدين الخارجي لتونس الذي ظلّ الأكبر على مستوى معظم الدول العربية<sup>56</sup>. وعمّقت هذه السياسة الاقتصادية الاختلال بين الجهات. فلئن كانت الثنائية القديمة سواحل/دواخل الموروثة سائدة منذ الفترة الاستعمارية، إلّا أنّها قد تعمّقت بصورة لافتة مع حلول العولمة والاستقطاب الاقتصادي، إلى حدّ أنّها تحولت إلى مثلث ضيق<sup>57</sup> يتكون من الوسط الغربي، والجنوب الغربي،

54 - Paugam Serge, « Les sociologues et la pauvreté », In Géographes associés, n0 14- 15, 1994, 20.

55 - المولدي قسومي، قواعد لغة علم الاجتماع في مدوّنة المؤرخ التونسي الهادي التيمومي، تقديم: فتحي ليسير، (تونس: دار نقوش عربية، 2019) ص 111.

56 لمزيد القراءة يمكن للقارئ العودة إلى عائشة التائب، «سياسات التنمية في تونس وتأثيرها في فرص عمل»، النمو الاقتصادي والتنمية المستدامة في الدول العربية. سياسات التنمية وفرص العمل: دراسات قطرية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013) ص 131-258.

57 أحمد خواجة، المرجع السابق، ص 197، 198.

والشمال الغربي للبلاد التونسية. كما أعطت سياسة الانفتاح الاقتصادي الأولوية للقطاع الخاص؛ وبالتالي فإنَّ إعطاء الفرصة للمبادرة الفردية والانفتاح على مختلف أنماط التفكير والسلوك لا ينتج إلاَّ تفاوتاً بين الطبقات والجهات وحتى داخل أعضاء العائلة الواحدة<sup>58</sup>. وهكذا فإنَّ سياسات الدولة النيوليبرالية عبّدت الطريق نحو تنامي السلوكيات والممارسات الزبونية، فالرأسمالية التونسية شهدت تطورات جعلتها تمرّ من رأسمالية الدولة إلى رأسمالية تحت رعاية الدولة، ثمَّ وانطلاقاً من 1986 إلى رأسمالية تحاول الانفتاح على المنافسة العالمية، وفي العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين إلى رأسمالية محاباة ومحسوبة (Capitalisme de copinage)<sup>59</sup>.

بعد ثورة 17 ديسمبر 2010 - 14 جانفي 2011، راهنت تقريباً كلُّ الحكومات على مسألة الإصلاحات الشاملة ووضعتها ضمن أولويّات أعمالها، ولكنَّ لقيت المشاريع الإصلاحية بعد سنة 2011 عديد الصعوبات منها صعوبة «تحديد الأولويّات في المشروع الإصلاحية، وهذه المسألة ليست بالسهلة في بلد شلَّ فيها النظام السابق الحركة الإصلاحية لسنوات عديدة. ويواجه المسار التشريعي العديد من التحدّيات إذ أنَّه في غالب الأحيان تكون النتيجة أو يكون القانون الذي يحظى بالموافقة صعب التطبيق. كما بقيت الإصلاحات الجبائية والبنكية ومجلة الاستثمار «تقنية يتيمة» لا يجمع بينها جامع وفي بعض الأحيان لا طعم ولا رائحة»<sup>60</sup>، فالإصلاحات ليست عملية تقنية أو تكنوقراطية بقدر ما هي مشروع سياسي كبير، وليست تحولات تأتي من الخارج، بل لا بدَّ أن تحملها النخب من الداخل، لذلك يجب أن تكون الإصلاحات منخرطة في إطار مشروع كبير وعقد اجتماعي وسياسي وجامع تحمله نخب سياسيّة وفكريّة هدفها تغيير المجتمع وبناء عقد اجتماعي جديد<sup>61</sup>.

في سياق انتقالي معطوب، وفي ظرفية اتسمت فيها العشرية الأولى من الثورة التونسية

58 فتحى الرقيق، منصف القابسي، «إعادة إنتاج الهامشية»، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، العدد 109، (1992)، ص 17-34، ص 26.

59 - بكار غريب «مسألة موال التنمية البديل»، في حركية المجتمع التونسي في عشرية الثورة بين إرادة الحياة واستجابة القدر، تقديم: المولدي قسومي، (صفاقس: دار محمد علي للنشر، 2020)، ص 139-146. ص 144.

60 حكيم بن حمودة، شجون وخواطر اقتصادية، (صفاقس: دار محمد علي للنشر، 2018)، ص 57، 58.

61 المرجع نفسه، ص 63.

(2011 - 2020) بالخدعة السياسية واللصوصية الاجتماعية، انتهت تجربة الديمقراطية التمثيلية وتعالّت أصوات الشعبوية وتمكّن الرئيس التونسي قيس سعيد من التحكم في كل السلطات، لتنتقل البلاد التونسية من حالة الاستثناء يوم 25 جويلية 2021 إلى دولة الاستثناء<sup>62</sup> بعد ذلك التاريخ. «وهكذا فقد عملت الشعبوية القيسية بتنزيل اقتصادي واجتماعي على أزمة الديمقراطية التمثيلية الفتية والمشلولة، واستثمرت تلك الأزمة بغاية إنتاج ديناميكية تعبوية تُمكنها من التفرد بالسلطة السياسية. وبالتالي ومن الناحية التاريخية « كانت الشعبوية إفرازا لأزمات اقتصادية واجتماعية هيكلية أو أزمات هوية أو أزمات مرتبطة بتغيير أنظمة سياسية-اجتماعية»<sup>63</sup>.

حول النماذج السوسيو-اقتصادية فإن المسار الشعبوي بعد 25 جويلية 2021 ليست له القدرة على تحقيق تغيرات تقدمية وتطويرية؛ فالشعبوية تتميز بخصائص فريدة من أبرزها غياب البرامج الاقتصادية<sup>64</sup>. وهكذا فإن الايدولوجيا الشعبوية «لا تقترح في الغالب برامج سياسية دقيقة ورؤية متكاملة خلافا لما يسميه البعض بالأيديولوجيات الكثيفة حيث تستقي فعاليتها من تبسيطها وليس من ثرائها المضموني»<sup>65</sup>. وفي غياب السياسات الرصينة والاكتفاء بتكتيكات مساحيق التجميل، فاقت البطالة في تونس خلال شهر جويلية 2023 حوالي 20 %، منهم 70 % من حاملي الشهادات. ووصلت العائلات المعوزة ومحدودة الدخل خلال موفي جويلية 2023 حوالي 980 ألف عائلة، أي في حدود مليون عائلة، ويتراوح معدّل العائلات بأربعة أفراد، وبعملية حسابية هناك أربعة مليون مواطن تونسي وتونسية بين معوزين ومحدودي الدخل<sup>66</sup>. وهكذا فإنّ الرئيس قيس سعيد جاء فقط مُحمّلا بخطابات فضفاضة تتّسم بأسلوب تعويذة

62 SirineZaouali, « De l'état d'exception à l'Etat d'exception : Eléments de sociologie politique pour comprendre la dérive d'une transition démocratique », In MouldiGuessoumi, Sciences humaines et sociales dans un contexte de transition, (Sfax : Edition Med Ali, 2023).

63 عبد اللطيف الهرماسي، تونس الثورة والمحنة: مقارنة من منظور علم الاجتماع السياسي، (تونس: سوتيميديا للنشر والتوزيع، 2023) ص 268.

64 Ridha Boukraa, « Populisme et crise de la démocratie », In HamdiUnaina, Ecrire l'histoire sociale de la sociologie en Tunisie, (Sfax : Med Ali Edition, 2021), p 261.

65 عبد اللطيف الهرماسي، المرجع السابق، ص 267.

66 كلمة ألقاها وزير الشؤون الاجتماعية مالك الزاهي يوم الاثنين 31 جويلية 2023 وذلك خلال جلسة عامة برلمانية بمجلس النواب بباردو.

الدلالات الفارغة والتعويم، دون رؤية سوسيوولوجية وأيديولوجية مكثفة لها القدرة على إنتاج تغيرات تقدمية. وتُعَبِّد هذه السياسة الاقتصادية الشعبية الطريق نحو إعادة إنتاج التفجير وعدم المساواة.

بناءً على ما تقدم، يمكن القول أنّ توقف عجلة الزمن وعدم تحقيق التطور الاقتصادي والاجتماعي بالبلاد التونسية هي حالة بنيوية وإستراتيجية سياسية خلال زمن التبعية، التي تجعل من الدول التابعة في رقم الصفر دون تقدّم. «ففي الصفر الكلي يتوقف الزمن عن دورانه: لا الماضي يمضي، ولا الآتي يأتي. والزمن لا يراوح مكانه. يتصدّع وينهار، ولا يتضح غير المستحيل، من جهتين معا: ما كان يتكرر لم يعد يتكرر، والأفق بلون غامض، إنّه زمن مكسور من جهة الماضي، مبتور من جهة المستقبل، والحاضر فيه يتفتّت»<sup>67</sup>. وفي هذه السيرة التاريخية العاجزة عن حل المشاكل الاجتماعية والوطنية، ظل المهمشون ومجتمع البرباشة جالسين في «غرفة انتظار التاريخ». حيث تعززت مشاعر «الحقرة» لدى غالبية عينة الدراسة، ويعتبر 58,3% من العينة المستجوبة أنّ الحقرة هي بمثابة الإهانة و 30,6% هي دلالة على نظرة الاحتقار. وتُعتبر الحقرة «النقيض الأمثل لمفهوم الكرامة والاحترام والمساواة، ويُشير في المقابل إلى مفاهيم أخرى مثل الزبونية والاستبداد والفساد والرشوة والمحسوبية»<sup>68</sup>. وهكذا فإنّ أحد أهم سمات الدولة التونسية بمراحلها السياسية والتنموية المختلفة هي دولة «الاحتقار».

67 مهدي عامل، نقد الفكر اليومي، (بيروت: دار الفارابي 1989) ص 17، 19.

68 الحبيب استاتيزين الدين، «الفاعل الاحتجاجي في المغرب وأطروحة الحرمان النسبي: في الحاجة إلى تنويع المقاربات التفسيرية»، عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد السادس، عدد 22، (2017)، ص 171.

## خاتمة

من خلال البيانات الكمية المتاحة والتي استنتجها باحثو المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، وربطاً بالحالة البحثية، عالج هذا المحور سياسات عدم المساواة التي يعاني منها العاملون والعاملات في جمع القمامة، وتتلخص أهم استنتاجات المقالة في التالي:

إنّ المدخيل الشهرية للعاملين في جمع القمامة لا تلبّي لهم حاجياتهم الاجتماعية والاقتصادية الضرورية، وبالتالي لا يمكنهم الادخار. ويتصدر الإنفاق على الطعام طليعة المصاريف، وهكذا فإن انخراطهم في هذا النوع من التشغيل هو بمثابة الكفاح من أجل البقاء؛ أي العمل من أجل الغذاء والعلاج. وفي هذا الإطار توسعت الفجوة الاجتماعية بين البرباشة وبين طبقات اجتماعية أخرى داخل الجهة الواحدة (تونس الكبرى).

لا يتمتع أغلب العاملين في جمع القمامة بالحماية الاجتماعية والصحية، فالتحديات التي تواجهها المنظومة التونسية للضمان الاجتماعي والصندوق الوطني للتأمين على المرض شكلت عوائق هيكلية حرمت البرباشة من التمتع بالسلامة والحماية الاجتماعية والصحية. وهكذا ترتبط التفاوتات في المجال الاجتماعي والصحي بأشكال من التمييز داخل المجتمع مثل الفوارق الاقتصادية والاجتماعية.

لا تقف معاناة البرباشة عند الفوارق الاقتصادية والاجتماعية، بل يتّسم عملهم بالمشقة والمخاطر الصحية والجسدية، وفي هذا الإطار يحلم العاملون في جمع القمامة بالانخراط في أعمال أخرى مثل الوظيفة العمومية أو فتح مشاريع خاصة أو الهجرة نحو فضاء يتجسد فيه ملامح الحلم، فالعمل داخل المصب أو خارجه هو بمثابة الإهانة والاحتقار في تمثيلات البرباشة.

إن السياسات الاقتصادية والاجتماعية التونسية التابعة والمتخلفة ساهمت في إعادة إنتاج التهميش وفي توسع خارطة عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، حيث عملت السياسة التونسية سواء كان قبل سنة 2011 أو بعدها على سياسات تمييزية انتصرت من خلالها للمبادرات الخاصة مقابل تهميش القطاع العام وتفجير بسطاء الناس، وهكذا فإن سياسات الانفتاح الاقتصادي وعدم تشكل الكتلة التاريخية التي تحمل في طياتها البدائل الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية والثقافية هي التي عبّدت الطريق نحو تشكّل فئات تجمع في القمامة، وبالتالي فإن عجز الدولة وضعفها هي التي ساهمت في ديناميكيات إعادة التهميش والتفكير. وهذا العجز ليس طارئاً أو مؤقتاً وإنما هو عجز بنيوي وتاريخي.



## نافذة على عالم فارزي النفايات

د. رياض بن خليفة  
جامعة تونس

إنّ تحوّل الفضلات المنزلية والصناعية إلى مادة قابلة للتدوير أو لإعادة الاستعمال<sup>1</sup> هي ظاهرة معاصرة بامتياز مرتبطة بالثورة الصناعية منذ نهاية القرن الثامن عشر وبالسباق الدائم نحو التطور التكنولوجي لزيادة الإنتاج وتخفيض كلفته. ويسعى المنتجون إلى الاستجابة لحاجيات المجتمعات للرفاه وإلى تحفيز المواطنين على الاستهلاك. فلقد خلقت تقنيات التسويق والإشهار نهماً استهلاكياً يُفرض عادةً إلى تغيير التجهيزات التي تجد طريقاً لها في إعادة الاستعمال من قبيل أشخاص آخرين أو في المزابل وعلى حافة الطرقات وفي أخاديد الأودية. وإذا نظرنا إلى المسألة على المدى الطويل نلاحظ أنّ التحوّل الذي حدث بعد الحرب العالمية الثانية في الغرب وبعد الاستقلال في عدد من البلدان التي كانت تخضع للاستعمار هو الانخراط في اقتصاد السوق واعتبار الاستهلاك أحد عوامل النماء. وتبعاً لذلك نُسجّل تغييراً في طبيعة النفايات التي كانت بالأساس متكوّنة من مواد عضوية لتتحوّل في جزء كبير منها إلى مواد كيميائية من مشتقات البترول المعتمدة في التصنيع. إذ يتبيّن الهوس في تخفيض الكلفة وفي دفع المستهلكين إلى تجديد معداتهم وملابسهم ووسائل نقلهم... وذلك لضمان توفر السوق لمواصلة ربط حلقات الإنتاج والتوزيع ببعضها. ويساعد تساهل التشريعات مع استعمال المواد الملوثة للمحيط في مواصلة تصنيعها وانتشارها في العادات الاستهلاكية.

ونظراً إلى حالة التلوث التي انتشرت في كافة أصقاع الكرة الأرضية، تعالت نداءات العلماء والمجتمع المدني والأحزاب السياسية للحدّ من هذا الخطر الناجم عن الاستهلاك المفرط للمواد

1 لا يعني ذلك عدم تدوير النفايات منذ الفترة القديمة وإنما القصد هنا انخراط أعداد أكبر من الأشخاص في جمعها ورسكلتها.

البتروولية ولشقتها ولعدة مواد كيميائية أخرى شديدة التلوث. ثم إنَّ ارتفاع أسعار المواد المعدنية وضعف كلفة إعادة تصنيع المنتجات البلاستيكية ساهما في إدماج المواد المرسكلة في الإنتاج الصناعي. والهدف من ذلك هو الربح المادي أكثر منه حماية البيئة رغم أنَّ الدعوة لمقاومة التلوث واعتماد مقاربة التنمية المستدامة أصبحت من المبادئ السامية لأدبيات بعض الأحزاب التقدمية ومنظمات المجتمع المدني. ونتج عن ذلك تنظيم ندوات دولية للتباحث في مستقبل الكون الذي أصبحت فيه التغيرات المناخية بيئية، ويُفسر جلُّ الباحثين هذه الظاهرة بكثافة الغازات الدفيئة التي تؤثر على طبقة الأوزون. وهذه الانبعاثات متأتية أساسا من حرق الفحم الحجري والمواد البتروولية ومشتقاتها. ووُضعت عدَّة برامج للتشجيع على إنتاج الطاقة المتجددة، وسُنَّت قوانين للتصديق على الصناعيين الملوئين للبيئة، ووُضعت سياسات لتدوير المواد المستعملة. ولكن التقدم في هذه البرامج، حسب المردود المرجو، يتطلب وجود بنية تحتية ووعي جماعي بأهمية الانخراط في حلقات مترابطة للحفاظ على البيئة وفرز الفضلات.

ونلاحظ في البلاد التونسية منذ عشرينيتين تقريبا وجود عدد من الأشخاص يجوبون الأحياء لجمع قوارير البلاستيك الفارغة من المنازل والمقاهي والمطاعم ويقومون بفرز القمامة؛ حيث يجمعون كلَّ ما يمكن أن يقع بيعه سواءً في أسواق خاصة بالمواد المستعملة أو مباشرة للوسطاء المختصين في جمع المواد القابلة للرسكلة. وتوحي وضعية هؤلاء بحالة من الهشاشة الاجتماعية، على الأقل في مستوى منسوب المخاطر الصحية التي يتعرضون لها عند فرزهم للنفايات دون اتخاذ تدابير الحماية من الأمراض. لذلك وعندما نفكر في تقديم مقاربة تاريخية لما يمكن أن يمثل رافدا لظاهرة «البرباشة» فإنَّه من الضروري الربط بين الفقر والتهميش الاجتماعي الذي يجعل بعض الأفراد رجالا ونساء وأطفالا يبحثون عن قوت يومهم بين المزابل ويؤثر ذلك بصفة مباشرة على التمثلات.

سنحاول في هذه الورقة تقديم لمحة عامة عن إعادة استعمال النفايات في بعض الحواضر الكبرى في العالم، ثم سنعرض بعض الفواصل التي رصدناها في الدراسات التاريخية - وهي قليلة- عن الأشخاص الذين يقومون بجمع النفايات وفرزها.

## تدوير النفايات: عرض لبعض الأمثلة في الحواضر الكبرى

يقابل مصطلح «البرباشة» المعتمد في الدّارجة التونسية والذي يُعبّر اصطلاحًا عن الشخص الذي يبحث في أكوام المزابل داخل المدن أو في المصبات الخاصة عن أشياء يمكن بيعها أو إعادة استعمالها، تعبيرات أخرى مثل «الزبالين» في مصر و chiffonniers في فرنسا والـ «بورة» في المغرب الأقصى و çekçekçi في تركيا... وحتى نفهم العلاقة بين هذه المهن والتهميش الاجتماعي وتطوّر ظاهرة الاستهلاك ودخول الفضلات من جديد في حلقة التبادل التجاري من المهم الوقوف عند بعض الأمثلة.

تحظى شريحة «الزبالين» في مصر بعمق تاريخي، كما تمثل حلقة مركزية في منظومة جمع النفايات. ويمثل الانسجام الإثني أحد أهم خصوصيات هذه المجموعة التي تبني معيشها اليومي على النفايات. إذ أنّ الأغلبية الساحقة من بين المتعاطين لهذا النشاط تعتنق المسيحية. ويختزل الزبّالون وصمًا اجتماعيا مرتبطين بتعاملهم اليومي مع النفايات وخاصة «بالمندس» عند الأغلبية المسلمة لسكان مصر؛ ألا وهو تربية الخنازير التي تلتهم المواد العضوية المتراكمة في المجال الحضري. وتعود أصول الزبالين إلى القرن العاشر؛ إذ عُثِر في الفسطاط على نقائش تدلّ على وجودهم، كما أنّ الرحالة مثل المقرئزي وأيليا شلبي والجبرتي قد تحدثوا عن جامعي النفايات في أسواق القاهرة<sup>2</sup>.

ولقد وقع الاهتمام بتنظيم جمع النفايات وتصريف المياه المستعملة والمياه الراكدة وهيكلية المجال الحضري في القرن التاسع عشر مع انبعاث حركة الإصلاح. في البداية وقع استعمال الفواضل لطبخ الفول ولتزويد الحمامات بالماء الساخن، ولكن في الثلاثينات من القرن العشرين تمّ تحويل تلك الفواضل إلى علف للخنازير التي يُربّيها المسيحيون. وفي الأثناء أسس الواحيون (العائلات القادمة من الواحات في جنوب مصر) رابطة وتحولوا إلى وسطاء بين سكان العمارات، الذين يبيعونهم حق جمع النفايات، والزبالين.

2 Gaétan du Roy, Les zabbaliñ du Muqattam : ethnohistoire d'une hétérotopie au Caire (979-2021), Leiden, Boston : Brill, 2022, p. 23.

مع بداية فترة الانفتاح الاقتصادي في السبعينات، تدخلت الدولة لمحاولة فتح هذا النشاط للتنافس الحر. إلا أن الإجراءات العملية لم تتم إلا في بداية التسعينات مع الإصلاح الهيكلي الذي فرضته المؤسسات المقرضة لمصر. إذ أن مجال جمع النفايات كان من بين القطاعات التي شملها الاستثمار الأجنبي، وهو ما انعكس سلباً على وضعية «الزبالين» وعلى جمع النفايات وتدويرها. ونتيجة لذلك اندلعت احتجاجات اجتماعية وعمليات تخريب لإعاقة عمل الشركات التي تحصلت على مناقصات جمع النفايات. ولم يكن من السهل إبرام عقود مناولة مع «الزبالين»، نظراً إلى رفض أغلبهم الانخراط في علاقات إنتاج مختلفة عن تلك التي اعتمدت لمدة قرون. كما أن إمضاء بعض الوسطاء (المعلمين) لعقود مناولة زاد في هشاشة الزبالين الذين قبلوا بهذه العلاقة التعاقدية. وخلاصة القول نتج عن تدخل الشركات الأجنبية لاستغلال قطاع جمع النفايات ومحاولة الدولة إعادة بناء العلاقة التعاقدية مع الزبالين تفاقم حالة التلوث وتفكيك منظومة عمل الزبالين. ولذلك تحرك المجتمع المدني لمناهضة سياسة الدولة ووقع تنظيم حملات إعلامية أخرجت السلطات.

«وعند اندلاع ثورة 25 جانفي 2011، تحولت مسألة النظافة رمزا لمصر جديدة، مسؤولة، تُعلى قيم المواطنة أو بعبارة أخرى تسعى «لكنس» المسؤولين الفاسدين. ووقع تنظيم عدة حملات نظافة لترجمة المدّ الثوري على مستوى الأحياء والقرى<sup>3</sup>. إلا أن هذه المبادرات لم تدمج «الزبالين» كعنصر أساسي في المعادلة. وتحتاج حالة التلوث في مصر إلى الأخذ بعين الاعتبار هذه المعطيات التاريخية وضرورة تحفيز الأطراف العاملة في جمع النفايات وفرزها حتى تقع حمايتها من الوسطاء ومن كبرى الشركات التي تسعى إلى تحقيق مزيد الأرباح دون أن تتوصل إلى النتائج المرجوة؛ لأن سياساتها تجاهلت الأسس الاجتماعية والثقافية لتنظيم «الزبالين» داخل العاصمة المصرية.

مثّل عمّال النفايات أو ما يسمى في المغرب الأقصى «البور» موضوعاً للعديد من الدراسات. ويعتبرون شريحة اجتماعية تشكو من الوصم والإقصاء نظراً إلى حالتهم الرثة وإلى طبيعة

3 Gaétan du Roy, Les zabbaliñ du Muqattam : op.cit., p. 51. Voir également Bénédicte Florin, « Réformes, crise, ajustement et malentendus entre acteurs : quand la question des déchets devient un problème public. L'exemple du Caire », In Claudia Cirelli et Bénédicte Florin, Sociétés urbaines et déchets, Tours, Presses universitaires François-Rabelais, 2015

المساحات التي يحصلون منها على قوتهم. وتنحدر كلمة «البور» من اللغة الفرنسية ولا تشمل العمال الذين يشتغلون في القطاع المنظم لجمع النفايات، بل أولئك الذين يجمعونها لحسابهم الخاص في أطر غير رسمية وهم مهَّدون دائماً بالطرد لأنَّهم لا يملكون الأراضي التي يشتغلونها للاحتفاظ بما يجمعونه خلال جولاتهم اليومية في المدينة: «الجلساس». وينحدر «البور» في مدينة الدار البيضاء من الطبقات الشعبية ومن الأحياء المهمشة المهدة عموماً بالهدم تحت ضغط باعثي المشاريع العقارية. «عموماً يتم بيع هذه النفايات التي تكون أساساً من الورق المقوى والبلاستيك والمعادن والزجاج والأقمشة والنفايات النباتية. أما المواد القيِّمة فينتهي بها الأمر في أحد أسواق السلع المستعملة (جوتيا) وبالتالي يُعدُّ كلُّ شيء، بالنسبة إلى جامعي النفايات، قابلاً للاستخدام»<sup>4</sup>.

يسعى «البوارة» إلى تجنُّب الوصم الاجتماعي فهم «يُخَيِّرون البحث في صناديق القمامة في الصباح الباكر، في المساء وفي الليل بعد غلق المكاتب والمحلات لكي يتنقلوا بكلِّ حرية وبأكثر أريحية وحتى يتجنبوا ملاحقات رجال الأمن. ويلاحظ أن نبش القمامة يتم بأيدي عارية ودون إحداث ضجيج ودون تفاعل مباشر مع سكان المدينة، وحتى وإن وجد هذا التواصل فيمكن حصره في الشتم (في إشارة إلى الأوساخ العالقة بأجسادهم وإلى بعثرة النفايات حول الحاويات وإلى اتهامهم بالسرقة) أو في خانة التعاطف حيث يقع اعتبار «البوارة» في كل الحالات كفقراء»<sup>5</sup>، وهذه الأحكام غير صحيحة باعتبار أن بعض «البوارة» استطاعوا مراكمة رأس مال صغير وشراء عربة وتشغيل بعض الأشخاص لحسابهم.

لنأخذ مثلاً آخر من المجال الأوروبي لتقديم عرض موجز لما يُعبر عن الأشخاص الذين يبحثون عن مواد قابلة للتدوير في النفايات وهم ملتقو القمامة (Les chiffonniers). ورغم اهتمام الباحثين بهذه الظاهرة منذ السبعينات<sup>6</sup>، فإن الدراسات المتعلقة بهذا المبحث تبقى نادرة<sup>7</sup>

4 «من هم جنود إعادة تدوير النفايات في المغرب؟»، ذي كوفارسيشن، 31 ماي 2017.

5 Bénédicte Florin, « La récupérateurs de déchets à Casablanca : l'inclusion perverse » de travailleurs à la marge », Sociologie et société, 47 (1), p. 79.

6 Alain Faure, « Classes malpropre, classes dangereuses ? Quelques remarques à propos des chiffonniers parisiens au XIXe siècle et leurs cités », Recherches, N°29, pp 79-102

7 Elisabeth Klaffe, « Les chiffonniers de Paris » dans Ferrand-Bechmann (dir), Pauvres et mal logés : les

وتفحصها يبين أنّ الاهتمام بمُلتقطي القمامة (Les chiffonniers) يبقى على هامش دراسة التصنيع وآثاره الاجتماعية. ولقد وقع تسليط الضوء على فارزي النفايات بعد نشر أنطوان كمانيون (Antoine Compagnon) سنة 2017 كتابا عنوانه<sup>8</sup> «Chiffonnier de Paris» وهو خلاصة عدّة ندوات ودروس قُدّمت بالمعهد الفرنسي (Collège de France) وبحوث في الأرشيف. ولقد أعادنا هذا الباحث إلى أزقة باريس بين 1820 و1880 ورصد حضور (Les chiffonniers) في الأدب والفن وتحدث عن معيشتهم اليومي. فهم يثمنون كل ما تقع عليه أيديهم ويمكن استعماله كمادة أولية في الصناعات. ولا ننسى أنّ باريس التي تحوّلت في هذه الفترة إلى قوة صناعية تحتاج إلى مواد أولية. كما أنّ عاصمة فرنسا عرفت زيادة في عدد السكان وكذلك سياسة تجديد لهندسة المدينة ومجهودات كبرى لمقاومة التلوث الحضري. ولقد عرفت المحاضرات التي ألقاها أنطوان كمانيون إقبالا كبيرا لأنها اهتمت بما خفي عن الباحثين، المهتمين بالقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، في المشهد الحضري لباريس ولعدة مدن فرنسية أخرى.

تعود أصول مهنة ملتقطي القمامة (Les chiffonniers) إلى العصر الوسيط، ولكنها عرفت اضطرابات بعد الثورة الفرنسية ورجعت للظهور بصفة واضحة في القرن التاسع عشر، مع تزايد النشاط الصناعي والحاجة المتزايدة إلى المواد الأولية وإلى تنظيف المجال الحضري؛ إذ يقدر عددهم في سنة 1899 بـ 30000. ويجوب ملتقطو القمامة المدينة للبحث عن خرق القماش التي تستعمل في صناعة الورق؛ الذي ازدادت الحاجة إليه بحكم ارتفاع نسبة التمدد وارتفاع عدد قراء الجرائد، والتي كانت المصدر الأساسي للاطلاع على الأخبار. ويقوم الصناعيون بعجن الورق لإنتاج نوعية أقل جودة تستعمل في التعليب.

ويجمع ملتقطو القمامة العظام التي تُستعمل في صنع الأثاث والتحف والأزرار، وخاصة لإنتاج الجيلاتين الذي يدخل في تركيبة الصناعات الغذائية نظرا إلى صفاته الوظيفية مثل قابليته

enjeux sociaux de l'habitat, Paris, l'Harmattan, pp. 17-34 ; Sabine Barles, « Les chiffonniers, agent de la propreté et de la prospérité parisienne au XIXe siècle », in Delphine Corteel et Stéphane Le Lay, Travailleurs des déchets, Paris, Erès, 2011, pp45-67 ; Caroline Ibos, « Masculinité des chiffonniers et disqualification des chiffonniers à Paris (1830-1880) », Travail, genre et Société, n°43, 2020/1, pp.31-49.

8 Antoine Compagnon, Les chiffonniers de Paris, Paris, Gallimard, 2017.

العالية لإعطاء المرونة للمواد التي يُخلط بها. أما أصداف المحار فيقع رحيها لتدخل في تركيبه السماد الطبيعي وتجمع فواضل الحيوانات وتجفف ليقع استعمالها كمصدر للطاقة. ويجمع ملتقطو القمامة المعادن والجلود والشعر والبلور وفواضل الخبز ولهذه المواد استعمالات عدة.

انقسم ملتقطو القمامة (Les chiffonniers) إلى حدّ سنة 1850 إلى ثلاثة أصناف:

- Les chiffonniers de nuit: يقومون بفرز النفايات ليلا.

- Les secondeurs: يقومون بنبش المزابل في الصباح الباكر وهذا العمل يعتبر ثانويا.

- Les gadouilleurs يبحثون في المصبات عن أشياء يمكن بيعها. ويعني ذلك بعد أن يتم فرزها من قبل الصنفين السابقين<sup>9</sup>.

ظهر في سنة 1850 ما يسمى: Les placiers، الذين يشتغلون في أحياء محددة، وربطوا علاقات طيبة مع المتساكنين في إطار تبادل المصالح. ولقد تعززت هذه الوضعية بداية من سنة 1880 حيث وقع الاهتمام أكثر من ذي قبل بعملية جمع النفايات و بنظافة المدينة بعد تعيين والي منطقة السان (Seine) أوجان بوبال (Eugène Poubelle).

واندثرت مهنة (Les chiffonniers) تدريجيا في النصف الأول من القرن العشرين نظرا إلى تضافر عوامل عدة: الأولى تنظيمية ذلك أنّ الوالي أوجان بوبال فرض سنة 1883 فرز للنفايات من قبل سكان المدينة قبل وضعها في حاويات خاصة بكل صنف من الفضلات<sup>10</sup>، وإخراجها في أوقات معينة، ومنع بعثرتها في الشوارع. وفي هذا الإطار تم ردع المخالفين. واتخذت فيما بعد تدابير لفرض فرز الفضلات في مصانع مختصة؛ أما الثانية فتتعلق بانخفاض أسعار المواد التي يقع جمعها من المزابل وخاصة أسعار فواضل القماش. فالورق أصبح يصنع من مواد نباتية مثل الخشب والسليلوز.

9 Sabine Barles, « Les chiffonniers, agent de la propreté et de la prospérité parisienne au XIXe siècle », op.cit.

10 Sandrine Galtron et Fabrice Cussac, « La collecte des ordures ménagères à Paris entre 1889 et 1967 », in Grégory Hamez et Martine Tabeaud, Les métamorphoses du déchet, Paris, Publications de la Sorbonne, 2000, p. 29.

هذه الأمثلة تقابلها عدّة نماذج لفارزي القمامة في مختلف المجتمعات وهذا يعني أنّ الفضلات يمكن تمييزها بطرق مختلفة ما جعل شرائح اجتماعية، بمسميات مختلفة، تهتم بالبحث عمّا يمكن بيعه ليُستعمل كوقود أو كسماد أو كمادة أولية للصناعات. وتختلف أشكال تنظيم مهنة فارزي القمامة من بلد إلى آخر، بل ومن مدينة إلى أخرى؛ إلا أنّ ما يمكن أن نلاحظه هو أن الحاجة الاقتصادية وضرورة تنظيف المدن في ظلّ تفشي المنظومة الاستهلاكية هي التي جعلت فارزي القمامة يمارسون نشاطهم بأنساق مختلفة، رغم سنّ تشريعات مقيّدة لعملهم ورغم دخول الشركات الكبرى لهذا المجال.

### عرض لبعض المعطيات المتعلقة بالنفائيات وبفرزها في تونس

لم تحظْ دراسة الـ«برباشة» باهتمام الباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية حتى من قبل الدارسين للفقير والتهميش وللتاريخ الحضري. فلم نعثر في كتابات عبد الحميد الأرقش<sup>11</sup> والهادي التيمومي<sup>12</sup> وزينب الماجري<sup>13</sup> والكراي القسنطيني<sup>14</sup> على أيّ معطى يخص فرز النفائيات وإعادة استعمالها. ويعود ذلك في تقديرنا إلى ندرة الوثائق الأرشيفية وإلى غياب هذا الموضوع في المصادر الأدبية وعلى عدم الانتباه للموضوع من قبل الدارسين للهامش في المجتمع التونسي. إذ لا يمكن تفكيك الهامش دون الانخراط في أبعاد منهجية ومعرفية تحاول فهم المجتمع من الأطراف في تفاعلها مع المركز مثل مقاربات الدراسات التحتية (Subaltern Studies)<sup>15</sup> وما بعد الكولونيالية (Etudes postcoloniales)<sup>16</sup>. وفي الواقع تحسّس المؤرخون التونسيون هذه المقاربات دون الانخراط فيها بعمق.

11 Abdelhamid Larguèche, Les ombres de la ville, Tunis, Centre de Publication universitaire, 1999.

12 الهادي التيمومي، تاريخ تونس الاجتماعي -1881 1956، تونس، دار محمد علي، 1997.

13 زينب الماجري، الهامشيون في مدينة تونس -1930 1956، جندوبة، المعهد العالي للعلوم الإنسانية بجندوبة، 2018.

14 الكراي القسنطيني، الاحتياج والمحتاجون بتونس العاصمة في فترة الاستعمار الفرنسي (-1885 1918)، تونس، مركز النشر الجامعي، 1999.

15 Isabelle Merle, « Retour sur les principes fondateurs d'un projet historiographique de l'Inde coloniale », Genèses, 2004/3, n° 56, pp. 131-147.

16 Yvan Clavaron, Petite introduction aux postcolonial studies, Paris, Editions Kimé, 2015.

وفي سياق متّصل ولكن غير متماه مع «البرباشة» رصدنا في أطروحة محمّد فوزي المستغامي المعنونة «بلاط باردو زمن حمّودة باشا 1782-1814» معطيات مقتضبة عن «الخرداجي».

من بين مكونات قصر باردو بيت العود؛ وهي عبارة عن المخزن الخاص بأواني الطبخ بأنواعها والسناجق والأخشاب المعتمدة في نصب الخيام وكل المستلزمات الخاصّة بالقصر ومطابخ العائلات المستقرة به وكذلك بالمحلات العسكرية والقلاع وإدارات البايليك. وكثيرا ما تتعرض هذه الأواني للتلف الكليّ أو الجزئيّ وتصبح غير قابلة للاستعمال سواء كانت من الأواني النحاسية أو الأقمشة أو الأخشاب وغيرها وتقوم الدولة عادة بتجديدها وشراء ما يعوضها.

وتشير الوثائق الأرشيفية ودفاتر بيت خزندار بخصوص مصاريف القصر إلى وجود « موشيك زاكي الخرداجي» والذي كان يعمر حانوتا بسوق باردو وبحاضرة تونس، وكان يهتم بشراء كل الخردة التي «ببيت العود» حيث يجمعها ليعيد رسكلتها وإصلاحها وإعادة بيعها في السوق، في المقابل كانت مهمّة «الخرداجي» في الجهة المقابلة توفير ضرورات أهل القصر من المواد المستوردة سواء الخاصة بالنساء مثل الملابس الداخلية أو الحريرية والأقمشة الأوروبية كما نجده يوفر بعض البضائع المحظورة والموجهة أساسا للباي وكبار رجال الدولة وتتمثل أساسا في «دبوزة الروم»، كما قد يوفر بعض الآلات الثمينة لاسيما الساعات والنظارات.

لذا كان «الخرداجي» في الظاهر تاجر للخردة والأواني عديمة الفائدة بالنسبة إلى سكان القصر والتي يمكن وضعها في صف الأزبال، إلّا أنه في عمق نشاطه كان «الخرداجي» القناة التي عبرها تسربت الأذواق الأوروبية لمجتمع البلاد لاسيما في الملابس والزينة.

وتعتبر الدراسات الميدانيّة التي قام بها بول صبّاغ (Paul Sebag) حول الحيّ القصديريّ ببورجل والصادرة سنة 1958 استثناءً، إذ قام بدراسة لوحدة سوسيلوجيّة موجودة في تونس الكبرى وذلك قصد دراسة البروليتاريا والبروليتاريا الرتّة للفضاء الحضريّ لمدينة تونس.

17 محمّد فوزي المستغامي، بلاط باردو زمن حمّودة باشا 1782-1814، تونس، مجمع الأطرش للكتاب المختصّ، كئيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس، ص 604 و610.

ولاحظ الباحث وجود قرابة 600 شخص في حالة فقر وخصاصة بالحيّ القصديريّ ببورجل؛ إذ كان معظم السكّان في وضعيّة بطالة وكان بعضهم يمتهن التسوّل. واستنتج صباغ من خلال دراسته الميدانيّة أنّ عددا كبيرا من متساكني بورجل يبحثون عن قوت يومهم في «المصبّ»<sup>18</sup>.

«تأتي شاحنات البلدية لإلقاء القمامة المجمّعة في المدينة على حافة البحيرة. شعب بأسره ينتظر: رجالا ونساء وأطفالا مسلّحين بمعاول ومناجل يتوقّفون برهة عن النباش في مصبّ القمامة المنثورة تحت أشعة الشمس الساطعة للانقضاض على محتويات آلاف من أكياس القمامة تلقي بها الشاحنة أرضا ثمّ يعودون إلى عمليّة نباش ممنهجة لجمع كلّ ما يمكن أن يكون له قيمة: ورق، خرق قماش عظام، ومعلّبات حديديّة»<sup>19</sup>، ويضيف الصباغ أنّه بعد عمليّة النباش والتجميع يقوم «برباشة»<sup>20</sup> بورجل ببيع الورق لتجار الورق ويحتكر ثلاثة وسطاء شراء العظام التي تُباع فيما بعد لمصنع أسمدة في جبل الجلود وتباع خرق القماش لورشات الميكانيك أمّا المعلّبات الحديديّة فيشتريها تجار مختصّون في جمع المعادن والذين يُصدّرونها بدورهم إلى فرنسا وإيطاليا<sup>21</sup>.

وتسيطر على قطاع جمع المعادن وتصديرها شركات كبرى يتأتى الجزء الأكبر من مخزونها من تفكيك السفن في منطقة بنزرت ومن ورشات خطوط السكك الحديديّة. ومن أهم الشركات رصدنا Klaguine و La compagnie fermière des Chemins de fer tunisiens.

ويشير تقرير سري بتاريخ 8 فيفري 1940<sup>22</sup> إلى أنّ تونس كانت تُصدّر المعادن المستعملة بالأساس نحو إيطاليا وفرنسا من ذلك الحديد والزنك والألومنيوم والنيكال... وليست لدينا تفاصيل عن نسبة الجزء الذي يقع جمعه من غير الشركات وبأية طريقة. ولا ينفي ذلك وجود أشخاص اهتموا بجمع فواضل المواد المعدنية المستعملة وبيعها لوسطاء. ولا توجد نصوص

18 Paul Sebag, « Le bidonville de Borgel », Cahiers de Tunisie, n°23, 1958, pp 268-309.

19 نفس المرجع، ص 282.

20 استعمل الباحث كلمة Chiffonniers

21 نفس المرجع، ص 283

22 Archives Nationales de Tunisie, SG 5, 212, dossier 4.

---

قانونية تنظم هذا القطاع. ويمكن أن نفسر ذلك بأن الكميات المجمعّة لم تكن مهمة لأنّ التشديد على مراقبة جمع المعادن وتصديرها قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها لم يركز إلاّ على كبرى الشركات.

### الخاتمة:

يتبيّن لنا من خلال هذا العرض أنّ جمع النفايات وتثمينها ظاهرتان قديمتان، ولكنّ نسق تطوّرها وانتشارهما وتنظيمهما ارتبط بتطور وتيرة الإنتاج والاستهلاك. كما يستجيب ذلك إلى منطق العرض والطلب من ناحية وإلى قدرة بعض الأفراد على إدماج عمليّة جمع النفايات وفرزها في حياتهم اليوميّة كمصدر رزق من ناحية أخرى.

ولئن وقع الاهتمام بدراسة فارزي القمامة في عدّة مجتمعات في سياق طرح إشكاليّات المهتمّين وقضايا البيئّة في العقود الأخيرة، فإنّ هذا البحث لم يحظّ باهتمام المؤرّخين التونسيّين حتّى أولئك الذين تعمّقوا في دراسة «المغيّبين» من التاريخ الاجتماعيّ بصفة عامّة. ولا يعود ذلك فقط في رأينا إلى ندرة الوثائق والروايات التي يمكن اعتمادها لدراسة هذا الموضوع بل وكذلك إلى اختيارات منهجيّة ومعرفيّة تجعل فارزي القمامة غير مرئيين، وحتّى وإن رصدنا بعض البحوث في علم الاجتماع المتعلّقة بهذا الموضوع<sup>23</sup> فإنّ عددها يبقى قليلا جدّا.

---

23 Hassane Mouri, L'informel ou la face cachée de la précarité : le cas des chiffonniers de Tunis, Paris, l'Har-mattan, 2016.

## البوثوري من الموطن الطارد إلى الحوز الواعد

د. فوزي سعداوي  
جامعة منوبة

### تقديم

تثير بعض الظواهر الاجتماعية أو السياسية وحتى الثقافية اليوم فضول المؤرخ. هذا الفضول يختلف لدى المؤرخ عن باقي المختصين من العلوم الاجتماعية لأنَّ اهتمامه بهذه الظواهر المعاصرة يحيله إلى غياهب الماضي التي قد تكون وردت فيها هذه الظواهر في ظرفية مختلفة وبأدوات لا تمت لواقع اليوم بصلة لكنَّها قد تقدّم إجابات تعجز الآليات المعاصرة عن تفسيرها.

هذا التمشي في البحث ينطبق على موضوع الحال؛ إذ يتجلى من العينة الميدانية المنجزة حول اقتصاد المزابل في مصب برج شاكير أنَّ العنصر البشري المهيمن على هذا النشاط في المصب يحمل لقب البوثوري أو الرحيمي.

هذا الأمر يثير حسَّ المؤرخ لأنَّ اللقبين يصنفان ضمن الألقاب ذات الأصول القبلية بما يعني أنَّها مجموعات وافدة على العاصمة وغريبة عنها.

وهذا يثير إشكالية كيف لهذه المجموعات الافاقية الغريبة عن العاصمة أن تفرض هيمنتها على المصب؟

للإجابة عن هذه الإشكالية يفترض على التحليل التاريخي ضرورة الغوص في الأصول الاثنية لهذه المجموعات وفسح المجال أمام التنقيب الإثني التاريخي لمعرفة من هم البوثوري والرحيمي. كما عليه أن يستجلي الاستراتيجيات والآليات التي طوَّعها حتى تتمكن مجموعة افاقية غريبة مثلهم عن العاصمة من الهيمنة على المصب وعلى هذا النشاط الاقتصادي الطفيلي المستحدث.

## - فضاء جغرافي طارد

### 1 / خصائص طبيعية منفرة

تعود الأصول التاريخية لمجموعات البوثوري والرحيمي إلى فريق أولاد موسى بن عبعوب من عرش أولاد وزاز من قبيلة الفراشيش. هذه المجموعات تنحدر من ولاية القصرين اليوم أو ما يعرف جغرافيا بالسباسب العليا الغربية، وقد استوطن فريق أولاد موسى بن عبعوب الذي ينتمي إليه أولاد بوثور والرحيمات ما يعرف في الجهة: زملة الحلفاء<sup>1</sup>.

هذا الفضاء الطبيعي يتميّز بطابعه السياسي شبه الجاف. إذ تتّصف التربة بفقرها وهشاشتها أمام عمليات التعرية؛ لأنها تتكوّن من طبقة رقيقة وقليلة التماسك وتغلب عليها الأسطح الحصوية. ومثل هذه التركيبة لا تسمح بعمليات التحلّل السريع للنباتات وإثراء التربة؛ لذلك يكون الغطاء النباتي فقيرا تغطى عليه التكوينات العشبية السباسبيّة مثل الحلفاء التي تجد في مثل هذه البيئة ظروفًا ملائمةً لانتشارها.

يغلب هذا المشهد الطبيعي على فضاء الفراشيش. أمّا على المستوى المناخي فيهيمن على المنطقة مناخ متوسطي شبه جاف تهب فيه الرياح الشمالية الغربية الممطرة والباردة خلال فصل الشتاء، في حين تخضع المنطقة خلال فصل الصيف إلى تأثير رياح الشهيبي الحارة والجافة. يُضاف إلى هذا المعطى الطبيعي تأثير الموقع؛ حيث إنّ وجود الجهة أسفل سلسلة جبال الظهرية يحرمها من وصول السحب الممطرة فيكون التواتر غالبا سنة ممطرة مقابل أربع سنوات جافة<sup>2</sup>. وكذلك عدم انتظامها شهريا؛ حيث تتركز التساقطات خلال شهر سبتمبر مع بداية فصل الخريف وخلال شهر مارس وبداية شهر أفريل أثناء فصل الربيع.

كما تتميّز الجهة بشتاء بارد تصل فيه درجات الحرارة الدنيا إلى معدّل 5 إلى 6 درجات تحت الصفر مع نزول الثلوج على المرتفعات الجبلية وكذلك ما يعرف محليا بـ«الجمادة»، وفي المقابل ترتفع درجات الحرارة إلى أكثر من 40 درجة خلال فصل الصيف مع هبوب رياح الشهيبي.

1 ATTIA(H), Les hautes steppes tunisiennes : de la société pastorale à la société paysanne. Thèse doctorat d'Etat Paris VII 1977, p44

2 ATTIA(H), Les hautes steppes....op.cit. p46-48

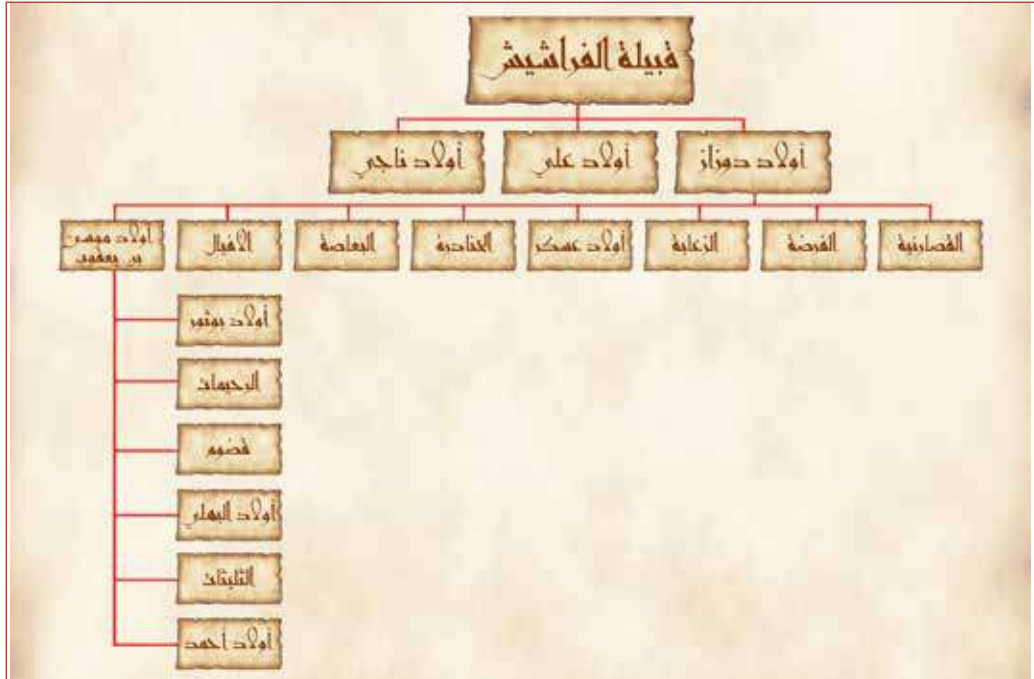
هذا التطرف المناخي يؤثر سلبيا على نمط عيش السكان المعتمد أساسا على تربية الماشية وهو ما يفسر حركة الترحال شبه المستمرة للسكان شتاءً نحو الواحات الجنوبية في الجريد وحامة بني زيد<sup>3</sup> وصيفا باتجاه الشمال والشرق للبحث عن المراعي والماء لماشيتهم.

هكذا ساهمت المعطيات الطبيعية في تشكل نمط العيش شبه المترحل لمجموعات أولاد دوزان والفراشيش عموما.

## 2 / مجموعة بشرية ضعيفة ديمغرافيا

يمثل أولاد بوثور والرحيمات تفرعين من فريق أولاد موسى بن عبعوب المنتمي إلى عرش دوزان من الفراشيش.

### قبيلة الفراشيش<sup>4</sup>



3 ماجري (لزهر) قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة 2007 ص 59-66

4 I.S.H.T.C, Archives diplomatiques de Nantes, Bob G11, Carton96

ولئن غابت المعطيات الديمغرافية الدقيقة المتعلقة بفخذي أولاد بوثور والرحيمات، فإنّ التصنيف الديمغرافي يضع الفريق الذي ينتمون إليه وهو أولاد موسى بن عبعوب ضمن المجموعات الأضعف من 8 فرق التي تُوَلَّف عرش أولاد دوزاز؛ إذ لا يمثل فريق أولاد موسى بن عبعوب سوى 11.96%<sup>5</sup> من مجموع عرش أولاد وزاز. كما يتميَّز الفريق بانحصار تقسيماته التي لا تتجاوز 6 أفخاذ من بينها أولاد بوثور والرحيمات في المقابل تصل تقسيمات فرق أخرى من نفس العرش إلى 11 فخذاً مثال الأفيال.

وتتأزم هذه الوضعية الديمغرافية الهشّة لفريق أولاد موسى بن عبعوب بسبب الجوائح الديمغرافية من مجاعات وأوبئة، والتي كان الفريق عرضةً لها خلال القرن التاسع عشر.

كما تُؤكّد معطيات الأرشيف الوطني أنّ فريق أولاد موسى بن عبعوب كان من بين الفرق الأكثر تضرراً من الآفات الديمغرافية خاصة في الفترة الممتدة بين 1850-1864؛ حيث قُدِّر معدل وفيات بـ 107<sup>6</sup> وفاة ليحتل المرتبة الثانية بعد فريق الأفيال بـ 140 وفاة خلال نفس الفترة الزمنية.

غير أنّ تفاوت الوزن الديمغرافي بين الفريقين يجعل خسائر فريق أولاد موسى بن عبعوب تكون أنقل، وتأكّدت هذه الهشاشة الديمغرافية لفريق أولاد موسى بن عبعوب أثناء مجاعة 1867 حيث سجّل الفريق أعلى معدل وفيات بـ 31<sup>7</sup> وفاة من بين فرق عرش أولاد وزاز.

وقد كان لهذه الأزمات الديمغرافية تأثيرها على التركيبة الجنسية للفريق مع نهاية القرن التاسع عشر؛ إذ تشير إحدى إحصائيات الإدارة الاستعمارية الفرنسية<sup>8</sup> إلى تفوق عدد النساء على عدد الرجال في أولاد موسى، حيث قُدِّر عدد النساء بـ 500 مقابل 486 عدد الرجال سنة 1892.

5 ا.و دفتر 1920 بتاريخ 1869-1863. إحصاء السكان لعرش أولاد وزاز

6 جدي(احمد). قبيلة الفراشيش في القرن التاسع عشر. منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات. زغوان 1966 ص 127

7 نفس المرجع ص 124

### 3/ فريق هش ماديا ومستباح جبائيا

لا تقتصر هامشية فريق أولاد موسى بن عبعوب ومنهم أولاد بوثرور والرحيمات على المستوى الديمغرافي فقط، بل تشتمل أيضاً على الجوانب الماديّة، فالمعطيات الأرشيفية تُصنّف أولاد وزاز إلى جانب أولاد بولعابة ضمن أقلّ الفرق ثروةً.

ففضلا عن أنّ الأرض لا قيمة إنتاجية لها في زملة الحلفاء بسبب الخصائص الطبيعية للتربة وطبيعة المناخ، فإنّ الثروة الحيوانية التي تُمثل الثروة الأساسية للمجتمع الراعي كانت ضعيفة لدى أولاد موسى.

إذ تصنّف إحدى وثائق الأرشيف<sup>9</sup> الفريق في أسفل سُلّم فرق أولاد وزاز من حيث حجم الثروة الحيوانية بقطيع لم يتجاوز عدده 25 رأساً منها 20 رأس غنم و4 رؤوس إبل و1 رأس خيل. وهذه الثروة لا تتجاوز نسبة 0.03 بالمائة من مجموع قطيع عرش أولاد وزاز (878 رأساً) سنة 1867. وحتى بمقارنتها بثروة الفرق القوية في العرش، فهي لا تمثل سوى ربع الثروة الحيوانية لفريق البعاصة (137 رأساً) وحتى بمقارنتها مع ثروة مجموعة طياش أولاد وزاز في النفيسة فهي لا تمثل سوى السدس (168 رأساً).

هذا الوهن في امتلاك الثروة الأساسية في فضاء رعي عمّقت هامشية أولاد موسى داخل موطنها الأم، ودفعت بمكونات الفريق إلى الترحال شمالاً أو جنوباً للعمل كخماسة أو عشارة في هناشير الحبوب في فريقيا وفي واحات التمور في الجريد. وحتى عندما أصبحت الحلفاء بضاعة<sup>10</sup> قابلة للترويج منذ انتصاب الحماية الفرنسية سنة 1881، فإنّ استغلال الوكلاء اليهود لمجهود الأهالي حال دون تحويل هذا النشاط إلى مورد رزق قادر على ضمان استقرار هذه المجموعات في موطنها الأصلي.

على الرغم من شحّ مواردها المادية فإنّ هذه المجموعة القبلية الضعيفة ديمغرافيا كانت عرضة للعنف سواءً من المجموعات القبلية المحيطة أو من السلطة المركزية.

9 جدي (أحمد). قبيلة الفراشيش. مرجع مذكور ص 138

10 Ennabi(H),Alfa et alfatiers en Tunisie pendant les années 30.in Actes du 3eme colloque de l'histoire du mouvement national. Tunis 1985 p 504

إذ أنّ فضاء الفراشيش مثله مثل باقي الفضاءات القبلية كان مسرحا لمبادلات العنف في إطار ما يعرف بـ«الإغارة» التي تُنفّذها المجموعات الحرابية القوية ضدّ المجموعات الضعيفة أو المستقرة والمسالمة. وقد كانت مجموعات أولاد وزاز ومنها أولاد موسى بن عبعوب عرضة للإغارة سواءً من مجموعات القبائل المجاورة مثل الهمامة أو حتى من القبائل الحدودية الجزائرية مثل أولاد يحيى<sup>11</sup>.

كما كانت مجموعات أولاد وزاز عرضة لعنف السلطة المركزية عبر الاستنزاف الجبائي لفوائضها، إذ تشير إحدى وثائق الأرشيف لسنة 1860 أنّ عدد المطالبين بضريبة الإعانة<sup>12</sup> في فريق أولاد موسى قدر بـ642 نفرًا. ويتنزلّ بذلك الفريق ضمن أكثر فرق أولاد وزاز استنزافًا جبائياً رغم ضعف الفريق من حيث الثروة والوزن الديمغرافي.

هذا التعسّف للسلطة المركزية، خاصة زمن المصاعب، يمثل أحد العوامل التي تدفع هذه المجموعات إلى مغادرة مواطنها الأصلية كشكل من أشكال المقاومة لهذا الاستنزاف الجبائي وهو مثال طياش أولاد وزاز في النفیضة<sup>13</sup>.

## II- مجموعات في ترحال شبه مستمر

فرضت البيئة الطاردة على مجموعات أولاد موسى وعلى عرش أولاد وزاز عموماً خيار الانتجاع شبه المستمر، ليتشكّل بذلك نمط العيش الرعوي. فالبحث عن المرعى وضمان تواصل الحياة البيولوجية للمجموعة وضعها أمام ضرورة الترحال شبه المستمر في الزمن والمتغيّر في الاتجاهات حسب الفصول. هذا الانتجاع يمكن أن نميّر فيه بين ترحال موسمي وترحال دون عودة.

### 1 / الترحال الموسمي

تتميز هذه الحركية المجالية لمجموعات أولاد وزاز ومنهم أولاد موسى بطابعها الموسمي؛ إذ يتمّ الانتجاع ظرفياً وحسب الفصول. لذا نميّر بين نوعين حسب الفصول:

11 جدي(احمد). قبيلة الفراشيش...مرجع مذکور

12 الاعانة ضريبة على الراس سنها محمد باي سنة 1856 قدرت ب 36 ريال يدفعها الذكور البالغون

13 جدي(احمد). قبيلة الفراشيش...مرجع مذکور ص 127

## أ - الهطايا

هي حركة انتجاع جماعي موسمي تقوم بها مجموعات أولاد وزاز، شأنها في ذلك شأن أغلب المجموعات القبلية في الوسط والجنوب التونسي. وتتم هذه الحركة باتجاه الشمال والواجهة الشرقية للبلاد أثناء بداية فصل الصيف وانطلاق موسم الحصاد. حيث تنطلق مجموعات أولاد وزاز من فضائها بشكل جماعي ويأخذون معهم مواشيهم متبعين في ذلك نقاط الماء في مسالك تنقلهم.

وعند الوصول إلى بلاد فريقيا ينصبون خيامهم بشكل دائري في إطار إستراتيجية دفاعية لتوفير الحماية للأفراد والمواشي. ويشغل أفراد المجموعة في الحصاد ويحصلون على عُشْرِ ما قاموا بحصاده، ويطلق عليهم الهطايا أو الصيافة<sup>14</sup>.

وبعد انتهاء موسم الحصاد يستغل الهطايا المزارع والهناشير كمراعي لمواشيهم حتى أواخر شهر أوت موعد رجوع المجموعة نحو موطنها في أرض الفراشيش.

وعادة تترافق عملية الانتجاع بمتاعب وصعوبات قد تطال الأطفال والنساء الحوامل والمسنين وحتى المواشي التي قد تتعرض إلى النهب بفعل إغارات الطريق.

## ب- التشتيت

بعد استقرار قصير حتى نهاية شهر سبتمبر، تعاود فرق أولاد وزاز ومنهم أولاد موسى الانتجاع من جديد. غير أنّ الاتجاه يتغيّر نحو الواحات الجنوبية للبلاد. فيتوجه أولاد وزاز عادة نحو واحات الجريد أو باتجاه حامة بني زيد في قابس.

وتقوم مجموعات أولاد وزاز بهذا الانتجاع من أجل قضاء الشتاء في الواحات لحماية قطيعهم من برودة الطقس في السباسب، والذي قد يذهب بالجزء الأكبر من قطيعهم إن واصلت المجموعة البقاء في موطنها، كما أنّ هذا الأمر لا يقتصر فقط على حماية المواشي بل أيضاً من أجل المشاركة في موسم جني التمور كعشارة أو خماسة، وتستغله مجموعات أولاد وزاز أيضا لمبادلة أو بيع

14 للتعقق حول الهطايا انظر ماجري (لزهر) قبائل ماجر والفراشيش. مرجع مذكور ص 77-80

منتجاتها المحلية مثل الصوف والمنتجات الصوفية وبعض المنتجات المصنوعة من الحلفاء، وتتواصل إقامة مجموعات أولاد وزاز في الواحات الجنوبية حتى بداية شهر مارس ودخول فصل الربيع.

وعموماً تؤدي حركات الانتجاع الموسمي لمجموعات أولاد دوزاز إلى إخلاء السباسب من سكانها لفترات تتجاوز ثلاثة أرباع السنة.

ولقد حفظت الذاكرة الجماعية للفراشيش الآثار السلبية لحركة الانتجاع وما تخلفه من مشهد خلاء لهذا الفضاء فترات ممتدة من السنة، وهذا ما حفظته الذاكرة من أبيات الشاعر عمر الغريسي البناني<sup>15</sup> تعبيراً عن هذه الصورة القاتمة:

*ماذا وماذا الوحش درك علي*

*ونجع الفراشيش شرق*

*وقعدت بلادهم خالية*

*وماذا وماذا بتنا سهارى*

*على نجع زوز قياد*

*قعدت بلادهم تفارى*

## 2/ الترحال دون عود وتشكل العروش الرقاق أو الطياش<sup>16</sup>

إذا انطلقنا من مسلمة أنّ القبيلة في تونس العهد الحديث لم تكن وحدة متجانسة على المستويين المادي والديمقراطي. فإنّنا عبر سبر أغوار مجموعات أولاد وزاز خلصنا إلى وجود تباين صارخ بين المجموعات المؤلفة لهذا العرش. حيث نجد مجموعات ضعيفة ديمغرافياً هامشية مادياً، ممّا يجعل علاقاتها ببيئتها المحلية تتسم بالنفور ممّا يفرض عليها خيار المغادرة والبحث عن فضاءات بديلة تُحوّل لها الاندماج والتعايش مع المجموعات المكوّنة لهذا الفضاء الجديد.

15 ذكره ماجري الزهى قبائل ماجر والفراشيش.. مرجع مذكور ص 81

16 الطياش مصطلح محلي

في هذا الإطار نفهم انتجاع مجموعات أولاد موسى بن عبعوب، ومنها البوثنوري والرحيمات، كغيرها من المجموعات القبلية في الوسط والجنوب التونسي نحو الفضاءات الرطبة في الشمال والواجهة الساحلية الشرقية.

هذا الانتجاع الذي على عكس الهطايا أو التشتية عادة ما يكون دون عود. فتسعى المجموعات المرتحلة إلى الاندماج في فضاءات الاستقبال مع المحافظة على ذاتيتها. فتشكل بذلك ما يسمى عروش رفاق أو طياش قبلي مثال ذلك ما حصل لبعض عروش أولاد وزاز في النفيضة.

وفيما يتعلق بأولاد موسى بن عبعوب، فإنّ الوثائق الأرشيفية تُشير إلى أنّ لهم طياشاً أو عرشاً رقيقاً خارج فضاء الفراشيش دون أن تُحدّد مكانه<sup>17</sup>.

للفراشيش عدّة عروش رفاق خارج السباسب العليا في عدة جهات من الشمال مثل عرش القصارنية في ضواحي العاصمة<sup>18</sup> وكذلك الواجهة الشرقية للبلاد التونسية مثل طياش أولاد وزاز بالنفيضة.

والواقع أنّ ظاهرة العروش الرفاق أو مجموعات الطياش تتجاوز بعدها الديمغرافي المرتبط بالترحال والهجرة لتثير مسألة على غاية من الأهمية في البحث الاجتماعي والتاريخي وهي ظاهرة الهامشية.

فالطياش في الاصطلاح المحلي الأصلي تشير إلى الثمار التي تسقط من الشجرة قبل نضج جنيها وخاصة الزيتون؛ أي الثمار الأقل جودة. واستعمال الاصطلاح لتوصيف مجموعات العروش الرفاق يتضمن نفس المحمول الاصطلاحي الأصلي ليعني المجموعات التي غادرت القبيلة الأصلية لعدم قدرتها على التعايش بسبب ضعفها الديمغرافي والاقتصادي وعدم القدرة على ضمان الدفاع عن ذاتها في ظل مجتمع قبلي يتّسم بالإغارة ومبادلات العنف. لتستقر في فضاءات جديدة تبحث فيها على الاندماج وحتى الانصهار. وإذا ما حاولنا ربط الصلة بين واقع اليوم الذي تناولته العينة الميدانية المنجزة بمصب برج شاكير والعمق التاريخي الذي كنّا بصدد

17 جدي (احمد) قبيلة الفراشيش. مرجع مذكور ص 127

18 نفس المرجع ص 117-85

تحليله، فيمكن الاستنتاج أنّ مجموعات البوثوري والرحيمات قد تمثل امتدادا بشريًا تاريخيًا لمجموعات طياش والفراشيش في ضواحي الحاضرة منذ القرن التاسع عشر. وهذا الاستنتاج يؤكد واقع المورفولوجيا الحضرية في العاصمة؛ إذ أنّ للفراشيش عديد الأحياء الخاصة بهم في ضواحي العاصمة اليوم تحمل تسميات حومة الفراشيش أو حي الفراشيش مثال ذلك في جهة الدندان أو في جهة راس الطابية وغيرها، وهو حال العروش الرقاق المنتمية إلى أصول قبلية عموما مثل حومة رياح أو حومة جلاص.

هذه الأحياء أو الحوم ذات الأصول القبلية يهيمن داخلها غالبية قبلية تعرف باسمها وترتبط بين متساكنها علاقة قرابة دمويّة حقيقيّة أو وهمية عبر المصاهرة. وتحافظ على ممارسات وسلوكيات تستند إلى ذاكرتها القبلية الجماعية الموروثة وتعتمدها لفرض ذاتها داخل الفضاء الجديد وشبكة علاقاته.

### III- الذاكرة الجماعية للقبيلة، من أجل تثبيت الواقع الراهن

عند انتجاعها نحو الفضاءات الجديدة لا تقتصر مجموعات الطياش على اصطحاب ماشيتها وثروتها المادية، بل كذلك تحتفظ هذه المجموعات برصيد ذاكرتها الجماعية التي تمثل رأس مال رمزي تلجأ إليه عند الحاجة لضمان اندماجها في الفضاءات الجديدة وداخل شبكة علاقاتها.

ويبدو أنّ البوثوري لم يشدّوا عن هذه القاعدة في التعامل مع الوضع الراهن في مصب برج شاكير، فالعينة تبرز لجوء البوثوري إلى موروثهم الجماعي وذاكرتهم القبلية عند الاستعانة بمجموعة الرحيمي أو الرحيمات في تسميتهم القبيلة الأصلية. هؤلاء ليسوا إلاّ أبناء عمّهم من نفس فريق أولاد موسى بن عبوب. وهنا تبدو الذاكرة الجماعية حاضرة بقوة، فاللجوء إلى رابطة الدم في طلب الدعم ليس إلاّ لجوءًا إلى الطابع الانقسامي المميّز للقبيلة المغاربية<sup>19</sup>، والقائم على مبدأ «أنا ضد أخي / أنا وأخي ضد الآخر»، وهذا يبرز جليا في اعتماد البوثوري على أبناء عمّهم من الرحيمات كثنائي أبرز عنصر بشري في المصب. كما يندرج هذا التعاون بينها ضمن ثقافة بدوية رعوية تقوم على أهمية العدد في ضمان أمن المجموعة وسلامة مصالحها؛ من ذلك

19 جماعي (مؤلف)، الأنثروبولوجيا والتاريخ. حالة المغرب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1988.

سلامة القطيع في الفترات التاريخية السابقة والتي تُعبّر عنها الذاكرة القبلية الجماعية بالمثل الشائع «عد رجالك واسقي البيل»، ومعين الذاكرة الجماعية لا يقتصر اعتماده على الحفاظ على الروابط الدموية والقربانية بل يمتد إلى رصيد القوانين العرفية الذي تعتمد هذه المجموعات الوافدة ذات الأصول القبلية للبحث عن آليات تُمكنها من تثبيت الواقع الآني والمعاش وتبريره.

يبدو في مثال الحال أنّ البوثنوري قد استنبطوا من ذاكرتهم الجماعية آليات لشرعنة هيمنتهم على المصب وتبرير الأمر الواقع؛ من ذلك اعتماد آليتي الحوز وعقد الصحبة المستمدتين من الأعراف القبلية وقوانينها.

### 1/ الحوز: عرف الجماعة لتثبيت الواقع الراهن

يُحيل مصطلح الحوز والحيازة إلى وضع اليد من ناحية وطول المدة من ناحية ثانية، وهي من معايير التصرف والاستغلال التي يشترطها العرف والتشريع. غير أنّه على الحائز أن يستجيب لشرط العشر سنوات ليضمن منزلة المالك وفقاً لمبدأ «من حاز شيئاً عشرة سنين فهو له»<sup>20</sup>.

وينطبق مبدأ الحوز على الهناشير والقرعة ومكب (مصب) الماء والراقوبة والفالطة.

والحوز قد يكون حوز تصرف دون أن يرتقي إلى ملك فردي أو شرعي، فتستعمل المدونة الفقهية تعبير «وفي حوزه التام وتصرفه العام لمدة كذا...»<sup>21</sup>.

فالحوز في بعض المناطق لا يتحوّل إلى ملك إلاّ بما تسمح به موازين القوى. وفي الفضاءات القبلية يستعمل مصطلح الحوز الجماعي للدلالة على الأراضي الجماعية.

وفي هذه الفضاءات ذات الثقافة الشفوية تؤكّد المعطيات التاريخية منذ العهد الحفصي على انتشار حوز الاستغلال والتصرف دون غيره.

20 الباهي (مبروك) القبيلة في تونس في العهد الحديث (ق-16ق19) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس 2005 ص 253-253

21 نفس المرجع ص 276

كما تشير المدونة التاريخية إلى أنّ اعتراف السلطة بالحوز يكون اعترافاً سياسياً أكثر منه اعترافاً فقهيًا دينياً. فيكون هذا الاعتراف لفرد أو مجموعة ما مرتبطاً بما يمكن أن يحققه من سلم جماعي وما ينتج عن ذلك من ضمان الولاء للسلطة القائمة. ولا تتدخل السلطة في الخلافات إلا إذا ما أثارت تهديداً لها أو للاستقرار والأمن الجماعي.

وإذا ما ربطنا هذه المعطيات التاريخية بواقع الحال الذي تناولته العينة في مصب برج شاكير، يبدو أنّ البوთوري وظفوا الموروث العرفي الجماعي بشكل واعٍ أو غير واعٍ لبسط حيازتهم على المصب مستفيدين من طول مدة الاستغلال ومعتمدين الاستقواء العددي القائم على روابط الدم مع أبناء عمّهم من الرحيمات، وباعتراف ضمني من السلطة ما دام هذا الأمر لا يُعطّل مصالحها ولا يهدد السلم الجماعي في المنطقة.

غير أنّ الإشكال الذي يُطرح على هذا الاعتراف الضمني هو: كيف لدولة حديثة مرتكزة على القانون الوضعي والمؤسسات أن تعترف بوضعية ناجمة عن ممارسة عرفية نابعة من مورث قبلي شفوي لاسيما وإنّ هذه الوضعية حدثت في فضاء حضري داخل العاصمة.

## 2 / «عقد الصحبة» لتأمين الحوز وحمايته

الواقع أنّ الإجابة على الإشكالية المطروحة آنفاً تُحيل أيضاً على نفس المرجعية التي استند إليها جماعة البوთوري لبسط سيطرتهم على المصب؛ ألا وهي الموروث العرفي للقبيلة. ويتعلق الأمر هذه المرة بما عرف لدى القبائل التونسية ومنها الفراشيش بـ«عقد الصحبة»<sup>22</sup>.

فما هو عقد الصحبة؟ وكيف وظّفه البوთوري لتثبيت حوزهم وحمايته في مصب برج شاكير؟

عقد الصحبة هو اتفاق معنوي مكتوب أو شفوي تعقده المجموعات الضعيفة مع المجموعات الحرابية القوية أو التي لها نفوذ مادي أو رمزي لتأمين حمايتها الجسدية وحماية ممتلكاتها وقوافل تجارتها.

22 انظر ليسير (فتحي) نجع ورغمة تحت الإدارة العسكرية الفرنسية 1939-1881 ش.ت.ب تونس 1991

ويضبط هذا العقد شروط الحماية من ناحية وواجبات الحامي من ناحية أخرى. كما يتضمن العقد قيمة الإتاوة التي يدفعها المحمي والمعروفة «بضريبة العادة» وهي ضريبة سنوية.

وقد قدرت في أحد العقود<sup>23</sup> في وطن ورغمة في الجنوب التونسي ب4 ويبه قمح؛ حوالي 65 كغ، و4 ويبه تمر؛ حوالي 60 كغ، و4 ويبه زيت؛ 18 لتراً، ورداءً من الصوف، وتصل الإتاوة في بعض العقود أحياناً حدّ أن يفرض الحامي على المحمي أن يكتب له جزءاً من ميراثه بعد وفاته<sup>24</sup>، وتشمل الحماية النشاط التجاري حيث تقوم القبائل الحامية بتأمين قوافل المحميين عند عبور ترابها ذهاباً وإياباً. وتحيلنا هذه الممارسة إلى ما عُرف في مكة والحجاز قبل ظهور الإسلام بـ«الإيلاف»<sup>25</sup>؛ وهو الاتفاق الذي عقده قبيلة قريش مع القبائل الموجودة على طول طريق تجارتها سواءً نحو اليمن جنوباً أو بلاد فارس وبيزنطة شمالاً مقابل قيام تجار قريش بترويج بضائع في الأسواق المذكورة.

ولئن تعود هذه الممارسة إلى جذور قديمة من تاريخ القبيلة فإنّ حضورها يتواصل اليوم مع تغيير وحيد يشمل شخصية الحامي التي لم تعد قبيلة حرايية؛ بل أصبحت شخصية متنفذة في الجهاز الإداري أو الأمني. فتجار التهريب سواءً على الحدود الغربية أو الجنوبية للبلاد يلجؤون إلى عقد الصحبة لحماية نشاطهم مستبدلين القبيلة بأعوان السلطة من أعوان أمن وديوانة مقابل إتاوة غير معلنة<sup>26</sup>.

وفي مثال الحال يبدو أنّ البوثوري قد ربطوا عقد صحبة خفيّ مع ممثلي السلطة من رجال الأمن في المنطقة لحماية حوزهم لمصب برج شاكير وضمان سيطرتهم عليه وحتى الاعتراف بهذه السيطرة.

23 نفس المرجع ص59

24 نفس المرجع ص60

25 شعبان(عبد الحي).صدر الإسلام والدولة الأموية.بيروت1983

26 السعداوي(فوزي)، التقاطع الملتبس بين التهريب والإرهاب على الحدود الغربية التونسية، بتنسيق عميرة عليّة الصغير، منشورات المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، منوبة 2017، ص114-95

## خاتمة

تتميز الظواهر الاجتماعية بطابعها التركيبي، حيث تتداخل السياقات بين العام والمحلي، وتتنوع الشبكة السببية فتغيب الحتمية التاريخية وتصبح كلّ العوامل والأسباب مهما كانت ثانوية قادرة على تقديم التفسير والوصول بالتحليل إلى نتائج غير متوقعة أحيانا. فانطلاقا من تناول ظاهرة اقتصاد المزابل عبر تنويع الاختصاصات وتقاطعها، انكشفت أهمية دراسة الإثني التاريخي للفاعلين في مصب برج شاكير لفهم مدى تواصل تأثير البنى الثقافية القبلية في استراتيجيات الفاعلين اليوم من أجل تحقيق أهدافهم وحماية مصالحهم.

فلئن اندثرت القبيلة بعد تحديث المجتمع والدولة في تونس الاستقلال، فإنّ الذهنية القبلية ما تزال حاضرة لدى الفاعلين اليوم. فيقع الاستلهام من الموروث القبلي لآليات تحوّل التعايش مع الواقع المعاصر وتضمن الدفاع الذاتي عن المصالح حتى وإن كانت في تناقض مع الأطر القانونية والمؤسساتية المبنية على العقلانية.

## علاقة «البرباش» بهويته المهنية: بين الاقتران والملاذ الأخير

د. ريم السماري  
باحثة في الاقتصاد

### مقدمة

تُسلط هذه الدراسة الضوء على موضوع البرباشة، معتمدةً في ذلك على منهجيّ البحث الكمي والنوعي للغوص بعمق في تحليل الخصائص التي تُميز هوية البرباش. وتهدف الدراسة إلى الإحاطة بالأبعاد الاقتصادية والاجتماعية المتصلة بالعمل في هذا القطاع.

تُعتبر مشكلة إدارة النفايات البيئية من أبرز التحديات التي تواجهها العديد من المجتمعات في جميع أنحاء العالم. إذ تزايدت كميات النفايات المفرزة نتيجة النمو السكاني والتطور الاقتصادي، وهو ما أدّى إلى زيادة الضغط على أنظمة الإدارة البيئية القائمة. وتشمل هذه المسألة المعقدة تحديات بيئية واقتصادية واجتماعية تتطلب تدخلاً فعّالاً وتنسيقاً شاملاً للتغلب عليها.

تؤثر مشكلة إدارة النفايات في الجوانب الاقتصادية إذ تتطلب تكاليف باهظة للتخلص من النفايات وإحداث البنية التحتية المطلوبة لذلك. إضافةً إلى ذلك، يُمكن أن يتسبب سوء إدارة النفايات في تلوث البيئة وتقليل جاذبية المناطق السكنية والسياحية.

حسب تقرير أصحاب المصلحة المقدم للاستعراض الدوري الشامل لتونس حول الحقوق البيئية والتنمية لائتلاف إرثنا<sup>1</sup>، فإنّ تونس تندرج في المرتبة الثالثة في إفريقيا من حيث التلوث

1 ائتلاف ارثنا هي مجموعة تتكون من عدد من الجمعيات و المنظمات الناشطة في المجتمع المدني تختص بتقديم تقارير حول الحقوق البيئية والتنمية في تونس

البيئي بمعدل تلوث يقدر بـ 75.12 % وفقاً لمؤسسة هاينريش بول، بعد أن كانت تحتل سنة 2017 المرتبة السادسة إفريقياً في نسبة التلوث.<sup>2</sup>

من المفترض أن تكون هذه الإحصائيات المزعجة قد شكّلت عاملاً محفزاً للحكومة للشروع في اتخاذ تدابير فعّالة، لكن يبدو أنّها لم تولِ هذه الأرقام الاهتمام الكافي. وفقاً لتقرير صادر عن البنك الدولي، تُقدّر تكلفة الأضرار الناجمة عن التلوث البلاستيكي على الاقتصاد التونسي بمبلغ 20 مليون دولار<sup>3</sup> (60810000 دينار) في حين أنّها لم تخصّص سوى 6,9 مليار دينار من ميزانيتها سنة 2021 لإدارة النفايات وفقاً لتقرير حول ميزانية الدولة لسنة 2021.<sup>4</sup> ولئن أضحت التحديات البيئية الراهنة قضية ملحة، غير أنّها قُوبلت بصمت رسميٍّ مثير للحيرة والريبة في نفسه. إنّ تزايد المخاوف من تفاقم الوضع البيئي يساهم في نشأة حركة اجتماعية تتبنى قضايا البيئة في ظلّ غياب استراتيجية وطنية أو سياسة فعّالة للحفاظ على البيئة.

يشير الارتفاع المستمرّ في الحركات الاجتماعية المدافعة عن البيئة في تونس إلى الوعي المتزايد بأهمية المسائل البيئية ويعكف النشطاء على دفع الأجندة البيئية، ممّا يُظهر أنّ هناك إرادة قوية للمطالبة بحماية البيئة والحفاظ على الموارد الطبيعية.

ساهمت كلّ العوامل التي تمّ ذكرها في إبراز دور «البرباشة» أو المجموعات العاملة في تجميع وفرز النفايات. إذ يتمثّل دور «البرباشة» في جمع وفرز النفايات القابلة لإعادة التدوير من الأماكن المختلفة والمساهمة بذلك في تقليل الكميات التي ينتهي بها المطاف في مكبات النفايات؛ ممّا يساهم في تقليل تأثيرات التلوث البيئي.

يلعب «البرباش» دوراً مهماً في تحسين إدارة النفايات وتقليل تأثيراتها البيئية<sup>5</sup>. تعمل هذه المجموعات في تونس، كما هو الحال في العديد من الدول، على تجميع النفايات المعاد تدويرها مثل

2 <https://tn.boell.org/ar>

3 البنك الدولي «الإقتصاد الأزرق في تونس : فرصة لتحقيق تنمية متكاملة ومستدامة للمناطق الساحلية والبحرية» Washington, D.C. : World Bank Group 2022

4 تقرير حول مشروع ميزانية الدولة، وزارة ألققتصاد والمالية ودعم الإستثمار، 2021.

5 Kumar ,Agrawal. « Recent trends in solid waste management status, challenges, and potential for the future Indian cities – A review », Current Research in Environmental Sustainability,2020.

الورق والبلاستيك والزجاج والمعادن، وتقوم بفرزها وبيعها للمصانع ووحدات إعادة التصنيع مما يسهم في تقليل الضغط على مكبات النفايات التقليدية وتحسين إدارة النفايات في البلاد. ونظرًا إلى هذا الدور الريادي يتوجب على السلط المعنية دعم وتنظيم هذا القطاع من خلال التشريعات والسياسات المناسبة.

وقد قُدِّر عدد الأشخاص الناشطين في قطاع النفايات بأكثر من 150.000 شخصًا من بينهم ما يناهز 70.000 «برباشًا» ينشط أكثر من نصفهم بأقاليم تونس الكبرى<sup>6</sup>.

جدير بالذكر أنّ هذا القطاع يشهد نموًا مطردًا نتيجة لعوامل متعددة الأوجه تشمل بالأساس الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، إذ يساهم ارتفاع معدلات البطالة بشكل كبير في دفع العديد من الأفراد نحو ابتكار مصادر دخل بديلة لتلبية احتياجاتهم الأساسية وتحسين مستوى عيشهم.

إنّ مستويات البطالة التي تصل إلى 15 % من القوى العاملة تفرض على الأسر المعوزة البحث عن فرص عمل تساهم في تحسين الوضع المالي. فيشكّل بذلك ارتفاع مستويات البطالة وزيادة نسبة النفايات قوّة دافعة لنموّ هذا القطاع غير النظامي.

رغم الدور الفعّال والمهمّ الذي يلعبه البرباش في قطاع إدارة النفايات وإعادة التدوير، فإنّه يعاني من التهميش وعدم التقدير. فمن خلال علم الاقتصاد القياسي، سنحدّد إن كانت هناك عوامل اقتصادية واجتماعية تُسهم في رسم ملامح هوية «البرباش» لنتمكّن من الإجابة عن سؤال مفاده: إلى أيّ مدى أثّرت هذه العوامل في تكوين أرضية مهنيّة لاختيار «البرباش» هذه المهنة طواعية أو إجباره عليها؟

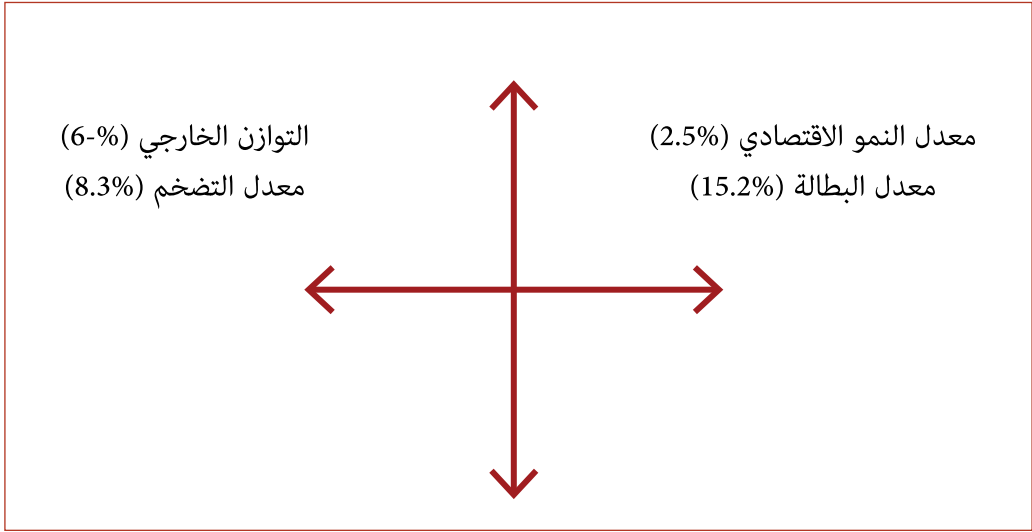
إذا كان هذا الموضوع محطّ اهتمام الباحثين على الصعيد الدولي خاصّة في قارة آسيا وتحديداً في الهند والصين، فإنّ تناوله في تونس كان مقتصرًا على البعد الاجتماعي والبيئي بالأساس.

إنّ التطرق لهذا الجانب من الاقتصاد غير نظامي يمكّننا من تشفير الجانب المظلم من سياسة التهميش التي تمارسها الدولة منذ 2011، ولعلّ بعض الأرقام تؤكد لنا تقصير الدولة في اختيار

6 حسب المؤشرات الإحصائية للوكالة الوطنية للتصرف في النفايات.

سياسات اقتصادية ناجعة، وما زاد الطين بلّة جائحة الكورونا التي أسهمت بدورها في زعزعة المربع السحري لكالدور<sup>7</sup>.

رسم 1: المربع السحري لكالدور (المؤشرات الخاصة بالبلاد التونسية لسنة 2022)



هذه الأرقام، وإن كان وقعها شاملاً لكافة فئات المجتمع، فإننا أردنا التركيز من خلالها على فئة «البرياشة» لفهم ملامحهم وكشف هذا الجانب من عوالم الاقتصاد الموازي.

### منهج التحليل وخطة المحور:

نحاول في هذا المحور تحليل مختلف خاصيّات هوية «البرياش». استناداً إلى الاقتصاد القياسي واعتماداً على نتائج البحث الميداني التي أُجريت من قبل باحثي المنتدى، حاولنا إدراج معادلة رياضية نشرح من خلالها ارتباط عدة خصائص ثقافية واقتصادية واجتماعية بمهنة

7 المربع السحري لكالدور هو مفهوم اقتصادي وضعه الاقتصادي نيكولاس كالدور. يمثل رؤية مبسطة ومخططة للعلاقات بين النمو الاقتصادي وتوزيع الدخل والتوازن الخارجي في الاقتصاد. يعتمد المربع السحري لكالدور على أربعة أهداف اقتصادية متداخلة، غالباً ما تعتبر أنها أهداف متوافقة ولكن من الصعب تحقيقها في نفس الوقت في الاقتصاد وهي النمو الاقتصادي و نسبة التوظيف و استقرار الأسعار والتوازن الخارجي.

«البرباش». سنحاول اتّخاذ مسافة من الأحكام المسبقة التي لا ترى في ممتهني «التبريش» سوى مجموعة واحدة متجانسة اقتصاديا واجتماعيا دون أيّ فوارق، لذلك قمنا بالفصل بين مجموعتي العاملين داخل المصبّ وخارجه. الإجابة عن هذا الطرح تستوجب منا تقدّماً عاماً ونظرياً لهذه المقاربة كعنصر أول ودراسةً تجريبيةً كعنصر ثانٍ.

وبما أنه لا يمكننا التطرّق إلى مختلف الجوانب المكوّنة لشخصية «البرباش» سواء داخل المصبّ (برج شاكير) أو خارجه (الفضاء العام)، سنستند إلى أهمّ مؤشرات التنمية البشرية كمستوى التعليم وظروف الحياة لتقديم تحليل إحصائي حول الصلات القائمة بين هذه العوامل واختيار هذه المهنة. ورغم أنه تبين لنا من خلال العمل الميداني الكمي والنوعي أنّ الاشتراك في الظروف الرثة والأوضاع الطاردة واقع يعكس تدني أهمّ مؤشراتنا الاقتصادية، فإنّ الاختلاف بين المجموعتين يمكن أن يكون نتاجاً لثقافة توريث المهنة وغيرها من العوامل التي سيتم التطرّق إليها لاحقاً.

## 1 / أزمة الهوية المهنية لدى «البرباش»

سنترق في هذا العنصر إلى مفهوم «هوية البرباش»، والذي يُحيلنا على الهوية المهنية والاجتماعية للأفراد الذين يعملون في مجال جمع وفرز النفايات. تجمع هذه الهوية بين الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي ترتبط بالعمل في هذا القطاع. ويشكّل «البرباش» جزءاً أساسياً من البنية الاقتصادية في بعض المجتمعات، إلّا أنه يواجه تحديات متعددة بسبب تهميشه وقلة التقدير لدوره<sup>8</sup>. تتأثر هويته المهنية بظروف العمل الصعبة والمخاطر الصحية والاجتماعية التي يتعرّض لها، إذ قد يعاني من قلة الحماية القانونية ونقص الدعم والتأهيل المهني، ممّا يؤثر على تقدير مساهمته في المجتمع ويُعرّضه في بعض الأحيان للظلم والاستغلال.

سنترق من خلال الأسئلة التالية إلى تحليل ارتباط «البرباش» بهويته المهنية:

8 Louis, Gruel. International Review of Community Development Revue internationale d'action communautaire Des exclus en quête de légitimité sociale : l'exemple de l'« habitat du pauvre » dans la France contemporaine, 1986.

**السؤال الأول:** هل أنت مع أو ضد استعمال كلمة «برباش» لوصف عملك؟

**السؤال الثاني:** إن أتاحت لك فرصة اختيار عملك ماذا ستختار؟

**السؤال الثالث:** كيف تعرّف نفسك؟

تؤكد المعطيات التي جمعناها من أجل هذا المؤلف أنّ 48,3 % من العاملين داخل المصّب يرفضون استعمال كلمة «برباش» لوصف مجال نشاطهم. في حين أنّ 21,9 % فقط من العاملين خارج المصّب يرفضون استعمال هذه الكلمة، ولعلّ رفض هذا التوصيف ناتج عن العديد من العوامل، أبرزها:

- **التأثير العام لمصطلح «برباش»:** يُعدّ استخدام مصطلح «برباش» لوصف العمل في مجال جمع النفايات بالياً؛ إذ يحتوي على معانٍ سلبية تجاوزتها الثقافة والمجتمعات الحديثة. بالتزامن مع تطوّر المجتمع، يمكن أن يؤدي استمرار استخدام هذا المصطلح إلى عدم ملاءمته للواقع الراهن وتقديره للأدوار المهمّة في إدارة النفايات والمحافظة على البيئة.

- **تأثيره على النفسية والهوية:**<sup>9</sup> إذ قد يؤثر استخدام مصطلح «برباش» بطرق غير إيجابية على تصوّر الأفراد لأنفسهم وللعمل الذي يقومون به. كما يمكن أن يؤدي هذا إلى تقليل الثقة في النفس والإحساس بعدم الانتماء المهني، ممّا يؤثر على الروح المهنية والتحفيز على التطور والتحسين المستمر.

- **تأثيره على التواصل الاجتماعي:** قد يؤدي استخدام مصطلح «برباش» إلى تكوين عوائق في التواصل والتفاعل بين «البرباش» والمجتمع بشكل عام<sup>10</sup>. فهذا المصطلح قد يخلق هوة اجتماعية تجعل الناس يتجنّبون التعامل بشكل عادل وملتساوٍ مع هؤلاء الأفراد، ممّا يسهم في تعزيز التمييز والفرقة.

9 Cirelli, C. Florin, B. « Les récupérateurs de déchets : entre marginalisation et reconnaissance », Revue Mouvements, 2016.

10 Everett C, Hughes. Le regard sociologique. Essais choisis, Paris, Editions de l'école des hautes études en sciences sociales, 1996.

السؤال الثاني يُسلط الضوء على تطلعات «البرباش» نحو مستقبل مهنته، وعلى رغبته في تحسين ظروف عيشه. أفاد 17.8% من العاملين خارج المصّب و 7% فقط من العاملين داخله بأنهم يفضلون الإبقاء على نفس المهنة. هذا التفاوت بين النسبتين يمكن تفسيره من خلال عاملين أساسيين: العامل الأول يمثل ظروف العمل الرديئة والريثة للعاملين داخل المصّب مقارنة بالعاملين خارجه، والعامل الثاني مرتبط بالرغبة في الاستقلالية المالية؛ إذ أبدى أغلبية العاملين داخل المصّب طموحا لفتح مشروع مستقل أو العمل للحساب الخاص.

يُظهر التأكيد على الرغبة في تقنين المهنة أهمية تنظيم وتحسين البيئة العملية «للبرباش»، بما في ذلك توفير الحماية القانونية والتدريب المهني اللازم. هذا النوع من الإجابات يعكس تطلعاتهم نحو تحقيق مستوى أفضل من الاحترام والاعتراف بمهنتهم ممّا قد يسهم في تعزيز رغبة «البرباش» في البقاء في مجاله وتحسين أوضاعه المهنية والاقتصادية<sup>11</sup>.

السؤال الثالث الذي يخوّل لنا بدوره تفسير العلاقة بين «البرباش» وهويته المهنية، ألا هو: كيف تُعرّف نفسك؟ على عكس التوقعات فإنّ 39.4% أفادوا بأنهم عاطلون عن العمل داخل المصّب مقابل 20.5% خارجه. تؤكد لنا هذه المعطيات مبدأ نكران الهوية والرغبة الجامحة من «البرباش» في امتهان عمل آخر لتحسين ظروفه وبلوغ أهدافه. وإن اشتركت الأغلبية العاملة داخل المصّب وخارجه بنسبة تفوق 90% حول مبدأ نكران الهوية، فقد اختلفت حول الأسباب المباشرة، إذ يعاني العاملون داخل المصّب من محدودية الدخل بينما يشتكي العاملون خارجه من نسبة المخاطر التي يمكن أن يتعرضوا لها.

تتفق هذه الأسئلة فيما بينها حول تأكيد مبدأ نكران الهوية لدى «البرباش»، ممّا يدعونا إلى مزيد التعمّق في هذا الشّأن وتفسير عوامله استنادًا إلى دراسة قياسية.

## 2 / خصائص «البرباش»: دراسة قياسية باستعمال نمذجة اللوجيت<sup>12</sup>

### التحليل الإحصائي:

يهدف التحليل الإحصائي لهذه الدراسة إلى تقديم الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والأنثروبولوجية للبرباشة.

11 Florin, B. « Résister, s'adapter ou disparaître : la corporation des chiffonniers du Caire en question », in Les Travailleurs du déchet, dir. par D. Corteel et S. Le Lay, Ed. Erès, pp. 69-91, 2011.

12 نموذج اللوجيت هو نموذج إحصائي يُستخدم في عدة مجالات مثل الاقتصاد وعلوم السكان وعلم النفس وغيرها. يُستخدم هذا النموذج لفهم وتوقع الاحتمالات المتعلقة بالأحداث الثنائية، حيث يكون الاحتمال هلمجي (احتمال حدوث شيء أو عدم حدوثه).

المنهج الكمي يساعد على توضيح الملاحظات التي تمّ جمعها أثناء مجموعات النقاش من خلال محاولة تحويلها إلى أرقام. ويمكن أيضاً من خلاله الحصول على نظرة عامّة لظروف العيش التي ينشأ فيها البرباشة. تمّ تقسيم هذه العينة إلى فئتين: فئة العاملين داخل المصّب وفئة العاملين خارجه.

يهدف هذا الجزء من الدراسة إلى توضيح جوانب التشابه والاختلاف بين المجموعتين المحددتين. لتحقيق هذا الغرض، قمنا بإدخال ومقارنة البيانات المخصصة لكلّ عيّنة باستخدام برنامج STATA 11.0، بناءً على ما وقع جمعه أثناء الدراسة الميدانيّة. وللإجابة على الإشكاليات المطروحة، كان من الضروري التركيز على ثلاث نقاط أساسية بشكل تفصيلي ومنهجي.

لتحليل تأثيرات المتغيرات الديموغرافية مثل العمر، الجنس، التعليم، والحالة الاجتماعية على اختيار المهنة، تمّ استخدام نمذجة اللوجيت. في المرحلة الثانية، أضفنا متغيرات محدّدة تعكس هوية «البرباش». وفي المرحلة الأخيرة، قمنا بحساب معدلات الانتشار والتفاوت باستخدام التأثير الهامشي<sup>13</sup> لكل فئة. هذه العملية تهدف إلى تقييم التأثير المباشر لكل متغير على حدة، مما يسمح بفهم أدق للعوامل المؤثرة في اختيارات المهنة.

### استراتيجية التقدير:

استناداً إلى نماذج من بحوث تم إجراؤها عالمياً في هذا المجال، وسعياً منا إلى تكييفها بما يتوافق مع خصوصيات الواقع الاقتصادي والاجتماعي في تونس، قمنا بتحديد النماذج التحليلية كالاتي:

$$(1) IN/OUT_i^* = \alpha age_i + \beta gender_i + \gamma electricity_i + \delta sanitation_i + \varphi technologies_i + \varepsilon_i$$

$$(2) IN/OUT_i^* = \alpha economic\ level_i + \beta schooling_i + \gamma work\ accident_i + \delta inheritance_i + \varphi job\ satisfaction_i + \omega job\ integration_i + \varepsilon_i$$

IN/OUT هو المؤشر المستخدم لتحديد ما إذا كان «البرباش» يمارس عمله داخل المصّب (يساوي 0) أو خارجه (يساوي 1).

المعادلة الأولى تخصّ ظروف الحياة إذ يعبر age عن عمر المستجوبين، gender عن الجنس، electricity عن الربط بشبكة الكهرباء، و sanitation عن الربط بشبكة التطهير. أمّا في المعادلة الثانية فإنّ مفردة schooling تُشير إلى المستوى التعليمي، work accident إلى

13 استخدمنا في حساب هذه التأثيرات الهامشية أمر (margins, dydx variable) في برنامج STATA

حوادث العمل، economic level إلى الدخل العائلي، inheritance إلى اتباع مهنة الأب، -job satis- faction إلى الرضا الوظيفي، و job integration إلى الاندماج في المجموعة<sup>14</sup>.

### النتائج:

في الجدولين التاليين نتائج التقدير الرئيسية ويحتوي العمود (1) على جميع متغيرات النموذجين.

الجدول 1 : الخصائص الديمغرافية وظروف العيش لدى البرباشة داخل المصّب وخارجه

المتغير	البرباشة داخل المصّب النسبة (%)	البرباشة خارج المصّب النسبة (%)	الوحدة الاحتمالية
العمر (بالسنوات) أقل من 25 سنة	21.1	0	-0.702*** (-4.08)
بين 25 و 29 سنة	7	2.7	
بين 30 و 34 سنة	8.5	5.5	
بين 35 و 49 سنة	35.2	38.4	
أكثر من 50 سنة	28.2	53.4	
جنس ذكر	74.6	79.5	1.288*** (2.58)
أنثى	25.4	20.5	
الربط بشبكة الكهرباء لا	7	25	1.932** (2.24)
نعم	93	75	
الربط بشبكة التطهير لا	10	18	-0.789 (-0.90)
نعم	90	82	
الاستعمال التكنولوجي لا	48	75	-0.66 1.48
نعم	52	25	

ملاحظة: النسبة الزائفة (z-statistic) مذكورة بين قوسين , وتشير العلامات \*\*\*, \*\*, و\* و\*

14 لتحديد أثر الاندماج أخذنا بعين الإعتبار أربعة عوامل مختلفة لإبراز مدى درجة تقبل البرباش للوافدين الجدد على المجموعة حسب العمر، منطقة الإنتماء، الجنس و لون البشرة.

إلى الدلالة الإحصائية في 1، و5، و10 في المائة، على التوالي.

الجدول 2 : أثر الخصائص المحددة لهوية «البرباش» داخل المصبّ وخارجه

المتغير	الوحدة الاحتمالية	البرباشة داخل المصب (التأثيرات الهامشية)	البرباشة خارج المصب (التأثيرات الهامشية)
اتباع مهنة الأب	1.332* (1.74)	0.670	0.330
مزاولة التعليم	0.313 (0.93)	0.441	0.559
الدخل العائلي	0.218* (1.67)	0.699	0.301
حوادث العمل	0.192 (0.38)	0.513	0.487
الرضاء الوظيفي	-1.376*** (-2.9)	0.638	0.362
الاندماج حسب العمر	-1.684*** (-3.25)	0.384	0.616
الاندماج حسب منطقة الانتماء	-2.785*** (-3.46)	0.383	0.617
الاندماج حسب الجنس	2.012** (2.82)	0.568	0.432
الاندماج حسب لون البشرة	0.730 (0.65)	0.489	0.511

ملاحظة: النسبة الزائفة (z-statistic) مذكورة بين قوسين، وتشير العلامات \*\*، \*، و\* إلى الدلالة الإحصائية في 1، و5، و10 في المئة، على التوالي.

في قراءة أولية لظروف معيشة البرباشة وفقاً للبيانات المدرجة بالجدول الأول، نلاحظ وجود تفاوت في الظروف بين العاملين في المصب وأولئك الذين يعملون خارجه (في الأماكن العامة). على سبيل المثال، 7% فقط من العاملين داخل المصب منازلهم غير مرتبطة بشبكة الكهرباء، في حين ترتفع هذه النسبة إلى 25% بين العاملين خارج المصب. كما يظهر الفارق في توفر خدمات شبكة التطهير، حيث يتمتع 90% من العاملين داخل المصب بالربط بهذه الشبكة، مقابل 82%.

فقط من العاملين خارجه.

نشير هنا إلى تفاوت بين الفئات، الذي يشمل بدوره الكماليات مثل عدم إمتلاك مكيف هوائي أو هاتف ذكي إلا أنّ ظروف الحياة لدى «البرباشة» داخل المصبّ هي أحسن بقليل من تلك لدى العاملين خارجه.

تُظهر نتائج التقدير الرئيسية (المقدمة في العمود الرابع) أنّ هذه العوامل تُساهم بشكل ملحوظ في تشكيل الهوية الديموغرافية لـ«البرباشة». وقد كشفت النتائج عن وجود مُعامل إيجابي وذو دلالة إحصائية لمتغير الجنس. يُمكن تفسير هذا التفاوت المهني بين الجنسين بالتحديات التي تواجهها النساء في الاندماج ضمن بيئة عمل تنافسية وقد تكون عدائية، إذ تُشكل النساء فئة مخصصة في هذا المجال، وغالبًا ما تُجبر البرباشات على اتخاذ هذه المهنة نتيجة لظروف مثل الترمل أو إعاقة الزوج. يُعزى هذا التفاوت أيضًا إلى صعوبة العمل، المشقة المرتبطة به، وساعات العمل الطويلة.

المُعامل السلبي ذو الدلالة الإحصائية لمتغير العمر يمكن تفسيره بارتباط عامل السنّ باختيار مكان العمل (داخل المصبّ أو خارجه) إذ تفضّل الشريحة المتقدمة في العمر العمل خارج المصبّ.

نشاط «البرباشة» يضمّ كافة الفئات العمرية، إلا أننا وبالنظر إلى التوزيع حسب السنّ نلاحظ أنّ 53.4% من البرباشة خارج المصبّ تجاوزت أعمارهم 50 عاما. تجدر الإشارة كذلك إلى وجود أطفال قصر منقطعين عن التعليم ويمارسون نفس المهنة. المعامل الخاص بالربط بشبكة الكهرباء له دلالة إحصائية وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عن مدى تقصير الدولة التونسية وهشاشة بنيتها التحتية.

الجدول الثاني هو قراءة كمية للخصائص الاجتماعية «للبرباش» بالأساس ولفظروف عمله وصعوبة اندماجه في المجموعة في مرحلة ثانية.

تشير نتائج التقدير إلى أنّ مستوى التعليم لا يؤثر في اختيار هذا النشاط. هذا المتغير ليس له أهمية إحصائية ويشير هذا إلى عدم وجود فارق حقيقي بين المجموعتين. تجدر الإشارة إلى أنّ نسب التعليم التي تمثل عنصرًا أساسيًا في تقييم مؤشر التنمية البشرية (IDH) هي نسب

مخزية ذلك أنّ نسبة الأميّة للبرباشة في الأماكن العامّة تصل إلى 30.1% و 20.4% داخل المصّب. هذه النسب المرتفعة ربّما كانت حافزا لانتهاج هذا النشاط في غياب سياسات واضحة للتشغيل وافتقار للتأطير والتدريب الاحترافي من قبل الدولة.

المؤشّر الثاني يفسّر ارتباط العمل داخل أو خارج المصّب بمستوى الدخل العائلي. تقديرات المعامل الخاصة بذلك تؤكّد وجود علاقة إيجابية وذات دلالة: يمكن تفسير ذلك بأنّ العاملين داخل المصّب يتمتّعون بدخل أسريّ أعلى نسبياً من العاملين خارجه (التأثيرات الهامشية للدخل العائلي يساوي 0.699 أي أنّ العمل داخل المصّب يمكّن من الحصول على دخل عائلي أعلى من دخل العاملين خارج المصّب). هذا التفاوت، وإن كان ذا دلالة، لا يسمح لنا بتجاهل محدودية الدخل الأسري لكلتا الفئتين. هذا المؤشّر لا يمكّننا من الجزم في مسألة أثر الدخل العائلي نظرا إلى سببين ألا وهما؛ مزاولة البعض منهم لعمل ثان وعدم تجانس الفئات من حيث التنظيم الهرمي وصراع القوى المبني على منطقة الانتماء أو العروشية.

نقدّم في العنصر الموالي تأثير الإرث الوظيفي، لقد أردنا من خلال هذا المعامل معرفة ارتباط هوية «البرباش» بمحيطه العائلي أو بالأحرى تأثير مهنة الأب على انتهاج نفس المهنة. هذا المؤثر يبيّن وجود علاقة إيجابية وذات دلالة. يمكّننا إذن من أن نستنتج أنّ العاملين داخل المصّب على غرار العاملين خارجه يميلون إلى ممارسة نفس نشاط الأب (التأثيرات الهامشية تؤكّد مدى انتشار وتفاوت هذه الظاهرة إذ تقدر بـ 0.670 للعاملين داخل المصّب و 0.330 خارجه).

نواصل في العنصر الأخير إدراج أربعة مكونات لمفهوم الاندماج في العمل. أردنا من خلال هذا العنصر تقييم مدى اندماج «البرباش» في المجموعة ذلك أنّ تسليط الضوء على هذه النقطة يمكّننا بالأساس من تقييم ظروف العمل.

إنّ تأكيد وجود نزاعات جعلنا نتطرّق لأسبابها ولعلّ أهمها التمييز بناء على الجنس واللون والجنسية والسن.

تُشير النتائج إلى أنّ منطقة الانتماء والعمر يلعبان دورًا حاسمًا في عملية الاندماج داخل المصّب، إذ تُظهر البيانات وجود معامل سلبي ذي دلالة إحصائية لهذين العاملين. يُعزى هذا

الفارق إلى القيمة الرمزية للانتماء وديناميكية التضامن الجماعي، ممّا يجعل العاملين في المصب يُبدون مقاومةً لفكرة قبول وافدين جدد، خصوصاً إن كانوا غير منحدرين من نفس مناطقهم أو ينتمون إلى فئات عمرية شبابية. الأمر الذي يُعدّ تهديداً للتنظيم الداخلي القائم الذي يشمل معايير، وقيماً، وعلاقات هيمنة محددة.

فيما يتعلق بالجنس، وبخلاف ما كان متوقعاً، تُظهر النتائج وجود مُعامل إيجابي، ممّا يعني أنّ العاملين داخل المصب يُظهرون قبولاً أكبر لوجود النساء وممارستهن للعمل مقارنةً بالعاملين في الفضاء العام.

بالنسبة إلى الاندماج حسب لون البشرة، فإنّ هذا المؤشر ليست له أيّة دلالة ممّا يعني أنّ الاختلاف حسب لون البشرة لا يؤثر على الاندماج في المجموعة لكلتا الفئتين.

الرضا في العمل له دلالة إحصائية سلبية؛ أي أنّ العاملين خارج المصبّ، ورغم مخاطر وصعوبة هذه المهنة، يتقبّلون أكثر من غيرهم ممارسة هذا النشاط.

## الخاتمة

تُعدّ قضية إدارة النفايات ودور «البرباشة» فيها ذات أهمية بيئية واقتصادية. إذ تتسبّب الكميات المتزايدة من النفايات في تحديات بيئية خطيرة مثل التلوث ونفاد الموارد الطبيعية، ممّا يعزز دور «البرباشة» في تقليل الضغط على منابع الطبيعة والحدّ من استهلاك الموارد من خلال إعادة استخدام المواد المعاد تدويرها، وهو ما يؤثّر إيجاباً على الاقتصاد المحلي ويكرّس مفهوم الاستدامة.

تواجه تونس، كمثّلها من الدول التي تُعدّ في طور النمو، تحديات في تحسين البنية التحتية لإدارة النفايات كتطوير مرافق التجميع والفرز وتوجيه الاستثمار نحو الدعم التقني للعاملين بهذا القطاع وتعزيز التوعية بأهمية السلوك البيئي الإيجابي.

في سعينا إلى استكشاف الواقع بعيداً عن الافتراضات النظرية للمنافسة المثالية (concur-rence pure et parfaite) والليبرالية الاقتصادية (libéralisme économique)، تناولنا

قطاع «البرباشة»، الهش والمهمش، ممّا أثار العديد من التساؤلات حول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لهذه الفئة. لفهم أفضل، قسّمنا هذه الفئة إلى عيّنتين لتحديد خصائصها والمفارقات المتعلقة بتعريف هويتها. من خلال البحث الإثنوغرافي والقراءة الأولية لظروف حياتهم، أدركنا أنّ النقص وعدم توفر مقومات الحياة الكريمة وارتفاع معدلات البطالة كانت دوافع لاحتراف هذا العمل. لفهم هذه الظاهرة المتنامية بشكل أعمق، كان لزاماً علينا التجرّد من أيّة أحكام مسبقة وتجنب توجيه اللوم مباشرة إلى الحكومات المتعاقبة على تقصيرها في معالجة هذه القضايا، نظراً إلى أنّه، وفي ضوء الاضطرابات الاقتصادية والسياسية التي تشهدها تونس حالياً، يجب الإقرار بأنّ وضعية «البرباشة» ليست معزولة، بل هي جزء من سلسلة من الوضعيات الاجتماعية التي ترزح تحت وطأة الهشاشة والعطوبه.

انطلاقاً من المعطيات الكمية والكيفية التي أسهمت في الإنتاج الجماعي لهذا المؤلف واستناداً إلى العديد من الروافد النظرية، تطرّقنا إلى مفهوم نكران الهوية المهنية فكانت نقطة انطلاق لنا لتحديد النماذج المعتمدة في هذا البحث وذلك باستعمال ثوابت الاقتصاد القياسي وقواعده.

أفرزت نتائج تقييمنا العديد من النقاط من بينها العلاقة الرابطة بين هذه المهنة ومستوى التعليم؛ ذلك أنّ نسبة الأمية المرتفعة لا تفسّر الالتجاء ضرورة إلى هذا النشاط الذي يضمّ أيضاً فئات متفاوتة من حيث مستوى التعليم. بيد أنّ المفارقات الأساسية بين العاملين داخل المصّب وخارجه تكمن في مبدأ توريث المهنة؛ إذ أنّ هذا المؤشر له أثر إيجابي ذو دلالة للعاملين داخل المصّب ممّا يكرّس مفهوم العروضية. إنّ مفهوم الانتماء والاندماج داخل المجموعة هو عنصر مفصلي للعاملين داخل المصّب وهو ما تأكّد لنا من خلال دراستنا العلمية خاصة عند تقييمنا لمتغيّر الاندماج حسب منطقة الانتماء.

في ختام هذا البحث، لا تقتصر مسألة البرباش وصلته بالهوية المهنية على الجوانب المتعلقة بالصحة المهنية وشروط العمل القاسية فحسب، بل تمتد لتشمل السعي إلى الهروب من الإقصاء الاجتماعي نحو تحقيق الاعتراف والكرامة الانسانية. لذا، يُعتبر من الضروري أن نأخذ في الاعتبار أنّ القرارات الجوهرية يجب أن تُركّز على اعتماد تدابير ملائمة لإدماج هذه المهنة ضمن الاقتصاد الرسمي، وذلك من خلال ضمان الحد الأدنى للأجور، توفير الأمان الوظيفي، وتحسين الأوضاع الاجتماعية للعاملين.

## البيبليوغرافيا المُختارة:

### مراجع باللغة العربية :

ائتلاف ارثنا هي مجموعة تتكون من عدد من الجمعيات و المنظمات الناشطة في المجتمع المدني تختص بتقديم تقارير حول الحقوق البيئية والتنمية في تونس.

<https://tn.boell.org/ar>

البنك الدولي "الإقتصاد الأزرق في تونس: فرصة لتحقيق تنمية متكاملة ومستدامة للمناطق الساحلية والبحرية"، Washington ,D.C. : World Bank Group 2022, -تقرير حول مشروع ميزانية الدولة, وزارة ألققتصاد والمالية ودعم الإستثمار, 2021.

### مراجع باللغة الفرنسية :

Kumar , Agrawal. « Recent trends in solid waste management status, challenges, and potential for the future Indian cities – A review », Current Research in Environmental Sustainability, 2020.

Louis, Gruel. International Review of Community Development Revue internationale d'action communautaire Des exclus en quête de légitimité sociale : l'exemple de l'« habitat du pauvre » dans la France contemporaine , 1986.

Cirelli ,C. Florin, B. « Les récupérateur-e-s de déchets : entre marginalisation et reconnaissance », Revue Mouvements, 2016.

Everett C, Hughes. Le regard sociologique. Essais choisis, Paris, Editions de l'école des hautes études en sciences sociales , 1996.

Florin, B. « Résister, s'adapter ou disparaître : la corporation des chiffonniers du Caire en question », in Les Travailleurs du déchet, dir. par D. Corteel et S. Le Lay, Ed. Erès, pp. 69-91, 2011.



# البرابشة و قوات الأمن: بين العدوانية المجتمعية والسلطوية المؤسسية

زهور وعمارة  
باحثة في القانون

## مقدمة

تظلّ علاقة الأمنيين بالعاملين في القطاع غير النظامي، ومنهم «البرابشة» في تونس، موضوعاً مثيراً للجدل والنقاش داخل النطاق القانوني والاجتماعي. وقد صرح الخبير البيئي التونسي حمدي حشاد أنّ «البرابشة في تونس يُشكّلون اليوم منظومة تشبه إلى حد ما الاقتصاد الموازي، لكن في الواقع للبرابشة بصمة خاصة سواء بيئياً أو اقتصادياً واجتماعياً وللأفراد وزنهم وقيمتهم في المشهد العام، هناك ألنيوم وبلاستيك ومواد عدة يتم جمعها وبيعها بأسعار مختلفة»<sup>1</sup>.

إلا أنّ هؤلاء الأفراد، الذين يحاولون البقاء عائمين في محيط الاقتصاد المحلي رغم التحديات الشديدة، يُعتبرون في كثير من الأحيان كتلة اجتماعية هشة ومهمشة، خاضعة لإشكاليات قانونية واجتماعية معقدة، نظراً إلى غياب إطار قانوني مُحدّد يُنظم عملهم ويحمي حقوقهم و لتوافر إطار مجتمعي يتراوح بين وصم للظاهرة وبين رفض عنيف لها. وقد يبدو التفاعل بين هذا القطاع وقوات الأمن مُحمّلاً بتوترات ذات طابع استبدادي ورأسمالي. حيث يُصبح الجانب القوي -الأمن- في مواجهة مُستمرة مع هذه الفئة، التي غالباً ما تُعامل بمثابة جزء هامشي وضعيف في المجتمع، من دون الالتزام بمعايير معاملة قانونية واضحة ومُحدّدة.

1 مقال «برابشة» تونس على هامش الضمان الاجتماعي ومركز للمزايدة السياسية  
نبض الصحافة العربية - اندبندنت عربية صدر في 23 جانفي 2023. (متوفر على الانترنت)

وقد تُظهر الاعتبارات السوسيوقانونية أنّ هذا التداخل يحتاج إلى إعادة تقدير حقيقية للمعايير والممارسات، من خلال التمييز بين الحاجات الاجتماعية والاقتصادية للبرباشة وبين الحاجة إلى تحقيق نظام قانوني يرتكز على حماية الحقوق وتعزيز السلم الاجتماعي. من هنا، يُصبح من الأساسي التفكير في كيفية تحقيق هذا التوازن الهش، في إطار يُعترف فيه بالتحديات والصعوبات التي يُواجهها الأفراد ضمن هذه المجموعة وفي الوقت نفسه يُحقق تكاملاً قانونياً واجتماعياً فعّالاً.

تجدر الإشارة في هذا المستوى إلى أنّه قد وقع القيام بدراسة ميدانية شاملة تستهدف مكب النفايات في برج شاكير ومنطقة المنار في تونس، معتمدةً في ذلك على منهجيات كمية ونوعية، إذ تمّ توزيع ما مجموعه 150 استبياناً، 80 منها في مكب النفايات و75 في مناطق متفرقة من تونس. بالإضافة إلى الاستبيانات، تمّ إجراء 29 مقابلة شخصية و10 مقابلات شبه موجهة، في محاولة للإجابة عن إشكالية عامة حول: كيف ولماذا يصبح الشخص برباشاً؟ وكيف ولماذا يمكن لمكب نفايات أو حاوية قمامة في الشارع أن تولد اقتصاداً موازياً كاملاً؟

في هذا القسم من الدراسة، وفي إطار هذا المقال حول الإحاطة الأمنية بظاهرة البرباشة، يطرح السؤال حول كيفية توزيع أدوار القوات الأمنية بين حماية البرباشة والحفاظ على النظام والاستقرار، وكيف يمكن للتأثير الاقتصادي لهؤلاء العمال أن يتداخل مع تفاعلاتهم وعملهم. وتظل قضية كيفية تأثير السياسات العمومية في هذه التفاعلات والمسار الذي قد تتخذه هذه العلاقات في المستقبل وفي ضوء السياسات المستقبلية موضوعاً يستحق البحث والتفحص.

### إطار قانوني غائب و تهميش لعمل «التبريش»

تظهر عملية «التبريش» كمجال مهني يستقطب فئة مهمة من العمال الذين يجدون فيها وسيلة للعيش، رغم الإشكاليات المحيطة بهذا النشاط من ناحية قانونية واجتماعية وصحية، في غياب تعريف قانوني واضح ومحدد لهذا النوع من العمل، وكذلك في انعدام الإطار القانوني الذي ينظمه. ويخالف هذا الصمت القانوني التدابير الدولية فيما يخص الحق في العمل ومبدأ «العمل اللائق» (le travail décent). ففي تعليق لها حول وظائف تحمل جميع خصائص الهشاشة، ركزت منظمة العمل الدولية على الجوانب الإيجابية المرتبطة بهذه الأنشطة وديناميتها لترابطها

بمصطلحات العمل اللائق<sup>2</sup> ووضع مبدأ أسس الحماية الاجتماعية<sup>3</sup>. كما قامت في إطار وظيفتها الثلاثية (تنظيم الحوار والتوافق بين الحكومات، وأرباب العمل، والعمال) بالإجماع في 2015 على توصية لتعزيز الانتقال من الاقتصاد غير الرسمي إلى الاقتصاد الرسمي. وقد تم التوسيع العالمي للحماية الاجتماعية، كهدف ثالث من أهداف التنمية المستدامة (ODD) وتم تكراره بين العديد من أهداف التنمية المستدامة الأخرى (الصحة، والمساواة بين الجنسين، وتقليل التفاوتات). وهي واحدة من السبل التي يجب أن تسلكها عملية الانتقال نحو الاقتصاد الرسمي. كما عرضت منظمة العمل الدولية لهذا السبب في 2003 مبادئ توجيهية<sup>4</sup> لتحديد ماهية العمل غير الرسمي. وهو العمل الذي يصف بشكل خاص العمال الذين «لا تخضع علاقاتهم الوظيفية من قبل القانون أو على أرض الواقع لتشريعات العمل الوطنية أو ضريبة الدخل أو الحماية الاجتماعية أو حق الحصول على بعض المزايا المرتبطة بالعمل (على سبيل المثال، إشعار قبل الفصل، أو تعويضات الفصل، أو الإجازات مدفوعة الأجر، أو الإجازات المرضية المدفوعة، إلخ) لأنّ العمال أو وظائفهم لم يتم التصريح بهم، وكذلك الوظائف العرضية أو قصيرة الأجل والوقت الذي يتم فيه العمل أو الراتب لا يصل إلى حدّ معين ( ... )؛ مكان عمل العامل يقع خارج محلات شركة العمل (العمال الذين يعملون خارج المؤسسة ولا يستفيدون من عقد عمل)؛ التشريعات العمالية لا تطبق أو تحترم أو تلاحظ لأي سبب آخر». هذا التعريف، الذي يشمل أيضاً العمال غير الأجراء، يُلخص غياب الحماية الاجتماعية أو عدم دفع الإسهامات الاجتماعية (خاصة للتغطية الصحية).

يُقدّر عدد البرابشة في تونس بأكثر من 15 ألف شخص<sup>5</sup>، ويتزايدون باستمرار تحت تأثير استمرارية وجود مستوى عالٍ من البطالة (15% من السكان النشطين) على خلفية تآكل القدرة الشرائية التي تُجبر الأسر الأكثر إقصاءً على البحث عن مصادر جديدة للدخل وانفجار النفائات

2 مكتب العمل الدولي (1999)، العمل اللائق، تقرير المدير العام، المؤتمر الدولي للعمل، الدورة الـ87، جنيف، BIT، العمل اللائق والاقتصاد غير الرسمي، المؤتمر الدولي للعمل، الدورة الـ90، جنيف، 2002.

3 مكتب العمل الدولي. 2012. «توصية 202 - توصية بشأن أسس الحماية الاجتماعية». المصادقة عليها في المؤتمر الـ101. جنيف.

4 المكتب الدولي للعمل. 2003. «التقرير العام 1». المؤتمر الدولي السابع عشر لإحصائيات العمل. جنيف.

5 حسب إحصائيات صدرت في 2019. انظر مقال لومند « البرابشة يخرجون من الظل... مقال صادر في 28 ماي 2019. (متوفر على الانترنت)

البلاستيكية نتيجة العادات الجديدة للاستهلاك التي توسّعت سوق الرسكلة. ورغم أهمية هذا العدد فإنّ الغياب الواضح لإطار قانوني ينظم العمل في هذا المجال يعتبر من أهم نقاط الضعف الذي أشار إليها البرباشة. وهو الأمر الذي يتركهم دون حماية أو توجيه يتعلق بطبيعة العمل والمخاطر المصاحبة له.

أولاً؛ يُظهر الغياب التام لأيّ ترخيص أو إطار قانوني لمباشرة العمل، حسبما أفاد 4 من أصل 4 من المستجوبين، تحدياً قانونياً يجعل العاملين في هذا القطاع يعملون في إلى تشكيل بيئة لا توفر لهم أي نوع من الحماية أو الضمانات سواء كانت صحية أو اجتماعية. يؤدي هذا لظروف عمل صعبة ومحفوفة بالمخاطر، ممّا يمكن أن يُسبب لهم الإصابات أو حتى الموت دون أي تعويض أو تغطية صحية.

ثانياً؛ التمييز والتهميش الاجتماعي الذي يتعرض له العاملون في هذا القطاع يُظهر عدم وجود اهتمام بتحسين ظروفهم أو الاعتراف بمساهماتهم في إدارة النفايات والرسكلة. فالعمل في هذا القطاع يتم دون أيّ تقدير أو تقديم للدعم الذي يمكن أن يُحسن من ظروف العمل والحياة لهؤلاء العمال.

ثالثاً؛ يُظهر التفاوت في الآراء حول إمكانية أو ضرورة تنظيم القطاع ودمج العاملين فيه بشكل أفضل في النظام الاقتصادي والاجتماعي التونسي، حيث يعتبر البعض أن هذا القطاع يجب أن يُدمج ويُنظم لضمان حقوق العمال وتحسين الإنتاجية والأمان، في حين يرى البعض الآخر أن هذا قد يكون مُكلفاً أو لا يُعتبر أولوية.

كما يُشير البيان الإحصائي حول الخصائص العامة للبرباشة، أنّ 47.9 % (69 عاملاً) يعملون على أساس يومي (عامل يومي) و 16.0 % (23 عاملاً) يُعتبرون أصحاب مهن حرّة.

يُسلط الواقع الاقتصادي والاجتماعي القائم على التفرقة الضوء على الضغوط التي تدفع الكثيرين للانخراط في أنشطة محفوفة بالمخاطر؛ إذ تُظهر البيانات أنّ 75.0 % (أي 108 عاملاً) قد تعرضوا لإصابات أثناء العمل. ومع ذلك، يواجه البرباشة نقصاً في الدعم الصحي والحماية

الاجتماعية والتأمين الصحي<sup>6</sup>، ممّا يُعمق شعورهم بالغبن. يُقر البرباشة، على الرغم من تعاملهم مع شركات إعادة التدوير وعملهم في أماكن خاصة تخضع للقانون أو في الفضاء العام، بأنّ قطاعهم يُواجه إنكارًا من قبل السلطات واستمرارًا في تهميشهم.

على الرغم من الأهمية الاقتصادية والبيئية<sup>7</sup> لهذا النشاط<sup>8</sup>، وخصوصًا في مجتمع يشهد معدلات بطالة مرتفعة؛ إذ تُشير البيانات الإحصائية إلى أنّ 29.9 % من المشاركين في النشاط كانوا عاطلين عن العمل، فإنّ إمكانية تأثيره في خلق توازن اقتصادي تظل محدودة نظرًا إلى التحديات القانونية والاجتماعية الراهنة. مثلاً، 93.0 % (66 عاملاً) يُفيدون بأنّ العمل داخل مصب النفايات لا يتطلب إذنًا من مؤسسة حكومية، ممّا يُسهّم في تكوين حالة من عدم اليقين القانوني، كما أنّ نشاطهم يفتقر إلى الرقابة والتنظيم.

من ناحية أخرى، تفتقر عملية بيع النفايات، التي يتم جمعها، إلى نظام إجرائي واضح ومنظم؛ حيث يُظهر البيان الإحصائي أنّ 53.5 % (77 عاملاً) يقومون ببيع النفايات عبر نقاط تجميع خارج المصب، في حين يقوم 29.9 % (43 عاملاً) بالبيع مباشرة للمجمعين في المصب نفسه. وهذا يُسلط الضوء على طبيعة الاقتصاد الهش والمتشابك، حيث تتداخل الأنشطة بشكل يُعقد من عملية تنظيم السوق وتحقيق استقرار اقتصادي مستدام.

6 في تصريح واحد من البرباشة « ليست لدينا حماية اجتماعية أو ضمانات، وهناك أشخاص منتظمون في بعض صناديق التأمين الاجتماعي، لكن معظمنا لا يملك أي ضمان اجتماعي أو صحي، بخاصة في ظل الوضع الصعب اليوم في تونس، وهذه المهنة تتسبب في أمراض عدة مثل ضيق التنفس وغيرها». المصدر: مقال «برباشة» تونس على هامش الضمان الاجتماعي ومركز للمزايدة السياسية  
نبض الصحافة العربية - اندبندنت عربية صدر في 23 جانفي 2023. (متوفر على الانترنت)

7 Bénédicte Florin, Réforme, crise, ajustements et malentendus entre acteurs : quand la question des déchets devient un problème public. L'exemple du Caire (Égypte) In : Sociétés urbaines et déchets : Éclairages internationaux.  
" Ces chiffonniers, dont de très nombreuses femmes, assurent ainsi les deux tiers du recyclage du pays, selon International Alert, dans des conditions harassantes et sans aucun cadre formel.". Capital, 2019.  
« Des chiffonniers de Tunis s'organisent pour sortir de la misère ».

8 يرى مدير منظمة «من أجل تونس نظيفة» سامي بن يحيى في حديث إلى «العربي» من تونس، أنّ «البرباشة» يقومون بعمل كبير في إعادة تدوير النفايات البلاستيكية، مشيرًا إلى أنّ هؤلاء «مهمشون» حيث لم يقع تنظيم هذا «القطاع الكبير». ويعتبر أنّ «تونس تأخرت في تنظيم منظومة التصرف بالنفايات وإعادة تدويرها»، لافتة إلى أنه «لم يقع اتخاذ إجراءات صحيحة لحد هذا اليوم لإعادة تدوير النفايات البلاستيكية وغيرها». في مقال للعربي «صيحة فزع في تونس.. «البرباشة» يطالبون بتقنين مهنتهم «المهمشة». متواجد على الانترنت

## العلاقة السلطوية بين الشرطة و البرباشة

يظهر تحليل البيانات فجوة كبيرة بين الحماية التي تُوفّر للشركات الخاصة لإدارة النفايات والبرباشة. إذ يتمّ التعامل مع البرباشة، وفقاً للمستجوبين، ليس كشركاء في سلسلة إدارة النفايات، بل كجهة مشاغبة أو على الأقل كجهة يجب التعامل معها بحذر. وقد أُشير إلى أنّ مركز الشرطة الذي تمّ إنشاؤه في 2002 كان لغاية حماية الشركات الخاصة التي تُسَيّر المصب.

وكانت هناك إشارات إلى أنّ القوات الأمنية تتعامل مع البرباشة ليس بغرض حمايتهم، بل في كثير من الأحيان لقمعهم أو للتحقق من أنشطتهم، وقد أشار رئيس المركز أنّ كلّ البرباشة مسجّلون عند المركز عن طريق بطاقات تعريفهم. يرى أنّه «بطبيعة الحال أستطيع الاستغناء عنهم (البرباشة)، لا يضيفون شيئاً ولا ينقصون شيئاً. بل بالعكس، هم يعطلّون العمل وخاصة عند حدوث بعض المناوشات. عدم وجودهم لا يؤثّر أبداً؛ بالعكس حسب رأيي العمل يصبح أسهل». يُظهر استطلاع الرأي وجود تمييز واضح ضدهم في سياق السلامة والأمان؛ حيث أنّ الأمان الشخصي والحماية القانونية ليست مضمونة لهم على نفس قدر الشركات ذات الطابع الرأسمالي. هذا الإغفال و/أو القمع يُظهر نوعاً من التحيّز ضد هؤلاء العمال، رغم الدور الهام الذي يلعبونه في إدارة النفايات والرسكلة.

يؤكد رئيس المركز أنّ «هناك إمكانية لحدوث مواجهات بين البرباشة» وأنّ «مهمتهم (الأمن) هي في المقام الأول حماية مؤسسات الدولة وفي المقام الثاني مراقبة البرباشة». هذه التصريحات تُظهر واقعاً مشوهاً، حيث يُعتبر هؤلاء العمال تهديداً أو على الأقلّ عنصراً يجب مراقبته، بدلاً من تقديرهم باعتبارهم جزءاً حيوياً وضرورياً في نظام إدارة النفايات.

تعدّ العلاقة بين البرباشة ومركز الشرطة نموذجاً للتفاعلات غير المتكافئة للسلطة، حيث يُمارس مركز الشرطة، كجهة سلطوية، أنماطاً متعددة من الهيمنة والمراقبة على البرباشة. قد تكون هذه السيطرة مدفوعة أحياناً بضرورة حماية الممتلكات العامة وضمان الأمن، لكنها تحدث في ظل غياب حوكمة أمنية محددة وفي غياب مفهوم «شرطة الجوار» (community policing) الذي يُطبق في الدول المتقدمة لإزالة الطابع السلطوي عن الشرطة وحلّ المشكلات المحلية بطرق سلمية. إنّ غياب سياسة أمنية أفقية وتوجيهات واضحة، كما أُعلن، أو رقابة فعالة، أدّى إلى

حالات من التجاوز والتمييز ضد هذه الفئة المهمشة، ممّا يجعل العلاقة بين الطرفين مشحونة بالتوتر والصراعات.

هذه العلاقة السلطوية بين البرباشة ورجال الأمن ليست حكرًا على الحالة التونسية فقط، إذ أنّ الدول الأوروبية قبل تقنينها لمهنة مفتشي القمامات (les chiffonniers) كانت تعتبرهم مصدر جريمة وخطرًا يُهدّد المجتمع، ومن ذلك نجد مقتطفات من نص أمر الحاكم بيليم (Belleyne) في فرنسا الصادر في الأول من سبتمبر 1828 حيث يصرح أنّ «المجرمين يخدعون الشرطة من خلال تجهيز أنفسهم كمفتشي القمامة (les chiffonniers) بخطاف يمكن أن يصبح في أيديهم أداة للسرقة والقتل، وحقيبة يمكنهم من خلالها إخفاء الأشياء المسروقة، ومصباح يستخدمونه للتعرف على المواقع...»<sup>9</sup>. لكن وقع تدارك الموقف فيما بعد في فرنسا؛ بل وأصبح مفتشو القمامات مصدر قوة في باريس، حيث يقول أنطوان كومبانيون في كتابه قماميو باريس (Compagnon 2017, 22) «كانوا قريبين من الشرطة، لأنهم كانوا يعرفون ويشرفون على حيهم. لم يكن أمر التحوّل لنشاط جمع القمامة في شوارع باريس أمرًا يمكن القيام به عشوائيًا. كانوا يمكن أن يُؤدّوا دور الأعوان للسلطات العامة. لقد كان القماميون يمثلون جيشًا يضم عدة عشرات الآلاف من الرجال (والنساء) الذين قد يمارسون شكلًا من أشكال السلطة والضغط. في عام 1832، خلال أسوأ وباء للكوليرا في باريس، أرادت إدارة الشرطة منع وضع النفايات في الشوارع من أجل النظافة الصحية. تمرّد القماميون وألقوا عربات القمامة في نهر السين. و في مواجهة هذا الاحتجاج، استسلمت السلطات»

أبرز الاستبيان أنّ هناك نسبة 89.6 % من المشاركين يعبرون عن «ثقة كاملة» أو أنهم «واثقون» في مؤسسة الجيش الوطني. في حين 5.6 % و 0.7 % من المشاركين يعبرون عن عدم الثقة تمامًا أو عدم الثقة في الجيش على التوالي. وفيما يتعلق بقوات الأمن فإنّ 35.4 %

9 Considérant que «les malfaiteurs trompent la surveillance de la police en se munissant comme les chiffonniers d'un crochet qui peut entre leurs mains devenir un instrument de vol et de meurtre, d'une hotte dans laquelle il est facile de cacher des objets volés et d'un falot qui leur sert à reconnaître les localités...» (extraits du texte de l'ordonnance du préfet de Belleyne du 1er septembre 1828). Sur la réglementation jusqu'à l'époque contemporaine, voir le dossier DB 194 aux Archives de la préfecture de Police (APo). In Alain Faure, " Classe Malpropre, Classe Dangereuse ? Quelques Remarques À Propos Des Chiffonniers Parisiens Au 19e Siècle Et De Leurs Cités". Recherches, n° 29 :»L'haleine des faubourgs», décembre 1977 : 79.

من المشاركين يعبرون عن الثقة في قوات الأمن و 42.4 % من المشاركين يعبرون عن عدم الثقة تمامًا في قوات الأمن.

يعكس الفارق في درجة الثقة بين الجيش وقوات الأمن التونسية، كما هو مبين في الاستبيان، التجارب المختلفة والتفاعلات التي يمرّ بها البرباشة في حياتهم اليومية. من الواضح أنّ البرباشة، الذين يعملون غالبًا في ظروف صعبة ويواجهون تحديات كبيرة، لديهم تجربة تفاعلية مستمرة مع قوات الأمن التي قد لا تكون دائمًا إيجابية. هذا التوتر المستمر والتعامل اليومي مع قوات الأمن قد يكون ناتجًا عن سياسات وإجراءات معينة تمّ تنفيذها خلال فترة الدولة البوليسية والتي لازمت تونس قبل الثورة، ممّا أظهر تحديًا كبيرًا في إعادة بناء الثقة بعد الثورة. من ناحية أخرى، يُعتبر عادةً الجيش نيوتريًا ومُحايدًا وأقلّ تدخلًا في الحياة اليومية للمواطنين، فيُرى على أنه أكثر استقرارًا وثقة بالنسبة إلى هؤلاء الأفراد. يتجلى ذلك من خلال نتائج الاستبيان، حيث يُعبّر عن انعدام الثقة أو الثقة المنخفضة في قوات الأمن مقارنة بالثقة الأعلى نسبيًا في الجيش، مُشيرًا إلى أنّ التفاعلات والتجارب الشخصية والتاريخية تلعب دورًا حاسمًا في تشكيل تصورات وآراء الأفراد.

## المواطنون وسطاء للتصادم بين البوليس و البرباشة

أظهر المواطنون في المجال العمومي عدائية مفرطة تجاه البرباشة بنسبة قدرها 50.5 %، فيما بلغت نسبة العنف الصادرة من الأجهزة الأمنية 19.6 %. يُسلط التوتر المستشري بين البرباشة والمواطنين، وكذلك بينهم وبين الشرطة، الضوء على مشكلة جوهرية في النسيج الاجتماعي والإداري. في هذا الإطار، ينظر إلى دور المواطنين كعامل يُمكن أن يُحفز تفاقم العنف والاحتقان. إنّ الإهمال أو السخرية التي يمارسها بعض المواطنين تجاه خدمات البرباشة، الذين يقومون بدور مهم في إعادة رسكلة النفايات والحفاظ على البيئة، يؤكد على عدم التقدير لهذا الميدان والمساهمات التي يُقدمونها. لا يُثقل الاستهزاء والازدراء فقط كاهل البرباشة بالإحباط والاستياء، بل ربما يحفزهم أيضًا على تصعيد التوتر بينهم وبين الشرطة<sup>10</sup>، ممّا يُعقد الأمور

10 NAWAT et GIZ. «Rapport de diagnostic & d'évaluation des besoins Projet 'L'Intégration Structurale du Secteur Informel dans la Gestion des Déchets Communaux en Tunisie.'» [Disponible en ligne].

أكثر. و قد يؤدي غياب التقدير والفهم للعمل الذي ينجزونه، إلى عدم احترام وزيادة النزاعات ضمن الفضاء العام. ويواجه البرباشة موجة من التحديات اليومية والصراع المستمر مع الشرطة البيئية، الذين ينظرون إلى أنشطتهم كتدخلات غير قانونية وعشوائية في معالجة النفايات. هذا الصراع يكون أحياناً ناتجاً عن الشكاوى المقدمة من قبل المواطنين، الذين يعتبرون أنّ فتح البرباشة لأكياس القمامة والتنقيب فيها يؤدي إلى فوضى بيئية ويجعل المناطق عرضة لتجمّع الحيوانات والحشرات، ممّا يعزز من مشكلات التلوث. ويشير أحد المسؤولين في مستودعات تجميع النفايات (في بن عروس) إلى تلقي عدد متزايد من الشكاوى من المواطنين بخصوص النشاط «غير المنظم» للبرباشة وتفاعلهم مع النفايات، وبالتالي، يسعى المسؤولون محلياً، بالتعاون مع الشرطة، إلى التعامل مع القضية، بطريقة ردعية تجاه البرباشة<sup>11</sup>. وقد صرح 41 % أنّهم تعرضوا إلى كثير من الحقرة، وصرّح المستجوبون أنّ علاقتهم مع المواطنين لا تقوم على التضامن والفهم الاجتماعي لطبيعة نشاطهم ودورهم في المساعدة على رسكلة النفايات.

## محاولة استقطاب البرباشة: جواسيس الجوار

تتراوح فكرة تحويل البرباشة الذين يعملون بدوام وصمت في الشوارع والأحياء، إلى مُخبرين للشرطة، بين الدهاء الاستراتيجي والمشاكل الأخلاقية المتزايدة لاستقطاب الفئات الهشة. فوجودهم اليومي والمُتردد في مختلف الأحياء يتيح إليهم الوصول بلا عائق إلى بحر من المعلومات، وهو ما قد يكون مصدراً قيماً للسلطات في تتبع ديناميات المجتمع. ولكن تتواجد عقبات كبيرة في نسج هذا التعاون؛ تتمثل في القضايا المتعلقة بالخصوصية والأمان الشخصي للبرباشة والتداعيات السلبية المحتملة على علاقتهم مع المجتمع. إذ قد تُفرز علاقات غير مطمئنة ومشبوهة في أعقابهم. وصرّح البرباش مجيد فيما يخص العلاقة مع «الحاكم» أنه «يوجد من قال لي أنّ رئيس المركز أعطاه رقم هاتفه وطلب منه أن يهاتفه، قلت له يا أخي هذا أمر يهكم وأنا لا أحب هذه القصص، لو كان لدي موقف سأأخذه على الفور؛ إذا وجدت سارقاً سأحاول رده إن استطعت، وإن عجزت عن ذلك لن أشي به، لأنني حينها سأضع نفسي في ورطة».

11 بوابة الوسط. 2017. «البرباشة: فئة مُهمّشة وصراع حول لقمة العيش..» [متواجد على الإنترنت].

يعرج هذا التصريح على قضية معقدة وحساسة تتعلق بمحاولة استقطاب البرباشة للعمل كمراقبين أو مخبرين للأجهزة الأمنية أو الشرطة «صباية». يقع هذا الأمر في سياق تعقيدات العلاقة بين الأفراد والمؤسسات، خاصة فيما يتعلق بالمسائل الأمنية والخصوصية. يمكن فحص التصريح من خلال عدة زوايا، حيث يكشف عن رغبة الأجهزة الأمنية في الحصول على معلومات من البرباشة بما أنهم يتحركون بحرية في الأحياء، وربما يكونون على دراية بتحركات الناس والأنشطة المشبوهة.

هناك أيضًا نقطة هامة في التصريح تتعلق بمدى قبول البرباشة لهذا الدور والتحديات والمخاطر التي قد تواجههم. يشير مجيد إلى رفضه الشخصي للتجنيد كـ«صباية»، لكن هذا الرفض قد يعود إلى خطر تجريم الأنشطة التي يشاركون فيها أو الإخطار الذي قد يتعرضون له عند الكشف عن هويتهم كمخبرين. وهذا يثير أسئلة عن الحماية التي يمكن توفيرها لهؤلاء الأفراد في حال قرروا التعاون.

كما يظهر التصريح أنّ هناك تحفظًا وعدم رغبة في المشاركة في أنشطة الرصد، وهو ما قد يعكس مدى الخوف أو القلق الذي قد يشعر به البرباشة تجاه الأجهزة الأمنية أو الخوف من التورط في أنشطة قد تؤثر سلبًا على حياتهم أو سلامتهم. وقد تدلّ هذه العوامل على ضرورة إعطاء الأولوية للحفاظ على سلامة وكرامة الأفراد، وتوفير حماية وتأكيدات كافية في حالة استخدامهم كمصدر للمعلومات.

## لا تتكلم حتى أراك أو الردع الأمني لتظاهرات البرباشة

التصاعد الملموس للعنف الأمني واستخدام التكتيكات المرهبة تجاه «البرباشة»، وخاصة النساء ضمن هذه المجموعة، يُظهر بوضوح إشكالية ديناميات القوة والسلطة في الساحة العامة. تتجلى المخاطر المرتبطة بممارسة حق التظاهر في التصريحات المقدمة<sup>12</sup>، حيث يتم تصوير عمليات الاحتجاج ليس فقط كألية للتعبير عن الاستياء أو المطالبة بالتغيير، بل كأعمال شجاعة يقوم بها أشخاص على استعداد لمواجهة التهديد بالعقوبات الجسدية والقانونية. كما يُسلط هذا

12 Capital. 2019. «Des chiffonniers de Tunis s'organisent pour sortir de la misère.»

الأمر الضوء على قضية النساء بشكل خاص، حيث تظهر التجارب، مثل تلك التي شاركت فيها نورة، تحديات إضافية تتعلق بتجارب الجنسين في الفضاء العام، بالإضافة إلى العقبات التي يواجهها الجميع في السعي نحو تحقيق التغيير. هذا التوتر الدائم بين الرغبة في التعبير والخوف من العقاب يُطرح بشكل حادّ في سياق تعميق التمييز والاستبداد، مُبرزًا تحديات كبيرة تواجه مجتمعات تسعى إلى تحقيق تحولات جذرية ومُستدامة في ظلّ سلطة قمعية وبيئة غير مستقرة.

من زاوية أخرى، يظهر في التصريحات عدم الإيمان بفعالية الاحتجاج كوسيلة لتحقيق التغيير أو الإصلاح. هذا يمكن أن يكون نتيجة لتجارب سابقة، حيث يشير بعض الأشخاص (مثل معز ونورة) إلى تجارب عايشوها؛ حيث تمّ التعامل مع المتظاهرين بشكل عدائي من قبل الأجهزة الأمنية، ممّا قد يكون له تأثير رادع على الرغبة في المشاركة في الاحتجاجات في المستقبل.

كما يظهر هناك إحساس بعدم الاستماع وعدم الاعتراف من قبل السلطات، ممّا يخلق قناعة لدى البرباشة بكونهم مجموعة مهمشة اقتصادياً واجتماعياً. تُعبّر هذه النظرة عن واقع يمكن تحليله من خلال نظرية النزاع السوسيولوجي، التي تركز على الصراعات بين مختلف الفئات الاجتماعية وكيفية تأثير السلطة والثروة في تشكيل العلاقات الاجتماعية والسياسية.

و أخيراً؛ يوجد تمييز واضح بين تجارب النساء والرجال في سياق الاحتجاج والعمل، حيث يُظهر نمط العنف والتهديد الذي واجهته النساء خلال التظاهرات تفاوتاً في تجارب الجنسين في الفضاء العام، وهو أمر يمكن تحليله من خلال نظرية النوع الاجتماعي، التي تُركز على فهم الطرق التي يتم من خلالها تكوين وتأثير النوع الاجتماعي في الهياكل الاجتماعية والسياسية.

## المرأة البرباشة بين الوصم و غياب الحماية

تكشف التحديّات المرتبطة بالعنف والتحرّش المسلّط على النساء في الفضاء العام عن إشكاليات جوهرية متعلقة بقضايا النوع الاجتماعي. يتم استهداف هؤلاء النسوة ليس فقط بسبب الأنشطة التي ينخرطن فيها، ولكن أيضاً بسبب وجودهن كنساء يعملن في فضاءات تُعتبر، في كثير من الأحيان، غير تقليدية للنساء، مثل الشوارع وخاصةً ليلاً. الوصم الذي يتم توجيهه لهؤلاء النساء يتعاظم عند تداخله مع طبيعة عملهن، حيث يُستخدم لتبرير عدم تقديم الحماية

لهن من التحرش والعنف، كما يشير له تصريح البرباش مجيد لبسام «توجهت بالحديث لرئيس المركز وقالت له لو كانت زوجتك هل تغفر وتسامح؟ قال لها ليس لدي امرأة تخرج في الليل». ورغم شمولية القانون لسنة 2017 // 58، الذي يهدف إلى حماية النساء من أشكال مختلفة من العنف، كوسيلة للدفاع عن هؤلاء النساء، إلا أنّ تطبيق هذا القانون مغيب من طرف أعوان الأمن. كما أن عدم حماية النساء البرباشة خاصةً والانحيازات الهيكلية والتفضيلات التي تُولى لقضايا ومجموعات معينة داخل النظام القانوني والاجتماعي تشير إلى غياب الحماية الأمنية لهذه الفئة من المجتمع.

## خاتمة

في مواجهة البرباشة للتحديات المتعددة، يظهر غياب الإطار القانوني كعائق جوهري يقف في وجه تحقيق عدالة شاملة وحقيقية لهم ويحرمهم من حماية قانونية ضد أجهزة الدولة. كما تكشف الديناميات بين البرباشة ورجال الأمن عن تشابك مُعقد من العلاقات السلطوية التي تُشوّه الأفق نحو العدالة والمساواة. هذا الغياب القانوني لا يحرم فقط البرباشة من حقوقهم الأساسية، ولكنه يُفسح المجال أمام الإفلات من العقاب للمنتهكين ويُعمّق جدران الفصل بين مُختلف طبقات المجتمع.

يواجه البرباشة نظاماً يُظهر بشكل مستمر ممارسات التهميش وحظر التظاهرات، فضلاً عن محاولات الاستقطاب التي تُطبّق بوسائل مُتعددة. كما يتم تحويلهم، في الأحيان الكثيرة، إلى أدوات في استراتيجيات الردع التي يُعتمد عليها للحفاظ على النظام والسلطة القائمة. في هذا السياق، يتم منعهم بشكل غير عادل من ممارسة حقوقهم الديمقراطية والتعبير عن غضبهم ومطالبهم.

علاوة على ذلك، تُبرز التفاعلات بين البرباشة والمواطنين الآخرين تفاصيل أكثر عمقاً حول الإشكاليات الاجتماعية العميقة التي تُشكل تحدياً لبناء جسور التفاهم والتضامن. كما أنّ النظرة المُهمشة التي يتم ترويجها من قبل قوات الأمن والسلطات تُؤثّر سلباً على مدى تقبل واستيعاب المواطنين لعمل البرباشة.

---

صار من الضروري استكشاف سبل تحسين وضع البرباشة في المجتمع التونسي من خلال تقديم توصيات محددة وملموسة للنظر والنقاش. تبدأ هذه التوصيات بالنظر في كيفية تطوير إطار قانوني يعترف ويحمي عمل البرباشة كنشاط مهني شرعي، مع الحفاظ على حريتهم الاقتصادية والشخصية وتوفير الحماية الأمنية لهم وعدم وصمهم بظاهرة مهمشة يجب التصدي لها. كما يجب تحديد وتطبيق آليات تعزيز الوعي المجتمعي وكسر الصور النمطية المرتبطة بالبرباشة، مع التركيز على الدور المحوري لوسائل الإعلام في تحقيق هذا التغيير. بالإضافة إلى ذلك، يجب تسليط الضوء على الحاجة الماسة لتعزيز حماية النساء البرباشات، خاصة من خلال تطبيق إجراءات فعّالة للحماية من العنف والتحرش وتحسين استجابة قوات الأمن. وأخيراً، يجب النظر بجديّة في كيفية ضمان حق البرباشة في التظاهر والتعبير، مع إقامة آليات لحمايتهم وتشجيعهم على المشاركة الفعّالة في الحياة العامة والسياسية، مع التأكيد على إدماجهم كجزء لا يتجزأ من المجتمع التونسي والعملية الديمقراطية.

## البيبلوغرافيا المختارة:

### المراجع باللغة العربية:

- نبض الصحافة العربية - اندبندنت عربية. 2023. «برباشة تونس على هامش الضمان الاجتماعي ومركز للمزايدة السياسية.»  
العربي. 2021. «صيحة فزع في تونس..» البرباشة، يطالبون بتقنين مهنتهم «المهمشة.»  
لوموند. 2019. «البرباشة يخرجون من الظل.»  
بوابة الوسط. 2017. «البرباشة: فئة مُهمّشة وصراع حول لقمة العيش.» مكتب العمل الدولي (2012). توصية 202 - توصية بشأن أسس الحماية الاجتماعية، التي تمت المصادقة عليها من قبل المؤتمر في دورته الـ101، جنيف.  
المؤتمر الدولي السابع عشر لإحصائيات العمل (2003). التقرير العام 1، جنيف. المكتب الدولي للعمل (2003). تقرير المؤتمر الدولي السابع عشر لإحصائيات العمل، جنيف.  
مكتب العمل الدولي (2002). BIT، العمل اللائق والاقتصاد غير الرسمي، المؤتمر الدولي للعمل، الدورة الـ90، جنيف.  
مكتب العمل الدولي (1999). العمل اللائق، تقرير المدير العام، المؤتمر الدولي للعمل، الدورة الـ87، جنيف.

### المراجع باللغة الفرنسية:

- AntoineCompagnon, 2017. Les Chiffonniers de Paris. Ed. Gallimard  
CAPITAL. 2019. «Des chiffonniers de Tunis s'organisent pour sortir de la misère.»  
AlainFaure, 1977. «Classe Malpropre, Classe Dangereuse? Quelques Remarques À Propos Des Chiffonniers Parisiens Au 19e Siècle Et De Leurs Cités.» Recherches, no. 29: «L'haleine des faubourgs,» p. 79-102.  
Bénédicte Florain. 2010. " Réforme, crise, ajustements et malentendus entre acteurs : quand la question des déchets devient un problème public. L'exemple du Caire (Égypte).» Sociétés urbaines et déchets: Éclairages internationaux.

## «البرباشة» في الفضاء العام: أو تثمان ما لا ثمن له؟

رمزي العلوي

باحث في علم الاجتماع

### مقدمة:

قد يستفزنا هذا المشهد الذي أخذ يتواتر أمامنا دون أن ندرك انتشاره، ويثير فينا الغرابة؛ إذ أنه كلما تحولنا أو انتقلنا من مدينة إلى أخرى يتكرر نفس المشهد بنفس الملامح تقريباً. برباش، سواءً كان رجلاً أو امرأة، يحمل أكياساً تراصت داخلها قوارير بلاستيكية بحجم يفوق حامله كِبَرًا، قد يجرّ عربة أو يكون راجلاً في أغلب الأحوال، فرادى ينبشون النفايات أينما تكدّست. ولعلّ هذا ما يحثّ باقي أفراد المجتمع على السّؤال للبحث عن الدوافع التي قد تضطرّ فرداً ما إلى الولوج إلى هذا القطاع، وقد تتطور هذه التساؤلات في الحسّ المشترك لتستحيل إلى أحكام مسبقة، فهناك من ربطه بالفقر المدقع، وآخرون يعتبرونه نشاطاً يدرّ الكثير من الأموال ويجعلهم، أي البرباشة، يجنون مداخيل أكثر من الموظفين السامين. وعلى هذا الأساس يُصبح امتهان التبريش خياراً لا اضطراراً. غير أنّ الأمر الملحّ الذي لاحظناه يتمثّل في غياب التطرّق إلى هذه الظاهرة في الإعلام أو الأعمال الفنيّة، وكأنّهم ليسوا مكوّناً من مكوّنات المجتمع.

إن الاختلاف الجليّ في وجهات النظر والأحكام المسبقة، والتي تفتقر إلى العلميّة، تجعلنا أمام ظاهرة تحتاج إلى النباش قصد تفسيرها وفهمها. ولعلّ هذا المقال سيحاول أن يُجيب، من جهته، على ثلاث أسئلة رئيسية:

- من هم «البرباشة»؟
- ما الذي يقنعهم بالقيام بهذا العمل أو ما يجبرهم عليه؟
- كيف كانت تجارب البعض إذًا؟

استنادًا إلى البيانات الإحصائية المستمدة من استبيان شمل 73 «برباشًا» وأربع مقابلات نصف موجهة و 14 مقابلة معمقة تمت في سياق تفسير سلوكهم وممارستهم، وباعتماد منهج البحث الميداني الذي أُجري خارج المصبات الكبرى، أي في الفضاءات العامة مثل المنار 1 و2؛ إذ أنّ فئتنا المستهدفة تتمثل في «برباشة» الأماكن العامة وليست تلك المتمركزة في المصبات الكبرى كمجموعات. وباستخدام منهجية أرضية لا تنطلق من افتراضات مسبقة أو اقتراحات مشتقة من تجارب سابقة لا تحايث ولا تحاين «البرباش». سنحاول في هذه الدراسة جعل البيانات تُوجّه بحثنا.

## عرض النتائج:

لعله من المحرج إنسانيًا والمؤسف كباحث القول أنّه إذا أردنا التوجه إلى «البرباش» علينا أن ننتظره أمام حاوية القمامة، وقد تمّ بهذا الشكل شبه العشوائي جمع ما نستأنس به من أرقام ومعطيات.

## تكثف التعطل المدرسي لتوليد للهشاشة:

يعتمد تأويل الأرقام على آلية جمعها، وتُعتبر الحصيلة التمثيلية للرصد العشوائي الصورة الأقرب إلى الفئة المستهدفة خاصة عندما تكون فئة غير مرصودة أو غير معلوم حجمها الأصلي وحصصها<sup>1</sup>، وتساعد المعطيات الكمية في استخراج المتغيرات في شكل موضوعات نعتمدها في التحليل؛ وبالتالي رجحنا التحليل الموضوعي<sup>2</sup> في هذه المرحلة المبكرة. لنتبين من خلال الأرقام الصورة الأقرب تمثيلاً للمجتمع الأصلي<sup>3</sup>.

بدايةً، انطلقنا من الأرقام المرتبطة بالنوع الاجتماعي، والجليّ بالذكر في هذه المرحلة الأولى

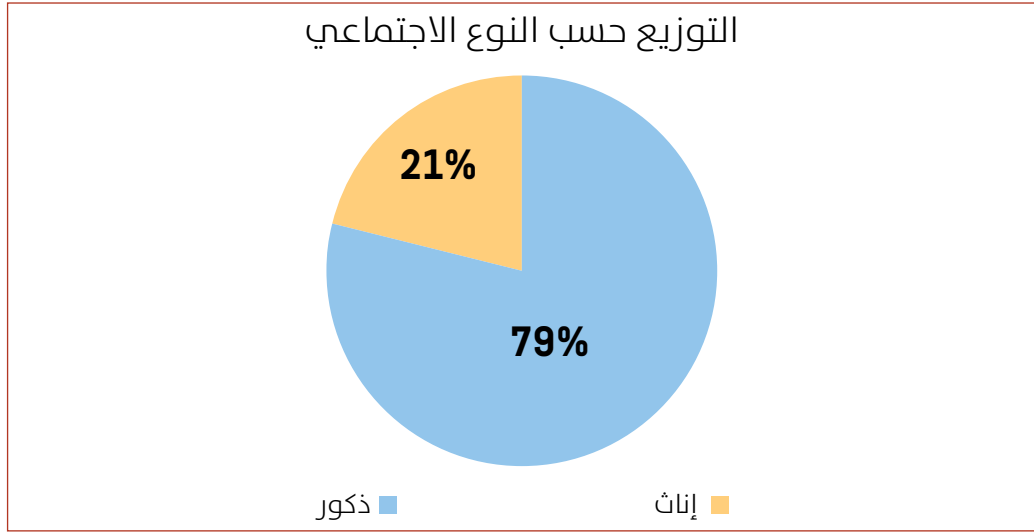
1 عبد الرحيم، محمد. «تأثير الانتقاء العشوائي في داخل العينة على تمثيلية العينة». مجلة العلوم التربوية والنفسية (2023). 123-135.

2 إبراهيم، عبد الله. «التحليل الموضوعي: منهج بحث أم منهجية بحث». مجلة علم الاجتماع، 2003، العدد 17، ص ص. 101-124.

3 عبد الباقي، أحمد فوزي. أساسيات التحليل الإحصائي. القاهرة: دار النهضة العربية، 2023.

أنّ هذا النشاط ذكوري ( 79 % ذكور و 21 % إناث)، ولعلّ هذا الأمر يرجع إلى قسوة العمل وخطورة النشاط، الشأن الذي يجعل لهذه الفئة خصائص مختلفة<sup>4</sup>.

رسم بياني للتوزيع حسب النوع الاجتماعي<sup>5</sup>



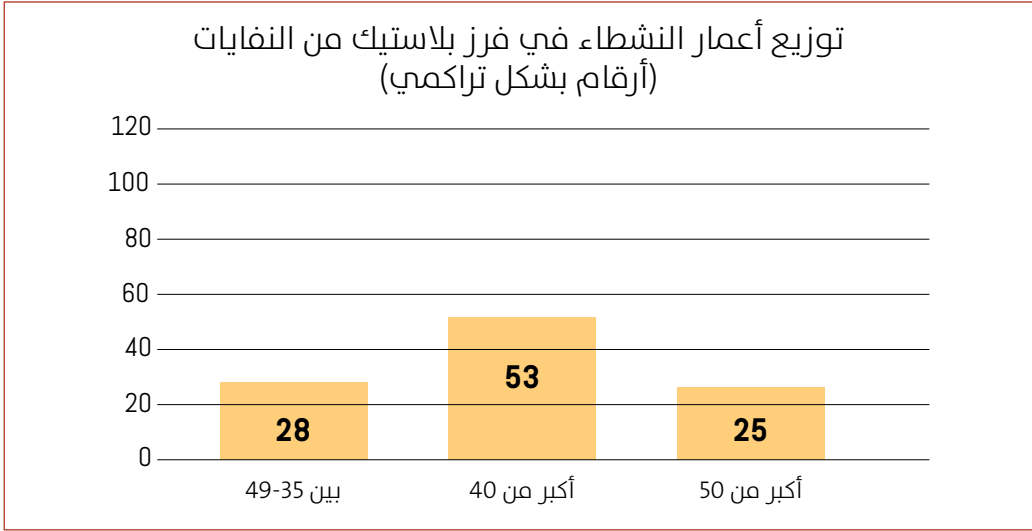
تبيّن لنا الأرقام أيضاً أنّ 72 % من العيّنة المستجوبة بشكل عشوائي تجاوزوا 39 سنة و53.4% تجاوزوا 50 عاماً، وانطلاقاً من هذه البيانات نستشفّ أنّنا إزاء فئة تعيش على وقع مرحلة ما بعد الشباب، والتي يمكن تحديدها، اجتماعياً، باقتضاب على كونها مرحلة تكوين الذات وتحقيق هوية ذاتية على مستوى الاجتماعي والمهني والثقافي، وهو سن يصعب فيه تأمين مسار وظيفي أو مهني جديد، فهي مرحلة البحث عن الاستقرار ومرحلة ضعف<sup>6</sup>، حتى وصفها بعض المستجوبين ( اتهد)، فسلوك الفرد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتغيرات البيولوجية، إذ أنّ القدرة الجسدية لها تأثير أساسي في خيارات الفرد والمكتسبات المعرفية التي يُحصّلها<sup>7</sup>.

4 Breen, Richard, and David Rottman. «Gender Segregation and Occupational Injury.» Social Forces 88.2 (2010) : 595-620

5 اعتماداً على البحث الميداني الذي اجري خارج المصبات الكبرى؛ أي في الفضاءات العامة (المنار 1,2)

6 الزغلول، محمد، وآخرون. «إعادة التوجيه المهني في مرحلة الأربعينيات: دراسة ميدانية.» المجلة العربية للعلوم التربوية والنفسية 10.2 (2023): 123-135

7 Vygotsky, Lev S. Mind in Society: The Development of Higher Psychological Processes. Cambridge, MA:

رسم بياني لتوزيع العمري<sup>8</sup>

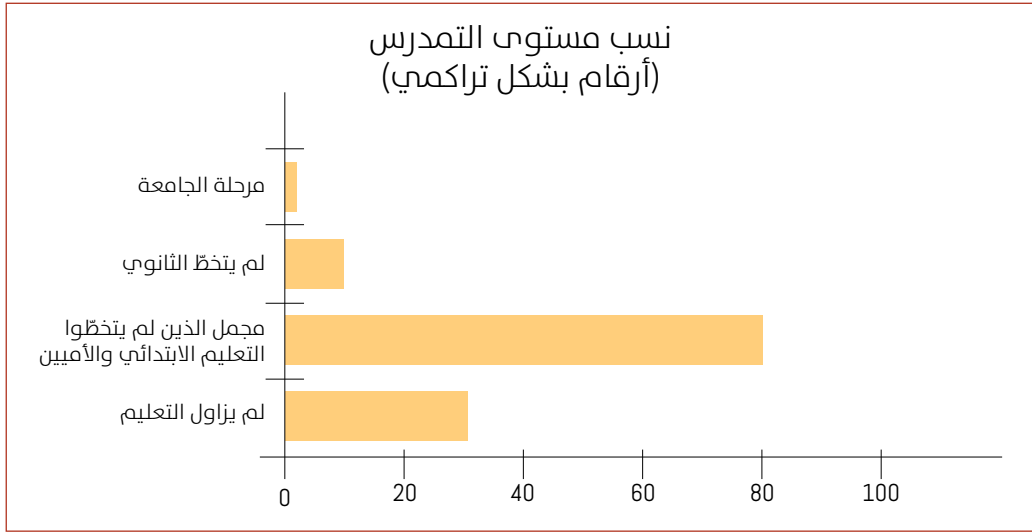
هذه الخصائص الديمغرافية تخلق بالضرورة أنماطاً عامة لتطور السلوك الاجتماعي لدى «البرباشة»؛ إذ أنّ بلوغ مرحلة متقدمة من الحياة يجعل خيارات الأفراد تُمسي محدودة، الأمر الذي يجعل من واقعهم الاجتماعي والاقتصادي متماثلاً<sup>9</sup>.

كما سبق وذكرنا بأنّ سلوك الأفراد مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتغيّرات البيولوجية والمعرفية، وبعد أن تناولنا مدى تأثير المعطى البيولوجي، سنحاول في هذا المستوى بيان كيفية تأثير المتغيّر المعرفي وارتباطه بتوجيه سلوك وخيارات الأفراد، ووفق البيانات الإحصائية المتحصّل عليها والتي أفادت بأنّ 80.8% من الفئة المستهدفة لم تتجاوز عتبة التعليم الابتدائي، خلصنا إلى كون العاملين في هذا المجال لم يتمكّنوا من ارتقاء المعدد الاجتماعي الذي قد يُؤمّنّه التحصيل الدّراسي.

Harvard University Press, 1978

8 اعتماداً من البحث الميداني الذي اجري خارج المصبات الكبرى أي في الفضاءات العامة (المنار 1,2).

9 أبو زيد، محمد زكي. (2023). السلوك الاجتماعي. القاهرة: دار النهضة العربية. ص. 104-102.



إنّ التوصيف الإحصائي للخصائص الديمغرافية، أي العامل الداخلي للفرد، والتي تناولناها إلى حدّ هذه المرحلة غير كافٍ لكشف سمات هذه الفئة وما يميّزها عن غيرها، فهناك فئات عديدة أخرى تتقاسم معها نفس هذه المؤشرات لكنها انخرطت في مسارات أخرى، لذلك نحن في حاجة إلى تحليل البيانات المتعلقة بالعوامل الخارجيّة المقترنة بالتنشئة الاجتماعية<sup>11</sup>.

في هذه المرحلة التي تقتضي إيجاد آلية توصيف، سنعتمد على الإحصاء الوصفي لمؤشرات الذات الاجتماعية والاقتصادية. وبالرجوع إلى معدلات اللاتمدرس في المحيط العائلي والاجتماعي لفئة «البرباشة»، نجد أنّ هذه المعدلات مرتفعة للغاية على جميع الجوانب؛ إذ أنّ المعدل العام يصل إلى 88% من غير المتدربين، ومنهم 83.6% أبناء لأبوين أميين.

تظهر الأرقام أيضًا أنّ هناك نمط تأثير فنوي أو هيكلية أنشأ نزعة التسرّب المدرسي، حيث ترتبط هذه الأرقام بشكل واضح بالوضع الاجتماعي. وتصل بعض هذه الأرقام إلى ما يزيد عن 91% في حالة الأخوة والأبناء الذين ينقطعون عن المدرسة مبكرًا، أي قبل اكتمال مرحلة

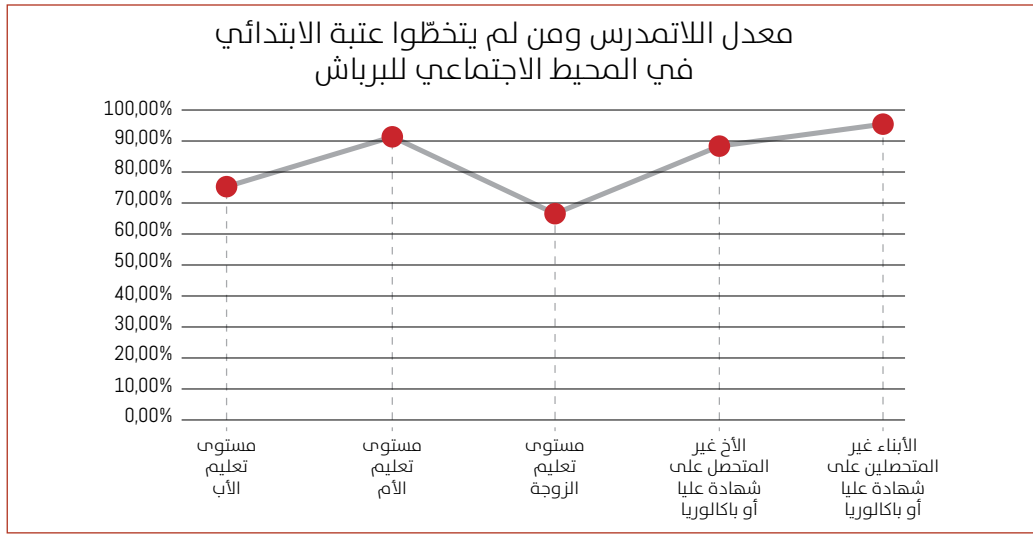
10 اعتماداً من البحث الميداني الذي اجري خارج المصبات الكبرى أي في الفضاءات العامة (المنار 1,2).

11 Blau, Peter M., and Otis Dudley Duncan. The American Occupational Structure. New York: Free Press, 1967.

التعليم الثانوي. كل هذه المؤشرات تشير إلى هشاشة عالية على مستوى العلاقات الاجتماعية للفئة المستهدفة، مما يؤدي إلى صعوبة التواصل والشعور بالعزلة في البيئة الاجتماعية. بالإضافة إلى ذلك، تُضاعف هذه الظروف من فرص التعرض للاستغلال.

هذا الضعف يؤثر أيضًا على النواحي الاقتصادية، حيث يحدّ من قدرة الفرد على العثور على فرص عمل بسبب انقطاعه المبكر عن التعليم<sup>12</sup>. هذه التأثيرات تفتح أبوابًا لفهم وتفسير العوامل التي تؤثر على تكوين وبيئة هذه الفئة الاجتماعية.

### رسم بياني توضيحي لمعدل التمدرس للمحيط الاجتماعي الأول للفرد<sup>13</sup>



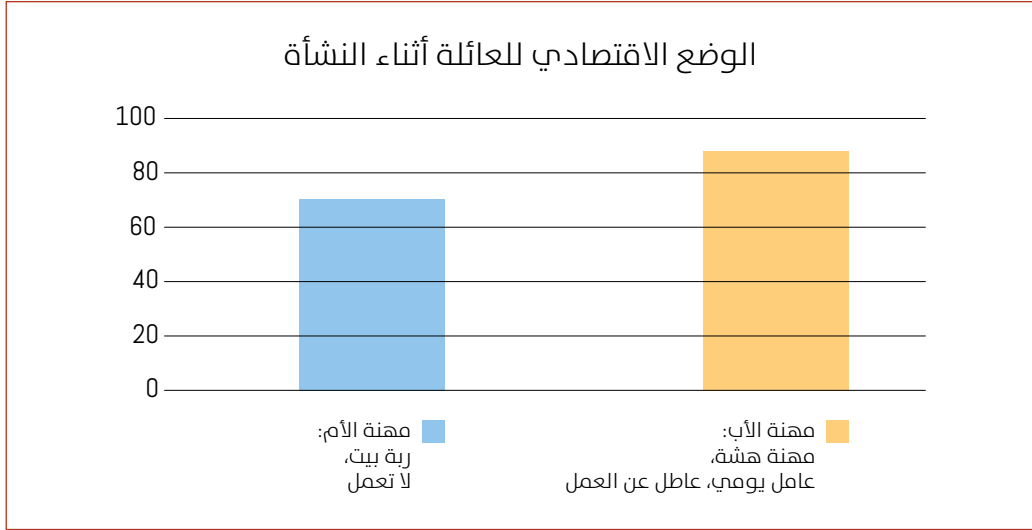
من الناحية الاقتصادية، نجد أنّ 90.4 % من الأمهات هن ربوات البيوت ولا يعملن، بينما 72.5 % من الآباء هم من العاطلين عن العمل أو يعملون في وظائف يومية غير مستقرة من حيث الدخل. تشير هذه الأرقام إلى أنّنا نتحدث عن فئة اجتماعية عاشت تنشئة صعبة في بيئة صعبة، مما أدى إلى هشاشة في وضعهم الاقتصادي وضعف في فرص الارتقاء الاجتماعي. كما تظهر لنا

12 Gaddis, Steven E., and Daniel J. Slottje. «The Impact of Demographic Factors on Wages: A Meta-Analysis.» Journal of Economic Literature 52.2 (2014): 451-489

13 اعتمادا من البحث الميداني الذي اجري خارج المصبات الكبرى أي في الفضاءات العامة (المنار 1,2)

هذه الأرقام أنّ مستوى الدخل الأسري يرتبط بشكل وثيق بمؤشرات التعليم، كما تمّ التوضيح مسبقاً. وهذا يعني أنّنا نتعرف على نماذج اجتماعية تتميز بخصائص ديمغرافية واجتماعية واقتصادية يمكن وصفها بالمتدنيّة.

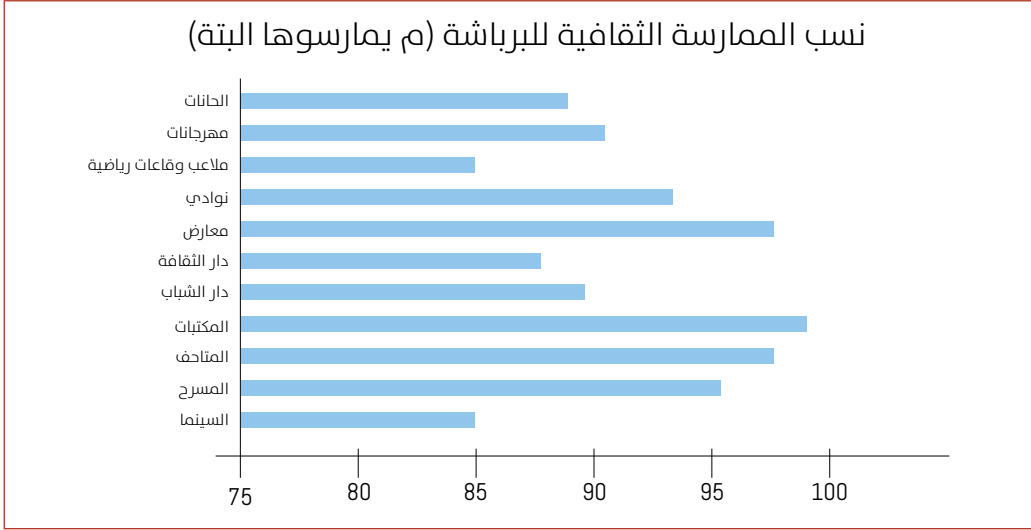
### رسم بياني لمهنة الأم والأب



تظهر الأرقام المتعلقة بالممارسات الثقافية أوجه أخرى للهشاشة. فالنشاط الثقافي يُعتبر وسيلة بديلة ووسيطاً لنقل الأفكار والمهارات والمعرفة، الأمر الذي يدعم التفاعل الاجتماعي ويعزز إمكانية التعلم الاجتماعي والاستفادة من الخبرات اليومية. بالإضافة إلى ذلك، يمكن اعتباره بديلاً للتعليم النظامي.

ومع ذلك، تشير هذه الأرقام أيضاً إلى ارتفاع نسبة عدم الانخراط في الممارسات الثقافية بما في ذلك السينما والمسارح والمعارض والمتاحف. تصل هذه النسب إلى معدل يقارب 94.8% للأنشطة التي لم يُشاركوا فيها. بالإضافة إلى ذلك، نجد أن 91.1% لم يرتادوا دور الثقافة والشباب، وهذا يعكس نقصاً في المهارات والقدرات الاجتماعية للأفراد في التواصل والتفاعل

الاجتماعي وحل المشكلات. وهذا قد يزيد من احتمالية تراجع الاندماج الاجتماعي لهذه الفئة<sup>14</sup>.



من خلال الملاحظات التي تمّ جمعها من العينة، نجد أنّ هناك نسباً عالية توضح تكرار نمطي واضح في إجابات المشاركين، حيث وصلت نسب تلك التوافقات بين 80 % و 90 % فيما يتعلق بمؤشرات ديمغرافية واجتماعية واقتصادية وثقافية مختلفة. تتماشى هذه الأرقام مع نقص المشاركة السياسية وتعكس عدم الثقة في السلطات السياسية المحلية حيث أنّ سبعة من كل عشرة أفراد عبّروا بكلّ وضوح عن عدم ثقتهم في هذه السلطات.

ما يعنيه كل هذا هو وجود نمط تكراري واضح في إجابات العينة، ممّا يشير إلى ترابط وارتباط تلازمي<sup>15</sup> بين المتغيرات المختلفة مثل العمر والتعليم واللاتمدرس في البيئة العائلية والوضع الاقتصادي خلال فترة التنشئة. هذا الترابط يمكن أن يشير إلى وجود خصائص محدّدة تجعل هذه الفئة أكثر عرضة للانخراط في هذه الظاهرة الاجتماعية وزيادة انتشارها مع توسّع هذه الفئة، خصوصاً مع تغلغل ثقافة الاستهلاك في المجتمع التونسي، ممّا نجم عنه انتشار ظاهرة تراكم النفايات البلاستيكية. كل هذا يشير إلى وجود ظاهرة اجتماعية واقتصادية نابعة من نمط اجتماعي.

14 بو زيد، محمد زكي. (2023). السلوك الاجتماعي. القاهرة: دار النهضة العربية. ص. 106-104.

15 Garson, George D. Statistical Methods for the Social and Behavioral Sciences. 11th ed. Boston : Pearson, 2023.

الأرقام تعدّ واحدة من أكثر الأدوات حيادية، حيث تكشف عن تشابه ملحوظ في الخصائص الاجتماعية والديمقراطية للفئة المستجوبة، بدءاً من الأعمار وصولاً إلى مستوى التعليم والوضع الاجتماعي. هذا يدعونا إلى البحث عن تفسيرات لهذا التشابه.

لكن، هل هذه الخصائص تجعل الفئة المستهدفة تميل نحو اختيار نبش النفايات بشكل عام، خاصة في ظلّ التطور الذي شهده قطاع إعادة تدوير النفايات البلاستيكية وإنشاء ما يزيد عن 25 شركة في هذا المجال؟ وبالنظر إلى الزيادة الكبيرة في إنتاج النفايات البلاستيكية في تونس، سبق أن أفادت دراسة قام بها المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية أنّ كلّ تونسي ينتج يومياً ما يُقاربُ 0.11 كيلوغرام من النفايات البلاستيكية، ويبلغ معدل إنتاج الفرد حوالي 23 % من الإنتاج اليومي وفقاً لدراسة صادرة عن الوكالة الوطنية لحماية المحيط في عام 2018، مما يعادل ما يقرب من 250 ألف طن<sup>16</sup>.

هل تلك الخصائص تُمثل عوامل دافعة تجعل هذه الفئة تلجأ إلى نبش النفايات كوسيلة لكسب الرزق تحت ظروف هامشية؟ خاصة مع وجود عوامل جاذبة؛ مثل ناشطيّة شركات الرسكلة الوسيطة أي وساطة القرب (courtiers locaux)، والتي يمكن للبرباشة الاستفادة منها من خلال بيع المواد التي يجمعونها بسرعة،، وعلى الرغم من غياب أرقام رسمية دقيقة، فقد أشارت الوكالة الوطنية لتصرف النفايات إلى ارتفاع عدد نشطاء مجال إعادة التدوير إلى حوالي 16 ألف ناشط، ممّا يُظهر أهمية هذا العامل في ظل ازدياد النفايات البلاستيكية<sup>17</sup>.

## نظام مزدوج التقييد (بين الأمل والمقاومة):

المعطيات الكمية التي نملكها تتيح لنا نظرة شمولية حول الظاهرة. ولكن، الأرقام لديها حدود في توفير تفسيرات دقيقة ومفصلة لعلاقة المؤشرات بدوافع السلوك أو القرارات التي يتخذها أفراد العينة. لذا، نحن في حاجة إلى تفسيرات وتحليلات تساعدنا في فهم العلاقة السببية بين

16 المؤلف: إيمان بدور. انتشار النفايات في تونس: الصعوبات والتحديات والحلول من أجل صحة إيكولوجية حقيقية. موقع جمعية التنمية البيئية والاجتماعية بتونس (20). (FTDES). أكتوبر 2023  
<https://ftdes.net/ar/proliferation-des-dechets-en-tunisie-difficultes-enjeux-et-solutions-pour-un-veritable-eveil-ecologique>

17 نفس المصدر

المتغيّرات<sup>18</sup>، وكيفية تشكّل العوامل التي تدفع الأشخاص إلى اختيار نبش النفايات في الشوارع. في هذه المرحلة من البحث، نستخدم التحليل البنيوي لاستكشاف وفهم بنية هذه العوامل وكيف تؤدي إلى اتخاذ هذا القرار من قبل أفراد الفئة المعنية. وهذا ما يتيح لنا فهماً أعمق للأمور بعيداً عن الأرقام البيانية.

لعلّ هذا الأمر هو ما دفعنا إلى الاستئناس بالمعطيات الكيفية التي تمّ جمعها من 15 مقابلة مع «البرباشة» و3 مع ناشطين في مجال النفايات والبيئة، وذلك بغرض استقاء المعلومات التي تساعدنا في فهم جوانب محددة من تجاربهم، والتي تتعلّق بأمر مثل أحلامهم وتطلعاتهم المهنية وما الذي دفعهم للانخراط في هذا القطاع، بالإضافة إلى العلاقات والتفاعلات الاجتماعية التي قد تؤثر في مساراتهم الحياتية.

نحن نطرح أسئلة محددة مثل: كيف تعرفت على هذا النشاط؟ هل اخترت هذا العمل بنفسك؟ هل تفضل الاستمرار في هذا النشاط أم هل تفكر في تغييره؟ بالإضافة إلى فتح الباب لمزيد من الأسئلة التي قد يرونها مناسبة لمشاركة تجاربهم وآرائهم.

هذه المقابلات، سواء كانت نصف موجهة أم بيوغرافية معمقة، تقدم لنا معلومات حول الجوانب النفسية والاجتماعية والمهنية للأشخاص الذين نقوم بدراساتهم. وبفهم هذه الجوانب، يمكننا تفسير العلاقات المعقدة بين مختلف المتغيرات التي تم تحليلها سابقاً أي كميّاً، وكيف تؤثر النظم الاجتماعية المختلفة على اختيار النباش في النفايات المنزلية، والتي تُعتبر الخطوة الأصعب والأكثر خطورة في تدوير البلاستيك.

إنّ تفسير البرباشة من داخل عالمهم اليومي والمسار الاجتماعي يمكن أن يقدم لنا حزمة ضخمة من التأويلات والافتراضات حول العوامل التي تؤثر في سلوكهم وتوجّه مساراتهم الحياتية. ولفهم ذلك، نحتاج إلى تصنيف وترصيف البيانات التي جمعناها، وهذا يعني تنظيم الإجابات في مجموعة من التصنيفات المفتوحة للبيانات التي نقوم بتصميمها. وتمثل هذه التصنيفات وصلة مهمة تربط بين ستة عناصر مختلفة.

18 Garson, George D. Statistical Methods for the Social and Behavioral Sciences. 11th ed. Boston: Pearson, 2023, 123 - 124 .

ما يأمل في تحقيقه / ما يحققه له العمل / الخبرات المهنية / المسار المهني / الاستمرار في العمل / الرضا عن العمل.

وتصنيفهم إلى ثلاث عوامل<sup>19</sup>:

**الدافع:** هو ما يحمل الفرد على القيام بفعل معين، حيث يمكن أن يكون هذا الدافع ناتجاً عن قوى داخلية، مثل رغبته في تحقيق نجاح شخصي، أو يمكن أن يكون ناتجاً عن محفز خارجي، مثل رغبته في الحصول على مكافأة.

**القصد:** يشير إلى نية الفرد في القيام بشيء ما، ويُظهر أنّ الفرد يخطط ويفكر في سلوكه قبل تنفيذه.

**القدرة:** تعبر عن قدرة الفرد على أداء السلوك المراد، وتشير إلى وجود المهارات والقدرات الضرورية لتنفيذه.<sup>20</sup>

التخمينات	إضطرار	خيار
الدافع	ما يحققه له العمل	ما يأمل في تحقيقه
القصد	المسار المهني	الخبرات المهنية
القدرة	الرضا عن العمل	الاستمرار في العمل

العديد من المستجوبين أفادوا بأنّ أحلامهم وآمالهم كانت متعلّقةً بالعمل في مجالات أخرى مثل الزراعة، أو المحاماة، أو نقل البضائع كصاحب شاحنة، أو امتلاك أراضٍ، أو تأجير محل

19 Blau, Peter M., and Otis Dudley Duncan. The American Occupational Structure. New York: Free Press, 1967.

20 Babbie, Earl. The Practice of Social Research. 14th ed. Boston: Cengage Learning, 2022

للتجارة<sup>21</sup>. إذا، لا أحد منهم كان قد فكّر في العمل كبرباش، كما أنّ الولوج إلى هذا المجال لم يكن ضمن مخططاتهم أو توقعاتهم في الماضي.

بعد سؤالهم عمّا إذا كانوا قد اختاروا العمل كبرباش من بين الفرص الأخرى المتاحة لهم، أكّد العديد منهم أنّهم لم يكونوا قد اختاروا هذا العمل. قالوا إنهم اضطروا لاتخاذ هذا الخيار بسبب الضغوط الاقتصادية والصعوبات التي واجهوها، والتي جعلتهم ينخرطون في هذا العمل لتوفير قوتهم اليومي كي لا يموتوا جوعاً، فقد أفادنا أحد المبحوثين بقوله «أنا مضطرة للعمل في هذا العمل لكوني لا أملك بديلاً، التبريش اختارني ولم أكن أنا من اخترته، هذا الشيء الوحيد الذي أستطيع صنعه. بعد ما أنجبت أصبح العمل الوحيد الذي يُمكنني من اصطحاب ابنتي معي، لم أرغب فيه لكنني مضطرة لمساعدة والدتي»<sup>22</sup>.

من جهة أخرى يرى المبحوثون أنّ الأموال التي يجنونها من التبريش ليست كافية. إذ يُشير معظمهم إلى أنّ مستوى دخلهم غير كافٍ وأنهم يواجهون صعوبة في تلبية احتياجاتهم اليومية. رغم أنّ ساعات العمل لدى 87.7% من المستجوبين تبلغ في المتوسط من 8 إلى 12 ساعة يومياً أو أكثر من ذلك. بالإضافة إلى ذلك، 73 مستجوباً أفادوا بأنّ دخلهم الشهري لا يتجاوز 700 دينار، وأن 93.1% منهم يعانون من صعوبة شديدة في تلبية احتياجاتهم المالية الأساسية. لذا، الدافع الوحيد الذي دفعهم للتحويل إلى برباشة هو الصراع اليومي مع القمامة وجمع البلاستيك للحصول على دخل يساعدهم على تلبية احتياجاتهم الأساسية.

إذاً لم تكن دوافعهم تنبع من رغبات داخلية تجعلهم مستعدين للانخراط في هذا النشاط الاقتصادي، فإنهم أيضاً لا يعتبرونه اختياراً ناتجاً عن رغبة الخارجية في تحقيق الربح. إنهم غير راضين عمّا يحصلون عليه، ويجدون أنفسهم محاصرين بين عدم وجود خيارات والاضطرار للقيام بهذا النشاط بناءً على دوافع ليست داخلية.

وعند سؤالهم حول ما كانوا يأملون في تحقيقه أو ماذا كانوا يحلمون بتحقيقه من أجل تحقيق طموحاتهم ومساراتهم المهنية، تبين أن أغلبهم كان لديهم آمال مهنية متعددة. ولكن

21 مقابلاتاً جغرافية: ع، ص، ه، ش، ر، ع، ح، ش، ع، ش، ف، س، م، س، ح.

22 مقابلات نضف موجهة و المعمقة: ش، ع، م، س، ك، ع، ب، ع، ص، ه، ش، ر، ع، ح، ش، ع، ش، ف، س، م، س، ح.

معظمهم لم يتمكنوا من الالتحاق بأيّ منها. ويعود ذلك إلى عدة أسباب؛ بما في ذلك انقطاعهم المبكر عن الدراسة أو عدم قدرتهم على اكتساب المهارات اللازمة للقيام بتلك المهنة. هناك أيضًا من يعانون من أمراض مزمنة تجعلهم غير قادرين على مواصلة مهنتهم السابقة بسبب الجهد البدني الذي تتطلبه. استنادًا إلى ما وقع التطرّق إليه، فإنّهم قد وجدوا أنّ العمل كبرياش هو الخيار الوحيد المتاح لهم في الوقت الراهن.

بالنظر إلى مسار المهني لمعظم الأفراد الذين انخرطوا في نشاط «البرياشة»، يمكن القول بوضوح أنّ هذا المسار يمثل تجربة أو مسارًا متعثّرًا. ولم يُتَّحْ لهؤلاء الأفراد بناء هوية مهنية واضحة تتضمن مجموعة من الأفكار والمشاعر والمواقف حول مهنتهم. كما لم يمكنهم من الشعور بالانتماء إلى مجموعة مهنية محددة، ولم يتسَنّ لهم أنّ يشعروا بالقدرة على أداء الأنشطة المهنية بشكل فعّال.

تفسير ذلك يُشير إلى أنّ هؤلاء الأفراد ظلّوا متعلقين بأمل إنجاز ما كانوا يتمنونونه وما يتطلعون إليه من تحقيق ذواتهم ومكانة اجتماعية، لكن الواقع الفعلي كانت له إجابته العكسيّة الحاسمة. وهو ما أكّده الإحصائيات التي استخلصناها ميدانيًا؛ إذ أكّد جميع المبحوثين دون استثناء أنّ حياتهم في سنّ الرشد لم تختلف عمّا عاشوه في فترة مراهقتهم.

في ظل هذه الظروف، قد تكون الهجرة هي الخيار الوحيد الباقي أمام بعضهم لتحقيق آمالهم وتطلعاتهم.

إنّ التضارب في إجاباتهم حول البقاء في نفس العمل كبرياش أو تغييره، يُظهر أنّ قرارهم ليس مرتبطًا بشكل مباشر بالرضا عن العمل بل يعكس الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي يعيشونها. فبالنسبة إلى الذين يختارون البقاء في نفس النشاط كبرياش، يمكن أنّ يكون ذلك نتيجة لعدم توافر فرص أخرى، أو نتيجة لضغوط اقتصادية تجعلهم مضطرين للاستمرار في هذا العمل على الرغم من عدم رضاهم عنه.

من ناحية أخرى، فإنّ الأشخاص الذين عبروا عن رغبتهم في تغيير العمل يمكن أنّ يشير ذلك إلى أنّهم يتطلعون إلى حياة أفضل أو إلى تحسين وضعهم الاقتصادي. ولكن القدرة على تحقيق هذا التغيير تعتمد على الفرص المتاحة لهم والقدرة على العثور على أنشطة أخرى.

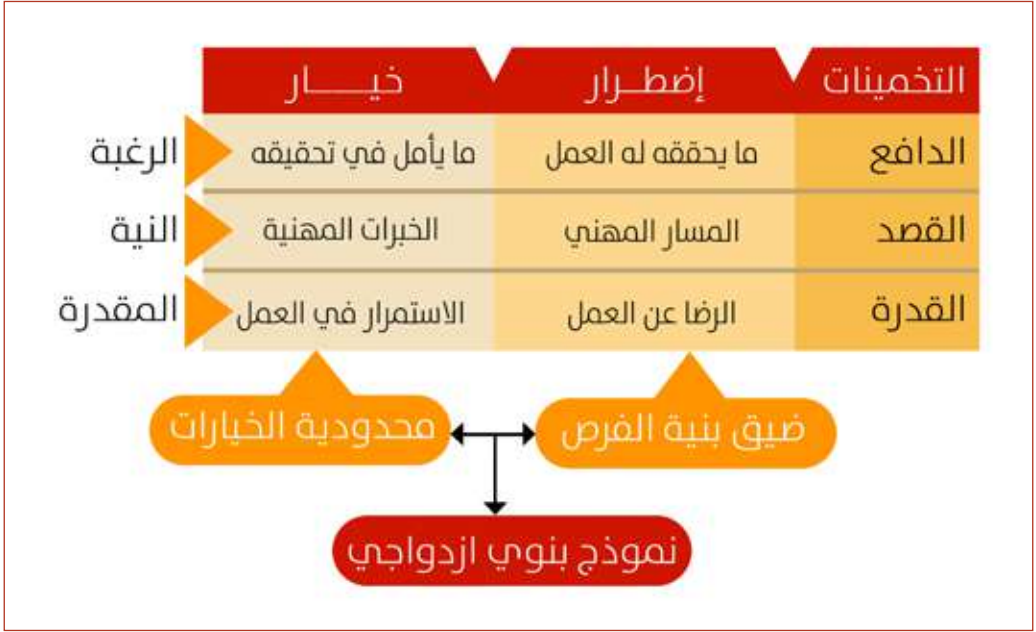
بشكل عام، يمكن فهم هذا التضارب كنتيجة للظروف الصعبة التي يمرون بها، حيث قد يكون التغيير صعباً ومرتبباً بتحديات اقتصادية واجتماعية كبيرة، ولذلك يتحتم عليهم اتخاذ قرار معقد بناءً على الظروف الفعلية التي يواجهونها.

إذاً، يمكن استنتاج أنّ العمل كبرباش بالنسبة لهؤلاء الأشخاص ليس اختياراً أو هدفاً نابغاً من داخلهم كما افترضنا في البداية؛ بل هو في حقيقة الأمر انعكاس لتجربة الهشاشة التي يعايشونها والتي تجعل من أفقهم مسدوداً، إذ أنّ الظروف الصعبة التي يمرون بها وقدرتهم المحدودة/المنعدمة<sup>23</sup> على تحقيق تغييرات أو العثور على فرص أخرى، تجعل من الانخراط في هذا المسار المهني ضرورةً لا مناص منها وقدراً حتمياً لا يمكن تغييره أو الثورة عليه.

يمكن تفسير ذلك بأنّ هنالك رابطاً بين تشكل لبنية اجتماعية فرعية، ووجود ضيق في الفرص المتاحة للأفراد والمجموعات في المجتمع؛ مثل الفرص الوظيفية والتعليمية والتنشئة الآمنة. لذا، يمكن اعتبار ضيق بنية الفرص عاملاً يسهم في تثبيت بنية اجتماعية محددة قائمة على الحرمان والهشاشة.

أمّا بالنسبة إلى التخمين الثاني والمرتبب بشبكة العوامل التي تشكّل حالة الاضطراب لامتهان هذا العمل، فإننا نصطدم بحقيقة أنّ البرباشة غير راضين عن المداخل التي يجنونها، وما بقاؤهم فيه سوى ترجمة لضرورة البقاء على قيد الحياة، كما أنّه عمل متاح مادامت هنالك نفايات بلاستيكية.

23 Blau, Peter M., and Otis Dudley Duncan. 1967. The American Occupational Structure. 2nd ed. New York: Free Press.



ارتبط تأويلنا للسلوك الاجتماعي باعتباره مفسراً للعلاقات الرابطة بين العناصر المكونة للعوامل، والمسببة لظاهرة الانتشار الانتظامي للبرباشة في الأحياء والشوارع. وباعتبار أنّ هذا الانتشار حديث فليس لنا سياق تاريخي مؤثر من قبيل توريث أو تمرير المهارات عبر العائلة فلم تتجاوز هذه النسبة 6.8 % أي 5 من أصل 73 إجابة، لكن ينزع هذا التحليل البنوي إلى افتراض أنّ البنية موجودة بشكل مستقل، إلى حدّ ما، عن الأفراد. لذا نحن في حاجة إلى اختبار ما انتهينا إليه من مخرجات التحليلين السابقين سواء الكميّ أو البنوي. ونظراً إلى أهمية الأفراد في تشكيل البنية والتأثير على معاني سلوكهم، يتعين علينا فهم المعاني الدلالية لهذه السلوكيات لاختبار وتصنيف ما توصلنا إليه من أبحاث حتى الآن.

من جهة أخرى نجد أنّ هنالك العديد من الفئات الاجتماعية التي تشترك مع البرباشة في عدّة خصائص، كما أنّها تعيش ذات التقييد المزدوج الذي ينحصر في اختياراتهم المحدودة وضيق فرصهم. ومع ذلك، تختلف مساراتهم الاجتماعية بشكل كبير.

إنّ العديد من دراسات التهميش والاستبعاد الاجتماعي تعتبر أنّ هذه الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية لهذه الفئة تلعب دوراً في تعزيز ظاهرة السلوكيات المحفوفة بالمخاطر،

بما في ذلك السلوكيات مثل «حرقه» وتجارة «الزطلة» وتعاطي الكحول والإرهاب والجريمة.

ما هي، إذًا، العوامل التي تجعل سلوك هذه الفئة ومساراتها مختلفة عن غيرها؟ وكيف تسهم هذه العوامل في تكوين الظاهرة بأسرها؟ وكيف يمكن استخدام هذا التحليل للإجابة على أسئلة أخرى متعلقة بهذه الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية؟

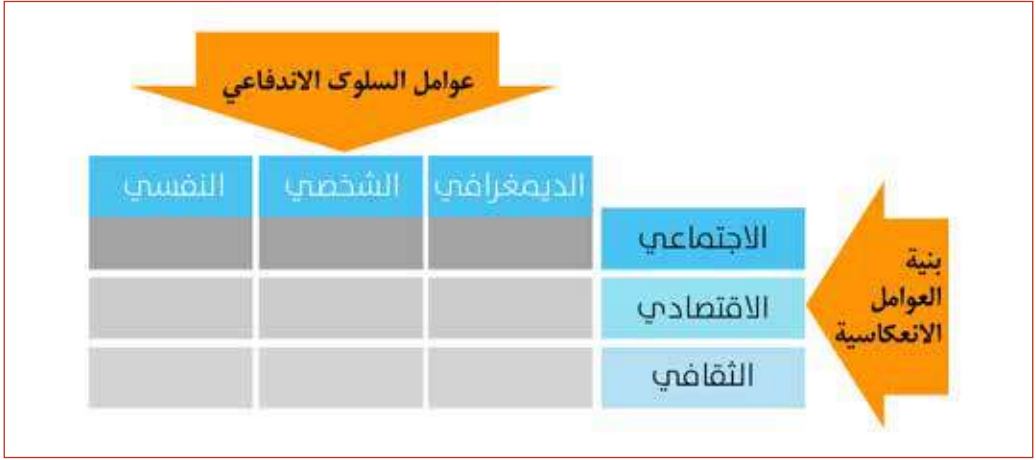
## اللامرئيون اجتماعيا

قد تستند مشاعر فئة معينة إلى خصائصها الفردية وسياقها الخارجي، بما في ذلك العوامل الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، والثقافية، التي تُشكّل البنية الأساسية للظاهرة التي تؤدي إلى إنتاج سلوك اجتماعي. ومع ذلك، يمكن أن يختلف السلوك الاجتماعي ويأخذ مسارات متنوعة بسبب التفاوت في تفسير الأفراد للمعنى الذي يرتبط بسلوكهم وتأثيره على تشكيل بنية تلك الظاهرة.

عبر التفهم الدلالي<sup>24</sup> لما عبر عنه المستجوبين من معاني لسلوكياتهم وتجاربهم الحياتية ومسار تفاعلاتهم<sup>25</sup> الاجتماعية، نجد أنها احتكمت إلى ثالث مزدوج من العوامل.

24 Lyons, John. *Semantics: An Introduction to the Study of Meaning*. Cambridge University Press, 1977.

25 Horn, Laurence R. «A Primer on Semantics.» In *The Blackwell Companion to Linguistics*, edited by Keith Brown and Joanna Bybee, 21-39. Blackwell Publishing, 2010.



### • الثالث الأول الانعكاسي: العامل الديمغرافي، النفسي والشخصي.

- العامل الديمغرافي: يتضمن تقدم السن وما يتبعه من شعور بفوات الفرص وإحباط وصعوبة في إعادة توجيه المسار المهني. يظهر ذلك من خلال التعبيرات مثل «تعدي العمر» و«توة معادش تنجم»، هذه العبارات تُعتبر الأكثر تواتراً نظراً إلى أن أكثر من 72 % من العينة المستجوبة قد تجاوزوا سن 39، الأمر الذي يكسر إرادتهم، ويجعلهم يرضون بما اعتبروه قدراً لهم.

- العامل النفسي: على الرغم من الإحباط، يظل لديهم شعور بعدم الرضا عن العمل والبيئة العملية، ويحاولون مواجهة هذا الامتعاض بمشاعرهم دون اتخاذ أي إجراء عملي. يظهر ذلك من خلال تصريحات مثل «العمل لا يفيدني في شيء» و«لن أغير عملي أو أتخذ أي إجراء».

- العامل الشخصي: يشمل ضعفاً في التعليم ونقصاً في المهارات الضرورية لوضع إستراتيجية حياة ناجحة. إذ لا تتوفر لديهم خطة واضحة لتحديد الأهداف والمبادئ التي تساعد في التكيف / الاندماج الاجتماعي.

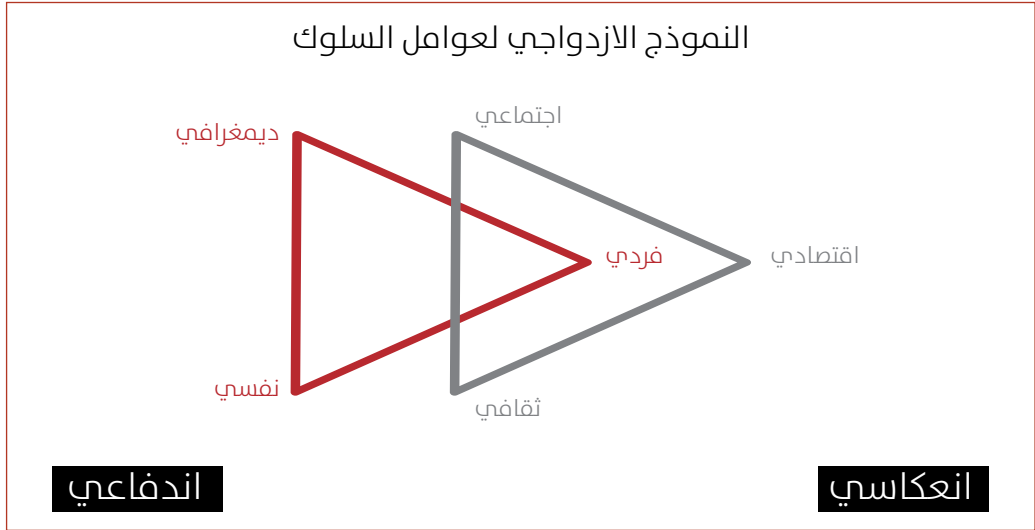
### • الثالث الثاني الاندفاعي:

- العامل الاجتماعي والثقافي والاقتصادي:

✳ **العامل الاجتماعي:** يشير إلى توقعاتهم وتصوراتهم حول وضعهم الاجتماعي، حيث يشعرون بأن واقعهم لا يتوافق مع توقعاتهم وأمالهم في الحياة. يواجهون التمييز والوصم بشكل دائم، وعلى الرغم من ذلك، يتعايشون مع هذا الوضع ويعتادون عليه. هذا العامل يؤدي إلى علاقات اجتماعية سطحية مع الزملاء والأشخاص في الشارع، مما يقلل من فرصهم في تحسين مسارهم المهني والانتقال إلى وظائف أخرى.

✳ **العامل الثقافي:** ينعكس تأثير المعايير والقيم الاجتماعية والأخلاقية على سلوك هؤلاء الأفراد؛ إذ يمنعهم من اللجوء إلى مصادر دخل غير مشروعة. ويظهر من خلال، تفضيلهم للصدقة من الناس بدلاً من انتهاج مسارات غير قانونية لتحقيق المال. عامل الثقافة الدينية يكون ضاغطاً على سلوكهم ويشجعهم على تقديم الأولوية لقبول الناس ورضا المجتمع.

✳ **العامل الاقتصادي:** يعكس مدلول العمل في نظر هؤلاء الأفراد توفير المال فقط. تقلبات هذا التدفق المالي يشكل دافعاً قوياً للبحث عن فرص جديدة تمكنهم من تحقيق دخل إضافي. يجمعون بين تلك الثقافة المالية والدينية، حيث يعتبرون العمل شكلاً من أشكال العبادة ويسعون للحفاظ على شرفهم وكرامتهم من خلال الكسب الشرعي.



توضح هذه التصنيفات الستة تداخل العوامل المختلفة وكيف تؤثر على سلوك هذه الفئة وتجعلها مختلفة عن غيرها<sup>26</sup>. إنَّ ما يُميِّز هذه الفئة اعتبارها لكون العمل شأنًا مقدسًا ويرؤنه جزءًا من عبادتهم، وهذا ما يُحقِّق لهم نفسيًّا قيمة الاعتراف بالذات باعتبارها منتجةً رغم الوصم والنظرة الدونيَّة، كما أنَّ العمل لساعات طويلة دليل على مثابرة البرباشة رغم محدودية دخلهم والأمراض التي قد تصيبهم في الأثناء، وذلك نابع عن رغبة في التأكيد على كرامتهم وشرفهم.

الطبيعة المسالمة لهؤلاء الأفراد تجعلهم يبحثون عن راحة النفس بدلاً من دخولهم في صراعات. وهذا ما يجعلهم يستبطنون القيم والمعايير الاجتماعية والثقافية والقانون، فتجدهم يقبلون الصدقة عوضًا عن الجنوح إلى مصادر دخل غير قانونية. كما أنَّ عملهم مفيد للمجتمع وللبيئة على حدِّ السواء.

تبيِّن هذه التصنيفات أنَّ السلوكيات هي نتيجة تفاعل معقد بين العوامل الداخلية والخارجية، حيث يتأثر الفرد بسياقه وثقافته وقيمه الشخصية والتحديات الاقتصادية والاجتماعية المحيطة به<sup>27</sup>.

## استنتاجات

بناءً على النتائج التي تم تقديمها في هذه الدراسة، يمكن استخلاص الاستنتاجات التالية:

- تبين أنَّ انخراط البرباشة في هذا القطاع لم يكن خيارًا شخصيًا داخل إطار سياسات عامة داعمة. بالعكس، يُعدُّ نتيجة للإهمال الحكومي في إدماج المتسربين من التعليم. من جهة أخرى أوجدت فئة من المجتمع في سوء إدارة الدولة لمسألة النفايات وما نجم عنها من تزايد في المخلفات البلاستيكية مصدر رزق بعد انسداد أفق الظفر بعمل «لائق» حسبما حدّته المفاهيم الدوليَّة.
- هذه الفئة عبّرت من خلال المقابلات عن حالة قطيعة كليَّة مع السلطة بجميع تفرعاتها، فهم بالنسبة إلى المسؤولين في الدولة كائنات غير مرئية، وما زاد من إحساسهم بالدونيَّة الوصم

26 ما تم الوصول اليه وتوضحه في الجزء الأول من البحث في هذه المقالة.

27 Suckow, Mark A., Steven H. Weisbroth, and Craig L. Franklin, eds. The Laboratory Rat. 2nd ed., Academic Press, 2006. ISBN 978-0-12-074903-4.

الاجتماعي الذي لحقهم من باقي فئات المجتمع، الأمر الذي دفعهم للعمل ليلاً.

• من جهة أخرى، خلصنا في هذه الدراسة إلى كون الاضطرار للالتحاق بهذه المهنة كان نتيجة حتمية المرور بقناة ضيقة داخل بنية اجتماعية خفية وفرعية. تلك الفئة تشعر بوجود قيود داخلية تحدّها وبمواقف خارجية توجّهها.

• بالإضافة إلى ذلك، تظهر استجابة هذه الفئة لبيئتها كمشهد يُجبرها على تولي دور «المحارب» لمحاربة تلوث المجتمع، لكنّ المسألة لا تقف عند ذلك الحدّ بل تأخذ أشكالاً أخرى، يمارس فيها البرباش حروبه بصمت، فهو يثابر من أجل أن لا يموت جوعاً، ويحاول أن يقاوم الأثر النفسي السلبي للوصم والدونية التي ترافقه أينما كان.

• بالإضافة إلى ذلك، يتبيّن لنا أن هنالك نمطاً مستقرّاً داخل هذا النشاط يستند إلى قواعد سلوكية ثابتة. ولعلّ ما يميّزه التماثل القائم بين الأفراد الذين يتعرضون لنفس الظروف والمواقف. ولئن كان بالإمكان أن يحقّق لديهم وعياً جماعياً مشتركاً تجاه المعاملة الدونية التي تُمارس عليهم، غير أنّ هذا الوعي لم يُكوّن لديهم وحدة اجتماعية، وهذا الوحدة الفئوية لم تترجم بعد إلى تحرك اجتماعي يمكن أن يجمعهم.

## الببليوغرافيا المختارة:

### المراجع باللغة العربية:

- البنية المهنية الأمريكية. ترجمة عبد الله العروي. دار الطليعة، بيروت، 1975.
- السلوك الاجتماعي. محمد زكي أبو زيد. دار النهضة العربية، القاهرة، 2023.
- أساسيات التحليل الإحصائي. أحمد فوزي عبد الباقي. دار النهضة العربية، القاهرة، 2023.
- إعادة التوجيه المهني في مرحلة الأربعينيات: دراسة ميدانية. محمد الزغلول وآخرون. المجلة العربية للعلوم التربوية والنفسية 10.2 (2023): 123-135.
- تأثير الانتقاء العشوائي في داخل العينة على تمثيلية العينة. محمد عبد الرحيم. مجلة العلوم التربوية والنفسية 10.2 (2023): 123-135.
- إبراهيم، عبد الله. «التحليل الموضوعي: منهج بحث أم منهجية بحث». مجلة علم الاجتماع، 2003، العدد 17، ص ص. 101-124

### المراجع باللغة الانجليزية:

- The Laboratory Rat. Edited by Mark A. Suckow, Steven H. Weisbroth, and Craig L. Franklin. 2nd ed. Academic Press, 2006.
- Handbook of Biologically Active Peptides. Edited by Abba J. Kastin. 3rd ed. Elsevier, 2013.
- Semantics: An Introduction to the Study of Meaning. John Lyons. Cambridge University Press, 1977.
- The Blackwell Companion to Linguistics. Edited by Keith Brown and Joanna Bybee. Blackwell Publishing, 2010.
- The American Occupational Structure. Peter M. Blau and Otis Dudley Duncan. 2nd ed. Free Press, 1967.
- The Discovery of Grounded Theory: Strategies for Qualitative Research. Barney G. Glaser and Anselm L. Strauss. 2nd ed. Aldine de Gruyter, 1999.
- The Practice of Social Research. Earl Babbie. 14th ed. Cengage Learning, 2022.
- Statistical Methods for the Social and Behavioral Sciences. George D. Garson. 11th ed. Pearson, 2023.
- Four Concepts of Social Structure. Jeffrey C. Alexander. Journal for the Theory of Social Behaviour 19.2 (1989): 195-211.
- A Theory of Structure: Duality, Agency, and Transformation. William H. Sewell. American Journal of So-

ciology 98.1 (1992): 1-29.

Social Behavior as Exchange. George C. Homans. American Journal of Sociology 63.6 (1958): 597-606.

The Impact of Demographic Factors on Wages: A Meta-Analysis. Steven E. Gaddis and Daniel J. Slottje. Journal of Economic Literature 52.2 (2014): 451-489.

Gender Segregation and Occupational Injury. Richard Breen and David Rottman. Social Forces 88.2 (2010): 595-620.



# البرابشة والتبريش: مسودة من أجل قراءة بسيكولوجية نقدية

آية حريز  
أخصائية نفسية

## 1/ مقدمة

تنطلق هذا الدراسة من إشكالية أساسية متمثلة في فهم أو إعادة فهم لسيرورة البرباش، أو كيف يصبح البرباش برباشا؟ وكيف تتحوّل سلّة المهملات أو مكبّ النفايات إلى مكان عمل أو وظيفة؟

سنسعى من خلال هذا المقال، واستثناسًا ببراديجمات علم النفس، إلى الإجابة عن هذه الإشكالية. بمعنى آخر سنحاول تفكيك وفهم هذه الظاهرة انطلاقًا من وجهة نظر علم النفس، عبر النباش في مختلف الأبعاد المتعلقة بها ومعرفة مدى تأثيرها على أفراد ينتمون إلى ذات الجسم المهني.

نقرات صغيرة على محرك البحث غوغل تحملنا إلى دراسات أكاديمية مختلفة باختلاف أدوات قياسها لمسألة الرفاه بالنسبة إلى المشتغلين في فرز النفايات في الهند، البرازيل، ومصر.

تعرّف منظمة الصحة العالمية الرفاه على كونه، «حالة يُدرك فيها الفرد قدراته الشخصية، ويستطيع التعامل مع الضغوط العادية في الحياة، ويمكنه العمل بفعالية، وهو قادر على تقديم إسهام لمجتمعه»<sup>1</sup>. فإنّ كُنّا اليوم، نتحدث في علم النفس الحديث عن مصطلحات مثل الرفاه (bien être)، فأين يُمكن أن نُصنّف هؤلاء البرباشة؟ هل يستقيم الحديث عن رفاه في موضع

1 Sayers, Janet. "The World Health Report 2001 - Mental Health: New Understanding, New Hope." Bulletin of the World Health Organization 79, no. 11 (January 1, 2001): 1085. <https://doi.org/10.1590/s0042-96862001001100014>.

هشاشة نفسية واجتماعية؟ وإن كانت الإجابة عن هذا السؤال بلا، فلماذا؟ هل يعني علم النفس الايجابي بقضايا تخصّ الهشاشة الاقتصادية والاجتماعية؟ وكيف يحاول فهمها؟

من أبرز الانتقادات التي قد يتلقاها علم النفس الإيجابي اليوم هي أنّ هذا المجال يُركّز بشكل حصري على الإيجابية ويتجاهل الواقع السلبي لحياة الإنسان والمجتمع<sup>2</sup>، لكن أحد أهم تحليلات المواضيع والمفاهيم التي تمّت دراستها هي أنّ البحث في علم النفس الإيجابي لا يتضمن فقط التحقيق في المواضيع الإيجابية بل أيضًا تفاعلها وتأثيرها على الاضطرابات النفسية والقضايا الاجتماعية<sup>3</sup>. فالرفاه يتجاوز مجرد ضمان صحة عقلية جيّدة؛ بل يشمل أيضًا إدراك الشخص أنّ الحياة، في مجملها، تسير بشكل جيد. فالرفاه، حسب علم النفس الإيجابي، هو مزيج من الشعور بالارتياح، الرضا والأداء الجيد.

في هذا السياق، نعتمد في هذا المحور على البحث الميداني الكمي والكيفي، بما في ذلك المقابلات والملاحظات، مع العاملين في مصب برج شاكير والعاملين في الفضاء العام، استنادًا إلى عيّنة تمثيلية تمّ رصدها في منطقة تونس، تتضمن لافاييت وتونس والمنار. نستند في تحليلنا على مفاهيم من علم النفس المرضي، علم النفس الإيجابي، وعلم نفس الشغل، وذلك بغرض تقديم جوانب مختلفة من حياة البرباشة من وجهة نظر علم النفس من خلال التدقيق في مختلف جوانب حياتهم انطلاقًا من صحتهم الجسدية والنفسية من ناحية ومساراتهم المهنية وتصوراتهم لوظائفهم من ناحية أخرى.

## 2/ الجانب الصحي:

### 1.2. الصحة الجسدية والنفسية:

استنادًا إلى المقابلات البيوغرافية المنجزة مع العاملين في مصب برج شاكير، حيث تم إجراء

2 Hackman, J. Richard. "The Perils of Positivity." Journal of Organizational Behavior 30, no. 2 (February 1, 2009): 309–19. <https://doi.org/10.1002/job.587>.

3 Kim, Heejin, Kathryn Doiron, Meg A. Warren, and Stewart I. Donaldson. "The International Landscape of Positive Psychology Research: A Systematic Review." International Journal of Wellbeing 8, no. 1 (July 12, 2018): 50–70. <https://doi.org/10.5502/ijw.v8i1.651>.

15 مقابلة، ومع العاملين في الفضاء العام بإجمالي 14 مقابلة، تبين أنّ 11 من العاملين داخل المصب، أي ما يُعادل 75 %، وكافة العاملين في الفضاء العام، أي 100 %، يرون أنّ عملهم يؤثر سلبيًا على صحتهم الجسدية.

إذ أنّ المصبّ بالنسبة إليهم فضاء عمل هش وموبوء يُهدّد حياة العاملين فيه جرّاء الروائح الكريهة والغازات المنبعثة من النفايات، بالإضافة إلى تعدّد وتنوّع الأمراض المتعلقة بطبيعة عملهم و/أو التي تُسبّبها النفايات خاصة نفايات المستشفيات كالحقن الطبية. وبالرجوع إلى ما توصل إليه فريق الباحثين أثناء إجراء المقابلات، فإنّ أكثر الأمراض شيوعًا حسب المبحوثين تتعلق بأمراض القلب، الحساسية، وضيق التنفس، بالإضافة إلى اضطرابات الجهاز العضلي الهيكلي (TMS/troubles musculosquelettiques).

فلو أخذنا على سبيل المثال اضطرابات الجهاز العضلي الهيكلي، المرتبطة بأعراض مرضيّة من بينها الآلام المبرحة<sup>4</sup> على مستوى المفاصل والعضلات والأوتار، والتي قد يُصاب بها الفرد نتيجةً لعدّة عوامل، سنجد أنّ العامل المشترك بالنسبة إلى جميع الحالات المدروسة على علاقة وثيقة بالإجهاد الناجم عن النشاط المهني والذي يلعب دورًا مهمًا في حدوثها، استمرارها، أو تفاقمها، خصوصًا وأنّ تجميع النفايات يتطلّب من المرء القيام بحركات متكررة<sup>5</sup>، بالإضافة إلى رفع أجسام ثقيلة والتنقّل بها لمسافات طويلة.

كما تجدر الإشارة في هذا المستوى إلى أنّ عديد الدراسات الأخرى قد أوجدت ترابطًا وثيقًا بين إصابة الأفراد بمثل هذه الأمراض وبلوغ حالة الاكتئاب. كما أنّها قد أُكّدت على كون الأعمال المملة والمتكررة قد تُسبّب الضغط النفسي<sup>6</sup>. فعلى سبيل التعداد لا الحصر أثبتت دراسة أُنجزت

4 Devereux, Jason, Peter Buckle, and Ioannis G. Vlachonikolis. "Interactions between Physical and Psychosocial Risk Factors at Work Increase the Risk of Back Disorders: An Epidemiological Approach." *Occupational and Environmental Medicine* 56, no. 5 (May 1, 1999): 343–53. <https://doi.org/10.1136/oem.56.5.343>.

5 Da Silva, M C, AnaclaudiaGastalFassa, Carlos Eduardo Siqueira, and David Kriebel. "World at Work: Brazilian Ragpickers." *Occupational and Environmental Medicine* 62, no. 10 (October 1, 2005): 736–40. <https://doi.org/10.1136/oem.2005.020164>.

6 Waxman, Robin, Alan Tennant, and Philip S. Helliwell. "Community Survey of Factors Associated with Consultation for Low Back Pain." *BMJ* 317, no. 7172 (December 5, 1998): 1564–67. <https://doi.org/10.1136/bmj.317.7172.1564>.

في البرازيل شيوع اضطرابات نفسية على غرار الاكتئاب الخفيف والقلق الخفيف في صفوف جامعي النفايات<sup>7</sup>، وقد خلصت أيضاً إلى أنّ الاضطرابات النفسية البسيطة هي الأكثر تفسياً في أوساط المشتغلين في هذا القطاع<sup>8</sup>.

بالعودة إلى البحث الكمي وما توصلت إليه الاستبيانات حول المسألة الصحية، يذكر 93.1% من البرباشة، داخل المصب وخارجه، أنّهم لا يعانون من أيّ أعراض أو أمراض نفسية. في حين توصل الباحثون بعد إجراء المقابلات البيوغرافية مع عينة تمثيلية من البرباشة (15 برباشاً داخل المصب و14 برباشاً خارجه) إلى نتائج عكسيّة، وذلك من خلال الحصول على إفادات تُوضّح وجود أعراض نفسية مختلفة توحى بمؤشرات معاناة نفسية ذات دلالة؛ نذكر منها اضطرابات النوم، إيذاء النفس (automutilation)، والأفكار الانتحارية.

تلخص كوثر-العاملة في الفضاء العام- الحالة النفسية للعاملين في هذا المجال بأنّها «متعبة». بالنسبة إليها، العمل في هذا المجال يُشكل تحدياً كبيراً للصحة النفسية، إذ تعتبر أنّ «التعب أخطر من المرض».

تبين دراسة مقارنة أخرى أنّ طبيعة عمل البرباشة وهشاشة صحتهم النفسية مرتبطان بشكل ذي دلالة؛ إذ تفسر هذه الدراسة أنّ العمال غير الرسميين، وبشكل خاص جامعي النفايات، يحتلون مكانة منخفضة مقارنة بالعمال الرسميين، ويفتقرون إلى الأمان في العمل ولديهم تحكّم أقل في ظروف عملهم<sup>9</sup>.

في حين أشارت دراسة أخرى إلى أنّ إجهاد العمل قد يكون ناتجاً عن المخاطر الجوهرية في موقع عملهم، ومخاطر حوادث العمل، وعدم انتظام ساعات العمل بما في ذلك العمل ليلاً، كما

7 Mote, Balu. "Occupational and Environmental Health Hazards (Physical & Mental) Among Rag-Pickers in Mumbai Slums: A Cross-Sectional Study." *Science Journal of Public Health* 4, no. 1 (January 1, 2016): 1. <https://doi.org/10.11648/j.sjph.20160401.11>.

8 M C Da Silva et al., "World at Work: Brazilian Ragpickers," *Occupational and Environmental Medicine* 62, no. 10 (October 1, 2005): 736-40, <https://doi.org/10.1136/oem.2005.020164>.

9 Ludermit, Teresa B., and Glyn Lewis. "Informal Work and Common Mental Disorders." *Social Psychiatry and Psychiatric Epidemiology* 38, no. 9 (September 1, 2003): 485-89. <https://doi.org/10.1007/s00127-003-0658-8>.

أكدت على تأثير العزلة الاجتماعية والتمييز السلبي الواقع عليهم من المجتمع وعدم الأمان المالي على صحتهم النفسية. وفي هذا الصدد، يجب التأكيد على أنّ 90 % من المبحوثين غير منخرطين في صندوق الضمان الاجتماعي و40 % لا يتمتعون بحقهم في الصحة العمومية ولا يتمتعون ببطاقات علاج (كرني). كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ غياب التغطية الصحية يُجبرهم على تلقي العلاج في القطاع الخاص وهو ما يثقل كاهلهم، خصوصاً مع تعدّد الأمراض التي تلحق بهم جرّاء عملهم.

يذكر سامي وهو برباش في مصب برج شكير أنّه يُفضّل أن يتعالج في المنزل في حالة إصابته بجروح حتى يتسنى له توفير علاج خاص لأبنائه «أنا لا أتعالج لا في المستشفى العام ولا في الخاص، أعالج في المنزل في حال إصابتي بجروح في العمل، ولكن عندما يمرض ابني أعالجه عند طبيب خاص لأنني لا أملك دفتر علاج».

على هذا الأساس، يعتبر البرباشة فئة ذات هشاشة جسدية ونفسية، وذلك للأخطار التي تقترن بها مهنتهم والتي تُهدّد سلامتهم الجسدية والنفسية، وتؤثر على أدائهم ورفاهيتهم. وأمام شظف الحياة وقسوة الظروف عليهم، نجد أنهم يلجؤون في بعض الأحيان إلى العلاج الذاتي. سنتحدث في العنصر الموالي عن مفهوم العلاج الذاتي، وسنركز على سؤال أساسي وهو: كيف تصبح المواد المخدرة وسيلة للعلاج الذاتي النفسي؟

## 2.1.2 العلاج الذاتي:

«على ضوء مصباح الشّارع المحمّر  
الذي تتلاعب بفتيله الريح وتصفع فيه الزجاج،  
وفي قلب ضاحية قديمة تشبه المتاهة الموحلة  
فيها يزدحم الناس بصخب وضجيج صاخبين  
يُقبل لقاط الخرق وهو يهزّ رأسه،  
ويصطدم بالجدران ويضربها كأنّه شاعر،  
شارل بودلير، ديوان «زهور الشر»

هكذا يقول بودلير في قصيدته «نبيد لقاطي الخرق». تصف القصيدة في مجملها تأثير

النبذ على جامع النفايات، وهو -في قصيدة بودلار- شخصية مستوحاة من الطبقة العاملة في القرن التاسع عشر مكلفة بجمع النفايات المتراكمة في شوارع باريس. يعتبر بودلير النبذ «جنة اصطناعية» تحرر الرغبة، تخفف من الألم وتمنح وصولاً إلى الخيال لهذه الفئة الهشة المتروكة على حافة أحلامها. جامع الأشياء المهملة، في شعر بودلير يعيش حياة مهمشة، ينسى مصيره من خلال السكر، يتخيّل نفسه كجندي ويعيش من خلال الخيال حياة بطولية كدون كيشوت.

لماذا ارتبطت صورة جامع النفايات بالمواد المخدرة؟ وهل يستقيم هذا الرابط إلى اليوم؟

بالاستناد إلى الملاحظة بالمشاركة الواردة من البحث الكيفي للعاملين داخل مصب برج شاكير، نلاحظ أنّ البرباشة يعانون من مشكلة جدية فيما يتعلق بتعاطي المخدرات بشكل يومي، بما في ذلك مواد مثل «الترامادول» أو القنب الهندي/«الزطلة». ويعود السبب وراء تعاطيهم للمخدرات بشكل أساسي إلى الظروف القاسية لعملهم؛ إذ يلجؤون إلى هذه المواد بقصد مقاومة الروائح المنبعثة من النفايات والآلام الجسدية الناتجة عن ظروف العمل بما في ذلك ساعات الشغل الطويلة، كما سبق إيضاح ذلك.

تعتبر المخدرات هنا، إذًا، سبيلًا للتداوي أو العلاج الذاتي (automédication)، وهو «السلوك الذي يقوم به الشخص للتداوي من مبادرته الخاصة؛ من خلال تناول دواء دون الرجوع إلى طبيب بالنسبة إلى حالة المعنية، سواء كان الدواء بحوزته بالفعل أو قام بشرائه لهذا الغرض من الصيدلية أو من شخص آخر»<sup>10</sup>. ورغم أنّ العلاج الذاتي لا يشمل بالضرورة تناول أدوية لها مفعول مخدر، إلّا أنّ هذا سلوك دارج بين مستعملي المخدرات أو المدمنين عليها، حيث تصبح سلوكيات الإدمان كـ«ضمادة للنفس». على سبيل المثال، يتم استخدام القنب الهندي، منذ وقت طويل، لعلاج بعض الأمراض الجسدية أو الأمراض النفسية، سواء كان ذلك في سياق طبي قانوني أو غير قانوني<sup>11</sup>. تقوم فرضية العلاج

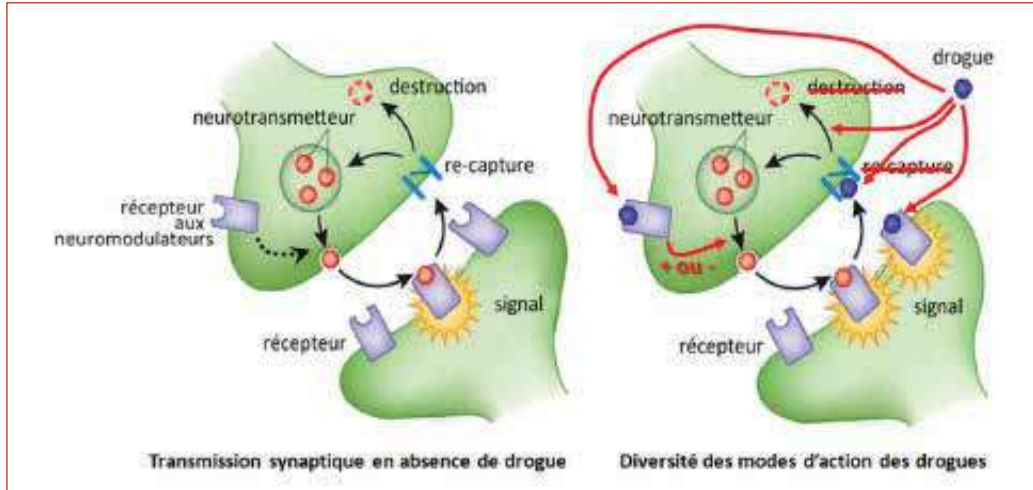
10 Bacqué, Marie-Frédérique. "L'automédication Ou Les Mirages de l'autonomie." *Psycho-Oncologie* 6, no. 3 (September 1, 2012): 183-84. <https://doi.org/10.1007/s11839-012-0386-y>.

11 Khantzian, Edward J. "The Self-Medication Hypothesis of Addictive Disorders: Focus on Heroin and Cocaine Dependence." *American Journal of Psychiatry* 142, no. 11 (November 1, 1985): 1259-64. <https://doi.org/10.1176/ajp.142.11.1259>.

الذاتي، إذًا، على فكرة مفادها أنّ استعمال المواد المخدرة هو وسيلة لتخفيف أعراض جسدية أو آلية تخفيف اضطرابات الصحة النفسية، أو على الأقل التخفيف من أعراضها.

ما هي المواد المخدرة وما هي آليات عملها؟: الترامادول نموذجا

بشكل عام، تتمتع المخدرات بتراكيب جزيئية تشبه تلك الموجودة طبيعياً في الدماغ والتي تعمل كناقلات عصبية أو عوامل تنظيمية عصبية. يمكن للمخدرات أن تتنافس على مكان هذه الجزيئات، ولكن دون أن تتعرض بسهولة للتحلل أو الإزالة. ونتيجة لذلك، يتم تشويش انتقال الإشارات العصبية في المشابك العصبية (synapses)، مما يؤدي إلى تغيير شامل في وظائف الدماغ.



بالنسبة إلى الترامادول، هو مركب أفيوني مُصنَّع من نوع مسكنات الآلام الحادة أو المزمنة<sup>12</sup>، ويتميّز بطريقة عمله المعقدة نتيجة لتأثيره ثنائي الطبيعة، حيث يعمل كمركب أفيوني وكمُنظم لإطلاق أحاديّات الأمينات. وتجدر الإشارة إلى أنّه يمكن تناوله عن طريق الفم أو عبر الوريد، سواء بمفرده أو بجمعه مع مواد مخدرة أخرى. ويعمل الترامادول بالآيتين أساسيتين:

12 Harkouk, Hakim, Laure Ichou, AïchaKassoul, and Dominique Fletcher. "Le Tramadol : Un Ami Ou Un Ennemi ?" Le Praticien En Anesthésie Réanimation, June 1, 2018. <https://doi.org/10.1016/j.pratan.2018.04.001>.

- مثبط لإعادة استرداد النورأدرينالين (وبالتالي تعزز تنشيط مسارات التحكم المسكنة للألم).
- محفز لمستقبل المورفين  $\mu$  ومثبط لاستعادة السيروتونين (5HT).

يرتكز الترامادول، إذًا، على تثبيط استعادة النورأدرينالين والسيروتونين. وبالتالي، تكون آلية عمله مشابهة للمضادات الاكتئابية ثلاثية الحلقات؛ إذ أنه يتمتع بخصائص مضادات الاكتئاب، إضافة إلى خصائص دوائية أخرى، مثل التأثير المضاد للالتهاب<sup>13</sup>.

تأكيدا على ما سبق ذكره، فإنّ البرباشة يلجؤون إلى الترامادول كمسكن للألم في المقام الأول، ونظرا إلى تركيبته الأفيونية فإنّ الإدمان عليه يصبح أمرا حتميا الحدوث بالنسبة إلى برباشة الذين تجاوزوا سن الثلاثين وقضوا وقتا طويلا في هذا المجال (خمس سنوات أو أكثر)، إذ أنّهم يُمثّلون الفئة الأكثر عرضة لتعاطي المخدرات. نظرا إلى كون نمط حياتهم غير صحي ويعانون من مشاكل صحية متعددة.

جدير بالذكر أنّه رغم نتائج الملاحظة التشاركية والتي تنقل أنّ أغلب العاملين بالمصّب يتعاطون المخدرات بنسبة قد تصل إلى 60%، إلا أنّ البيانات الكميّة تُظهر أنّ نسبة 82% يرفضون بشكل قطعي استهلاك القنب الهندي (الزطلة)، و84% يمتنعون عن استهلاك الكحول، و77% يمتنعون عن التدخين. يمكن أن يحيلنا هذا التضاد بين ما تنقله البيانات الكمية من ناحية والكيفية من ناحية أخرى، إلى أنّ العاملين في هذا المجال يميلون إلى الانسياق وراء «التحيّز إلى الرغبة الجماعية»<sup>14</sup>؛ وهو مفهوم نفسي يشير إلى توجه الفرد لتقديم صورة لذاته تكون اجتماعيا مقبولة وإيجابية في نظر الآخرين، بدلا من عرض أفكاره واتجاهاته وسلوكه الحقيقي، وذلك نظرا إلى التمثّل الاجتماعي السلبي الذي يحمله استهلاك المواد المخدرة ثقافيا. كما يمكن أن يحيلنا من وجهة نظر أخرى إلى وعيهم بخطورة هذه المواد المخدرة رغم مزاياها المساعدة على مزاوله عملهم بأكثر فاعلية كما سبق وأشارنا إلى ذلك. نذكر أيضا، أنّ البحث الكمي والكيفي من خلال الملاحظة بالمشاركة والمقابلات البيوغرافية، أثبت أنّ البرباشة الإناث

13 Lagard, Camille. "Douleur et Tramadol : Mécanismes de Toxicité et Optimisation Thérapeutique - Etude Expérimentale Chez Le Rat.," 2018. <https://www.theses.fr/2018USPCC095>.

14 Cambon, Laurent. "Désirabilité Sociale et Utilité Sociale, Deux Dimensions de La Valeur Communiquée Par Les Adjectifs de Personnalité." HAL (Le Centre Pour La Communication Scientifique Directe), January 1, 2006. <https://hal.univ-cotedazur.fr/hal-01881757>.

لا يستهلكن المخدرات، يعود ذلك بالأساس إلى عوامل ثقافية وتمثلات اجتماعية ترفض/تُجرّم ممارسة النساء لسلوكات مرتبطة بتعاطي المخدرات<sup>15</sup>.

استنادًا إلى ما تمّ التوصل إليه، فإنّ ظروف عمل البرباشة تؤثر على الصحة الجسدية والنفسية للعاملين، فهي علاوة على كونها قد تُسبب لهم أمراضًا وحوادث شغل، فإنّها تجعل من الإرهاق والنّصب رغيفهم اليوميّ، ولعلّ هذا ما يجعل بعضهم يلتجئ إلى تعاطي المخدرات كطريقة للتشافي والتخفيف من الألم الذي يُعشش في أجسادهم.

### 3/ الجانب المهني والاجتماعي:

#### 1.3 الهوية المهنية:

الهوية المهنية هي بالأساس هوية اجتماعية مرتبطة بمهنة. إنّها نتاج تجسيد لمعرفة مهنية ما، حيث يعكس الفرد من خلالها درايته وخبرته في مجال معين<sup>16</sup>. العمل، بحسب رأي رينو سينسوليو، ليس مجرد مكان للتفاعلات التقنية والعلاقات السلطوية أو الممارك التطبيقية، بل هو أيضًا مكان للاجتماع حيث يمكن للأفراد أن ينتجوا أشكالًا متنوعة من العلاقات مع الآخرين ويمكنهم، في الوقت نفسه، «شحن تجربتهم الذاتية»<sup>17</sup>. إذا كان التماهي مع المهنة ضروريًا لعملية التماهي الفردية، فإن الفرد يتماهى مع مهنته ودوره ويتوق إلى أن يصبح جزءًا من مجتمع مهني مشترك وأن يصبح ممثلًا لمصلحة مشتركة.

كيف تتشكل هذه الهوية المهنية في ظل اقتصاد غير نظامي؟ ولماذا يكون التطرق إلى مفهوم الهوية المهنية أمرًا أساسيًا في ظل هذا النوع من الاقتصاد؟ كيف تؤثر هذه الهوية وتتأثر بالتنظيم الاجتماعي للبرباشة؟ هل تحمل هذه المهنة قيما خارج أيّ أطر قانونية؟ هل تتشكل الهوية وفق قيم معينة تشكل هذه المهنة؟ ما هي هذه القيم وكيف ينتظم البرباشة خارج الأطر القانونية

15 لأكثر تعمق، راجع المحور المتعلق بالنوع الاجتماعي

16 Gentili, Félix. La Rééducation Contre l'école, Tout Contre, 2005. <https://doi.org/10.3917/eres.genti.2005.01>.

17 Gentili, Félix. La Rééducation Contre l'école, Tout Contre, 2005. <https://doi.org/10.3917/eres.genti.2005.01>.

التي تنظم المهنة؟ هل يتماهى البرباش فردياً مع مهنته؟ وهل يصحّ اعتباره ممثلاً ومساهمًا في المصلحة المشتركة؟

### 2.3 الهوية المهنية في ظل «اقتصاد غير نظامي»

لا يندرج الاقتصاد غير النظامي داخل نطاق أيّ تنظيم حكومي، ممّا يترجم على أرض الواقع من خلال إقصاء العاملين فيه من حقهم في الضمان الاجتماعي والحقوق الأساسية في العمل التي أنشأتها منظمة العمل الدولية أو غيرها من التنظيمات المحلية كاتحاد الشغل. يتفق 31 % من البرباشة على الإشكال الأساسي والأهم في هذه المهنة والمتمثل في غياب الضمان الاجتماعي والتأمين الصحي، كما شجب 25 % منهم غياب إطار قانوني لهذا القطاع.

معظم الدراسات التي أُجريت حول الاقتصاد غير النظامي، تستنتج بشكل كبير أنّها تمثل:

- اقتصاد البقاء<sup>18</sup> (économie de survie): حيث يكون هناك قلة أو انعدام لتراكم الثروة؛
- اقتصاد الاستدرار (économie de la débrouille)<sup>19</sup>: حيث ينظم الملايين من الأشخاص أنفسهم خارج نطاق أي مساعدة أو تنظيم حكومي؛
- اقتصاد يفضل استخدام استراتيجيات التوظيف داخل الأسر أو الجماعات العرقية؛
- اقتصاد حيث تكون وسائل التمويل ضعيفة.

يعتمد هذا الاقتصاد، إذاً، على أشكال من التنظيم الاجتماعي وليس على التنظيم الحكومي، كما يسيطر -هذا التنظيم الاجتماعي- على الوصول إلى سوق الشغل. ويمكننا أن نستنتج في هذا المستوى أنّ التنظيم الاجتماعي يلعب دورًا حاسمًا في مجالات تخصّ العمل المعني مثل اكتساب المعرفة والمهارات، جمع المعلومات ومهارات العمل (savoir-faire)، تأمين رأس المال الأولي والائتمان، تحديد الاتفاقيات التي تعتبر «صحيحة»، وتسوية النزاعات المتعلقة بالمعاملات،

18 De Bercegol, Rémi, and Shankare Gowda. « Nettoyer l'Inde », La Marginalisation Des Récupérateurs de Déchets à Delhi." Cahiers D'Outre-Mer 73, no. 281 (January 1, 2020): 41-68. <https://doi.org/10.4000/com.10887>.

19 Martínez, Lina, and John Rennie Short. "The Informal Economy of Cities in the South: The Case of Cali, Colombia." International Journal of Sustainable Development and Planning 12, no. 04 (May 1, 2017): 637-43. <https://doi.org/10.2495/sdp-v12-n4-637-643>.

إضافة إلى التماهي الجماعي وتنظيم فضاء ومناطق العمل وخصوصاً تأمين الأمان الجسدي<sup>20</sup>.

كما سبق وتمّ ذكره، فإنّ الهوية ليست بنية قانونية فقط. إنها قبل كل شيء بنية سياسية واجتماعية. إذ أنّها تتعلق بفئات سياسية واجتماعية ليست مرتبطة بالنشاط المهني ولا يمكن تقليدها إلى منطوق أو حصرها في مفاهيم اقتصادية، خصوصاً فيما يتعلق بالاقتصاد غير رسمي<sup>21</sup>.

من هذا المنطلق، يتّخذ مفهوم الهوية المهنية مكانة هامة بالنسبة إلى المهن التي تنتمي إلى الاقتصاد غير النظامي من منطلق أنّ الهوية المهنية، بشكل عام، تمثل عنصراً أساسياً في التنظيم الاجتماعي للاقتصاد، وبالأخص في إطار تنظيم الاجتماعي لاقتصاد غير نظامي؛ لأنّ التنظيم الاجتماعي هو الطابع الهيكلية الذي يتخذه التنظيم في ظل اقتصاد غير رسمي. تتشكل هذه الهوية المهنية، إذًا، وتتخذ طابعاً يختلف عن المهن التي تنظمها قوانين في ظل اقتصاد رسمي. وبالتالي تؤثر على واقع العمل وتتأثر به بطريقة أكثر فعالية وأكثر تعقيداً. كما تؤثر بشكل وثيق على القيم التي تقوم عليها هذه المهنة.

تتنظم هذه المهنة، داخل مصب برج شكير، بواسطة «العرف» وتقوم بالأساس على مفهوم الثقة. تُورث هذه التنظيمات من الأب إلى الابن أو بين أبناء نفس العرش لأن مناطق جمع النفايات -مصب برج شاكير مثلاً- موروثه بين أفراد نفس «العرش». إذ بالرغم من أنّ المصّب فضاء عمل مفتوح للعموم، إلّا أنّ عرش الفراشيش يعتبر أكثر العروش تمثيلاً بـ7 من أصل 15<sup>22</sup>. يولي العاملون داخل المصّب أهمية كبيرة لعدم اقتحام مساحات الفرز الخاصة بالآخرين. وهو ما يتسبب في أحيان كثيرة في خلافات بين العاملين داخل المصّب، خصوصاً وأنّها تستفز فيهم قيمة الرجولة (virilité)<sup>23</sup> فالتعدّي على مساحة الفرز الخاصة بأحدهم، هي في نهاية الأمر، تعدّد على رجولته. ينقل 80.6% من البرباشة أن نزاعات تنشب بين الناشطين في المصّب، وفقاً للأسباب

20 HarrissWhite, Barbara. "India Working: Essays on Society and Economy." Choice Reviews Online 41, no. 01 (September 1, 2003): 41-0426. <https://doi.org/10.5860/choice41-0426>.

21 HarrissWhite, Barbara. "Observations Sur l'inégalité Professionnelle Dans l'économie Informelle." Revue Internationale Du Travail 142, no. 4 (December 1, 2003): 497-508. <https://doi.org/10.1111/j.1564-913x.2003.tb00462.x>.

22 أنظر (ي) المحور الخاص بالجينالوجيا القبليّة للبرباشة.

23 لتحليل أكثر دقة، راجع (ي) المحور المتعلق بالرجولة.

التالية: 37.1 % نزاعات حول مكان الفرز، 30.2 % حول نوعية النفايات المجمعة، و28.4 % منها حول تقسيم المجالات داخل المصب.

لا تختلف الأمور كثيرا بالنسبة إلى العاملين خارج المصب، حيث تحدد في الآونة الأخيرة صراعات أكثر من ذي قبل على مناطق الفرز؛ بما أنّ العاملين في هذا المجال قد كُثِرَ عددهم مؤخرًا. وهذا ما أكدّه أحد المستجوبين بقوله «نعم يوجد اتفاق، وتوجد قوانين هنا تنظّمنا؛ مثلًا إذا وجدت شخصًا يجمع في حاوية تستطيع أن تحدّثه، ولكن لا تجمع معه من نفس المكان، وأغلبية من يفتعلون المشاكل أو لا يطبقون القانون الذي رسمناه بيننا لا يعرفون هذا القانون أو لا يرغبون في تطبيقه».

تطرقنا في هذا العنصر إلى أهمية مفهوم الهوية المهنية في ظل اقتصاد غير رسمي وإلى أشكال التنظيم الاجتماعي التي تنظم عمل البرياشة سواء داخل المصب أو خارجه، مؤثرة بذلك على تشكيل أبعاد هذه الهوية المهنية خارج أي أنظمة قانونية. وسنتطرق في العنصر الموالي إلى التماهي الفردي للبرياشة مع هذه المهنة التي تحمل في ذاتها تمثلات اجتماعية.

### 3.3 العمل في الخفاء والوصم الاجتماعي:

نجد أنّ العاملين في مصب النفايات يتمثلون مفهوم العمل بطريقة إيجابية؛ إذ يعتبرونه مصدرا للدخل المادي وفرصة لتحقيق الذات، ويذهب البعض إلى أنّه رمز للشرف والأنفة. إنهم يدركون أيضًا أهمية ومكانة عملهم في الجوانب الاجتماعية والبيئية. إذ يشير عم جلال، الذي يعمل في مصب النفايات ببرج شاكير، إلى أنّ عمله يساهم في خدمة المجتمع من خلال جمع وإعادة تدوير المواد مثل البلاستيك والكرتون. رغم ذلك، يواجهون صعوبة في التماهي الفردي مع مهنتهم، حيث يعتبرونها غالبًا مهنة «محتقرة». إذ بالإضافة إلى الصعوبة الجسدية الناجمة عن هذه المهنة، فإنهم يعتبرونها سببًا في إقصائهم. ولعلّ هذا ما يُنتج حالة من التنافر بين تمثّل للعمل على أنه من ناحية مصدر لتحقيق الذات ويساهم في مصلحة مشتركة، ومن ناحية أخرى يعتبرونه مسببًا للإقصاء الاجتماعي. هذه الازدواجية في التمثلات من شأنها أن تُفاقم من صعوبة التماهي الفردي.

تفيد أغلب دراسات المقارنة (الهند، البرازيل، مصر مثالا)<sup>24</sup> إلى أنّ الهوية المهنية لهذه الفئة العاملة في مجال النفايات تُبنى على الوصم والاحتقار، وتتركب بطريقة يصبح فيها الإقصاء المبني على خصائص العمل مشابه لسمات «طبيعية». وهو ما يتعارض مع القوانين واللوائح الوطنية المضادة للتمييز (والتي تطبق عموما على فئة صغيرة من العمال) أو مفهوم العدالة في المجتمع بشكل عام.

العمل في الظل، قد تبدو للوهلة ترجمة حرفية ثقيلة للاستعارة الفرنسية (travailler dans l'ombre)، لكن هذا المجاز يبدو معبرا على الوضعية التي يعيشها البرباشة. تعزل مؤسسات الدولة الجنون في أماكن بعيدة ومغلقة، ويتم دفع البرباش بعيدا عن أعين الناس إلى أطراف المدينة حيث تفرز النفايات.

بالإضافة إلى هذه الـ«اللامرئية»<sup>25</sup> في المجال الجغرافي والاجتماعي، نجد أنّ البرباش، في حدّ ذاته، يختار هوية مهنية خفية تساهم في إعادة إنتاج هذا الوصم المتعلق بمهنة البرباش. إذ حسب البحث الكمي داخل المصب، 48 % من البرباشة يفضلون تعريف أنفسهم كعامل يومي، 30 % كعاطل عن العمل، 16 % كعامل حر و6 % أعمال أخرى.

يشارك البرباشة في عملية التخفي المكاني والاجتماعي مضيفين تخفياً مهنيًا، يختارونه بطريقة إرادية مشاركين بذلك في عملية الوصم من خلال اختيار هذه الهوية المهنية الخفية ورفض إخبار محيطهم الاجتماعي بطبيعة مهنتهم. فمنهم من يختار أن يُقدّم نفسه على كونه «عاملاً يوميًا»، ومنهم من يُشيع بين الناس بأنّه في حالة «بطالة».

80 % من البرباشة لم يختاروا العمل في المصب طواعية. يقول أحمد وهو عامل في المصب أنّ «الظروف هي التي دفعتني لأعمل هنا، أنا لم أخترها، لو كانت ظروفنا أحسن لما كنت أعمل هنا في هذا المكان». 92 % من البرباشة يؤكدون أنّهم يريدون تغيير مهنتهم إن أتيحت لهم الفرصة. يُعتبر فقدان الاعتراف الاجتماعي، بالإضافة إلى الاحتقار أهم الأسباب الدافعة لتغيير العمل (12 %)،

24 Florin, Bénédicte. "Les Chiffonniers Du Caire. Soutiers de La Ville Ou Businessmen Des Ordures ?" *Ethnologie Française* Vol. 45, no. 3 (July 28, 2015): 487-98. <https://doi.org/10.3917/ethn.153.0487>.

25 Tomás, Júlia. "La Notion d'invisibilité Sociale." In *TéraèdreEBooks*, 2010. [https://repositorium.sdum.uminho.pt/bitstream/1822/36489/1/JT\\_la\\_notion\\_dinvisibilit%c3%a9\\_sociale.pdf](https://repositorium.sdum.uminho.pt/bitstream/1822/36489/1/JT_la_notion_dinvisibilit%c3%a9_sociale.pdf).

مباشرة بعد العائد المالي المنخفض (26 ٪)، المخاطر الصحية (22 ٪) والتعب الجسدي (17 ٪).

أما بالنسبة إلى العاملين في الأماكن العامة (تونس لافايات والمنار مثالا كما تشير العينة البحثية)، والذين، وعلى خلاف العاملين داخل مصب النفايات، يعمل 60 ٪ من بينهم بهويات مكشوفة، ينقلون أنهم تعرضوا لتجارب متعددة من الشتم ونظرات الاحتقار؛ إذ يقع اعتبارهم متسولين، خصوصاً مع شيوع ظاهرة التسوّل المتسّرّ بجمع القوارير البلاستيكية، وهو ما أضفى نوعاً من الشرعية على ممارسة العنف اللفظي أو المعنوي على العاملين في هذا المجال، وهو ما يزيد من تعميق شعورهم بالدونية.

### الخلاصة

يُسلّط هذا المحور الضوء على جوانب متعددة من حياة البرباشة، مع التركيز على الجوانب الصحية الجسدية والنفسية، بالإضافة إلى الجوانب المهنية والاجتماعية. وقد خلصنا إلى كون البرباش يعيش ظروف عمل غير مستقرة وغير مؤمنة، ممّا يجعله عُرضة للعديد من المخاطر التي تؤثر بشكل كبير على رفاهه وتتركه يتخبّط في حالة من الإجهاد الجسدي والنفسي.

من الناحية الاجتماعية والمهنية، تشير الدراسة إلى أنّ هويتهم المهنية تتأثر بشكل كبير بشكل النظام الاجتماعي والعلاقة التي تربط العاملين في إطار اقتصاد غير نظامي. إضافة إلى ذلك، يواجه البرباشة تمييزاً وإقصاء اجتماعياً نتيجة للتصورات السلبية والوصم الاجتماعي المرتبطة بمهنتهم. وعلى الرغم من أنّ البرباشة يتمثلون العمل بطريقة إيجابية ويدركون أهميته على الاقتصاد والمجتمع، إلا أنّ هذا الوصم يجعل من الصعب عليهم تحقيق التماهي الفردي مع مهنتهم والشعور بالقبول والاعتراف في المجتمع.

---

## ببليوغرافيا مختارة :

Da Silva, M C, Anaclaudia Gastal Fassa, Carlos Eduardo Siqueira, and David Kriebel. "World at Work: Brazilian Raggpickers." *Occupational and Environmental Medicine* 62, no. 10 (October 1, 2005): 736–40. <https://doi.org/10.1136/oem.2005.020164>.

De Bercegol, Rémi, and Shankare Gowda. "« Nettoyer l'Inde », La Marginalisation Des Récupérateurs de Déchets à Delhi." *Cahiers D'Outre-Mer* 73, no. 281 (January 1, 2020): 41–68. <https://doi.org/10.4000/com.10887>

Florin, Bénédicte. "Les Chiffonniers Du Caire. Soutiers de La Ville Ou Businessmen Des Ordures ?" *Ethnologie Française* Vol. 45, no. 3 (July 28, 2015): 487–98. <https://doi.org/10.3917/ethn.153.0487>.

Harriss White, Barbara. "Observations Sur l'inégalité Professionnelle Dans l'économie Informelle." *Revue Internationale Du Travail* 142, no. 4 (December 1, 2003): 497–508. <https://doi.org/10.1111/j.1564-913x.2003.tb00462.x>.

Ludermir, Teresa B., and Glyn Lewis. "Informal Work and Common Mental Disorders." *Social Psychiatry and Psychiatric Epidemiology* 38, no. 9 (September 1, 2003): 485–89. <https://doi.org/10.1007/s00127-003-0658-8>

Martínez, Lina, and John Rennie Short. "The Informal Economy of Cities in the South: The Case of Cali, Colombia." *International Journal of Sustainable Development and Planning* 12, no. 04 (May 1, 2017): 637–43. <https://doi.org/10.2495/sdp-v12-n4-637-643>.

# البرياشة: المرض مقابل الغذاء من أجل فهم علمي لصحة العاملين في القطاع غير النظامي

د. مالك قطاط

طبيب مقيم في الطب والعلاج النفسي، خبير في الصحة العامة

د. إيناس عيسى

طبيبة مختصة في طب الشغل

## مقدمة

تُمثّل النفايات الصلبة عالمياً حوالي 70 % من مجموع النفايات التي تنتهي في المصبات، وتطرح إدارتها إشكالاً يُورق الكثير من الدول النامية التي تعوزها الموارد الكافية والحوكمة الرشيدة لمسالك التصرف في النفايات عامّة. تُنتج المدن حول العالم تقريباً ما يعادل 1.3 مليار طن من النفايات الصلبة سنوياً، وهو رقم مرشّح للارتفاع إلى 2.2 مليار طن بحلول عام 2025<sup>1</sup>. على المستوى الاقتصادي والاجتماعي يوفّر الجمع اللانظامي للنفايات فرص عمل لحوالي 2 % من سكان المدن في العالم الثالث عبر إعادة إدخال النفايات الصلبة القيمة إلى سلسلة الإنتاج، ممّا يُمكن مدناً مثل كراتشي (باكستان) ومانيلا (الفلبين) وجاكرتا (أندونيسيا) وبانكوك (تايلندا) من تفادي خسائر تُقدر بحوالي 3 مليون دولار سنوياً<sup>2</sup>، كما يُمثّل هذا النشاط وسيلة للبقاء

1 Samwine T, Wu P, Xu L, Shen Y, Appiah E, Yaoqi W. Challenges and prospects of solid waste management in Ghana. Int J Environ Monit Anal. 2017;5(4):96–102.

2 Aljaradin M, Persson KM, Sood M. The role of informal sector in waste management, a case study. Tafila-Jordan Resour Environ.2015;5(1):9–14.

لحوالي 1 % من سكان المدن في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية حسب تقديرات البنك الدولي<sup>3</sup>.

يمكن وصف جامع النفايات اللانظامي أو «البرباش» بشكل عام بأنه أي شخص يُشارك في استرداد أو استعادة المواد التي تحمل إمكانية إعادة الاستخدام والتدوير بهدف البيع أو الاستهلاك الشخصي، وهو ينبع من مبادرة ضمن القطاع غير الرسمي في إدارة النفايات الصلبة، وفقاً للافتراض القائل بأنه يمكن استرداد بعض المواد ذات القيمة الاقتصادية من النفايات الصلبة التي تم التخلص منها أو التخلي عنها.

ولئن كان الجمع اللانظامي للنفايات القابلة للرسكلة يُعتبر مظهرًا لسوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية خاصة في الدول النامية نظرًا إلى ارتفاع نسب البطالة، وتفشي الفقر، وعدم وجود شبكة أمان للفقراء، فإنه في نفس الوقت يعتبر ذا بُعد إيكولوجي هام إذ يساهم في خفض كمية النفايات الصلبة في البيئة والتمديد في عمر المصنّات، ويُعد اقتصادي كمصدر للتوظيف والدخل للأفراد العاطلين عن العمل، موفرًا موادًا خامًا بتكلفة منخفضة للصناعات، كما يقلل من الطلب على معدّات ومرافق الجمع والنقل والتخلص المتعلقة بالنفايات.

تونس، وهي التي ترزح منذ سنوات تحت وطأة أزمة اقتصادية متواصلة ما فتئت تحتد تدريجياً، ليست بمعزل عن هذه الظاهرة المَعولمة، حيث يزج ضيق الأفق ولا تكافؤ الفرص مزيداً من الناس في الهامش، بعضهم وجد في نشاط البرباش ملاذاً من الجوع، يدفع فيه الثمن من صحته مقابل الحصول على الغذاء.

هذه الدراسة تنزل في إطار بحث ميداني قام به فريق علمي متعدد الاختصاصات؛ وهي تنقسم إلى بحث كمّي شمل عينة من 144 شخصاً (73 برباشاً من مصب برج شاكير و71 برباشاً يشتغلون في الفضاء العام) وبحث كمي ارتكز على مقابلات مع عينة من 15 شخصاً يعملون في المصب و14 يعملون في الفضاء العام، واعتمد في منهجيته الإثنوغرافيا والملاحظة بالمشاركة وجمع البيانات الكمية عبر استبيانات ومقابلات بيوغرافية. وهو يتمحور حول الأسئلة البحثية الرئيسية «كيف ولماذا يصير أفراد بعينهم برباشة؟» و«كيف تتحوّل القمامة إلى نشاط اقتصادي؟».

3 Medina M. Solid wastes, poverty and the environment in developing country cities: Challenges and opportunities (No. 2010, 23). Workingpaper/World Institute for Development Economics Research. 2010.

وتندرج دراستنا في إطار كتاب بحثي متعدد الاختصاصات تطرّق فيه الباحثون إلى وضعية البرباش من زوايا نظر متعددة.

وفي هذا الجزء الخاص بالصحة نتطرّق إلى تحليل المعارف والتصوّرات والممارسات التي تمثّل الإطار العام لهذا النشاط في تونس في ارتباطها بقضايا الصحة الفردية والصحة العامة، بهدف كشف الستار عن البروفایل الصحيّ الخاص بهذه الفئة الغائبة تمامًا عن مجهر البحث العلمي المحيّي في علوم الصحة، وذلك رغم فداحة المخاطر المرتبطة بطبيعة عملها وتأثيراتها الممتدة على المستوى الفردي والجماعي. كما سنحاول النّيش في المخاطر المهنية الخاصة بعمل البرباش وأثرها الممكن على صحته، وعن موقع الوضعية الصحية للبرباش في سياق تفاعلات المحددات الاجتماعية للصحة.

ولعل هذا الجهد في رسم ملامح مجتمع البرباشة من زاوية الصحة العامة قد يكون لبنة أولى لسدّ الفراغات الإحصائية المتعلقة بهم على مستوى الأرقام الرسميّة وإرساء تقاليد بحث ملتزم لصيقة بالواقع الاجتماعي والاقتصادي المنبثق من هوامش العمران وانشطاراته العصيّة عن سياسات الصحة في تونس.

## 1/ المخاطر المهنية

تشير المخاطر المهنية على الصحة إلى مجموعة عوامل الخطر أو التهديدات الموجودة في بيئة العمل أو المرتبطة بطبيعة العمل والتي قد تضرّ بصحة العاملين جسدياً أو نفسياً. قد تنشأ هذه المخاطر من عوامل متنوعة مثل ظروف العمل، والمعدّات المستخدمة، والمواد التي يتمّ التعامل معها، أو المتطلبات النفسية للعمل. وقد تؤدي إلى أمراض مهنيّة، أو حوادث عمل، أو اضطرابات نفسية، وقد تكون لها تأثيرات طويلة الأمد على رفاه العمال وجودة حياتهم. وقد أظهرت دراسات عدة في العالم أنّ جامعي النفايات القابلة للرسكلة يعانون من انتشار عالٍ للأمراض المهنية خصوصاً منها الأمراض المزمنة والأمراض المعدية المرتبطة ببيئة العمل.

ويمكن تصنيف المخاطر التي قد يتعرض لها البرباشة إلى ستة أصناف، تشمل: المخاطر الماديّة الجسدية (مثل الجروح والقطع أو الشياح المائي الناجم عن حرارة الطقس المرتفعة)، المخاطر الكيميائية (استنشاق الغازات السامة، التعرض لسوائل ارتشاح النفايات)، المخاطر

النفسية (الاكتئاب، اضطرابات القلق، اضطرابات الإدمان، التعرض للعنف والوصم وانعدام الشعور بالأمان)، المخاطر البيولوجية (الفطريات والديدان المعوية، التهابات العين، أمراض الجلد، الإسهال، التهاب الكبد الفيروسي، السيدا)، والمخاطر الحيوانية الناتجة عن لدغات ولسعات من الحشرات، والعقارب، والكلاب، والثعابين، وغيرها من الحيوانات التي تتعرض في مصبّات النفايات.

### مشقة العمل وتمثلات الخطورة المرتبطة به

يتميّز عمل البرابشة بإجهاد نفسي وجسدي مستمر وتعرّض متواصل لمخاطر بيولوجية وكيميائية ومادية شتّى وهو ما يجعل من نشاطهم نشاطاً شاقاً بامتياز، حيث يعزو 53.2% من برابشة المصب رغبتهم في تغيير العمل إلى ارتباطه بالمشقة والتعب والخطورة، بينما تنخفض هذه النسبة إلى 26.1% لدى برابشة الفضاء العام، وهو ما قد يعود في جزء كبير منه إلى ارتفاع منسوب الخطورة الصحية المتأتية من طبيعة النفايات الملقاة في المصب وكثافة تركيز المواد الكيميائية والميكروبية والانبعاثات الغازية داخله.

وبالتعمق في الخصائص السوسيو-ديمغرافية للشريحة المدروسة يمكن تبين وجود عوامل أخرى تساهم في تعميق هذه المشقة من ذلك الجنس والتقدم في السن ومسافة التنقل لمكان العمل وبمناسبتة، والوضعية الصحية العامة للبرباش.

يبلغ معدل السن المتوسط باعتماد الحسابات التقريبية المبنية على نسب الشرائح العمرية التي خلّص إليها البحث الكمي حوالي 40 سنة داخل المصب و49 سنة في الفضاء العام، وهي معدلات سن تعتبر عالية مقارنة بمثيلاتها في عينات متأتية من دول نامية أخرى حيث لا يتجاوز معدل السن لدى جامعي النفايات اللانظاميين في دول أخرى الثلاثينات<sup>4</sup>. وقد يحيلنا ذلك على وجود علاقة ترابط أقوى بين التقدم في السن وانعدام الأمان الاقتصادي في تونس؛ حيث تُجبر صعوبة الولوج إلى الفرص الاقتصادية محترفي نشاط «التربيش» على مواصلة مباشرتهم له رغم تقدمهم في السن. غير أنّ هذه القراءة يجب أن تكون مُعدّلة بمعطى آخر يتمثل في تقدّم أمل الحياة عند الولادة في تونس على مثيله في الكثير من الدول النامية الأخرى وهو ما يمكن أن يؤدي

4 Wilson, K.S., Kootbodien, T., Made, F. et al. Men and women waste pickers on landfills in Johannesburg, South Africa: divergence in health, and socioeconomic status. *Int Arch Occup Environ Health* 95, 351–363 (2022).

إلى وجود تحييز إحصائي (Statistical bias) طبيعي في الشريحة التونسية<sup>5</sup>.

تتضاعف مشقة العمل أيضاً بعناء التنقل لمسافات بعيدة للوصول إلى مكان العمل بالنسبة إلى العاملين في المصب (56.4 % من برباشة المصب يتنقلون لمسافة يعتبرونها بعيدة تتجاوز الساعة بالنسبة إلى حوالي ثلثهم (30.9 %) مع اعتماد أكثرهم على وسائل نقل) أو بمناسبة مباشرة النشاط في حد ذاته بالنسبة إلى البرباشة في الفضاء العام الذين يتنقل معظمهم (67.1 %) على القدمين لجمع النفايات من مكان إلى آخر، ويصرّح حوالي 87.7 % منهم بقضائهم لمدة يومية تتجاوز الثماني ساعات في التنقل بمناسبة عملهم.

### الوخز بالإبر غير المغطاة والجرح بالأجسام الحادة

يعتبر الوخز بالإبر غير المغطاة من أهم المخاطر البيولوجية التي يتعرض لها البرباشة خلال نشاطهم حيث يصرح 13.8 % من مجموع المستجوبين بتعرضهم لوخزة إبرة خلال الشهر المنقضي (16.9 % من العاملين داخل المصب و 11 % من العاملين خارجه)، وتندرج الإصابة بإبرة مستعملة في إطار «حوادث التعرض للدم (Blood Exposure Accident)<sup>6</sup>» وهو ما يؤدي إلى التعرض لعوامل العدوى الخطرة الموجودة في دم الشخص الذي استخدمها سابقاً. ويمكن تجنب خطر حصول حادث تعرض للدم من خلال تدابير الحماية مثل القفازات.

قد تتأثر الإبر المستعملة غير المغطاة من أوساط الخدمات الصحية، مثل المستشفيات والعيادات الطبية وعيادات الطب البيطري، حيث تكشف المقابلات البيوغرافية مع أفراد العينة أنّ 6 من أصل 15 مستجوباً بيوغرافياً من برباشة المصب يرون أنّ النفايات الاستشفائية هي أكثر ما يسبب الأمراض للعاملين في المصب، ويشترك معهم في هذا الاعتقاد 8 من أصل 15 برباشاً في الفضاء العام مستجوبين بيوغرافياً يخصّون أيضاً بالذكر الحقن الطبية.

تطرح قضية النفايات الاستشفائية إشكالاً ما انفك يتفاقم خلال العشرية التي تلت ثورة 2011 بسبب اخلالات هيكلية كبرى تراجعت بسببها نجاعة التعاون بين الأطراف المتدخلة

5 الانحياز الإحصائي أو التحيز الإحصائي هو مجموع الخاصيات المنهجية أو الظواهر الخارجية التي تميز عينة دراسية ما والتي تؤدي إلى توليد أخطاء حساب منهجية في الدراسات الإحصائية

6 Accident d'exposition au sang باللغة الفرنسية

الحكومية منها (ممثلة في وزارة الصحة، وزارة البيئة، الوكالة الوطنية للتصرف في النفايات)<sup>7</sup> وغير الحكومية (ممثلة في الشركات المختصة في رفع النفايات الطبية)<sup>8</sup>، وقد انجرت عن ضعف قدرة الدولة على حوكمة التصرف في النفايات الطبية تراجع قدرة المؤسسات الصحية ومسديي الخدمات الصحية في القطاع العام والقطاع الخاص على التخلص منها بالطرق القانونية وتزايد التخلص منها بطرق عشوائية وغير قانونية مع ارتفاع خطر اختلاطها بالنفايات العادية.

**جثث أطفال رضع ضمن النفايات في المصب.**  
**حسب شهادة أدلى بها عاملان في المصب فقد سبق وتم العثور على جثث (2)**  
**أطفال رضع ضمن النفايات في المصب.**

كما يمكن لحوادث الوخز أن تتأتى أيضاً من استهلاك المخدرات بالحقن، وفي هذه الحالة الأخيرة، يمثل مستخدمو المخدرات عن طريق الحقن فئة عرضة بشكل أكبر للإصابة ببعض الأمراض التي يمكن أن تنتقل عن طريق الدم، خاصة منها: الإصابة بفيروس التهاب الكبد «ب» أو «ج» وفيروس نقص المناعة البشرية «السيدا».

**التهاب الكبد الفيروسي ب**  
هو عدوى ناتجة عن فيروس يصيب الكبد وينتقل خاصة عبر الدم (مثل الإبر المستخدمة، شفرات الحلاقة المستخدمة...)، أو عبر العلاقات الجنسية غير المحمية، أو من الأم إلى الطفل أثناء الولادة. يمكن أن تكون هذه العدوى حادة، تتعافى بنفسها في غضون بضعة أسابيع، أو مزمنة، تستمر لفترة طويلة وقد تؤدي إلى مضاعفات خطيرة مثل التليف (Cirrhosis) وسرطان الكبد، ويمكن أن لا تظهر أعراض المرض في العديد من الحالات وهو ما يضاعف خطورته. أصبح التلقيح ضد التهاب الكبد الفيروسي ب إلزامياً في تونس منذ عام 1994، وهو أكثر الوسائل فعالية للوقاية من المرض وعادة ما يتم إعطاؤه في جرعات متعددة

7 تم إلحاق الجماعات المحلية بوزارة الداخلية من جديد بعد 25 جويلية 2021

8 Tunisie – Environnement : Pas de collecte des déchets médicaux dangereux à partir du 15 juillet, Web Manager Center, 5 Juillet 2022.

حسب جدول تلقيحي يبدأ عند الولادة، كما يمكن لأي شخص لم يتلقَّ التلقيح عند الولادة أن يتقدم لتلقيه لحماية نفسه من الخطر خاصة لدى المُعرَّضين بشكل خاص في أماكن العمل. وعلى الرغم من الجهود الوقائية المبذولة التي ساهمت في خفض معدل الانتشار في تونس، فإن التهاب الكبد الوبائي ب مازال منتشرًا حيث يبلغ معدل الإصابة به وطنيا حالة واحدة على كل 50 شخص.

عمل «التبريش» عمل يدوي بالأساس كما يصرح بذلك 90.1% من برياشة المصب (9.9% منهم يستعملون آلة فرز حديدية)، و84.9% من برياشة الفضاء العام (15.1% منهم يستعملون آلة فرز حديدية)، ويبدو تمثل عامل الخطورة الصحية المرتبطة بالعمل اليدوي حاضرا بصفة خاصة بين برياشة المصب الذين يستعمل 90.1% منهم قفازات مقابل 41.1% من برياشة الفضاء العام، في مفارقة مع ارتداء الكمامة الذي نسجل نسبة أعلى له بين برياشة الفضاء العام (30.1%) مقارنة ببرياشة المصب (9.9%)، ويمكن تفسير هذا الاختلاف بافتراض أن «التبريش» في الفضاء العام يتعامل أكثر مع النفايات المنزلية حديثة العهد والتي يمكن أن تكون رائحتها غير قابلة للتحمل، وأن «التبريش» في المصب يتطلب جهدا جسديا وتنفسيا أكبر للتنقل بين أكداص القمامة خاصة في غياب إمكانية استعمال عربة نقل وهو ما يجعل لبس الكمامة أقل مقبولية لدى برياشة المصب، وهي افتراضات تستدعي مزيدا من البحث لتأكيدهما.

كما تمّ الوقاية من حوادث التعرض للدم بالتلقيح ضد الأمراض الفيروسية السارية التي يمكن أن تنتقل عبره. وحتى في صورة حصول الحادث، يمكنه تجنب الإصابة بالمرض أو العدوى من خلال استشارة الطبيب، حيث توجد علاجات أو حقن قد تكون فعالة جدًا وتقي من استفحال العدوى إذا تم الحصول عليها في الساعات الأولى التي تلي الحادث.

تظهر بعض الدراسات العالمية التي شملت جامعي النفايات اللانظاميين نسبة انتشار أعلى لفيروس الالتهاب الكبدي لدى الذكور مقارنة بالإناث حيث قد تبلغ نسبة الإصابة لدى الذكور بفيروس النوع ب و ج تباعا حسب دراسة أنجزت في نيجيريا 16.3% و 11% ولدى الإناث 8.2% و 4.9%<sup>9</sup>. ويُرجح أنّ هناك علاقة ترابط بين عدد ساعات العمل ونسبة التعرض لخطر

9 Majeed, A., Batool, S.A., Chaudhry, M.N., and Siddique, R.A. 2016. «Scavenging demeanor in Bahawalpur, Pakistan: social and health perspective.» J Mater Cycles Waste Manag 19 (2): 815–26.

الإصابة؛ حيث قد تتراوح مدة العمل يوميا بين 8 و12 ساعة للرجال و6 و8 ساعات للنساء نتيجة للأنشطة المنزلية الأخرى الملقاة على عاتقهن، وهو ما قد يحيل إلى زيادة المخاطر بسبب التعرض لفترات زمنية أطول<sup>1011</sup>. كذلك يزداد انتشار خطر الإصابة بالفيروس بشكل تدريجي مع تقدم العمر، بسبب الزيادة المستمرة في التعرض له من خلال جمع النفايات، حيث تجدر الإشارة هنا إلى أن نسبة المستجوبين الذين يتجاوز عمرهم 50 سنة للعاملين داخل المصب تُقارب الثلث (28.2 %) والنصف لدى عينة العاملين خارجه (53.4 %).

وحسب دراسة تحليلية شمولية حديثة (Meta-analysis) نُشرت سنة 2021 وحللت نتائج دراسات متعددة أنجزت حول البرباشة من عديد القارات، فإنَّ معدل انتشار الإصابة بالتهاب الكبد الفيروسي لدى البرباشة حول العالم يتجاوز معدل الانتشار لدى عموم السكان حيث يتراوح بين 0.15 و15 % بالنسبة إلى النوع ب وبين 0.08 و8 % بالنسبة للنوع ج، بينما لا يتجاوز معدل الانتشار 2 % و0.9 % تباعا للنوعين بين عموم السكان<sup>12 13 14</sup>.

ولا تتوقف خطورة الإصابة بفيروس الالتهاب الكبدي على البرباشة فقط بل بإمكانها الانتقال إلى القرين؛ حيث يمكن للفيروس من النوع ب وج أن ينتقل عن طريق العلاقات الجنسية خاصة وأنَّ نسبة المتزوجين<sup>15</sup> -على سبيل المثال- بين المستجوبين 67.3 % (63.4 % بين العاملين داخل المصب و71.2 % خارج المصب).

- 10 Sawyerr, H.O., Yusuf, R.O., and Adeolu, A.T. 2016. «Risk Factors and rates of hepatitis B virus infection among municipal waste management workers and scavengers in Ilorin, Kwara State, Nigeria.» J Health Pollut 6 (12): 1-6.
- 11 Yusuf, R.O., Sawyerr, H.O., Adeolu, A.T., et al. 2018. «Seroprevalence of hepatitis B virus and compliance to standard safety precautions among scavengers in Ilorin metropolis, Kwara state, Nigeria.» J Health Pollut 8 (1): 180914.
- 12 Souza-Silva, Gabriel, Tara Rava Zolnikov, Paula Ladeira Ortolani, Vanessa Resende Nogueira Cruvinel, Sonia Maria Dias, and Marcos Paulo Gomes Mol. 2022. «Hepatitis B and C prevalence in waste pickers: a global meta-analysis.» Journal of Public Health 44 (4): 761-769.
- 13 Squeri, R., La Fauci, V., Sindoni, L., et al. «Study on hepatitis B and C serologic status among municipal solid waste workers in Messina (Italy).» J PrevMed Hygiene 47 (3): 110-3.
- 14 Franka, E., El-Zoka, A.H., Hussein, A.H., et al. 2009. «Hepatitis B virus and hepatitis C virus in medical waste handlers in Tripoli, Libya.» J Hosp Infect 72 (3): 258-61.

15 لم تجمع الدراسة بيانات حول السلوكات الجنسية للمستجوبين غير المتزوجين

من جهة أخرى يمثل التعرض لجروح ناتجة عن الإصابة بأجسام قاطعة أو حادة مصدرا آخر للمخاطر البيولوجية؛ حيث تبلغ نسبة التعرض للإصابة بجسم حاد خلال الشهر الماضي حوالي الثلث (32.6 %) بالنسبة إلى المجموع المستجوبين مع وجود خطر أكبر للعاملين داخل المصب حيث بلغت هذه النسبة 36.6 % مقابل 28.8 % للعاملين خارجه. ويمكن أن يفسر ذلك بصعوبة فرز أكداس النفايات وتفادي الأجسام الحادة داخل المصب مقارنة بالنفايات الملقاة في أماكن أخرى.

كما يتجلى خطر الإصابة بالكزاز (Tetanos) كواحد من أهم المخاطر التي قد ترتبط بحوادث الجرح إما مباشرة عن طريق الإصابة بجسم حاد صديء ملوث ببكتيريا الكزاز أو الإصابة بجسم غير ملوث مع تعرض الجرح لاحقا لمواد قد تكون حاملة للبكتيريا مثل التراب والفضلات الحيوانية والبشرية.

**الكزاز (الذي يُعرف عاميا بـ «الصديد») هو مرض خطير ناتج عن بكتيريا تُدعى «كلوستريديوم تيتاني» (*Clostridium Tetani*) التي تنتج مادة سامة تؤثر على الجهاز العصبي. بمجرد الإصابة، قد تظهر لدى الشخص أعراض متنوعة منها انقباض العضلات والتشنج الجزئي أو الكلي، والذي قد يؤدي إلى الوفاة. لا ينتقل الكزاز من شخص إلى آخر، ولكن بويضات البكتيريا الناقلة له موجودة بكثرة في البيئة المحيطة بنا، خصوصا في التربة والأسطح، وكذلك على الأدوات الصّدئة مثل الإبر والأسلاك الشائكة وغيرها، وأحيانا في الأظافر البشرية التي تتعامل مع التربة. ويمكن للبويضات أن تبقى حية لسنوات بفضل مقاومتها العالية للحرارة ومعظم المطهرات.**

**يتوفر اللقاح في تونس وهو فعال بنسبة 100 %، وقد ساعد في تحقيق هدف رئيسي من أهداف البرنامج الوطني للتلقيح في القضاء على التيتانوس الوليدي (*Neonatal Tetanus*) بحلول سنة 1996. التطعيم إلزامي ويتبع جدولاً زمنياً يتم تكراره كل 10 سنوات للبالغين لضمان فعاليته وحماية الشخص. وبالمثل، إذا لم يكن الشخص قد تلقى اللقاح أو لم يجر التطعيم المكمل، فإنه في حالة الإصابة بجرح، حتى لو كان طفيفاً، يمكنه مراجعة الطبيب في الساعات التي تلي الحادث، حيث يمكن تلقي التلقيح بصفة لاحقة للإصابة.**

تجدر الإشارة أيضا إلى أنّ خطر العدوى قد يكون مضاعفا لدى البرباشة الحاملين لأمراض مزمنة، إذ قد تساهم في إضعاف مناعتهم مثل السكري (تبلغ نسبة الإصابة بمرض مزمن 29.6 % بين برباشة المصب و26.4 % بين برباشة الفضاء العام<sup>16</sup>).

### التعامل مع حوادث الوخز والجرح

تشير البيانات الخاصة بطريقة تعامل البرباشة مع حوادث الوخز والجرح إلى تدني نسبة البحث عن المساعدة الصحية المختصة إلى حوالي 32 % من مجموع العينة، مع نزوع أكبر للتوجه نحو الطبيب بين العاملين داخل المصب (46.4 %) مقابل فقط 13.6 % بين العاملين خارجه، وهو ما قد يحيل على وجود إدراك أعمق للخطر لدى برباشة المصب يمكن تفسيره بوعيهم بمدى الخطر المرتبط بفرز النفايات الموجودة فيه مقارنة بالنفايات الملقاة في الهواء الطلق والتي يشغل عليها بقية البرباشة المستجوبين، حيث يصرح حوالي 63.4 % من برباشة المصب بمعرفتهم بأنّ الوخز بإبرة مستعملة يمثل عامل خطر للإصابة بمرض التهاب الكبد الفيروسي، بينما لا تتجاوز هذه النسبة 31.5 % بين البرباشة خارج المصب. كما يتجلى ارتفاع نسبة خطر الإصابة بالكزاز داخل المصب في نسبة البرباشة الذين يصرحون بتلقيهم تلقيحا ضد الكزاز خلال الخمس سنوات الماضية والتي تقارب النصف (46.5 %) مقابل فقط 11 % لبقية البرباشة، وهو ما يعني أن واحدا من كلّ اثنين يعملان في المصب خلال نفس الفترة قد تعرض إلى حادث جرح بجسم ملوث فرض عليه التوجه لتلقي التلقيح.

### التعرض للعضّ عن طريق الكلاب السائبة

عرفت تونس خلال السنوات الأخيرة تفشيا غير مسبوق لداء الكلب رافقه ارتفاع للنسب المسجلة للإصابة بعضة كلب ضال لدى مرتادي أقسام الاستعجالي في المستشفيات التونسية. هذا الخطر يمكن أن يواجهه أي شخص في الفضاء العام، ولكنه يزداد خصوصاً لمن يعملون في الأماكن المفتوحة بالقرب من الحاويات أو مواقع التخلص من النفايات، حيث تتجمع الكلاب الضالة بحثاً عن الطعام. في دراستنا، وجدنا أنّ حوالي واحد من كل عشرة برباشة داخل المصب (9.9 %) تعرّض لعضة من كلب ضال مع نسبة مماثلة بين العاملين خارج المصب (8.8 %).

16 لا تحتوي البيانات الكمية على تفاصيل حول طبيعة الأمراض المزمنة الموجودة لدى العينة

على الصعيد الوطني، سُجّلت خمس وفيات بسبب داء الكلب في عام 2021، ويبلغ قطاع الكلاب السائبة في تونس حوالي 700,000 كلب: سُجّلت بينها 350 حالة وفاة بسبب داء الكلب في نفس السنة. وهي أرقام مثيرة للانفعال في بلد له برنامج وطني كامل لمكافحة داء الكلب منذ عام 1982. غير أنّ الإستراتيجية الحالية تواجه تحديات عدّة، منها جهل المواطنين بالخطر، وعدم اللجوء إلى الطبيب عند تعرضهم للعض، وعدم تلقيح الكلاب السائبة، بالإضافة إلى تراكم مشاكل الحوكمة الخاصة بإدارة مصبات النفايات ومسالك تجميع النفايات المنزلية ونفايات المسالخ البلدية<sup>17</sup>.

**داء الكلب مرض خطير غالبا ما يؤدي إلى الوفاة، وينتج عن فيروس الكلب. غالبًا ما ينتقل هذا المرض عندما يعض كلب مصاب الإنسان، مما ينقل الفيروس الموجود في لعابه. يمكن أن ينتقل الفيروس إلى البشر والحيوانات عبر الخدوش أو حدوث التماس المباشر مع الأغشية المخاطية مثل تلك الموجودة في العيون أو الفم أو الجروح المفتوحة. بمجرد دخوله الجسم، ينتقل الفيروس إلى الدماغ ويسبب أعراضًا مثل الحمى، وآلام الرأس، والتهيج المفرط، والذهيان، والخوف من الماء (الهيدروفوبيا) وأحيانًا الشلل. في غياب رعاية مختصة سريعة عن طريق التطعيم مباشرة بعد العضة من الحيوان المشكوك في إصابته فإن المرض يسبب حتما الوفاة.**

### التعرض للانبعاثات السائلة والغازية

من أشدّ الظواهر الكيميائية الناتجة عن تكّس نفايات المصبات خطورة نجد ما يُعرف بالسوائل المرشحة (Leachate)<sup>18</sup>، إضافة إلى الغازات المنبعثة من تحلل المواد البيولوجية والكيميائية داخل التربة الرطبة والترسبات السائلة خاصة بعد هطول الأمطار. ولهذه الانبعاثات مخاطر مباشرة على البرباشة وغير مباشرة على السكان القريين والأقل قرباً من المصب؛ حيث يمكن لها أن تزيد في نسبة تركيز الجزيئات الهوائية الملوثة (Particematters) وأن تتسرب إلى

17 ملفات داء الكلب - الجزء 1: الأسباب والانعكاسات على المجتمع والمحيط في ظل وضع بيئي حرج، بوابة الصحة المفتوحة، 2022، جمعية قرطاج للصحة

18 Lixiviat باللغة الفرنسية

الموائد المائية العميقة بما يعنيه ذلك من مخاطر متوسطة وبعيدة المدى على المنتوجات الفلاحية النباتية والحيوانية وعلى صحة مستعملي مياه شرب متأتية من مصادر قد يمتد إليها التلوث الناجم عن هذه التسربات. وحسب تقرير مختص نشر سنة 2014 فإن مصب برج شاكير يحتوي على منظومة تخليص من السوائل المرتشحة غير أنها ذات نجاعة منخفضة، ناهيك عن وجود مائدة مائية قريبة من السطح وسهلة النفاذ عند الحفر في المناطق الزراعية المجاورة، كما يقدر نفس التقرير كمية الماء السنوية الملوثة بمياه الارتشاح بحوالي المليون ومائة ألف متر مكعب<sup>19</sup>. ويعتبر تقييم التأثير المباشر لهذه العوامل على الصحة في تونس صعبا للغاية خاصة أمام غياب تقاليد بحثية في مجال الدراسات الوبائية للمجموعات السكانية الكبرى، وهو ما يمكن تفسيره بأسباب سياسية قد تعيق المبادرة البحثية في هذه المجالات.

وترتبط الانبعاثات السائلة والغازية المتأتية من نفايات المصبات عادة بازدياد مشطّ في مخاطر الإصابة بأنواع شتى من السرطان وأمراض المخ والجهاز العصبي والأمراض الالتهابية في الجلد والعيون والمجاري التنفسية والكلية والكبد والحساسية مع وجود مخاطر على تكوّن الجنين وسلامة الحمل والولادة عند النساء الحاملات<sup>20</sup>، وهي أمراض لها أعراض نجد لها صدق متواترا في تصريحات برباشة المصب الذين أجريت معهم مقابلات بيوجرافية مع ذكر متكرر لخطورة الانبعاثات المتأتية من النفايات الاستشفائية خاصة. وتظهر البيانات الكمية في نفس السياق تواترا لأعراض شتى منه الدوار («الدوخة») بنسبة 31 % داخل المصب مقابل 61.6 % خارجه، والصداع القوي بنسبة 46.5 % مقابل 52.1 % في الفضاء العام<sup>22</sup>، والاختناق نتيجة روائح أو غازات بنسبة أكبر داخل المصب 49.3 % مقارنة بالفضاء العام 30.1 % . ويُضاف إلى ذلك ظهور أو زيادة لأعراض عادة ما ترتبط بالحساسية مثل جريان الأنف أو الإحساس بحرقاق فيه (40.8 % داخل المصب مقابل 15.1 % في الفضاء العام) والسعال أو

19 Coût de la dégradation de l'environnement due aux pratiques de gestion des déchets solides dans le Grand Tunis, GIZ, Mai 2014.

20 Ranganai, Rubeni, King, J., Atekwana, Estella, and Moidaki, Moikwathai. 2004. «Geophysical Mapping of Bedrock Structure and Leachate Plumes at the Gaborone Landfill, Botswana.»

21 Schiopu, Ana-Maria, and Gavrilescu, Maria. 2010. «Municipal solid waste landfilling and treatment of resulting liquid effluents.» Environmental Engineering and Management Journal.

22 الدوار والصداع من الأعراض التي لا تشير بالضرورة إلى مرض معين بذاته ولكنها قد ترافق ارتفاعا في ضغط الدم أو تكشف عن إصابة في الأنف والأذن والحنجرة ويمكن أن تتأتى من ضعف النظر الذي ذكر المعاناة منه كثير من المستجوبين

صعوبة التنفس (42.3 % داخل المصب مقابل 37 % خارجه) والشعور بالحرق والحكة وإفراز الدمع في العينين (47.9 % داخل المصب مقابل 57.5 % في الفضاء العام). وتدعم هذه الإحصائيات النسب المتعلقة بحالات الحساسية حيث ترتفع لدى برباشة المصب إلى حدود 35.2 % مع وجود 64 % من الحالات التي ظهرت بعد بداية الاشتغال بنشاط «التبريش»، مقارنة بـ 9.6 % لحالات الحساسية بين برباشة الفضاء العام، وهو ما يؤكد فرضية الخطورة التي تُشكّلها العوامل الكيميائية داخل المصب.

### الشهادات عن الأمراض في علاقة بالانبعاثات الغازية والسائلة وخطورة النفايات الاستشفائية

- لدى المستجوبين بيوغرافيا بمصب برج شاكير (15 مقابلة)  
«مرضت بضيق التنفس.. ساقى تمت إصابتها.. كنت قى صحة جيدة وأتمرن قبل أن أعمل هنا.. العديد من الأمراض تسببها الخدمة هنا...» - بشير، مقابلة 13  
«في بعض الأحيان شاحنة النفايات الساخنة جدا تفرز بخار عبارة على نار تسبب الحساسية وعديد الأمراض الأخرى...» - جميلة، مقابلة 12  
«الرائحة الكريهة تتسبب في الأمراض، رائحة قوية جدا وكذلك نفايات المستشفيات خاصة نفايات العمليات، رائحتها كريهة جدا و مليئة بالدود...» - جميلة، مقابلة 12  
«العمل كله مرض وخطر على صحة الإنسان. لكن من أكثر النفايات مضرّة هي نفايات المستشفيات خاصة في فصل الصيف، كريهة جدا ويخرج منها بخار شديد الحرارة، عندما نستنشقه نحس بالإغماء...» - عائشة، مقابلة 14
- لدى المستجوبين بيوغرافيا بالفضاء العام (14 مقابلة)  
«أعاني من ضيق التنفس...» - معتز، مقابلة 9  
«الروائح تسبب أمراضًا خطيرة...» - صابر، مقابلة 7

### المخاطر المرتبطة بالجهاز الحركي

يعتبر الجمع اللانظامي للنفايات عملاً جسدياً يتطلب جهداً كبيراً، سواءً من خلال الأعمال اليدوية أو من خلال الضغط الشديد على باقي أجزاء الجسم خلال جميع مراحل «البرباشة»

فرزا وتجميعا ونقلًا، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى نشوء اضطرابات الجهاز الحركي التي تؤثر على المفاصل والعضلات والأوتار ويتسبب فيها التكرار المستمر للحركات المجهدة والتعرض للاهتزازات (Vibrations) خاصة أثناء نقل المواد المجمعة. وتتمثل الأعراض غالبًا في الألم، التصلب، وفقدان القوة مما يسبب إعاقة في الحركة، وقد تكون مؤقتة أو دائمة. ولا ينحصر ارتفاع خطر الإصابة بهذه الأمراض جرّاء زيادة التعرض المهني على البرياشة ولكنه يشمل كافة المهن المرتبطة بالإجهاد اليدوي والجسدي المستمر، وتسيير العربات المجرورة يدويًا التي غالبًا ما تكون ممتلئة فوق طاقتها ويتم جرّها أو دفعها لمسافات طويلة عبر مسالك قد لا تكون في غالب الأحيان معبدة<sup>23</sup>، حيث يكثر استعمال هذه العربات لدى البرياشة العاملين خارج المصب (نصفهم يمتلك عربة مجرورة يدويًا).

### شهادات حول إصابة الجهاز الحركي عبر المقابلات البيوغرافية

- **لدى المستجوبين بيوغرافيا بمصب برج شاكير (15 مقابلة)**  
«صحتي ليست بخير.. أعاني من البرد ومن أوجاع المعدة.. البرد وأوجاع ظهري سببها العمل في المصب...» - جميلة، مقابلة 12
- **لدى المستجوبين بيوغرافيا بالفضاء العام (14 مقابلة)**  
«تسبب لي ثقل السلع التي أحملها على ظهري في هذا المرض...» - رانية، مقابلة 13

تسبب الحركات المتكررة والمستمرة للجزء العلوي من الجسم واليدين والأصابع هذه الاضطرابات، ممّا قد يؤدي إلى تآكل والتهاب الأوتار والعضلات والمفاصل. كما يمكن للضغط على العمود الفقري أن يزداد بشكل مفرط ويؤدي إلى إصابات مزمنة لفقرات الظهر بسبب الوضعيات المجهدة مثل الانحناء المستمر والجلوس على العقب والامتداد من أجل تناول أشياء بعيدة. كما يسبب حمل الأحمال الثقيلة بانتظام مشكلات، حيث يزيد حمل ونقل الأشياء الثقيلة من الضغط على الأقراص الفقرية، ممّا يسهم في مشكلات الظهر مثل الانزلاق الغضروفي (DiscalHernia)، وتجدر الإشارة هنا إلى إصابة 16.9% من برياشة المصب و 11% من برياشة الفضاء العام بأمراض الروماتيزم.

23 Dupery, M., Fabin, C., Le Corre, E., Montchamp, E., Monteleon, P-Y., Nicolazzo, R., Petitfour, R., Vilaine, C., and Wargon, C. 2011. «Vibrations, chariots automoteurs et engins de chantier: enquête épidémiologique, ergonomique et métrologique.» Documents pour le médecin du travail 126: 261-274.

يمكن أن تكون هذه الاضطرابات لها تأثيرات خطيرة على الصعيدين الفردي والاقتصادي الاجتماعي. قد تؤدي إلى إعاقة مؤقتة أو دائمة، كلية أو جزئية، عن الحركة، وتضرب القدرة على إنجاز المهام العادية المرتبطة بالحياة اليومية وتؤدي بالتالي إلى تراجع جودة الحياة. كما قد يعاني العاملون المتضررون أيضاً من الإجهاد والضغط النفسي بسبب الألم المزمن والعجز المرتبط به، كما قد تؤدي إصابات الجهاز الحركي إلى غيابات عن العمل وبالتالي تقليل الإنتاجية وخفض الدخل.

### عوامل الضغط النفسي وضعف تقدير الذات

معيش «الحقرة» حاصر بقوة في نفسية البرباش، حيث يُصرّح 31 % من العاملين داخل المصب بأنهم كثيراً ما تعرضوا للحقرة بمناسبة مزاولتهم لنشاطهم، بينما يرتفع هذا الرقم إلى 50.7 % لدى البرباشة في الفضاء العام. ويمكن تفسير هذا التفاوت ببعد المصب عن المدينة حيث يقوم البرباش في المصب بنشاط الجمع والفرز بعيداً عن الأنظار، على عكس البرباش في الفضاء العام الذي يزاول نشاطه داخل التجمعات السكانية وقريباً منها. كما تكشف البيانات الكمية عن مفارقة أخرى تتعلق بمصدر «الحقرة» حيث يحتل «البوليس» المرتبة الأولى بين برباشة المصب بنسبة 38.8 % يليه الأصدقاء بنسبة 20.4 % بينما يأتي «المواطنون» في المرتبة الأولى بين برباشة الفضاء العام بنسبة هامة 84.5 % يليهم «موظفو الإدارة» بنسبة 10.3 %. ويجدر التنويه هنا إلى وجود مركز شرطة مباشرة عند مدخل مصب برج شاكير.

يتصدر الوصم الاجتماعي والتنمّر طليعة العوامل النابعة من المحيط والتي يمكن أن تؤثر نفسياً في مجتمع البرباشة وهي ملاحظة متواترة في العديد من الدراسات التي شملت هذه الفئة حول العالم<sup>24</sup>. ويحضر ذلك في دراستنا بصورة أكثر كثافة عبر شهادات البرباشة التي جمعتها المقابلات البيوغرافية.

### معيش الوصم الاجتماعي عبر المقابلات البيوغرافية

● لدى المستجوبين بيوغرافياً بمصب برج شاكير (15 مقابلة)

9 من أصل 15 سبب لهم العمل في المصب جملة من المشاكل مع المحيط العائلي

24 Dias, S.M. 2016. «Waste pickers and cities.» Environ. Urban.28: 375–390.

وخاصة المحيط الاجتماعي من خارج المصب. بينما 6 من أصل 15 لم يسبب لهم أي مشكلة.

8 من أصل 15 أثر عملهم في المصب على كل / بعض علاقاتهم بالناس خارج المصب.

«مع عائلتي ابني لا يريدني أن أعمل فيه يقول لي «انت تخدمي مع لبيب» فأرد عليه أنه عمل شريف ومنه يأكل ويلبس ويعيش هو وإخوته، لأن ابني يزعجه كلام الجيران وزملائه في الدراسة...»- مريم، مقابلة 5

«سببت لي الكثير من المشاكل، كثرت المصاريف ولم أصل لتلبية حاجياتي، وهذا

ما دفعني للسرقة وأصبحت في لائحة المطلوبين...»- بشير، مقابلة 13

«يقولون هؤلاء يعملون في المصب وإن سألت عن مهنتي أقول عامل يومي...»-

حاتم، مقابلة 10

● لدى المستجوبين بيوغرافيا بالفضاء العام (14 مقابلة)

6 من أصل 14 أثر عملهم كبرباشة في علاقتهم مع الناس.

7 من أصل 14 صرحوا بأنهم تعرضوا لبعض المشاكل بسبب مهنتهم.

«نعم، أنا اسكن في حي راقى، فدائما ما أرى نظرات الاحتقار «مسكينة قرات

قرات وتوة تلم في الزبلة»- أحلام، مقابلة 14

«يقولون «زبالة» ويحتقرونك...»- صابر، مقابلة 7

وتشير العديد من الدراسات لشيوع هذه الاضطرابات بنسبة أكبر بين جامعي النفايات اللانظاميين مقارنة ببقية السكان في عديد البلدان. كما تلعب العوامل الاقتصادية والاجتماعية كالفقر والعمل في بيئة غير صحية أو الإحساس بالامتهان والذل عند الاشتغال وسط القذارة دورا سلبيا في تدني النظرة إلى الذات بشكل يمكن أن يصل إلى اعتماد ميكانيزمات دفاع مثل استباق رفض الآخر بمواراة صفة «البرباش» عند تقديم الشخص لنفسه، وحتى ادعاء ممارسة مهنة أخرى مخالفة تماما («عامل يومي، لا أستطيع أن أقول برباش، أشعر بالخجل...» / «يسألونني عندما أكون في الحافلة، أقول لهم أنني أشغل في البريد...» / «أقول له أنا أعمل عاملاً في الكهرباء...»).

تكشف البيانات الكيفية التي جمعتها الدراسة عبر المقابلات البيوغرافية عن تدني الوضعية

الاجتماعية لعائلة البرباش في فترة الطفولة سواء في علاقة بالوضع المادي للعائلة الذي يتسم غالبا بالفقر أو في علاقة بمكان الولادة (الريف / الهامش الحضري)؛ حيث يتواتر استحضار فترة الطفولة كفترة تتسم بـ«التعاسة»، وهو ما يرجع أساسا إلى مظاهر الحرمان والخصاصة والفقر مما قد يُسهم في تعميق الإحساس بالنقص بشكل مبكر لدى الأفراد.

من جهة أخرى، فإن طبيعة العلاقات الاجتماعية في نطاق العمل تؤثر أيضا بشكل هام في نفسية البرباش خاصة النزاعات التي تنشأ بينهم في إطار التنافس على تحصيل المواد الثمينة القابلة للرسكلة، حيث يصرح 98.6 % من برباشة المصب بوجود نزاعات من هذا النوع، يرى حوالي الربع (25.7 %) أنها تُحل غالبًا باستعمال العنف، وتنخفض هذه النسبة إلى 63 % بين برباشة الفضاء العام مع نزعة أكبر للحوار لحلها (91.3 %) ونزعة أقل لاستعمال العنف (2.2 %). يعكس ذلك رهانات مختلفة من أجل البقاء بين برباشة المصب وبرباشة الفضاء العام.

ويساهم الضغط النفسي الناجم عن التعرض للوصم الاجتماعي والرفض المسلط من الآخر والإحساس بالعجز عن تلبية حاجيات الأسرة وتراجع النجاعة والقدرة على الصمود الجسدية والنفسية نتيجة لأمراض مزمنة أو إعاقات في تدني تقدير الذات عند البرباشة، وهو ما يساهم في زيادة مخاطر الإصابة بالاضطرابات النفسية الشائعة (Common mental health disorders) كاضطرابات الاكتئاب (Depressive disorders) واضطرابات القلق (Anxiety disorders) واضطرابات الإدمان كما تذكر ذلك العديد من الدراسات المقارنة. ونلاحظ في هذا السياق أن 26.8 % من برباشة المصب راودتهم أفكار سوداوية مثل الانتحار أو الاعتداء على النفس في الفترة الأخيرة، مقابل نسبة مماثلة لدى برباشة الفضاء العام (25 %)، إضافة إلى استهلاك الكحول بنسبة 49.3 % بين برباشة المصب مقابل 15.3 % فقط بين بقية البرباشة.

وتفترض الدراسات المقارنة أيضا وجود تعمق للآثار النفسية المرتبطة بالجنس وذلك لاعتبارات شتى تجعل النساء في موقع قوة غير متكافئ مقارنة بالبرباشة الرجال<sup>25</sup>، حيث يفيد 35.2 % من برباشة المصب بتعرض النساء لحالات تحرش أو اعتداء، مقابل 17.8 % في الفضاء

25 Makhubele, Matimba, Khuliso Ravuhali, Lazarus Kuonza, Angela Mathee, SpoKgalamono, Felix Made, Nohlanhla Tlotleng, Tahira Kootbodien, Vusi Ntlebi, Kerry Wilson, et al. 2019. «Common Mental Health Disorders among Informal Waste Pickers in Johannesburg, South Africa 2018—A Cross-Sectional Study.» International Journal of Environmental Research and Public Health 16, no. 14: 2618.

العام. كما يستدل من خلال بعض الشهادات في المقابلات البيوغرافية مع نساء برباشة تعرضهن لاحتقار اجتماعي مضاعف باستعمال السب القائم على الجندر.

**شهادة إحدى النساء البرباشة في الفضاء العام**  
«ينظرون إلى هذا العمل بنظرة دونية. جبراني يقولون لي أن هذا العمل هو عمل  
”خدمة متاع قحاب“. يقولون ”كان القحاب يخدموا غادي“. لا أحد يرحمنا..  
حتى عندما اشتغلنا في الزبلة قالوا إننا قحاب...» - فتحية، مقابلة 15

من جهة أخرى، تُبرز المقابلات البيوغرافية أهمية دور الإسناد الذي توفره الشبكات الاجتماعية والتي تحتل في نفسية المستجوبين مكانة خاصة؛ حيث يتواتر استحضار التأثير الإيجابي لتماسك العلاقات الأسرية وعلاقات الصداقة في المحيط القريب، وهو استحضار يبدأ من فترة الطفولة حيث سجلت الدراسة لدى غالبية البرباشة وجود ذكريات طيبة عن العلاقات مع الوالدين إضافة إلى تثمين دور العائلة و«العرش» كحاضنة دعم وعون.

## 2/ المحددات الفوقية للصحة

### تراكم محددات الهشاشة

يمثل البرباشة فئة تراكم الهشاشة على مستويات عدة من حيث المستوى التعليمي وظروف المعيشة والسكن والعمل وهي ظروف تميز هذه الفئة حول العالم<sup>26 27</sup>.

**تتعلق المحددات الاجتماعية أو الفوقية للصحة بالظروف التي يولد فيها الأشخاص، ويكبرون، ويتعلمون، ويعملون، ويعيشون، ويكبرون في السن، وهي مرتبطة بمجموعة أوسع وأكثر تعقيداً من القوى والأنظمة الفوقية التي توجه**

26 Coelho, APF, Beck, CLC., and Silva, RM. 2018. «Health conditions and illness risk of recyclable material collectors: an integrative review.» CiencCuid Saude 17 (1): 1-9.

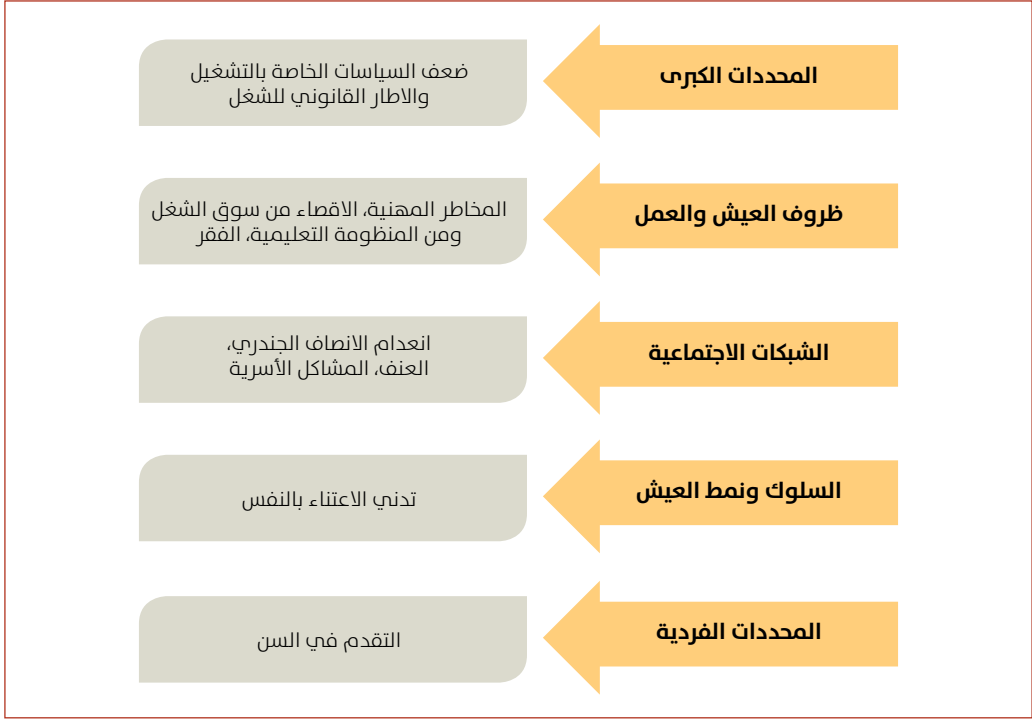
27 Cruvinel, VRN., Marques, CP, Cardoso, V., Novaes, MRCCG., Araújo, WN., Angulo-Tuesta, A., et al. 2019. «Health conditions and occupational risks in a novel group: waste pickers in the largest open garbage dump in Latin America.» BMC Public Health 19 (1): 581.

ظروف العيش وتتحكم في قدرة الأفراد على حماية صحتهم، وتشمل السياسات ومخططات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، وهي عوامل تؤثر تراكمياً في مدى صحة ومرض الأفراد والمجموعات البشرية، مُحدثةً فوارق وتفاوتات في الصحة<sup>28</sup>. يعتبر نموذج *Dalghren & White* الذي تبنته منظمة الصحة العالمية سنة 2005 مرجعاً لتعريف هذه المحددات، وهو يُصوّر التفاعل بين القوى الناتجة عن العوامل الاجتماعية للصحة سواء تلك التي تهتم الأفراد (مثل العوامل الشخصية والبيولوجية والسلوكية) أو العوامل الفوقية الكبرى التي تمثلها الظروف التاريخية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي يتقرر بمقتضاها مصير المجتمعات<sup>29</sup>.

كما أظهرت الدراسات أنّ جامعي النفايات القابلة لإعادة التدوير يمرّون بمسارات حياتية مميزة بالاستبعاد الدائم من سوق العمل وتدنيّ الفرص المتاحة للاندماج بطريقة مستدامة في الدورة الاقتصادية، وهم أيضاً عرضة لعوامل قوية من المعاناة المرتبطة بالتهميش والحرمان والوصم الاجتماعي<sup>30,31</sup>. ونظراً إلى عوامل الهشاشة المتعددة التي يواجهها البرباشة في حياتهم وعملهم، فإن مفهوم «المحددات الاجتماعية للصحة» يفرض ذاته لفهم الديناميكيات التي تُسَطّر مسارات الصحة والمرض في صفوف هذه الفئة، واستشراف إمكانات صياغة الاستجابة لها في إطار سياسات التنمية والإدماج الاقتصادي والاجتماعي.

- 28 World Health Organization (WHO). Health in all policies: training manual [Internet]. 2015 [cited 2018 Aug 02]. Available from: [http://apps.who.int/iris/bitstream/handle/10665/151788/9789241507981\\_eng.pdf?sequence=1](http://apps.who.int/iris/bitstream/handle/10665/151788/9789241507981_eng.pdf?sequence=1)
- 29 Dahlgren, G., and Whitehead, M. 2007. Policies and strategies to promote social equity in health. Background document to WHO – Strategy paper for Europe. Stockholm: Arbetsrapport/Institutet för Framtidssstudier. [Internet].
- 30 Coelho, APF, Beck, CLC., Fernandes, MNS., Prestes, FC., and Silva, RM. 2016. «Work risk related to illness and defensive strategies of collectors women's waste recyclable.» Esc Anna Nery 20 (3): e20160075.
- 31 Coelho, APF, and Beck, CLC. 2016. «Production about the health of the gatherer of recyclable materials: a study of trends.» Rev Enferm UFPE 10 (7): 2747-55.

## نموذج للمحددات الاجتماعية الخاصة بالبرباشة



### الحلقة المفرغة للمخاطرة بالصحة من أجل لقمة العيش

تخترق المسارات البيوغرافية للمستجوبين محددات هشاشة متنوعة تبدأ منذ سن الطفولة بالتعرض المبكر لضحك العيش ومعيش الحرمان المسلط غالباً على العائلة بأكملها، يليه في جُلّ الحالات انقطاع مبكر عن الدراسة للاشتغال بحرف شتى (العمل في مجال الفلاحة، التجارة، النجارة، «الدهينة»، جمع القوارير البلاستيكية، معينات منزليات، في المصانع والمعامل، في الخياطة...). تبدو الاستماتة من أجل البقاء عنواناً جامعاً لكل هذه المراحل والمحطات في حياة المستجوبين بما يعنيه ذلك من إحساس مستمر بوجود «خطر ما» يتهدّد وجودهم الاجتماعي والاقتصادي ويدفعهم نحو المخاطرة المستمرة بصحتهم من أجل كسب لقمة العيش؛ حيث يعتبر كل المستجوبين من خلال المقابلات البيوغرافية أنّ عملهم كبرباشة «غير مفيد لصحتهم».

## المخاطرة بالصحة لكسب لقمة العيش

- لدى المستجوبين بيوغرافيا بمصب برج شاكير (15 مقابلة)  
15 من أصل 15 يرون أن عملهم في المصب لا يفيدهم على المستوى الصحي.
- لدى المستجوبين بيوغرافيا في الفضاء العام (14 مقابلة)  
14 من أصل 14 أفادوا بأن عملهم لا يفيدهم على المستوى الشخصي خاصة في علاقة بالجانب الصحي رغم ما يوفره من عائد مادي (ولو قليل).

تفصح مقارنة الشهادات الواردة في المقابلات البيوغرافية عن مفارقة أخرى بين برباشة مصب برج شاكير وبرباشة الفضاء العام؛ حيث يصرح معظم برباشة المصب (14 من أصل 15) إجابة عن سؤال «الخدمة هذي تنجم تعيش عالية؟» بأن العمل في المصب يكفي لتأمين حياة عائلة بالحد الأدنى المطلوب لاستمرار حياتهم، غير أنه مشروط بالعمل اليومي في المصب دون غياب وبأن يكون العامل متمتعاً بصحة جسدية تسمح له بالعمل طوال اليوم. غالبية برباشة المصب (9 من أصل 15) يعتبرون مستوى عيشهم متوسطاً مقارنة ببرباشة الفضاء العام حيث يعتبر 10 من أصل 14 أنهم فقراء أو دون المتوسط. هذه المفارقة تتجلى أيضاً لدى تحليل البيانات الكمية حيث يصرح 57.5% من برباشة الفضاء العام أن الدخل المتأتي من نشاطهم لا يكفي بتاتا لتغطية مصاريف العائلة، مقارنة ببرباشة المصب حيث تنزل النسبة إلى 36.6%. تكشف هذه الفوارق عن تفاوتات في مستوى الدخل والقدرة على تحسين المعيشة انطلاقاً من نشاط «التربيش» مع نوع من «التفوق» النسبي في هذا المستوى لبرباشة المصب الذين يؤهلهم دخلهم للاستجابة لحاجيات عائلاتهم أكثر من برباشة الفضاء العام، ويمكن تفسير ذلك بالقيمة الاقتصادية للنفايات القابلة للرسكلة الممكن العثور عليها في المصب، مقارنة بقيمة نفس النفايات الملقاة في الفضاء العام. كما أنّ تمايز برباشة المصب على نظرائهم في الفضاء العام يتجلى أيضاً عبر تواتر أكبر على مستواهم لشهادات يعبرون فيها عن رضاهم النسبي عن الدخل المتأتي من نشاطهم.

## مدى رضا البرباشة عن قدرتهم المالية

- لدى المستجوبين بيوغرافيا بمصب برج شاكير (15 مقابلة)  
«في الحقيقة نكسب المال وإن قلت عكس هذا فأنا أكذب، هذا العمل يجعلنا نكسب المال ويعيلنا والحمد لله...» - سمير، مقابلة 2

الحمد لله متوسط...»- جميلة، مقابلة 12  
«متوسط...مثلا أمس اشتغلت ب10د اشترت بهم القليل من الخضر و اللحم  
وتناولنا العشاء. كملتهم و بتنا متعشين الحمد لله...»- مباركة، مقابلة 5  
«بالتأكيد، كلنا لدينا عائلات و نعيش من هذا العمل، كراء و ضوء و ماء و أكل»-  
فاطمة، مقابلة 6

● لدى المستجوبين بيوجرافيا في الفضاء العام (14 مقابلة)  
«أنا في مستوى «أسفل السافلين» مستوى أتعس بكثير من الفقرو...»- زياد،  
مقابلة 11

«دون المتوسط...»- جميل، مقابلة 2  
«العمل وحده غير قادر على توفير الحاجيات المنزلية بل المساعدات المادية التي  
أتلقاها هي التي تساعدني على توفير المستلزمات والاحتياجات الأسرية»- رانية،  
مقابلة 13

نستخلص من هذه المعطيات فرضية وجود ترابط بين فرصة الحصول على مدخول أكبر من نشاط «التبريش» ومدى تعريض الذات للمخاطر الصحية المهنية المتأتية منه، فكلما زادت نسبة المخاطرة بالصحة كلما زادت القدرة على ضمان وضع مالي أحسن، وهو ما يكشف عن الثمن الهائل الذي يدفعه المستجوبون من أجل الحفاظ على بقائهم داخل هذه الحلقة المفرغة. خلاصة تتدعم بالمرتبة الثانية التي تحتلها النفقات الصحية كأولوية في الإنفاق لدى برباشة المصّب، والتي أشرنا إليها سابقا، وهو ما يحيل إلى وجود استعداد وقدرة أكبر عند هذه الشريحة المعرضة لمخاطر صحية أشد لتعبئة الموارد المالية من أجل الصحة.

### مخاطرة بالصحة رغم الأمراض المزمنة والإعاقة

لا تبدو الإصابة بمرض مزمن أو بإعاقة حاجزا يحول دون مواصلة المخاطرة بالصحة لممارسة نشاط «التبريش»؛ حيث تبلغ نسبة الأمراض المزمنة 27.7 % لدى مجموع المستجوبين (29.6 % داخل المصّب مقابل 26.4 % خارج المصّب)، مع الأخذ بعين الاعتبار إمكانية وجود أمراض سابقة للعمل في النفايات وإمكانية تفاقم هذه الأمراض نتيجة الإجهاد المتأتي من العمل أو بسبب نشوء أمراض مزمنة جديدة ناتجة عن التعرض المتواصل للمخاطر المهنية المرتبطة بـ«التبريش». كما تسجل البيانات الكمية وجود عدد 12 من مجموع العينة حاملين لإعاقات

جسدية و8 لأمراض نفسية لم تمنعهم من مواصلة النشاط في جمع النفايات، وهو ما يطرح نقطة استفهام حول مدى الأمان الاقتصادي والاجتماعي الذي توفره السياسات العامة الخاصة بالفئات ذات الاحتياجات الخصوصية ودرجة الشعور بالحاجة والحرمان التي تدفعها لتحدي إعاقتها وخوض غمار فرز وتجميع النفايات الخطرة.

### لمحة عامة عن المشاكل الصحية المزمنة عبر المقابلات البيوغرافية

- لدى المستجوبين بيوغرافيا بمصب برج شاكير (15 مقابلة) أغلبية مطلقة (11 من أصل 15) تعرضت إما للإصابة الجسدية جراء حادث داخل المصب، أو إلى الإصابة بجملة من الأمراض خاصة تلك المتعلقة بالجهاز التنفسي وحساسية الجلد.
- 11 من أصل 15 فقد أفادوا بأنهم، وبسبب عملهم في المصب، قد تعرضوا لعدد الإصابات والحوادث كما تمت إصابتهم بعدد الأمراض منها الحساسية والبرد وأمراض المعدة وضيق التنفس وآلام المفاصل وأمراض الدم ومرض البوصفير...
- لدى المستجوبين بيوغرافيا بالفضاء العام (14 مقابلة) 14 من أصل 14 مصابون بعدد الأمراض (السكر/القلب/عمليات جراحية جراء حوادث العمل/ضيق التنفس...).

### أثر أزمة الكوفيد 19

ألقت أزمة الكوفيد 19 بظلالها على فئة البرباشة حيث يذكر 56.4% من مجموع المستجوبين بتدهور صحتهم النفسية أثناء الجائحة (60.6% داخل المصب مقابل 54.2% في الفضاء العام)، وفي نفس السياق يصرح 38.8% (50.7% داخل المصب و27.8% في الفضاء العام) أنهم تحمّلوا أعباءً مالية إضافية جراء إصابة أحد الأقرباء بالمرض.

يُلاحظ أيضا تقاربُ بين نسب هامة لدى الشريحتين بخصوص الوعي بخطورة المرض حيث يصرح 88.7% من برباشة المصب و87.5% من برباشة الفضاء العام بأنهم استعملوا وسائل الوقاية من الكوفيد أثناء الجائحة (الكمامة - الجال المطهر)، من جهة أخرى نتبين وجود تفاوت في الوعي بأهمية التلقيح حيث يصرّح 70.8% من البرباشة في الفضاء العام بأنهم مع فكرة التلقيح، و73.6% منهم بأنهم سجلوا للحصول على التلقيح، و75% منهم بأنهم تلقوا

التلقيح، بينما تنخفض هذه النسب بالتوالي إلى 36.6 % بين برباشة المصب مع فكرة التلقيح، و39.4 % منهم سجلوا للحصول على التلقيح، و54.9 % تلقوا التلقيح<sup>32</sup>. وتكشف هذه الأرقام عن وجود انقسام في سلوك البحث عن الدعم والوقاية أثناء أزمة الكوفيد بين برباشة المصب وبرباشة الفضاء العام، الأمر الذي قد يستحق تفسيره تعمقا أكثر على مستوى الأسئلة الموجهة للعينة، رغم أنه نستطيع افتراض صعوبة تفكير برباشة المصب في تخصيص يوم عمل كامل أو أكثر للبحث عن التلقيح باعتبار بُعد المصب عن مقر سكنهم ومشقة التنقل منه وإليه، على عكس برباشة الفضاء العام الذين يمتلك 75 % منهم دراجة نارية بينما لا يمتلك برباشة المصب دراجة نارية إلا بنسبة 5.4 %.

كما يفصح 38.8 % من مجموع العينة بأنهم أحسوا بوجود مساندة من طرف الدولة أثناء فترة الكوفيد (42.3 % داخل المصب مقابل 36.1 % في الفضاء العام) و54.1 % بثقتهم في المؤسسات الصحية العمومية للعلاج ضد الكوفيد 19.

### الجندر كمحدد خفي لإقصاء مضاعف

يطغى الرجال على نشاط جمع النفايات اللانظامي بصفة واضحة سواء كان ذلك داخل العينة المستجوبة في المصب (74.6 %) أو خارجه (79.5 %)، وهي خاصية تشترك فيها هذه العينة مع العديد من العينات الأخرى حول العالم. ويكشف التعمق في شهادات النساء البيوغرافية عن حضور بُعد مهم في تحديد القدرة على النفاذ إلى نشاط «التبريش» كنشاط رجالي بالأساسي يمارس في فضاء عام مليء بالأخطار، وهو ما يتقاطع مع المحركات الخفية للتنشئة الاجتماعية القائمة على الستيرويدية والجندرية والتي تميل إلى جعل الولوج للامشروط للفضاء العام المفتوح امتيازاً شبه حصري للذكور، حيث سجلت الدراسة شهادات عن حالات عنف قائم على الجندر مارسها بعض من الرجال العاملين في المصب على النساء اللواتي وإن لجأن للاحتجاج بقطع الطريق فإنهن لم ينجين من عنف آخر متواطئ مع العنف الاجتماعي تمارسه مؤسسات رسمية «ذكورية»، يتمثل في التهديد بالسجن والطرده الذي تعرضن إليهما عند تقديم شكوى بخصوص العنف المسلط عليهن لدى السلط الأمنية.

32 نوه إلى أن تلقي التلقيح لم يكن مرتبطاً بضرورة التسجيل خاصة وأنه تم تنظيم أيام مفتوحة تلقى فيها المواطنون التلقيح دون تسجيل

**شهادات البرباشة النساء في المصب عن العنف القائم على الجندر**  
**«قمنا باحتجاج للنساء فقط، اثر تعرض زميلتنا للضرب من قبل برباش. أغلقنا**  
**الطريق على الشاحنات ثم ذهبنا إلى المركز جميعنا. ووقع تهديدنا من قبل الشرطة**  
**وقتها وهددونا بأنه سيتم سجننا...»- فتحية، مقابلة 15**  
**«في يوم من الأيام، الرجال في المصب منعونا من العمل معهم، فاشتكيننا لرئيس**  
**المركز لكنه لم يستجب فذهبنا إلى منطقة الشرطة فطردونا...»- فتحية،**  
**مقابلة 15**

تطرح مقارنة الجندر إشكالات إضافية تتعلق بمدى وجود تفاوتات داخلية تخترق شريحة البرباشة نفسها خاصة العاملين في المصب الذي يمثل فضاءً مفتوحاً-مغلقاً قد يكون الاحتكاك فيه بين الرجال والنساء أشدّ مقارنة بالفضاء العام. نستحضر هنا أيضاً القيمة المادية المرتفعة للنفايات القابلة للرسكلة والتثمين والدور الاجتماعي المناط بعهدة الرجال عبر التنشئة الاجتماعية والذي يحمل على عاتقهم مهمة توفير القوت والموارد للعائلة، وهو ما قد يعمّق شدة التنافس على فرص الكسب التي يوفرها المصب. تشير بعض الدراسات العالمية إلى وجود اختلافات حتى في طبيعة المواد القابلة للرسكلة التي يجمعها الرجال مقارنة بالنساء، حيث قد تكون النساء أقل نزعة لجمع المواد الالكترونية والمعدنية التي قد تكون ذات قيمة مالية أهم، وهو ما جعل العديد من الباحثين يؤكدون على ضرورة اعتماد المقاربة الجندرية عند دراسة واقع جامعي النفايات اللانظاميين<sup>33</sup>.

يلاحظ في هذا الصدد أيضاً اختلاف هام في الإجابة عن مدى وجود اختلاف في التعامل مع الوافدين الجدد على المهنة حسب الجنس؛ حيث يجيب برباشة المصب بنعم بنسبة 39.5 % بينما تنخفض هذه النسبة إلى 24.6 % بين برباشة الفضاء العام. ويبرز هذا البعد بشكل أكبر في نسبة الرفض المبدئي لفكرة اشتغال المرأة بنشاط التبريش والتي تقارب 76.1 % داخل المصب مقارنة بـ 45.2 % في الفضاء العام، وهو اختلاف يُزيح الستار عن مدى أهمية رهان الكسب والتحصيل لدى الرجال داخل المصب وتأهبهم لتعبئة ستيريوتيبات الجندر للدفاع عن سيطرتهم

33 Dias, S., and Fernandez, L. 2012. «Wastepickers: a gendered perspective|WIEGO.» In Powerful Synergies: Gender Equality, Economic Development and Environmental Sustainability, edited by Blerta C., Dankelman I., and Stern J. United Nations Development Programme.

على مجال يرون أنه لا بد أن يبقى منحصرا على الذكور. ونستطيع أن نستشف من هذا الأمر أنّ هناك قناعات متجذرة بعمق في التنشئة الاجتماعية تُوطّر هذه الرؤية الاقصائية للنساء خاصة لدى رجال المصب (81.8 %) حيث يرى 53.7 % منهم أن درجة خطورة «التبريش» تجعل منه نشاطا غير ملائم للنساء (مقابل 81.8 % في الفضاء العام)، ويرى 24.1 % أنّ ممارسة النشاط تستوجب التحلي بالقوة والاستعداد لممارسة العنف (مقابل 3 % في الفضاء العام)، كما يرى 22.5 % أنّ البرباشة للنساء يجب أن يعملن داخل مجموعات نسائية بعيدا عن الرجال بينما لا يشاركنهن في هذا الرأي برباشة الفضاء العام إلا بنسبة 6.8 % وهو ما قد يعكس مقبولية أكبر لحضور العنصر النسائي في الفضاء الجغرافي المفتوح، وهذه المفارقة في رفض الحضور النسائي تتجلى أيضا في مدى مقبولية فكرة عمل المرأة خارج البيت حيث تواجه هذه الفكرة بالرفض بين 56.4 % بين برباشة المصب مقابل 38.3 % بين برباشة الفضاء العام<sup>34</sup>.

يفصح حضور الربط بين «التبريش» وقيم «القوة» و«العنف» بشكل أكبر لدى الرجال البرباشة في المصب مقارنة بالرجال البرباشة في الفضاء العام عن تأصل أعمق لفكرة مشروعية العنف القائم على الجندر داخل المصب كفضاء كسب «مغلق» و«محدود جغرافيا»، حيث يوافق 80.2 % من برباشة المصب على فكرة استعمال الزوج للعنف المادي لحلّ مشكل مع الزوجة، بينما تقابل الأغلبية الساحقة لنظرائهم خارج المصب هذه الفكرة بالرفض بنسبة 94.5 %. من ناحية أخرى، يمكن تفسير النزعة الأكبر لدى البرباشة الرجال في الفضاء العام لاعتبار طبيعة «الريسك» المرتبط بنشاطهم لا تتلاءم مع اشتغال النساء به بالمدرجات الجندرية التي تُحدّد هامش التحرك بحرية وأمان في الفضاء العام باعتباره فضاء مفتوحا أمام مخاطر أكبر للعنف بصفة عامة وللعنف القائم على الجندر بصفة خاصة.

كما تطرح هذه التقاطعات أيضا أسئلة إضافية عن الاختلافات في إدراك مفهوم الخطورة أو «الريسك» حسب الجندر بالنسبة للبرباشة داخل المصب، حيث يمكن افتراض وجود خطورة أكبر لنشاط «التبريش» من وجهة نظر النساء باعتبارهن معرّضات لهشاشة مضاعفة متأتية من تفاعل مختلف العوامل الأخرى للهشاشة اقتصاديا واجتماعيا مع العوامل المرتبطة بالجندر، لتنتج ميكانيزمات استضعافية تُسلطّ عليهن بصفة مخصوصة يتحالف فيها الإقصاء والتهميش الخارجي مع إقصاء داخلي قائم على الجندر وتوزيع لامتكافئ حسب النوع الاجتماعي لحرية

التحرك كانسان مهمّش في الفضاء العام والاستفادة من فرصه، وهو ما يستوجب اعتماد استبيانات وأسئلة حسّاسة للنوع الاجتماعي خلال البحث الكمي والكيفي من أجل كشفه ودراسته، خاصة وأنّ بعض الدراسات العالمية تشير إلى نزعة أكبر لدى البرباشة النساء للاقتصار على عدد أيام عمل أقل من الرجال باعتبار واجبات الرعاية غير مدفوعة الأجر (رعاية الأطفال، العُجز، المسنين، في الوسط المنزلي) المحمولة عليهن<sup>35</sup>.

### السياسات العامة وإمكانيات الإدماج المهدورة

تعكس الشهادات البيوجرافية أيضا وعيا بوطأة المحددات الفوقية للصحة على الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لجميع المستجوبين الذين يرون أنّ الدولة تلعب دورا سلبيا بخصوصهم ولا تدعمهم؛ حيث يعبر برباشة المصعب عن خيبة أملهم من غياب كلّ تدخل لتنظيم المصعب وإدارته، إضافة إلى شبه إجماع بينهم بأنّ تأمين حقّهم في الصحة غير ممكن دون سياسات عامة تضمن لهم التغطية الصحية والاجتماعية وتوفر لهم التلقيح اللازمة لحمايتهم.

#### رؤية البرباشة لدور السياسات العامة

##### ● لدى المستجوبين بيوجرافيا بمصعب برج شاكير (15 مقابلة)

13 من أصل 15 أفادوا بأنّ تفاعل الدولة الحالي مع العاملين في المصعب تفاعل سلبي جدا حيث اعتبروا أنّها «ضد» العاملين فيه.

14 من أصل 15 أفادوا بأنّ تدخل الدولة في المصعب لتنظيم العمل فيه بشكل قانوني قد يكون له تأثير إيجابي خاصة إذا تعلق بتوفير أجر شهري قار وتوفير التغطية الصحية والاجتماعية وتوفير التلقيح اللازمة لحمايتهم خاصة من نفايات المستشفيات.

«الدولة ضد البرباشة فهي لا تقدم شيئا للبرباشة...» - فاطمة، مقابلة 6

«أكيد ستفيدني، عندها سيصبح لي تغطية اجتماعية...» - أمير، مقابلة 1

##### ● لدى المستجوبين بيوجرافيا في الفضاء العام (14 مقابلة)

14 من أصل 14 يعتبرون أنّ الدولة ضد البرباشة لأنها لم تتدخل لتحسين

35 Schenck, C.J., Blaauw, P.F., and Viljoen, J.M.M. 2016. «The socio-economic differences between land-fill and street waste pickers in the free state Province of South Africa.» Dev Southern Afr 33 (4): 532-547.

وضعيتهم.  
10 من أصل 14 يرون أنّ للدولة قدرة على التدخل من أجل تقنين العمل وبالتالي ضمان الإفادة لهم.  
«الدولة هي برباشة بطبعها، الدولة ضد البرباشة، فهي مستفادة من التبريش، فنحن نعمل لصالح الدولة دون أجر مقنن...»- أحلام، مقابلة 14  
«من سيحتج معك ولا يوجد مسؤول يسمعك...»- صابر، مقابلة 7  
«الدولة غير قادرة على تقديم شيء للبرباشة في هذا الواقع السياسي والاجتماعي...»- أحلام، مقابلة 14

ويمكن قراءة العلاقة المتوترة بين البرباشة والسياسات العامة من خلال النظريات التحفيزية (Motivational theories)، وهي أربعة، التي قام بصياغتها الباحث (Navarrete-Hernandez) لتفسير الدوافع التي تحمل الناس على احتراف نشاط «التبريش»<sup>36</sup>. تفترض النظرية الثنائية (Dualist theory) وجود علاقة عكسية بين عدد الأشخاص الذين يعملون كجامعي نفايات والنمو الاقتصادي. وعمومًا، تعتمد السياسات الثنائية فيما يتعلق بجامعي النفايات اللانظاميين على مسلمات ذات طبيعة قمعية تستند إلى الافتراض بأنّ زيادة توليد فرص العمل في الوظائف الرسمية ستقلّل من عدد الأشخاص الذين يعملون كجامعي نفايات.

أما النظرية الهيكلية (Structuralist theory) فترى أنّ جمع النفايات أساس رئيسي للنظام الرأسمالي، حيث يعمل جمع النفايات كوسيلة لتلبية الطلب على المواد القابلة لإعادة التدوير من المؤسسات الرسمية وهو بعد يتجلى الوعي به في شهادة أحد البرباشة الذي قال «الدولة هي برباشة بطبعها، الدولة ضد البرباشة، فهي مستفادة من التبريش، فنحن نعمل لصالح الدولة». تتمكّن الصناعات وغيرها من المؤسسات الرسمية من خفض تكلفة الإنتاج وزيادة العوائد بفضل توافر مواد قابلة للرسكلة بتكلفة منخفضة نتيجة لجمع النفايات. فبشكل عام، يقلل جمع النفايات من تكلفة الإنتاج. المنظرون الهيكليون يعتقدون أنّ هناك علاقة إيجابية بين جمع النفايات والنمو الاقتصادي، لذلك تشجع هذه النظرية على اعتماد سياسات على تكوين جمعيات

36 Navarrete-Hernandez, P. 2015. «Scavenging revisited: supporting scavengers in Santiago de Chile.» In The Ideal City: Between Myth and Reality. Representations, Policies, Contradictions and Challenges for Tomorrow's Urban Life.

ونقابات لجامعي النفايات، بهدف تعزيز قدراتهم على التفاوض على أسعار أفضل لبضاعتهم وظروف عمل أكثر إنصافاً لهم.

ترى النظرية النيوليبرالية (Neoliberaltheory) من ناحيتها جامعي النفايات كرجال أعمال على نطاق مصغر، يرتبط نشاطهم ارتباطاً وثيقاً بالصناعة الرسمية. أولاً، يوفر جمع النفايات على المستوى الصناعي للصناعات المحلية بديلاً معقولاً أو رخيصاً للمواد الخام، مما يقلل من تكلفة الإنتاج وبالتالي يزيد الأرباح والتنافسية على المستوى الصناعي. ثانياً، يحدد السوق الرسمي للمواد الخام أنواع المواد البديلة المطلوبة والأسعار المدفوعة لجامعي النفايات، وبالتالي فإن جمع النفايات مرتبط بشكل لا يتجزأ بمستوى التنافسية للصناعات المحلية. فيما يرى المحافظون الجدد أنّ هناك علاقة عكسية/سلبية بين جمع النفايات والنمو الاقتصادي. في أوقات الأزمة الاقتصادية، يؤدي تخفيض قيمة العملات المحلية إلى ارتفاع أسعار المواد الخام المستوردة، وهذا بدوره يؤدي إلى زيادة الطلب على المواد البديلة الأرخص أو المواد الخام التي يعيدها «البرباشة» إلى داخل الدورة الاقتصادية. وفق هذه الرؤية يعتقد الليبراليون الجدد أنّ جمع النفايات هو نشاط فعّال للغاية يعاني من العراقيل التنظيمية ونقص التشريع أو الاتجاه السياسي، مما يؤدي إلى عدم قدرة جامعي النفايات على تحقيق أقصى إمكاناتهم الاقتصادية.

مع نظرية التشارك في الإنتاج (Co-production theory)، هناك عدد متزايد من الباحثين الذين يدعون إلى الاعتراف وإعطاء الأولوية لدور الاقتصاد غير الرسمي كلاعب مهم في تقديم الخدمات العامة في الدول النامية، حجتهم في ذلك أنّ الاحتكار الذي تتمتع به الدولة في تقديم الخدمات العامة الأساسية واستراتيجيات الخوصصة قد فشلت في تقديم خدمات عامة ذات جودة محترمة في معظم الدول النامية نتيجة للقيود اللوجستية وعدم كفاءة الحوكمة. وقد تكون القيود اللوجستية والفشل مرتبطين بتقديم الخدمات العامة للمجتمعات المحرومة التي تتوزع على نطاق واسع من الناحية الجغرافية ولا تملك القدرة على دفع تكلفة الخدمات المقدمة. على الجانب الآخر، قد ينتج عن عدم كفاءة الحوكمة وفشلها عدم قدرة المؤسسات على ضمان تقديم خدمات عامة مستدامة مع تحقيق نظام تمويل مستدام. ويقترح منظرو هذه المدرسة تأسيس شراكات طويلة الأمد بين البرباشة والدولة من أجل تجميع المواد القابلة للرسكلة، وذلك في إطار تعاون بين الاقتصاد غير الرسمي والاقتصاد الرسمي يمكن أن يكون بديلاً أفضل لتعزيز النجاعة الاقتصادية، والعدالة الاجتماعية، والآثار البيئية الإيجابية لجمع النفايات.

## التغطية الصحية والاجتماعية

صرّح حوالي 38.8 % من البرباشة المستجوبين بعدم امتلاكهم لبطاقات علاج من أي نوع كانت (29.6 % داخل المصب و47.9 % في الفضاء العام)، ويمكن تفسير هذا الاختلاف بافتراض أنّ البرباشة داخل المصب معرّضون لأخطار صحية أكبر وقد يكونون بالتالي أكثر حرصا على تعبئة الموارد والإمكانيات بهدف تسوية وضعية التأمين الصحي الخاصة بهم، خاصة وأنّ المصاريف الصحية لدى برباشة المصب تأتي في المرتبة الثانية في سلم أولويات المصاريف على عكس برباشة الفضاء العام (14.1 % من برباشة المصب يعتبرون الإنفاق على الصحة أولوية، أي المرتبة الثانية بعد الطعام، مقابل 6.8 % من برباشة الفضاء العام، أي المرتبة الخامسة بعد الطعام والكراء والفواتير والدراسة). وقد يلتجئ البعض من أفراد العينة إلى التداوي باستخدام دفتري علاج القرين مثلما صرّحت بذلك إحدى النساء العاملات في المصب، ممّا يطرح مرة أخرى السؤال حول مدى وجود تفاوتات جندرية بين الرجال والنساء داخل الفئة المستجوبة بخصوص مدى قدرة كل منهما على النفاذ إلى حقه في الصحة<sup>37</sup>.

**أداوي بدفتري علاج زوجي "الكرنبي" في المستشفيات العمومية أو المستوصف...-  
فتحية، مقابلة 15**

ورغم تصريح 68.7 % بثقتهم في خدمات الصحة العمومية، فإن المقابلات البيوغرافية تكشف عن مفارقة أخرى تتمثل في توجه الكثيرين للعلاج في القطاع الخاص حتى عند امتلاكهم لدفتري علاج يمكنهم من النفاذ إلى خدمات القطاع العام، وقد يفسر ذلك بالمعوقات التي تحول دون سهولة النفاذ إلى خدمات الصحة العمومية غير الاستعجالية سواء كانت تخص العيادات الخارجية أو الإقامات الاستشفائية والعمليات الجراحية والتدخلات العلاجية والتشخيصية غير المستعجلة والتي غالبا ما تتميز بطول قوائم الانتظار وصعوبة الحصول على مواعيد قريبة.

**امتلاك واستعمال دفتر علاج****● لدى المستجوبين بيوغرافيا بمصب برج شاكير (15 مقابلة)**

8 من أصل 15 أفادوا بأن ليس لهم بطاقة علاج وبأنهم مجبرون على التداوي في القطاع الخاص.

7 من أصل 15 من برباشنة المصب الذين أجريت معهم مقابلات بيوغرافية أفادوا بأن لهم بطاقات علاج تخول لهم/تضمن لهم حق التداوي في القطاع العام (بطاقات علاج بيضاء أو بطاقة علاج صفراء). كما أفادوا بأنهم في بعض الحالات والمرات يتوجهون إلى القطاع الخاص في حال عدم وجود الأدوية أو أطباء الاختصاص في المستشفى العمومي أو في حالة تحصلهم على مواعيد عيادة بعيدة.

**● لدى المستجوبين بيوغرافيا في الفضاء العام (14 مقابلة)**

4 من أصل 14 صرحوا أن لهم بطاقة علاج و10 صرحوا أنهم يتعالجون في القطاع الخاص.

يبقى التمتع بالتغطية الصحية في تونس رهين الانخراط بالصندوق الوطني للتأمين على المرض (الكنام)، خاصة في حالة وقوع حادث عمل أو مرض مهني. وعادةً ما يتم تسجيل العاملين في القطاع الرسمي في الصندوق من قبل أرباب العمل، ممّا يتيح لهم الاستفادة من مجموعة متنوعة من الخدمات، بما في ذلك الرعاية الطبية والتعويض في حالة وقوع حادث عمل أو مرض مهني وحتى منحة معاش في حالة حدوث مرض يتسبب في عجز عن العمل، وأحياناً حتى التقاعد المبكر لأسباب صحية.

وفي غياب التمتع بالحماية التي يجب أن توفرها مظلة التغطية الصحية الشاملة فإنّ شبح تصاعد النفقات المباشرة من الجيب على الصحة (Out-of-pocket health expenditure) يتربص بالبرباشنة، وفي هذا السياق يصرح 57.1% من برباشنة المصب الحاملين لأمراض مزمنة عن اضطرارهم للانقطاع عن أدويتهم بسبب ظروفهم المادية مع ارتفاع هذه النسبة لـ 94.7% بين برباشنة الفضاء العام والذين تبدو وضعيتهم المادية، كما سبق ذكره، أشد هشاشة من وضعية نظرائهم في المصب. كما يحضر الشعور بالغبن بسبب غياب التغطية الصحية والاجتماعية في المرتبة الثانية في سلم الإشكاليات التي يتعرض لها البرباشنة داخل المصب (28.2%)، بعد غياب الإطار القانوني للمهنة الذي يسجل نسبة 33.8%) والمرتبة الأولى بالنسبة لبرباشنة الفضاء

العام بنسبة 32.9 % وهو ما يمكن ربطه جزئياً بالملاحظة السابقة حول الانقطاع عن الدواء بسبب الظروف المادية.

## خاتمة

يفصح استقراء نتائج هذه الدراسة من منظور الصحة العامة عن تشعب مسارات الخطورة الجسدية والنفسانية المرتبطة بنشاط التبريش، ومضاعفاتها الجسيمة على صحة ورفاه الأفراد، وتفاعلاتها السلبية اللامتناهية مع المحددات الفوقية للصحة في مستوياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية، والتي تكبد هذه الفئة الشديدة التعلق بعملها إنهاكاً متواصلًا قد لا يمنع البعض ممن أصابته مضاعفات صحية مزمنة من مواصلة الاستثمار رغم كل شيء فيما تبقى له من قوة، درءاً لتفاقم الحاجة وصونا لكرامته وكرامة ذويه، وهو ما يؤسس للدوران في حلقة مفرغة تتراكم فيها مستويات الهشاشة لتأبى حالة الوهن والاستضعاف. إنّ هذه الدراسة في جزئها المتعلق بالصحة تعبير عن نضج الوعي العلمي بإشكالات الفئات المهمشة في تونس لدى شريحة هامة من مجتمع الباحثين، وهي خطوة أولى لسدّ الفراغات الهائلة في المدونة العلمية المحلية المتعلقة بالجمع اللانظامي للنفايات كظاهرة تعكس غياب مقاربة إدماجية حقيقية ومستديمة للاقتصاد غير الرسمي، وتفاعلاً مخزياً من تفاعلات استفحال الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي تعبرها البلاد منذ سنوات، ووجه جديد متجدد لمحدودية مظلة التغطية الصحية الشاملة التي يبدو أنها باتت أضيق من أن تسع تحتها الجميع في تونس.

## ببليوغرافيا مختارة :

Navarrete-Hernandez, P. 2015. «Scavenging revisited: supporting scavengers in Santiago de Chile.» In The Ideal City: Between Myth and Reality. Representations, Policies, Contradictions and Challenges for Tomorrow's Urban Life.

Dias, S., and Fernandez, L. 2012. «Wastepickers: a gendered perspective|WIEGO.» In Powerful Synergies: Gender Equality, Economic Development and Environmental Sustainability, edited by Blerta C., Dankelman I., and Stern J. United Nations Development Programme.

Coelho, APF, Beck, CLC., and Silva, RM. 2018. «Health conditions and illness risk of recyclable material collectors: an integrative review.» CiencCuidSaude 17 (1): 1-9.

Coût de la dégradation de l'environnement due aux pratiques de gestion des déchets solides dans le Grand Tunis, GIZ, Mai 2014.



# حياة بين النفايات: مقاربة أنثروبولوجية لعوالم البرباشة في تونس

إحسان ماجدي

باحث في الانثروبولوجيا

## مقدمة

يجيب هذا المحور عن الأسئلة البحثية لهذه الدراسة إجابة أنثروبولوجية تحاول أساساً استجلاء عوالم البرباشة في تونس. وما يهمنا في هذا المحور هو فهم حياة البرباش وعلاقاته بالنفايات. تحاول هذه الدراسة عموماً الإجابة عن سؤالين رئيسيين: كيف ولماذا يصبح الفرد جامعاً للنفايات، أو برباشاً كما يُطلق عليه في السياق التونسي؟ وكيف يمكن لمكبّ النفايات أو حاوية النفايات في الشارع أن تولّد منظومة اقتصاد غير رسمي متكاملة؟

إنّ تناول الأسئلة البحثية لهذه الدراسة من زاوية نظر أنثروبولوجية في هذا المحور يتطلّب تحليل ضمنيّ مهمّة لا يمكن التغافل عنها إذا رما فهم عوالم البرباشة في تونس سواء في الشارع أو في مكبات/مدافن النفايات. ونشير هنا إلى أنّه لا يمكننا الإجابة عن السؤالين الرئيسيين للبحث إجابة أنثروبولوجية دون أن نفهم مثلاً علاقة البرباش بالنفايات، وبمفاهيم كالدنس والطهارة مثلاً، أو كيف يمكن لفضاء كالمكب/المصب، يتم تمثله عادة كمساحة ميتة (lifeless-space)، أي كفضاء لدفن النفايات، أن يستحيل فضاء حياة لأفراد ولعائلات يرتبط عملهم وتمثلات العمل لديهم بالنفايات؛ بل إنّ مصب النفايات (مصّب برج شاكير)، كما يكشف العمل الميداني الاثنوغرافي في سياق بحثنا، يصبح مساحة يبني فيها البعض بأدوات بسيطة أماكن يعيشون داخلها تُسمى القريشة أو العشة بل ويطلق عليها بعض البرباشة «الدار». سنحاول في هذا البحث فهم تشابكات توثت عوالم البرباش-ة، حيث يحلينا البحث الكمي والكيفي على جوانب اجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وصحية لنشاط التبريش. وتكشف هذه الجوانب عن الملامح

العامّة للبرباش-ة، أي من يصبح برباشا؟ ومن أيّ الفئات الاجتماعية ينحدر البرباش-ة؛ سواء أولئك الذين يعملون في فضاءات مفتوحة، أي الشارع، أو أخرى مغلقة، كمصّب برج شاكير الذي ندرسه في هذا البحث؟

سنحاول في هذا المحور فهم علاقة البرباش بالأشياء. ونعني بالأشياء هنا ما يصطلح عليه بالفضلات، والقمامة، والنفايات، وما يطلق عليه التونسيون «زبلة» (وأصل الكلمة في لسان العرب الزبّل). فإن كان بحثنا يركّز على فاعلية البرباش وقدرته على إنتاج اقتصاد من نوع ما، فإنّه، أي بحثنا هذا، لا يغفل أيضاً عن فاعلية الأشياء في إطار مقارنة علائقية تسعى إلى فهم شبكة العلاقات التي يكون مركزها البرباش-ة والنفايات ويتقاطع فيها ما هو ثقافي، واقتصادي، واجتماعي، وسياسي. إنّ فعل التبريش، كما نتناوله أنثروبولوجيا، يتعدّى كونه نشاطا اقتصاديا يلتجئ إليه الفاعلون اضطراراً؛ إذ أنّ جامع النفايات في تونس أو غيرها من بلدان العالم قد يختار «التبريش» ويُفضّله على وظائف أخرى نظراً إلى الحرية التي يوفرها فعل جمع النفايات. إنّ دراسات النفايات تُعدّ اليوم أيضاً مدخلا لفهم مسائل تتعلق بالعدالة الاجتماعية والتهميش، وهذا ما سنتناوله في هذا المحور أيضاً.

## منهجية البحث الأنثروبولوجي

اعتمدنا في هذا المحور أساساً على العمل الميداني الإثنوغرافي الذي أجراه فريق البحث. واستأنسنا أيضاً بالمقابلات البيوغرافية والمقابلات نصف الموجهة والاستبيانات. تركزت بحوث الأنثروبولوجيا الاجتماعية عادةً على الإثنوغرافيا (ethnography) التي تعتمد بدورها على تقنية الملاحظة بالمشاركة (participant-observation)، وهي تقنية بحثية يوظفها الباحثون في مجال الأنثروبولوجيا وعلوم الاجتماع عموماً. تهدف هذه التقنية إلى فهم ودراسة المجتمعات من خلال المشاركة الفعّالة والمباشرة في الأحداث والتفاعلات التي تجري داخل المجتمع المدروس، ويُعتبر عالم الأنثروبولوجيا البولندي برونيسلاف مالينوفسكي (Bronisław Malinowski) رائد هذه التقنية البحثية التي وُظفها ونظّر لها في أعماله<sup>1</sup>.

1 انظر:

Bronislaw Malinowski, Argonauts of the Western Pacific: An Account of Native Enterprise and Adventure in the Archipelagoes of Melanesian New Guinea (Oxford: Benediction Classics, 2014).

تتضمن تقنية الملاحظة بالمشاركة العيش مع المجتمع المدروس لفترة طويلة، حيث يقوم الباحث بالمشاركة في الأنشطة اليومية والحياة الاجتماعية للمجتمع المعني. يكون الباحث جزءاً من المجتمع، يلاحظ ويتفاعل مباشرة مع أفرادهِ. تهدف هذه التقنية البحثية إلى تحقيق فهم عميق للتفاعلات الاجتماعية في موضعها؛ أي في سياقها اليومي المعتاد. يُعتبر هذا الأسلوب البحثي مهماً في إجراء بحوث الأنثروبولوجيا الاجتماعية، حيث يُسهم في كشف وتسليط الضوء على تفاصيل قد لا يمكن للباحث استجلاؤها بالاعتماد حصراً على تقنيات البحث الكمي. وقد وظّف الفريق البحثي هذه التقنية، فشاركوا البرابشة حياتهم اليومية داخل مصب برج شاكير الذي يقع على بعد 8 كيلومترات من العاصمة وخارجه، أي في الفضاء العام، وتحديداً بعض مناطق تونس العاصمة كالمنار ولافايات (Lafayette). وسعى الباحثون الميدانيون إلى رصد العناصر المؤتثة لديناميكية نشاط التبريش والفاعلين الأساسيين فيه، بالإضافة إلى تحديد أهم التفاعلات بينهم باعتبار ما لها من دور في التأثير على هذه الديناميكية وضمان استمراريتها. تُشبه عالمة الأنثروبولوجيا سيني هاول (Signe Howell) عمل الاثنوغرافي (the ethnographer)، أي من يقوم بالعمل الميداني، بالأنثينا أو الملقط الهوائي (antenna)، فيجب أن تعمل الأنثينا طوال الوقت ليتمكن الباحث الميداني من التقاط ما هو غير معلن، والمسلم به، فضلاً عن التوترات والصراعات، التي تؤثر جميعها على الكل على نطاق أوسع<sup>2</sup>. وقد كشف العمل الميداني لفريق البحث في إطار هذه الدراسة عن جملة من التوافقات والصراعات داخل مصب برج شاكير مثلاً، وذلك من خلال مشاركة البرابشة حياتهم اليومية داخل المصب منذ الصباح الباكر. كما ساعد العمل الاثنوغرافي على استجلاء معجم المصب، أي اللغة التي يستخدمها البرباش داخل المصب، فقد لاحظ الباحثون الميدانيون مثلاً كيف يصنف البرباش أنواع النفايات، فيطلق على بعضها «الشايح»، أي نفايات المصانع والمستشفيات كنفايات شركات تصنيع المواد الغذائية، ومصانع الخياطة، والمستشفيات العمومية، والمصحات. ونجد نوعاً آخر من النفايات: السيفيل (civil) ويعني البرابشة بهذا الصنف شاحنات النفايات الاستهلاكية المتأتية من المنازل والمطاعم. أما الصنف الثالث فيطلق عليه البرباش «الذرات» وتتكون من بقايا أكياس النفايات التي تم فرزها والدفن بها نحو حوض تجميع النفايات باستعمال الجرافات. إنّ منهجية البحث الاثنوغرافي تساعدنا لا فقط على رصد بعض هذه الظواهر، بل نجد أنّها تقنية تُسهّل الولوج إلى

2 Signe Howell, "Two or Three Things I love About Ethnography", Hau: Journal of Ethnographic Theory 1.7(2017): 15-20.

عالم البرباش، وذلك من خلال الصلات والعلاقات (rapport) التي تتبلور داخل ميدان البحث بين البرباشة وفريق البحث الاثنوغرافي فيبني الباحث/ة علاقة ثقة بينه وبين الفاعل تساعده على فهم واستجلاء عوالم البرباشة وتفصيلها، فشرب الشاي مع البرباشة في مصب برج شاكير خلال استراحة العمل مثلا هو حدث اثنوغرافي يغمس (immerse) فيه الباحث أكثر في عالم البرباشة. لقد ساعدت علاقة الثقة المتبادلة، والتي بُنيت من خلال زيارات ميدانية متعددة، باحثي الدراسة الميدانيين على فهم وجهة نظر البرباش، وتمثلاته حول العمل والدولة والعلاقات بين الرجال والنساء العاملات في المصب وغيرها من المواضيع التي تحضر في ممارسات البرباشة وخطاباتهم. ولا يمكننا أن نفهم بعمق وجهة نظر البرباش دون أن نرافقه وأن نعيش معه تجربة العمل في المصب وخارجه. وتسعى هذه الدراسة عموما وهذا المحور تحديداً على «تجذير المعرفة في المعيش» (grounding knowing in being)، كما ذهب إلى ذلك عالم الأنثروبولوجيا تيم انغولد (Timothy Ingold)، الذي جادل في هذا السياق بأن «أي دراسة عن الناس، يجب أن تكون دراسة معهم»<sup>3</sup>. إن هذا المحور من الدراسة وبعتماده على التقنية البحثية الاثنوغرافية، بالإضافة إلى البحث الكمي، يعكس أفكار المدارس الانثروبولوجية المعاصرة والنقدية والتي تولي اهتماما لحياة الفاعلين وأبعادها المتعددة، وتقطع مع البحوث التي لا تأخذ حياة الفاعل على محمل الجد كما أشارت إلى ذلك ألبا شاه (Alpa Shah)<sup>4</sup>.

## البرباشة والاقتصاد غير الرسمي

تعود جذور مفهوم الاقتصاد غير الرسمي (informal economy) لبحث إثنوغرافي أجراه عالم الأنثروبولوجيا الاقتصادية كيث هارت في الأحياء الفقيرة بمدينة أكرا، عاصمة غانا في أوائل السبعينات. ونجد أن تسميات مختلفة تطلق على هذا النوع من الأنشطة الاقتصادية، نذكر منها: اقتصاد الظل والاقتصاد الموازي والاقتصاد المستور، أو التحتي، أو الخفي أو الاقتصاد غير المهيكل. ما يميّز نشاط الاقتصاد غير الرسمي هو عدم ارتباط الفاعلين فيه بآليات الاقتصاد الرسمي للدولة؛ أي أنّ الفاعلين فيه لا ينضبطون لآليات الرقابة الرسمية التي تفرضها الدولة على الأنشطة الاقتصادية. يشير كيث هارت وكريس هان في كتابهما «الأنثروبولوجيا الاقتصادية:

3 Tim Ingold, "Anthropology is not Ethnography" Proceedings of the British Academy (2018):83.

4 Alpa Shah, "Ethnography? Participant Observation, a Potentially Revolutionary Praxis", Hau: Journal of Ethnographic Theory 7, 1 (2017): 45-59.

التاريخ والإثنوغرافيا والنقد» إلى أن معظم الأفراد داخل مجتمع ما يمارسون أنشطتهم الاقتصادية ضمن إطار الاقتصاد الرسمي أو المنظم، والذي يتضمن عناصر مثل: الرواتب، والمعاملات المالية المنظمة، ودفعات الإيجار، والائتمان، والرعاية الصحية، بالإضافة إلى مخاوفهم من الجهات الضريبية والالتزامات الضريبية المنتظمة. ورغم أن الأفراد الذين يعيشون في هذا السياق قد يتعرضون لأوقات صعبة ومخاطر محتملة فيما يتعلق بالاقتصاد (كالأزمات، التضخم...)، إلا أن نمط حياتهم يبقى منظمًا، وذلك بفضل اتساق النظام الاقتصادي (كالرواتب التي تصرف كل شهر للموظفين) والتواتر المتوقع للأحداث والشعور المعتاد للفرد بالتحكم في حياته الاقتصادية. يخلق الاقتصاد الرسمي من خلال كل هذا أسلوب حياة منظم ومتواتر، ويعتبر الفاعلون هذا الانتظام والتواتر أمراً بديهياً<sup>5</sup>. إلا أننا في إطار هذا البحث حول البرباشة، نتناول اقتصاداً من نوع آخر ونغوص في عوالم فاعلين اقتصاديين لا يتمثلون النشاط الاقتصادي بما هو نشاط منظم ومتواتر على شاكلة الاقتصاد الرسمي، وهذا لا يعني أن النشاط الاقتصادي للبرباشة يخلو من تنظيم وضبط، إلا أن آليات تنظيم هذا الاقتصاد، كما سنبيّن في هذا البحث، لا تخضع للأطر الرسمية التي تعرّفها وتتحكم فيها بيروقراطية الدولة.

إنّ ما يصطلح عليه اليوم بالاقتصاد الرسمي (formal economy) هو نتاج الجهد المؤسّساتي للدولة. فالدولة تسعى عادة إلى ضبط الجوانب المتعددة من حياة المجتمعات وتطلق على الآليات التي تعتمد عليها في ضبط المجتمع صفة -الرسمي-، كالتعليم الرسمي، والإعلام الرسمي، وأيضا الاقتصاد الرسمي. فمن وجهة نظر تاريخية أنثروبولوجية يمكننا القول أنّ الدولة، ومن خلال أجهزتها المختلفة والتي تديرها نخب في مراحل تاريخية محدّدة، تنتج القاعدة أو الشكل (form)، الذي يُراد به احتواء وضبط المجتمع بمختلف أنشطته؛ اقتصادية كانت أو سياسية أو ثقافية أو غيرها. فما نطلق عليه رسمي (formal) أي القاعدة التي تضبطها الدولة هو "فكرة عمّا يفترض أن يكون عاماً في الحياة الاجتماعية"<sup>6</sup>. في هذا السياق تنتج البيروقراطية الوطنية الشكل المسيطر وتخضع الأنشطة الاقتصادية لآليات ضبط كالرقابة والضرائب، أما ما يخرج عن الشكل (formal) الذي ضبطته بيروقراطية الدولة يصير، من وجهة نظر الدولة، غير منظم (informal)، أي أنّه يخرج عن الشكل المراد تعميمه. وتكون الأشكال بالضرورة مجردة (abs-

5 كريس هان وكيت هارت، الأنثروبولوجيا الاقتصادية: التاريخ والاثنوغرافيا والنقد، ترجمة عبد الله الفاضل (الدوحة: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، 2014) 175.

6 كريس هان وكيت هارت، المرجع نفسه، ص 158.

(tract)، وغير قادرة على استيعاب كل جوانب الحياة الاجتماعية، فالشكل يختزل ويُبسط ويُثبت، أما الحياة الاجتماعية فهي مركّبة ومعقدة وتتسم بالتحوّل. فمن غير الممكن أن يحيط الشكل (form) كما ترسمه وتخليه الدولة بكل التحولات المجتمعية التي تقع خارج حدوده<sup>7</sup>. ويقع الاقتصاد غير الرسمي الذي ينشط داخله البرباشة خارج حدود الاقتصاد الرسمي للدولة، لكنه، وكما سنبيّن لاحقاً، يتفاعل مع الدولة وممثلي مؤسساتها الرسمية.

## البرباشة بين المصّب والشارع: تقديم

يقع مصب النفايات بمنطقة برج شاكير في الجهة الغربية لولاية تونس، وحسب التقسيم الإداري هي عمادة لمعمدية سيدي حسين السيجومي<sup>8</sup>. في الجهة الغربية للمصّب تقع عمادة العطار والتي هي الأخرى من عمادات سيدي حسين السيجومي، أما في الجهة الجنوبية نجد مقبرة العطار، لنجد في الجهة الشرقية المنطقة العسكرية التي تمتد على كامل الغابة وهي الجهة الوحيدة التي ليست مسوّرة، لنجد في المقابل ثلاثة أسوار شرقاً وغرباً وجنوباً مع وجود بوابة وحيدة لدخول الشاحنات والعملة والبرباشة. تمتد مساحة المصّب على أكثر من 124 هكتاراً من الأراضي الفلاحية، ويستقبل مصب برج شاكير حسب ممثل عن الوكالة الوطنية للتصرّف في النفايات (ANGED) ما قدره 3000 طنّاً من النفايات المنزلية يوميا و150 طنّاً تقريبا من نفايات المصانع. يحيط بالمصّب مجموعة من المنشآت تقع أغلبها على امتداد 400 متراً من المصّب ومن هذه المنشآت: مدرسة، مسجد، مقبرة، مركز توزيع مياه صالحة للشرب تابع للشركة التونسية لاستغلال وتوزيع المياه (SONEDE). كما نجد أيضاً منشآت سكنية قريبة جداً من المصّب كحي العطار وحي بئر ولا يفصل الأخير عن المصّب سوى 200 مترٍ تقريبا.

بعد تجاوز بوابة المصّب على الجهة الغربية بأربعة أمتار نجد ميزانين أو ما يطلق عليه في المصّب «البسكولة» أحدهما في جهة اليمين والآخر في الشمال يفصل بينهما ممرٌ يُقدّر بـ 10 أمتار لدخول وخروج بقية العربات وكذلك شاحنات النفايات. يتمّ وزن الشاحنات عند دخولها وخروجها من المصّب لمعرفة كمية الفضلات التي تم التخلص منها. بعد الميزان، وعند الدخول

7 انظر: سفيان جاب الله، سوق نهج اسبانيا أو منهاج الاقتصاد الشارعي في تونس: مقارنة سوسيوأنثروبولوجية (تونس: المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2022).

8 -المساحة: 82,34 كلم<sup>2</sup> أي ما يمثل 28 % من مساحة ولاية تونس والمقدرة بـ 288 كلم<sup>2</sup>

للمصب من جهة اليمين نجد بناية تضم إدارة المصب ومركز أمن ونجد أيضا حديقتين وقبل الوصول إلى منحرج الطريق المؤدية للمصب تقابلك خزانات عملاقة مسيجة بسياج حديدي عُلقَت عليها لافتات للدلالة على خطورة المواد التي بها بما أنّها خزانات لتصفية المياه المتسربة من تكديس الفضلات.

يسمى مكان رمي النفايات داخل المصبّ بالـ«بلاط فورم» (plateforme) وهي مساحة لتكديس الفضلات ودفنها، وهي أيضا المساحة التي يفرز فيها البرباشة النفايات. تتوافد الشاحنات يوميا على المصب منذ الصباح الباكر فتتراكم أكياس النفايات في الأحواض المنشئة داخل المصب والتي يبلغ عددها خمسة أحواض. ولاحظ باحثو العمل الميداني حضور جملة من الفاعلين داخل المصب كالتالي:

**1 / البرباش الشراي:** يتمثل دوره أساسا في وزن النفايات التي يجمعها البرباشة الصنّاع، أو ما يسمى داخل المصب «اللقاطة» وتحديد ثمنها. وأغلب البرباشة الشراية ينحدرون من عرش الفراشيش ويقىمون بحي النور التابع لمعمدية الكبارية. أهم ما يميّز الشراي داخل المصب هو سيارة إيسوزو 404 (ISUZU 404). وهي عادة سيارة متوسطة الحجم ومتهاوية، مهيئة لنقل أكثر ما يمكن من النفايات المجمعّة والتي غالبا ما تتجاوز طاقة استيعاب السيارة أي الحمولة القانونية. غالبا ما نجد أنّ هذه السيارة لا تستجيب لشروط السلامة وأنها مخترقة لجلّ قوانين الطرقات والسلامة المرورية في تونس؛ حيث نلاحظ أنّ عددا كبيرا منها يتجول في الفضاء العام بمصاييح مكسورة وإطارات مهترئة، إضافة إلى غياب ملصقات خلاص معلوم الجولان. كما أنّ هذا «الشراي» يُجسّد دور تاجر الجملة داخل فضاء المصب فهو من يقوم بتقبل وبتجميع كميات النفايات المفروزة من قبل «البرباش-الصانع أو اللقاط» ووزنها من ثمّ تحديد قيمتها المالية التي تقدم كمقابل مادي لمجهود «البرباش-الصانع».

**2 / البرباش الصانع:** ويسمى أيضا داخل المصب «اللقاط»، وهم مجموعات من البرباشة نجد منهم الرجال والنساء والأطفال أيضا.

**3 / سائقو الشاحنات**

**4 / أعوان الإدارة التابعة للوكالة الوطنية للتصرف في النفايات (ANGED).**

**5 / عمال الشركة التونسية الإيطالية للتصرف في النفايات (ECOTI) المستغلة للمصب (سائقو جرافات، مراقبون، ومنظّمون لسير العمل).**

**6 / أعوان الشرطة.**

وبالإضافة إلى الفاعلين داخل المصب، رصدنا أيضاً حضور فاعلين خارجه وهم أصحاب مخازن التدوير. ويكون صاحب مخزن التدوير تاجر جملة للقمامة يمتلك مصنعا صغيرا لإعادة تدوير النفايات؛ منهم من تخصص في مجال تدوير النفايات بعد أن انتفع بدورات تكوينية في هذا المجال جمع من خلالها كمّاً من الخبرات العمليّة التي سهّلت عليه الاندماج في سوق الشغل كصاحب شركة لتدوير النفايات وفاعل في منظومة الاقتصاد الأخضر. وقد أبرزت تفاعلات الباحثين الميدانيين مع الناشطين في ميدان البيئّة وتدوير النفايات تأثير أصحاب المخازن على الديناميكية الداخلية لنشاط البرباش داخل المصب. فهم يلعبون دوراً أساسياً في تحديد وتيرة الدورة الاقتصادية، تحديدا فيما يتعلق بتحديد الأسعار والتحكم فيها. ووفقا للبرباشة فإن سعر المواد المجمعّة والتي تختلف قيمتها حسب نوعية المواد المعتمدة في تصنيع النفايات المجمعّة (قارورة، فولاذ، خشب، بلاستيك، ورق...) يتمّ تحديدها بصفة يومية من قبل أصحاب هاته المخازن بالتوافق مع الشراية ووفقا لما يخدم مصلحتهم المالية واستنادا إلى متغيّرات المعطى الاقتصادي العام.

يشير البحث الكمي والكيفي إلى أنّ أغلب البرباشة، سواء في مصب برج شاكير أو في الفضاء العام، يعيشون في أحياء العاصمة المهمشة أو ينحدرون من دواخل البلاد التي عانت تاريخيا من التهميش الاقتصادي. فنجد مثلا أنّ 73 بالمائة من البرباشة (n=71) داخل مصب برج شاكير يقيمون في الكبارية بتونس العاصمة. أما بالنسبة إلى برباشة الفضاء العام فإنّ عيّنة الاستبيان والتي تعدّ 73 برباشاً تُشير إلى أنّ 13% منهم يقيمون في الجبل الأحمر بينما يمثل حي التضامن مكان إقامة 17% من البرباشة. ولاحظ باحثو العمل الميداني خلال حواراتهم مع البرباشة داخل المصب أنّ كثيرين منهم ينحدرون من ولاية القصرين وتحديدا معتمدية حاسي الفريد والتي تعتبر من أكثر المناطق فقرا في تونس. أما في الفضاء العام فلاحظ باحثو الدراسة أنّ أغلب البرباشة ينحدرون من مناطق الشمال الغربي (باجة، وجندوبة، وسليانة تحديدا)، ويتخذ هؤلاء أحياء شمال الضاحية الجنوبية لتونس العاصمة (حي النصر والمنزه والمنار) حيّزا مجاليا لممارسة نشاط التبريش. في هذا السياق نشير إلى أنّ ديناميكية القرابة والعروضية حاضرة عند البرباشة، ولكننا نلاحظها حصرا عند برباشة مصب برج شاكير المنحدرين من القصرين والذين يقيمون في حي النور التابع إداريا لمعتمدية الكبارية؛ حيث أنّ أغلب سكان هذا الحي من الفراشيش. تحضر في المصب عروش أخرى منها الدريدي والهمامي وعوين. وتكشف المقابلات البيوغرافية مع البرباشة عن تمثلاتهم للعرش داخل المصب، حيث نجد أنّ أغلب الباحثين يشتركون في تمثّل

العروشية بما هي ديناميكية تضامن وتكتل توفر الحماية والمساندة. لكن، وعلى أهميته، لا يعتبر البرباشة أنّ العرش هو المحدّد الوحيد لتنظيم العلاقات داخل مصب برج شاكير.

### علاقة البرباش بالنفايات

بعد اختيار البرباشة للشاحنة يتجمعون وراءها وعلى الجانب الخلفي منها، وهم عادة من يفتح بابها الخلفي وقد يصعد فوقها البعض من الشباب خاصة - لفرز منفرد والظفر بأكبر كمية قبل أن تشترك فيها الأيدي. عندما تكون الشاحنة بصدد إنزال حمولة الفضلات نرى الأيدي وهي تتخاطف الأكياس المغلقة أو ما يرونها صالحا وذلك قبل أن تلامس الأرض، وقد صدمنا أول مرة ونحن نرى النفايات تصب من الشاحنة فوق رؤوس البرباشة وهم منهمكون بفرز النفايات...

ملاحظات ميدانية، برج شاكير، تونس.

يُعتبر مؤلف ماري دوغلاس (Mary Douglas) الموسوم بـ«الطهر والخطر» (Purity and Danger)، من كلاسيكيات الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية التي تناولت مفاهيم تتعلق ببحثنا، ومنها مفاهيم الدنس والطهارة والأوساخ والتابو (Taboo)<sup>9</sup>. ولعلّ أشهر مقولات دوغلاس، والتي استعارتها من باحثين آخرين، هي مقولة أنّ الأوساخ أشياء (أو مادة، بعبارة الباحثة) في غير مكانها (dirt as matter out of place). وتشير دوغلاس إلى أنّ الفئات الاجتماعية لديها أفكار حول الأوساخ أو القذارة والدنس، ولكننا عادة ما نكون مهئين اجتماعيا لرؤية أشياء معينة على أنّها أوساخ أو فضلات أو قذارة علينا تجنبها لئلا ندنس أجسادنا. يتناول بحث دوغلاس تحليلا لمفاهيم التلوث والمحرمات (taboo)، وقد نُشر كتاب «الطهر والخطر» في عام 1966، وهو عمل يستكشف الطرق التي تتمثل بها الثقافات المختلفة وتصنّف الطهر والنجاسة، بالإضافة إلى الطقوس والرموز والمحرمات المرتبطة بها والتي تنشأ من هذه التصنيفات. تجادل دوغلاس بأنّ الأفكار حول الطهر والخطر ليست عفوية، بل يحكمها نظام وهي متأصلة بعمق في الثقافة الإنسانية والبنى الاجتماعية. وتقرّ الباحثة بأنّ هذه المفاهيم لا تتعلق فقط بالنظافة الجسدية، ولكنها أيضًا بمثابة وسيلة للمجتمعات لتنظيم العالم وفهمه.

تُشير الباحثة إلى أنّ تصوراتنا حول الطَّهر والذَّنس والأوساخ هي آليات تصنيف ورسم حدود، وترتبط تصوراتنا هذه بمفهومي النظام والفوضى (order and disorder) داخل المجتمعات. لقد ركّزت دوغلاس على فكرة أساسية في دراستها مفادها أنّه حينما وجدت فضلات أو أوساخ وُجِدَ نظام ما، أي نظام تصنيف (classification). وتجادل دوغلاس بأنّه على الرغم من أنّ جميع الفئات الاجتماعية تقريباً لديها أفكار حول القذارة والذَّنس، إلاّ أنّه لا يوجد شيء اسمه ذَّنس مطلق أو قذارة مطلقة. إنّ ما قد يراه القارئ قمامة أو فضلات بلا قيمة، قد تكون عند فاعل اجتماعي واقتصادي آخر مصدر قيمة ومحوراً لفعل العمل، بل إنّ ما قد يراه البعض فضلات بلا قيمة، يكون عند البرباشة-ة مصدر شرف وكرامة، أي مصدراً للقيمة.

إذاً تتطلب الإجابة عن السؤال الأول من سؤاليّ هذه الدراسة: كيف يصبح الفرد جامعاً للنفايات؟ بدايةً تفكيك علاقة البرباشة-ة بالنفايات والفضلات، فتمثّله لها يختلف عن التمثلات التي قد تتبادر إلى ذهن من يحاول فهم عالم البرباشة من خارجه. فبالنسبة إلى البرباش، لا تكون الفضلات، المنزلية أو الصناعية، ذَّنساً مطلقاً يجب تجنبه، والبرباش بذلك يؤكّد بعض نظريات دراسات النفايات (waste studies)<sup>10</sup> التي تجادل بأنّه يستحيل تعريف الفضلات تعريفاً عالمياً شاملاً، فالفضلات متوقفة دائماً على سياق ما، هي فضلات بالنسبة إلى مجموعة ما في زمان ومكان محدّدين. في هذا السياق الذي ينسب تصوراتنا عمّا يمكن اعتباره مدنساً ويجب تجنبه يقول الأنثروبولوجي اللبناني فؤاد إسحاق الخوري:

«خذ على سبيل المثال، الشَّعر وتعدد معانيه ومدلولاته في الحضارة العربية. أقول «في الحضارة العربية» لأن معاني الشَّعر تختلف من حضارة إلى أخرى... الشَّعر في العجين عندنا قذارة وفي شوارب الرجال شرف، وفي الذقن إن طالت تقوى؛ وقد ترمز إلى الحزم أو العزم على الثَّار والانتقام، أو إلى الثورة على الأوضاع السياسية القائمة أو القيم الاجتماعية السائدة... ليست النجاسة معياراً ثابتاً لا يتغيّر. النجس قد ينجّس، وقد يطهر ويطهر في آن... فالدم، من جهة، نجس، ومن جهة أخرى، شرف وحب وفداء»<sup>11</sup>.

10 انظر:

Zsuzsanna Gille and Josh Lepawsky, The Routledge Handbook of Waste Studies (London: Routledge, 2022).

11 فؤاد إسحاق الخوري، أيديولوجيا الجسد: رموزية الطهارة والنجاسة (بيروت: دار الساقي 1997)، ص 4-5

لا يمكننا فهم علاقة البرباش بالنفائيات خارج سياق التصنيف. إنّ فعل التصنيف، كما ذهب إلى ذلك جيفري بوكر (Geoffrey Bowker) وسوزان ستار (Susan Star)، في مؤلفهما فرز الأشياء: التصنيف وعواقبه (Sorting Things Out: Classification and its Consequences)، فعل إنساني يومي. ويرى الباحثان أنّنا نقضي جميعاً أجزاءً كبيرة من أيامنا في القيام بأعمال التصنيف وغالبًا بشكل ضمني. فنحن نصنّف مثلًا الأوراق التي على مكاتبنا والمجلدات والوثائق وسواءً أكنّا في المدرسة أو في مكان العمل أو في البيت فإننا دائماً داخل نظام تصنيف: «قد نضع الكتب المرجعية في رفّ ما، والأدوية المصنفة على أنّها غير مخصصة للأطفال تشغل رفّاً أعلى من الأدوية الأكثر أماناً، إنّنا دائماً نرمزّ المفاتيح ونضعها في أماكن تناسب تواتر استخدامها اليومي لها»<sup>12</sup>.

إنّ ما يميّز علاقة البرباش بالنفائيات بداية هو قدرته على إعادة تصنيفها وإضفاء رمزية جديدة عليها. كما أشرت آنفاً في هذا البحث، فبمجرد وصول النفائيات لمصب برج شاكير مثلاً، وعلى المستوى الخطابي، فإننا نتحول من الحديث عمّا يطلق عليه الناس عموماً «زبلّة»، إلى الحديث عن ثلاثة أصناف من النفائيات: «الشايح، والسيفيل، والدزات» ويحيلنا العمل الميداني والمقابلات البحثية في إطار هذه الدراسة على هذه الفكرة، أي قدرة البرباش-ة على إنتاج تصنيف جديد للأشياء يخرج عن المألوف والسائد. أما هذه الأشياء، أي النفائيات، فهي بدورها تُعيد تصنيف النَّاس، وهذه الديناميكية التصنيفية هي إحدى النقاط التي ركّزت عليها دوغلاس في بحوثها استناداً على فرضية دوركهايم وموس القائلة بأنّ إعادة تصنيف الأشياء يعيد تصنيف النَّاس<sup>13</sup>، ولكن التصنيف في سياقنا هذا لا تنتجه المؤسسات فقط، بل كذلك الأفراد والمجموعات، أي البرباشة سواء في مصب النفائيات أو في الشارع. وقد أشارت بعض الأعمال في سياق دراسات النفائيات إلى أنّه لا توجد نفائيات، بل تصنع (waste is not, but made) للدلالة على أنّ النفائيات بناء اجتماعي (a social construction)، فما يصنّفه فرد أو مجموعة كنفائيات بلا قيمة، قد يصنّفه آخرون كأشياء ذات قيمة.

12 Geoffrey C. Bowker and Susan Leigh Star, *Sorting Things Out: Classification and its Consequences* (Cambridge: The MIT Press, 2000), 1-2.

13 Emile Durkheim and Marcel Mauss *Primitive Classifications* (Chicago: The University of Chicago Press, 1963)

وينطبق هذا على المساحات التي تعرّفها القواميس البيئية على أنّها مدافن للنفايات، فهي من وجهة نظر المؤسسات مكبات ومدافن ومن وجهة نظر البرباش مساحات يعيش فيها سواء في قريشة أو عشة كما هو الحال في مصب برج شاكير، أو يزورها يوميا للعمل. ويشير باتريك أوهاري (Patrick O'Hare) مثلا إلى أنّ جامعي النفايات في الأورغواي يطلقون على مصب (Felipe Cardoso) في العاصمة مونتفيدو اسم «الأم» نظراً، حسب رأيهم، إلى قدرة المصّب «على توفير الطعام والملابس والمأوى لأولئك الذين يجدون طريقهم إلى هناك»<sup>14</sup>. وقد لاحظ الباحثون الميدانيون في برج شاكير أيضاً أنّ بعض البرباشة يلبسون ويأكلون ويبيتون في المصّب. في هذا السياق تقول إحدى البرباشة التي تعمل في المصّب وتأتي إليه يوميا من حي بورقبة: «لذلك أقوم بجمع الملابس من هنا وأغسلها وأبيعها في سوق طبرية لزيادة مرابحي. حتى إنّني ألبس أبنائي من الملابس التي أجدها هنا». يرتبط فعل التبريش ارتباطا وثيقا بفعل التصنيف، فالبرباش يُعيد تصنيف النفايات في الشارع أو في مصب النفايات، ويُسمى البرباشة في مصب مونتفيدو في الأورغواي (clasificadores) باللغة الإسبانية، أي أنّ التسمية تدلّ على فعل التصنيف (clasificación) الذي يشترك فيه جامعو النفايات غير النظميين عموماً سواء في تونس أو في بلدان أخرى من العالم كالأرغواي.

يمكننا القول إنّ البرباش في تونس فاعل اقتصادي يرتبط نشاطه بالخروج عن ثنائيتي المنظم والظاهر. فهو بداية فاعل يخرج عن آليات عمل الاقتصاد الرسمي، وفي نفس الوقت يرتبط نشاطه حتما بالتفاعل مع ما يراه الناس دنسا وقذارة. البرباش أيضاً فاعل هامشي، أي أنّ نشاطه الاقتصادي لا يقع في المركز، بل في الهامش ونعني بالهامش هنا جغرافية مصب النفايات. فالمصّب يكون عادة بعيدا عن المركز وبعيدا عن أنظار الناس، وكما جادلت دوغلاس إن أفكار الطهر والدنس في الثقافات هي أفكار ترسم الحدود وتنتج نظاما يضع داخل حدوده مجموعات أو أفراد ويقصي أخرى. تقول «حياة» إحدى البرباشات في سياق إجابتها عن سؤال ما إذا قامت بتحليل طبيّة مؤخرا: «نحن لم نقم بتحليل...نعيش على الهامش». هنا يكون السؤال المركزي: من يصبح برباشاً؟ من يقوم بالعمل الذي يتطلب لمس المدنس والقذر؟ كيف وأين وتحت أي ظروف يقوم بهذا العمل؟ ومن أي الفئات الاجتماعية ينحدر؟

14 Zsuzsanna Gille and Josh Lepawsky, The Routledge Handbook of Waste Studies (London: Routledge, 2022), 55.

## برباشة «كالنمل»: ازدواجية الحياة بين النفايات

البرباش فاعل اقتصادي يخرج عن المألوف؛ بل والمقبول اجتماعيا، وهو أيضاً فاعل يُعيد تصنيف الأشياء ويكون هو ذاته موضوعاً للتصنيف في آن. يعيش بعض البرباشة حياة اجتماعية تحكمها ثنائيات منها (1) الزمانية، فقد يختار البرباش العمل ليلا كي لا يراه الجيران، وقد يتحرّج من ذكر عمله أمام أقربائه وجيرانه، وقد ينتظر انتهاء يوم العمل ليستحم ويتطهّر ويعود إلى الحياة خارج المصب، فانتقاله من مكان -المصب- إلى مكان آخر -الحي-، ثنائية (2) مكانية تعكس الحياة المزدوجة التي يعيشها البرباش ويتحدّث عنها مثلا عند لقائه بباحثي العمل الميداني في سياق هذه الدراسة:

**«ما تراوناش هكة أحنا كيف نروحو و ندوشو و نبدلو و نبرفنو نولو كيفكم»**

يكشف العمل الإثنوغرافي عن تعدد الثنائيات التي تُحرّك وتنظم عوالم البرباشة. فنجد بداية أنّ البرباش لا يتمثل المصب كفضاء ميّت (lifeless-space) كما أشرنا سابقا؛ بل إنّ المصب بالنسبة إلى البرباش فضاء معيشي يكسب فيه ومن خلاله قوت يومه، وهذا ما أشارت إليه «حسنا» إحدى البرباشات في مقابلة ببيوغرافية عند سؤالها عن تعريف البرباش:

**«برباش: إنسان يبحث عن قوته مثل النملة...انطلق وأتي بعشائك»**

وفي نفس السياق يقول «حمّة»، أحد البرباشة في مصب برج شاكير:

**« في الحقيقة نكسب المال وإن قلت عكس ذلك فأنا كاذب... هذا العمل يجعلنا نكسب المال ويعيلنا والحمد لله».**

ولا يمكن اعتبار مقولات البرباشة مجازية أو رمزية في علاقة بتمثلهم للمصب كفضاء معيشي، فبعضهم يعيش في المصب ويبنى داخله ما يطلق عليه «الدار». لاحظ فريق العمل الميداني في أول يوم لهم في المصب أماكن يطلق عليها البرباشة «قريشة» وهي كلمة تطلق عادة على مريض الأغنام وهناك من يسميها «عشة» -بكسر العين- وهناك من يعتبرها «دار» حيث يدعو البرباش أحد الباحثين الميدانيين للحديث قائلا: «إيجا نكحو بهذا الدار» وهناك من يقول هذا «قصري». ورصد فريق العمل الإثنوغرافي أيضا مقولات بعض البرباشة في علاقة بالدار: «هنا عملت الفلوس ومن هنا ندور في الدولاب». ويصف فريق البحث المساحات التي يعيش فيها البرباشة كآلاتي:

هذه الأماكن مصنوعة من فضلات المصب كالخشب وأكياس البلاستيك غير القابلة للرّسكلة، وعادة ما تكون في حزم محكمة الربط أو مضغوطة. أما السقف فهو من بعض الأخشاب والمعادن من نوع «طولة» - (Tôle) - ومن ثمّة تغطيتها بـ«الباش البلاستيكي» - (Bâche plastique) - وتكديس كلّ شيء ثقيل فوقه حتى لا تحمله الرياح وبذلك يصلح السقف لمنع تسرب مياه الأمطار والاحتماء من الرياح، ومن الداخل توجد أسرة يدوية الصنع وضعت عليها مرتبة (Matelas) أحيانا يتم الحصول عليها من المصب. لكن في غضون أيّام وقعت إزالة هذه الأماكن بالكامل بأمر من رئيس مركز الأمن بالمصب ليتم تركيز أربعة منها بعد أيام؛ اثنان في الجهة الغربيّة للمصب والبقية في الجهة الشرقيّة منه.

رغم أنّ بعض البرباشة يتّخذون من المصب بيتاً، حتى أنّ بعضهم يقيم في المصب ولا يعود إلى مدينته إلاّ في الأعياد، خاصة البرباشة القادمون من سيدي بوزيد، إلاّ أنّ غيرهم من البرباشة يرى المصب مكاناً لا يمكن العيش فيه:

**«أنا أعمل للعيش فقط، وفي هذا المكان عندما آتي للعمل كل يوم أحس أنّني قادم إلى الجحيم، مكان سيء جداً...»**

يُمثل المصب، إذًا، فضاء حياة بالنسبة إلى البرباشة ولكنه جحيم في نفس الوقت. فمن جهة يرتبط نشاط البرباش الاقتصادي بالنفايات سواء داخل المصب أو خارجه، ممّا يجعل المصب أو سلة النفايات في الشارع جزءاً مركزياً في حياة البرباش، يجنبه، كما قال بعض البرباشة، التسوّل والفقر. لكن المصب في نفس الوقت فضاء لدفن النفايات، بل وفضاء يجد فيه البرباشة أحيانا جثثا. وكثير من البرباشة أيضا ماتوا دهساً بالشاحنات أو تحت جرّار كما جاء في المقابلات مع بعض البرباشة، وآخرون أصيبوا بإعاقات وأمراض مزمنة.

إنّ تمثّل المصب كفضاء معيشي يعني أيضا أن البرباش يأكل من المصب. وقد كشف البحث الإثنوغرافي عن هذه الظاهرة حيث رأى الباحثون البرباشة يأكلون ما تلتقطه أيديهم من الحلوى والشكولاتة والمرطبات المنتهية الصلاحية ويشربون الماء من القوارير البلاستيكية خاصة التي تكون مع نفايات إدارية ويجتنبون قوارير الماء من شاحنة المستشفى. كما يلتقط البرباشة كميات هامة من الحلويات والمرطبات المنتهية الصلاحية لتباع لاحقا في السوق اليومي بالكبارية أو ما يعرف بحومة المرشي. ويجد البرباشة أيضا لحوم الدواجن منتهية الصلوحية وغيرها من

مشتقات الدواجن كـ«صالامي» والـ«الكوردون بلو» و«إسكالوب» و«ستيك»، وعلم فريق البحث الميداني أنها تباع لعربات الشواء أو لمحلات بيع الأكلة الخفيفة. وبسؤال أحد البرباشة عن الخطورة والضرر الذي قد يطالهم بسبب تناول هذه اللحوم المنتهية الصلاحية أجاب:

**« عمرنا كامل ناكلو فيها ولباس، خلي كيف تفوحها مليح و الله عالمية»**

تكشف المقابلات والعمل الميداني داخل مصب برج شاكير أنّ ممارسة الأكل من المصب والتعرض يوميا للغازات المنبعثة من ردم النفايات تجعل البرباشة عرضة لأمراض مزمنة وخطيرة. إنّ تمثل البرباش للمصب كفضاء حياة وكفضاء معيشي يتعارض مع واقع الحياة داخل المصب، إذ يكون الفاعل الاقتصادي غير النظامي أقرب إلى الموت والمرض منه إلى الحياة. في هذا السياق لاحظ فريق البحث جملة من المخاطر الصحية داخل المصب، بعضها يتعلق بالرجال والبعض الآخر بالنساء. أما المخاطر المشتركة تتمثل في الرائحة التي تبعث على الغثيان، وهناك من فريق البحث من تعكّرت حالته الصحية بعد اليوم الأول الذي قضاه في المصب وكانت الرائحة لا تفارق الأنوف حتى بعد العودة للمنزل والاستحمام، والرائحة في المصب هي مزيج بين رائحة النفايات التي تمّ جلبها للمصب ورائحة الغاز المنبعث من النفايات المردومة وكذلك رائحة عصارة النفايات المتجمعة في الأحواض.

الخطر المشترك الثاني هو الآلات وخاصة البلدوزر فهي تدفع بالقمامة ويستخدم السائق المنبه لإبعاد البرباشة من طريقه مواصلا سيره، لكن ما يوقفه حقيقة هو صراخ البرباشة في حال أنّه على وشك أن يدوس أحدهم أو كان أحدهم عالقا بين أكوام النفايات ولا يمكنه الابتعاد بسرعة، وقد أكدّ الكثير من البرباشة عن وجود حالات وفاة تحت عجلات البلدوزر أو حالات تمّ فيها بتر ساق برباش داستها الشاحنات.

الخطر المشترك الثالث هو شظايا البلور المكسور والمسامير العالقة بالخشب وحواف الملعبات وكذلك الحقن الموصولة بالإبرة وخاصة حقن الأنسولين أو الأنواع التي تشابهها، فهي تكون في النفايات المنزلية، هذا إلى جانب الأدوية التي تكون عادةً منتهية الصلاحية، وقد سمع فريق البحث امرأة وجدت كبسولات دواء ذات لونين أزرق وأبيض تقول لبرباشة أخرى:

« موش قنيلي قراجمي توجع ؟ أهيا حرابش باهية ضربة ضربة كيف إلي عطوهالي في المستوصف»

فأجابتها: «يرحم والديك تو نشربها بعد الفطور».

أما الخطر الصحي الخاص بالنساء، فيتمثل في مرض الكلى والتهابات المسالك البولية. وهو أمر خفي توصل إليه فريق البحث الميداني بملاحظة دفعتهم لطرح سؤال؛ إذ لا يوجد مكان لقضاء الحاجة البشرية وبالملاحظة المتواصلة رأى فريق البحث الرجال يذهبون لقضاء حاجتهم وراء أكياس التراب الموجدة في جهة الشمال الشرقي للـ «بلاتفورم» أما النساء فلم يرَ أفراد فريق البحث أنهنّ يذهبنّ إلى المكان. وبالسؤال عن مكان قضاء الحاجة بالنسبة إلى النساء أجابت إحدى البرباشات:

وليدي هانزي عباد تعري روحك حطتهم؟ ثمة كان توالات وحدة في المركز و هاك تشوف بعيدة، و الوحدة فينا كيف تتحصر تكبّ على راسها الـ «Big Bag» و تقضي شورها، و إلا نسيبوها على رواحنا لين نروحو باش نبدلو وهانا مغطين ما بيان شي، و كنا نحصرو رواحنا لين نروحو أما وحدة من كثر ما تحصر البولة لين تروح لين كلاويها زعمة سقطت ياخي ولت تلبس في الكوش كي تجي للمصب وفي لخر ولت تصفي مسكينة

ما يراه البرباش كفضاء معيشي يمثل في حقيقة الأمر فضاء تجتمع فيه فئات اجتماعية هشة من أحياء مهمشة تكون عرضة للمخاطر الصحيّة. ولا تمثل ثنائية الحياة والكسب/المرض والموت، الثنائية الوحيدة التي تحكم حياة البرباشة. فنجد مثلا أنّ أغلب البرباشة من حي النور شغوفين بالمصارعة، فتجدهم داخل المصب وكأنهم في حلبة مصارعة يستعرضون العضلات والقوّة:

«هانزي حاجة باش تفرض بيها روحك أولا في حومتك وهنا في المصب، لازم الناس

تعملك حساب *si non* ياكلوك حشيش وريش»

لكنّ تمثلات القوة والصحة التي يتباهى بها بعض البرباشة تتعارض وواقع الحياة داخل المصب وبين النفايات؛ حيث يعاني البرباشة من أمراض كالحساسية وضيق التنفس وآلام المفاصل، وكما قال أحد البرباشة: «كل الأمراض موجودة في هذا العالم».

## خاتمة

حاولنا في هذا المحور من الدراسة الوقوف على طبيعة العلاقة بين البرباش والنفائيات، حيث وجدنا أنّ البرباش يعيد تصنيف الأشياء ويخرج عن المألوف والمقبول في مجتمعه. وفي الجزء الثاني من البحث تطرقنا إلى الثنائيات التي تحكم عوالم البرباشة. فالبرباش يمقت المصب والنفائيات ويعيش منها في آن. هو فاعل اقتصادي يفتخر بعمله ويرى أنّ العمل في المصب أفضل من التسول، لكنه يخجل من ذكر عمله أمام أقربائه وجيرانه في نفس الوقت. كذلك، فإنّ البرباش يرى في عمله مساحة من الحرية حيث يمكنه العمل متى شاء ولا رئيس «عَرَف» له، لكنّه يُقرّ في نفس الوقت بعلاقات القوّة في الشارع وفي المصب بين مختلف البرباشة. إنّ ازدواجية حياة البرباش تكشف عن الهشاشة الاقتصادية والاجتماعية التي يُعاني منها كفاعل اقتصادي مهمّش، ويمتد التهميش في مثال البرباشة الذي تتناوله هذه الدراسة عموماً إلى الصحة، حيث يبدو البرباش فرداً يمكن الاستغناء عنه (disposable)، إذ وكما أشرنا في هذا البحث، رغم تعرضه للأمراض المزمنة وخطر الموت، تغيب الدولة عن لعب دورها في توفير ظروف ملائمة تمكّن البرباش من العمل داخل المصب أو خارجه.

## ببليوغرافيا مختارة:

Signe Howell, "Two or Three Things I love About Ethnography", *Hau: Journal of Ethnographic Theory* 1.7 (2017): 15–20.

Mary Douglas, *Purity and Danger: An analysis of Concepts of Pollution and Taboo*. London: Routledge & Kegan Paul, 1966.

Zsuza Gille and Josh Lepawsky, *The Routledge Hndbook of Waste Studies*. London: Routledge, 2022.

Geoffrey C. Bowker and Susan Leigh Star, *Sorting Things Out: Classification and its Consequences*. Cambridge: The MIT Press, 2000.

فؤاد إسحاق الخوري، أيديولوجيا الجسد: رموزية الطهارة والنجاسة. بيروت: دار الساقى 1997



# «البرباشات» ومهارة البقاء على قيد الحياة: قراءة من منظور جندي

د. أمال قرامي  
جامعة منوبة

## المقدمة

لم يعد حضور «البرباشة» في الأزقة والشوارع والمناطق الخاصة بجمع القمامة وفي الأحياء «الراقية» يصدّم التونسيين. فقد بات هذا المشهد مألوفاً ومبرّراً بتفتّشي الفقر والعوز بعد تدهور الأوضاع الاقتصادية في تونس. والتبريش الذي يعيننا ليس سلوكاً يخصّ الرجال الذين يدفعهم دورهم الرقابي أو شكّهم أو الفضول إلى البحث عن آثار النساء الدالة على كيدهن وفساد أخلاقهن، ولا سلوكاً يخصّ النساء اللواتي يراقبن زواجا أو حبيباً أو ابناً فيلجأن إلى تفتيش الملابس والحقائب والسيارات وغيرها بحثاً عن المخفي أو حجج الإدانة بل إنّ «التبريش» الذي ندرس هو عملية دقيقة تتطلّب مهارة في التنقيب في الحاويات والتفتيش في الأكياس الملقاة على الأرصفة بحثاً عن أشياء تُتمنّ وتدّرّ على أصحابها بعض الدنانير ولذا اعتبر «التبريش» مهنة منظمّة لها سوقها وأسرارها وخصوصيتها وكذلك مخاطرها.

أمّا «البرباشة» فإنّهم العاملون في هذا المجال، منهم من وجد نفسه مُجبراً على الالتحاق بغيره من الرجال المعطلّين عن العمل وبذل الجهد من أجل اكتساب خبرة وفهم «أحكام السوق»، ومنهم من اختار امتهان «التبريش» لأنّه رأى فيه نشاطاً يلائم طبيعته وظروفه ويحقّق له احتياجاته الأساسية.

ولئن صنّف «التبريش» في عداد المهن الذكورية التي تتطلّب مواصفات تنسبها الثقافة للرجال كقوّة العضلات، والشجاعة والجرأة وتحمل المشاق وغيرها فإنّ المهنة خضعت في العشريتين الأخيرتين، للجندرة فصار الحديث عن «البرباش» و«البرباشة» والخصومات بين الجنسين، والتنافس وغيرها من المواضيع التي طرحت بعد «اقتحام النساء» مجالاً ظلّ الرجال أنّهم احتكروه وسنّوا قواعده وقنّنوا ضوابط العمل فيه.

ولكن ما الذي يدفع المرأة إلى أن تصبح «برباشة» منخرطة في منظومة الاقتصاد الموازي، ومعرّضة للوصمة؟ وكيف يتسنى لها اكتساب مهارات الفرز والجمع والتفاوض وغيرها؟ وما هي طبيعة العلاقات الجندرية السائدة في فضاءات الفرز والتجميع؟ وكيف يؤثر هذا العمل في بناء صور النساء، وحيواتهن ورؤيتهن لذواتهن وللحياة؟

تحتل هذه الأسئلة وغيرها مركز اهتمامنا في هذه الورقة المنضوية ضمن كراس المنتدى الاقتصادي والاجتماعي الذي خصّص لتحليل أوضاع «البرباشة» في تونس<sup>1</sup> وفق التوزيع الجغرافي وتقسي أشكال انخراطهم في الإنتاج والاقتصاد الموازي/ غير الرسمي وتصوّرهم لمهنتهم وأدوارهم في المجتمع وعلاقتهم بالدولة وغيرها من المحاور التي تساعدنا على فهم الحياة اليومية لمن هم على الهامش وخارج أطر السياسات العمومية.

## 1/ في الإطار العام والمنهج

منطلق هذه الورقة هو المعطيات التي وقّرها فريق البحث (الملاحظات الاثنوغرافية واللقاءات في الفضاء العمومي والاستبيانات) بعد إنجاز بحث ميداني خلال سنة 2022، شمل منطقة تونس الكبرى ومجمع النفايات ببرج شاكير. وقد تمكّن الفريق من إجراء 30 مقابلة منها 5 مقابلات مع البرباشات (حسنة، حميدة، منجية، كوثر، منيرة). وقد أتاحت لنا هذه المقابلات الاطلاع على حيوات النساء وأشكال تعبيرهن عن ذواتهن ورؤيتهن للعمل والعلاقات وغيرها من المسائل.

1 فريدريك بوبين، «جامعو الخردة في العاصمة التونسية يخرجون من طي النسيان»، ترجمة noonpost. نشر بتاريخ 30 ماي 2019، تاريخ الاطلاع 17-9-2023  
جامعو الخردة في العاصمة التونسية يخرجون من طي النسيان • نون بوست (noonpost.com)

ورغبة منّا في توسيع دائرة التحليل الجندري ارتأينا إجراء بعض المقابلات فزرنا، على امتداد أشهر، عدّة أماكن تتجمع فيها «البرباشة» وتمكّنّا من رصد حركات النساء وأزمة تردّدهن على العمل وعلى فضاءات «الراحة»، حتى صار الأمر بالنسبة إلينا طقساً من طقوسنا اليومية. ثمّ انتقلنا بعد مرحلة الملاحظة، إلى إجراء اللقاءات المباشرة مع سبع نسوة: مباركة ووحيدة ورشيدة ورحمة وأمّ الزين ومريم وليلى اللواتي تتراوح أعمارهن بين 32 و60 سنة، وأغلبهن أمّهات من حي بوسلسلة، و«خمسة شنيدر» بالكرم وحيّ التحرير، وبينهن عازبتان تعيلان أسرتهما. وترجع أصول النسوة في الغالب، إلى الشمال الغربي (zero huit) كما يحلو لرحمة ورشيدة التذكير به، باستثناء امرأة واحدة من الجنوب (مباركة)، وقد نزحت عائلتهن منذ عشرين من الزمن، واستقرّت بأحياء على هامش العاصمة. وتنتقل هذه المجموعات النسائية من الأحياء «الفقيرة» إلى الأحياء «الراقية» مثل حدائق قرطاج، والمرسى والكرم وما جاورها بحثاً عن «الرزق الحلال» على حدّ قول «رحمة» (32 سنة). وتجدر الإشارة إلى أنّ عمل البرباشات في مرحلة الفرز والجمع في الفضاء العام مثل بؤرة التحليل ولم يسمح لنا الحيّز الزمني بمتابعة مسار النساء في فضاءات أخرى تُجمّع فيها الأكياس وتُعقد فيها الصفقات وتُنظّم فيها العلاقات وفق قواعد التفاوض والتنسيق وغيرها.

أمّا المستوى التعليمي «للبرباشات» فهو بين السادسة ابتدائي والباكالوريا ولا يتجاوز سنة أو إثنين في الجامعة. واتسمت اللقاءات<sup>2</sup> التي جمعنا بالمستجوبات بالتشاركية، إن كان في وقت العمل أو وقت الراحة، استطعنا من خلالها الاستماع إلى حكايات النساء التي تدور حول صعوبة تأمين الحاجيات اليومية وتخلّلها بعض النكت والأخبار والتعبيرات الدالة على الرضا والسخط والإحباط والغضب وكذلك عن البهجة والتوق إلى تحقيق بعض الطموحات. وأتاحت لنا (مساحة القرب)، (la distance de proximité) والألفة إدراك حجم معاناة هذه الفئة من النساء المنسيات في السياسات العامة والمغيّبات في الخطاب الرسمي، والوعي بمدى قدرتهن على الصمود والتشبّث بأحلامهن.

2 تشير إلى أنّ اهتمامنا بالبرباشات يعود إلى سنتين، وهو مندرج في إطار رصدنا للتحوّلات في مستوى وعي النساء المنسيات والمهمشات ومحاولاتهن للصمود في سياقات سياسية واقتصادية واجتماعية معقّدة، وكيفية تفاعلهن مع منظومة العلاقات الجندرية، وبنى الاضطهاد المتقاطعة (البطريكية، والدولة، والسياسات النيوليبرالية، وعولة الهشاشة...)، وقد رصدنا أنشطتهن وأشكال حضورهن في الفضاء العام... وقد امتدت هذه اللقاءات التشاركية على مدار 6 أشهر من فيفري 2023 إلى جويلية 2023، واستغرقت المحاورات حوالي نصف ساعة أو أكثر حسب استجابة المشاركات في البحث، نفسياً وظرفهن الخاصة كالشعور بالإرهاق أو مرضهن...

ولكنّ هذه التجربة حفّرتنا على التفكير في مجموعة من الإشكاليات تتعلّق بكيفية التعامل مع «البرباشات». فهل نحولهنّ إلى موضوع للبحث قد نجني منه مكسبا ومنتزع من ورائه، التقدير والاحترام والاعتراف؟ ونحن إذ نفعل نتعارض مع قناعتنا بأنّ النساء ذوات فاعلة ولسن موضوعا، ونتجاهل في الوقت ذاته، ما تفرضه الإيطيقا النسويّة من التزامات. وللخروج من هذا المأزق كان علينا توظيف ما توصلت إليه النسويات من نظريات تؤسّس لإيطيقا الرعاية (l'éthique du care)<sup>3</sup>.

تنبّهنا المنظّرات إلى خطورة التركيز على التحليل الاقتصادي لوضعيّة الفئات الهشّة، والاكتفاء بتحليل الأرقام والمعطيات ورسم الخرائط وغيرها بينما يتمّ تجاهل حيوات النساء ومشاعرهنّ وحاجاتهنّ النفسية. فالهمم، في نظر النسويات المتخصّصات في إيطيقا الرعاية (feminist ethic of care) هو أن نطرح على أنفسنا سؤالا مركزيا، وهو «ماذا علينا أن نفعل عمليا؟» وهنا يتعيّن على الباحثات/ين تغيير طرائق البحث والتحرّر من بعض الضوابط الصارمة التي تمنع المشاركة والتفاعل الاجتماعي، وتفرض أخذ مسافة وتلجم الذاتية... ونحن إذ نفعل ذلك يتسنى لنا رؤية الواقع وتحليل التجارب من زاوية مختلفة. فتغدو «البرباشة» (سيّدة الميدان، والمعلّمة التي تشرح وتفصّل القول وما علينا سوى الإصغاء والتفاعل لا من موقع سلطوي تفرضه المعرفة التي نمتلكها، بل من موقع من يبحث عن الصدمة المعرفية ويتعيّن علينا أيضا احترام «قوانين الصمت» أو اختيار الانسحاب من المشاركة... فلحكي النساء قواعد وضوابط أمكن للمتخصّصات/ين في التاريخ الشفوي وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرهنّ فكّ شفراتها.

## 2/ دوافع التحوّل إلى «برباشة»

لا تمثّل «البرباشات» كتلة موحّدة ومنسجمة، بل هنّ مختلفات في نظرتهم إلى الحياة وإلى أدوارهنّ وذواتهنّ وإن اشتركن في عدّة مسائل كتعرّضهنّ للمخاطر وخوفهنّ المستمرّ من المستقبل والمرض المزمن ومن العنف المركب. فـ(مريم، وليلى، آثرتا الخروج إلى العمل في الخلاء، على البقاء في منزل (غير آمن). تقول (ليلى، (45 سنة، متزوجة وأمّ لطفلين): «على الأقلّ هنا فمّة زملاء يتفهمو ويعرفو ربي يعاونوني وقت اللازم أمّا راجلي ما عندو وين يدور الريح...»

3 Carol Gilligan , In a Different Voice: Psychological Theory and Women's Development ,1982;  
Joan C. Tronto, "Beyond Gender Difference to a Theory of Care (1987);  
Joan C. Tronto, Who Cares? How to Reshape a Democratic Politics, 2015.

ما يعرف كان الضرب وهات اش عندك بالسيف»، ولا يختلف الأمر بالنسبة إلى زوج مريم (38 سنة متزوجة وأمّ لطفلين) الذي كلّمها ضاقت به الدنيا وسُدّت أمامه السبل انهال عليها ضربا مبرحا أمام طفلها. أمّا حسناء (41 سنة عزباء) فقد كان والدها يعنّفها منذ الصغر، ويجبرها على العمل في البيوت بينما كان يرسل أبناءه إلى المدرسة. تقول حسناء في هذا الصدد: «أبي من أجل 10 د يقوم ببيعك». بل أكثر من ذلك «الشخص الذي قام باغتصابي قال لأبي أن يسقط الدعوى قائلاً أنّه لا يمكن سجنه واقترح عليه مبلغ قدره 50 مليون مقابل صمته وسحب الدعوى وقام بأخذ المبلغ بالفعل واستمرت الحياة ومالي قام بتقديمه لأخي حتى يتزوج»<sup>4</sup>.

وإلى جانب العنف المنزلي والتمييز أو العنف في فضاءات العمل الذي تُعاني منه المعينات المنزليات أو العاملات في المصانع مثلا اللاتي يتعرّضن للإهانات والاستغلال وحتى التحرش تذكر المشاركات في البحث أسباباً أخرى لعلّ أهمّها تدهور المقدرة الشرائية التي تدفع بعضهن إلى امتهان (التبريش، حتى يؤمّن الحاجات الأساسية لأسرهن بعد أن تخلّى الرجال عن القيام بإعالة أفراد العائلة. فزوج (رحمة، 32 سنة) «لا يبذل ولا يعملّ حامل عايش عالة عليّ». أمّا إخوة (أمّ الزين، 60 سنة أرملة) فإنّهم يتسكّعون في الشوارع ويلازمون المقاهي ويرفضون تحمّل مسؤولية مساعدة العائلة، وهو تحوّل ملحوظ في العقلية يجعل فئة من الرجال لا يجدون حرجاً في أن تكون النساء القوامات والمنفقات.

وعندما تنقطع السبل وتُسدّ المنافذ وتتعدّد تجارب الاستغلال والاستحواذ على أجساد النساء وجهودهن<sup>5</sup> وما حصّلنه من مال يغدو مكان تجمّع النفايات الذي تنبعث منه الروائح الكريهة، أفضل من البقاء في المنزل. ويبدو أنّ تحوّل البيوت «العائلية» إلى أفضية غير صحيّة (مادياً ونفسياً) تتوتر فيها العلاقات وتزداد فيها المعاناة والشكوى والأثين هو السبب الذي يدفع بعض النساء إلى الانضمام إلى «جماعة عضوية». «فالبراشات، مهما اختلفت دوافع امتهانهن (للتبريش، يلتقين في إصرارهن على الفاعلية (agency) وقدرتهن على التكيف مع الواقع المعقد باستراتيجيات تعلّمها لا من ورشات «التمكين الاقتصادي»، بل من خبرات الحياة ومن التجارب التي مررن بها.

4 المقابلة البيوغرافية مع البرباشة، بروفيل حسناء

5 Paola TABET, La grande arnaque. Sexualité des femmes et échange économique-sexuel, Paris, L'Harmattan, Bibliothèque du féminisme, 2004

### 3/ التنازع حول المكان وبناء العلاقات الجندرية

لا يُنكر أحد أنّ الرجال كانوا سبّاقين إلى التحوّز ببعض الأماكن، وامتلاكها، رمزيًا ومن ثمة فرض الحدود بين الأصيل/ابن المنطقة، والوافد الجديد/الغريب، وبين الكبير والصغير، وبين الرجال والنساء... وبناء على ذلك لم يكن من السهل على النساء اختراق الحدود بين الجنسين، والعمل في مناطق تُعدّ تحت حكم الرجال إلّا بعد الإذعان للأوامر والقبول بوضعية 'امرأة في حمى رجل، قد يكون الزوج أو الإبن أو الجار أو... وهذه الوضعية تجعل النساء متطابقات مع المكان إذ يقال: «الجمي الموضّع الذي يُحمى ويدافع عنه كالدّار والمرعى وما إلى ذلك..» و«أنا في جمالك»: في عرضك».

إنّ العثور على مكان للعمل وانتزاع الحقّ في ممارسة «التبريش» يخضعان للتفاعلات الاجتماعية وموازن القوى والقدرة على التفاوض، وهو أمر متوقّع في ظلّ مجتمع «البرباشة»، الذي تسود فيه الهيمنة الذكورية. إذ لا يُرحّب الرجال بزحف النساء ومنافستهن لهم في تحصيل لقمة العيش ولذلك يشيع التوتر وتظهر الصراعات، ويترتب عنها تقسيم الأماكن تقسيمًا غير عادل إذ يختار الرجال الأحياء التي تكثّر فيها حاويات القمامة فتكون بالنسبة إليهم غنائم لا يمكن التفريط فيها. أمّا الأماكن التي لا توفّر زادًا كبيرًا فهي من نصيب النساء و«تلك إذا قسّمته ضيزى» (النجم 22).

أمّا تقسيم الأزمنة فيخضع بدوره، للجندرة إذ يبادر الرجال منذ الساعات الأولى من النهار، بفرز الحاويات وتجميع ما أمكن الحصول عليه ثم يغادرون لأخذ نصيب من الراحة ليأتي بعد ذلك دور النساء فإن صادفهن الحظّ اغتنمن علبة بلاستيكية أو طبق كرتون أو بقايا طعام... وإن كانت الحاويات خاوية انتظرن «نؤومات الضحى» حتى يرسلن أكياس القمامة مع عاملات المنازل أو يترقّبن وصول أصحاب/ت السيارات الذين يلقون الأكياس في الطريق العامّ، وهم في عجلة من أمرهم.

ولمّا كانت المرأة معوّدة، وفق قواعد التنشئة الاجتماعية التقليدية، على الصبر والتحمّل والخضوع فإنّها سرعان ما تتأقلم مع ضوابط العمل وتتجنّب الدخول في مواجهات مع الرجال. ولذلك يكون توزيع الأدوار و«هندسة الفضاء» وتقسيم الأزمنة في نظر «البرباشات» «طبيعي». فالرجال يسيطرون على المهنة ويفرضون احترام التراتيبات داخل الجندر الواحد، إذ لا يستوي

صاحب الإعاقة، مع الرجل «السوي»، ولا يستوي الشاب مع المسن... وكذا الأمر بالنسبة إلى التراتبية بين الجنسين إذ يسعى أصحاب الذكورة المهيمنة إلى فرض علاقات القوة ووضع النساء في منازلهن «الطبيعية» إذ «لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى» (آل عمران - الآية 36)، وليس أمام النساء إلا الإذعان لقواعد فرضها الرجال في ممارسة المهنة. تقول «منيرة» في هذا الصدد: «دائماً ما أتجنب المشاكل، هناك من يطردني من الحي بحجة أنّها «حومته التي يخدم فيها» وهناك من يبعدني من الحاوية بحجة أنّها حاويته، وأنا لا اكثر لتصرفاتهم وأتجنب المشاكل، في هذا القطاع يوجد الكثير من المتعصبين والأعداء ويوجد كذلك دخلاء الذين يأخذون من التبريش طريقة للتسول وكسب التعاطف»<sup>6</sup>.

وإذا نظرنا في الظروف الحافة بالمهنة تجلّت الفروق بين النساء والرجال بكلّ وضوح. فمن مظاهر التمييز بين الجنسين حسب «خالتي منجية» الاختلاف في مستوى أداء الأعمال. فأكثر «الرجال يعملون على الدراجات النارية، والنساء يحملن على ظهورهن ويوجد من لديه عربة»<sup>7</sup> ويتربّب عن ذلك متاعب صحية تتعرّض لها أغلب النساء كتقوّس الظهر، و...

والظاهر أنّ العمل في «الأحياء الراقية» يختلف عن العمل في بقية المناطق إذ يمنع على «البرباشة» التردّد على أصحاب/ات المنازل و«القصور» وطلب الحصول على قارورات البلاستيك فهذا إجراء يجلب لصاحبه/ته عقوبة. وبالإضافة إلى ذلك لا يسمح «للبرباشة» بالحديث بصوت مرتفع وهذا ما تدركه النساء في أوّل يوم يشتغلن فيه. تقول مباركة: «يلزم تخدم وإنّ ساكتة، ويمنع عليهن أيضاً الغناء أو مصاحبة أبنائهم فالضجيج يزعج المتساكنين والمظاهر «غير لائقة» و«المقرفة» تشوّه جمالية المكان وتهدّد «أمن الشخصيات» على حدّ عبارة رشيدة (55 سنة عزباء) التي تعرف منازل عدد من الوزراء، والموظفين السامين في وزارة الداخلية وغيرها. ولذلك تكتفي النساء بالتفاعل الاجتماعي الذي يوفّره مجال العمل. فيتجاذبن أطراف الحديث حول مواضيع مختلفة (الأمراض، سلوك المتساكنين، نوعيّة الأكل الذي يأكلونه، وغيرها) ويُتاح لبعضهن التفريغ عن النفس والتذكير بـ«الزمن الجميل» وسرد قصصهن و«أش عمل الدهر فينا» على حدّ قول أمّ الزين (60 سنة أرملة) التي اضطرت إلى الخروج إلى العمل بعد وفاة زوجها.

6 المقابلة التي أجراها الفريق

7 المقابلة التي أجراها الفريق

وتدرك «البرباشات» الاختلافات بين الجنسين على مستوى توزيع الأدوار إذ لا يتوقّف عمل النساء عند انتهاء مهمّة التنقيب والتفتيش والجمع ونقل المواد... بل تتضاعف أعباؤهنّ فالمطلوب منهن رعاية الزوج والأولاد وأحيانا الأب أو الأمّ وتقديم مختلف الخدمات غير المعترف بها وغير المثمّنة والتي يُنظر إليها على أنّها أدوار النساء «بالفطرة».

ولا تقتصر شبكة العلاقات على «البرباشة»، من الرجال والنساء فقط إذ تتواصل النساء مع بعض المتساكنين. فمنهم/ن من يلقي التحية عند وضع كيس القمامة، ومنهنّ من تتجاهل وجود «البرباشة» فتتعمّد شطبهم/ن وحجبهم/ن (invisibilisation)، ومنهنّ من تحتقر «البرباشة» وتتأفّف من «الوضع المزري والوسخ إلى فسّد الـQuartier» كما تقول (مريم).

وفي المقابل يتعاطف بعضهم مع «البرباشة» فيحضرون شيئا من الطعام في علب أو يمنحون المال أو يقدّمون بعض القفازات الصحية أو الملابس وغيرها من المساعدات، خاصّة في المناسبات الدينية. ومن الناس من يتأثر لوجود الأطفال في هذه الأماكن «الوسخة»، فيتعاطفون ويساعدون الأمّهات «البرباشات»، اللواتي يدركن ما لاصطحاب الأبناء من فوائد. تقول (كوثر) : «منذ أن اصطحبت معي أطفالي للعمل وخاصة في المناسبات الدينية على غرار الأعياد وشهر رمضان أصبحت أتلقى الكثير من المساعدات المادية ودائما ما يعطف الناس على أبنائي ويقدمون إليّ المال...كنت قبل نخرج وحدي يحنوا عليا أما شوية شوية توى مع صغاري مشاء الله يحنوا عليا أكثر، ونخرج زادة في رمضان وفي الأعياد باش يحنوا أكثر»<sup>8</sup>.

والمتعاطفون إذ يقدّمون العون «للبرباشات» إنّما يعبرون عن معتقداتهم /ن وقناعاتهم/ن الدينية التي تفرض على المسلم/ة الملتزم أداء الصدقات ولذا يقتصر التعامل على توفير بعض المساعدات دون إبداء الرغبة في التواصل الفعليّ، وبناء علاقة تمكّن المتساكنين أو الماريّن من فهم تجارب هؤلاء المتروكين/ات لحالهم/ن. ولا نحسب أنّ الوعي بقيم المواطنة الفاعلة والمسؤولية والديمقراطية الإدماجية والاقتناع بتغيير واقع ضحايا العولمة والسياسات النيوليبرالية المتناقضة هو ما يدفع القوم إلى تقديم المساعدات.

ومهما يكن الأمر فإنّ هذه الأنماط من التفاعل تقيم الدليل على ضمور الحسّ الإنساني، وضعف الروابط الاجتماعية القائمة على الاحترام، والتقدير والاعتراف المتبادل وتحمل المسؤولية الاجتماعية.

## 4/ آثار ممارسة المهنة على النساء

### أ- العلاقة بالأشياء

«تاعبة»، «وضعيتي تاعبة»، «حالتنا مكربة»، «هدّني الزمان» «حياتي تاعبة»<sup>9</sup>، «تعبنا من ها الحالة هذه»، «ما عايش عندي جهد باش نتكلم، كرهت روجي»، «الدنيا الكل كارهتها».. عبارات مألوفة تجترها (البرباشات) عند الإفصاح عن تجاربهن في العمل وفي الحياة. وهو أمر يثبت عدم رضاهن عن هذا الواقع الذي فرض عليهن عدم التخطيط للمستقبل والاكتفاء بالعيش يوماً بيوم فضلاً عن التعامل اليومي مع الأشياء<sup>10</sup> التي يتخلّص منها أصحابها فتصبح مادة للفرز. وهي أشياء تعبّر عن المستوى الاجتماعي للمتساكنين وتعكس أنماط عيشتهم وسلوكهم الاقتصادي والاجتماعي... وتمثّل في الوقت ذاته «منجم الذهب المهمل» لكلّ المحرومين. ولذا لا تتوانى «وحيدة» (38 سنة عزباء) عن استعمال بعض مواد التجميل التي تعثر عليها ولا تلتفت لأجل انتهاء صلوحيتها أو طرائق الاستعمال فالمهم بالنسبة إليها هو رعاية هذه الأنوثة «الذابلة» والتعامل مع الجسد المكدود بلطف ونعومة. فيصبح الجلد الخشن الذي رسمت فيها المهنة بصمتها بعد التدليك، رطباً ولو لبضع الساعات. تقول «وحيدة»: «ساعة ساعة تلقى بوماضة في النص متاعها، نفرح بها، ولّا قليم حُمير نخبيّه لعرس من العروسات التي تجيني». أمّا «ليلي» فتستغرب تصرفات النساء المترفات «يا بنتي المرا الي كيفنا ما تلحقشي على دابوسة كولونيا تبدأ تشم وتخبي وهاذوما نساوين يطيشوا في الدبابز وما كملتشي يبقى فيها الربيع نشيخو بيه: يرزق عبود من عبود ههه».

9 المقابلة التي أجراها الفريق مع كوثر

10 يمكن الرجوع إلى المقدمة التي كتبناها حول المؤلف الجماعي الذي أشرفنا عليه، «النساء وفتنة الأشياء»، دار رؤية، القاهرة 2022، ص 24-8.

تفصح حسناء<sup>11</sup> عن علاقتها بالقوارير التي تجمعها يوميا فتقول: «أنا القوارير أحبهم وتحبني». وتعبّر (خالتي منجية)، (61 سنة) عن المشاعر التي تنتابها حين تعثر على بعض الخضر. فتقول: «عندما أجد خضروات في سلّة المهملات أفرح، أخذها»<sup>12</sup>، وتعتقد أمّ الزين بدورها، علاقة متينة مع حاويات القمامة فهي بالنسبة إليها مصدر الحصول على المال والكساء والغذاء. ولكنّها تعبّر عن «صدمتها الكبرى» من سلوك الناس. فلئن ابتهجت أمّ الزين بوجود بقايا الطعام وبعض الغلال والخضار التي تمكنّ أسرتها من سدّ الرمق فإنّها أظهرت حزنها لعدم تفكير صاحبات «المنازل الفخمة» في المحتاجين. «يرميو الماكلة لينا وكاينا كلاب ويخلطوها مع الزبلة... ما نعرفش علاه ما يحطوهاش في صندوق بلاستيك وحدها؟ علاه الذلّ والتمريد؟». ويبدو الشعور بعدم المرئية موجعا «للبرباشات» إذ أنّهنّ لا يفهمن كيف يتعامل الناس معهنّ وكأنّهن غير موجودات.

### ب- العلاقة بالجسد والنظرة إلى الذات

لا يَعتقد الرجال، في الغالب، علاقات حميمة مع بعض الأشياء التي يعثرون عليها كقنينة عطر أو أداة حلاقة... ولا يضطر هؤلاء إلى تغيير هياّتهم ولا يشغلهم التوفيق بين الأدوار في الخارج والأدوار في الداخل ولا يفكّرون في إمكانات التعرّض للتحرّش أو الاغتصاب... فتلك مسائل (نسائية). وفي المقابل تتحدّث بعضهن عن الخضوع لبعض الأوامر التي تقدّمها القيدومات في المهنة أو المسيطرون على المكان في قالب نصائح. فالمطلوب وضع غطاء الرأس وطمس معالم الأنوثة. تقول «رشيدة»: «اضطريت نغطي شعري وقت الخدمة باش ما يتلفتني حدّ، وفي الطريق نحي الفولارة ونغسل حالتي». تلك هي استراتيجية نسائية لحماية النفس، ووسيلة مثلى في نظر البرباشة، لتحقيق «السلامة» والعمل في «أمان»، ولكنّ ما يثوي وراء خطاب «الحرص على سلامة النساء، هو الحفاظ على النظام الجندري وحراسة المعايير التي يفرضها لتثبيت أوضاع كلّ جنس وأدواره/ها وبذلك يحافظ الرجال على الامتيازات التي توقّرها البطريكية.

وما يسترعي الانتباه في حديث «البرباشات» عن أنفسهن وعيهن بالتغيير الحاصل على مستوى أجسادهن. فالوقوف لساعات طويلة أمام الحاويات له أضرار على الصّحة، واستنشاق الروائح

11 المقابلة التي أجراها فريق البحث معها

12 المقابلة التي أجراها فريق البحث معها

الكريهة لساعات يؤدي إلى فقدان حاسة الشمّ أو الإصابة ببعض الأمراض، ولمس ما تحويه الحاويات من أشياء كالكؤوس الزجاجية المكسورة أو قطع الحديد التي تشكّل حولها الصدأ... قد يؤذي «البرباشة» ويصيبها بجروح تنتقش آثارها في اليد إلى الأبد. والتعرّض للبرد القاسي أو القوي له عواقب لا تحمد. ولا يمكن التغافل عن صعوبات أخرى تعترض العاملات في الخلاء بسبب عدم وجود مكان — «قضاء الحاجات». فبينما يختبئ الرجال وراء الشجر للتبول أو التغوط تُشكّل النساء دائرة لستر من تبول إذ أنّها الوسيلة المتاحة والممكنة إذ يرفض أصحاب المقاهي دخول البرباشات «بيوت الراحة». تقول وحيدة: «يخافو منا بسبب الريحة والجراثيم والنزاسة (النجاسة)». بل أكثر من ذلك قد ينفر الزوج من «البرباشة» فيتجنّب معاشرتها. وتصرّح رحمة (32 سنة، متزوجة، وأمّ لولد): «كل ما نطلع للفرش يعطيني بظهرو ويقلي حتى غسلت وباقي عندك ريحة حطي طرف بخور ولا ند كيف قدر عليك ربي»، وهو موقف يقيم الدليل على أهميّة الروائح في التفاعل الاجتماعي وضبط الحدود بين الجنسين وتشكيل الجنسانية.

وفي السياق نفسه لا تساعد ظروف العمل البرباشة على رعاية جسدها بالذهاب إلى الحمام. بل إنّ الحائض تجد صعوبة في تغيير الحفاضات فتصدر عنها روائح تضاف إلى الروائح التي تخرج من الحاويات هذا دون التغافل عن الالتهابات التي يمكن أن تتعرّض لها بسبب عدم توقّف وسائل النظافة. وهو أمر يجعل «البرباشات» أكثر رغبة في المشي على الأقدام وأكثر إصراراً على تجنّب وسائل النقل حيث يعلو صياح الركاب ويمارس التنمّر والشتّم والإهانة وتكثر مطالب التخلّص من الأجساد «الخطرة». وتدرك «البرباشات» أيضاً أنّ الدورة الشهرية، والحمل، والإرضاع هي بمثابة إعاقة حقيقية تحدّ من قدرتهن على العمل والتنقل وتزيد من هشاشتهن وتُشعرهن أكثر فأكثر بتعقّد الظروف والتمييز واللاعادلة.

وليس الإفصاح عن الأحاسيس المكتومة أمراً هيناً إذ يصعب على المرأة التي دخلت فكرة رعاية الأنوثة واعتبارها الرصيد الهامّ في بناء علاقاتها أن تستوعب أنّ مهنة «البرباشة» تُحوّلها إلى امرأة فاقدة للجاذبية وغير مثيرة وفاقدة للقيمة، بل منبوذة وكأنّها مصابة بالجذام أو البرص تتسبّب في نقل العدوى إلى الآخرين. ويصعب على الأمّ المكدودة أن تتقبّل أنّ أبناءها يخجلون من مهنتها ويتعرّضون للوصم بسببها فتتوتّر علاقتها بهم... «وما أصعب على الأمّ كي تسمع بنتها تستعر بيها». (مباركة 52 سنة متزوجة وأمّ لثلاثة أبناء) «وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة».

## ج- التحرّر من خلال العمل

لئن اعتقدت بعض «البرباشات» أنّ العمل في الفضاء العامّ (يحرّرنه) من القيود الاجتماعية والضغوط اليومية، ويضمن لهنّ الاستقلالية، ويحول دون الاستحواذ على جهودهن واستغلالهن فإنّ الواقع يكشف عن صلابة البنية الاجتماعية إذ يسعى الرجال والنساء (عن قصد وعن غير قصد) إلى إعادة إنتاج بُنى الهيمنة. وتدرك «البرباشات»، أنّ استغلال جهودهن صار أمرا لا مفرّ منه. تقول (كوثر) في هذا الصدد: «كرهت العمل في هذا البلد، فان اشتغلت كعاملة منازل، يتم استغلالني ماديا وأحيانا جسديا، وان عملت «برباشة»، أتعرض للوصم والاحتقار والاستهزاء، فحقا فقد العمل معانيه في تونس»<sup>13</sup>.

تفصح تجارب «البرباشات» عن تقاطع بُنى الاضطهاد ومحاولاتهن للتخفيف من آثارها، ويتجلّى ذلك في قبول عدد من النساء التصريح بمهنتهن دون الشعور بالخجل من التسمية: «برباشات». تقول رحمة: «الي يسألنا نقولو برباشة خدمة النهار ما فيها عيب لا نسرقو لا زناو» وتتفق معها مباركة ورشيدة وليلى وأمّ الزين اللواتي يؤكّدن على أنّ «التبريش» مهنة وأنهن يعملن كغيرهن من النساء والرجال من أجل توفير ما يسدّ الرمق. وتجد حسناء متعة في ممارسة «التبريش» وتوضّح السبب بقولها: «لأن بها متعة وتعمل بحرية متى أردت العمل ومتى أردت تأخذ قسطا من الراحة»<sup>14</sup>. كما أنّ هذه المهنة «تعجبني ولديا فيها هدف أريد الوصول إليه وهو شراء 2 متر من التراب وأقوم ببنائهم حتى بالزنك وأسكن فيها».

وفي مقابل هذا الموقف تحجل بعض النسوة من ممارسة هذا العمل الذي يتسبّب في معاناة أصحابه من الوصم الاجتماعي والمرض والنبذ والعزل والاستبعاد حتى في الأوساط العائلية.

وهكذا نتبيّن أنّه لا يمكن «للبرباشات» التحرّر في ظلّ مجتمع بطريكي ونظام اقتصادي متوحّش يسحق فئات لا يعتبرها جديرة بأن تعيش فهي «نفايات». ولذا تعبّر أغلبهن عن الإحساس بـ «التعب» وينتابهن الشعور بالغضب بينما تشير أخريات إلى الرضا بـ «القسمة والنصيب والمكتوب على الجبين» فلا طائل من وراء الشكوى والتمرد طالما أنّ الدولة تخلّت عنهن وتركتهن «نعافرو في الحياة قلبة بقلبة» على حد قول (رشيدة).

13 المقابلة التي أجراها الفريق

14 المقابلة التي أجراها الفريق

تتفاوت درجات الوعي وتباين مواقف النساء من مهنة «التبريش» ولكن ما يجمع بينهن هو المشاعر التي تنتابهن كالإحساس بالألم بسبب الإهانات الموجهة إليهن من جهة، ولعدم اعتراف المجتمع والدولة بهن كذوات فاعلة ورفض تثمين الدور الذي يقمن به، من جهة أخرى. يُضاف إلى ذلك شعورهن بانعدام الأمان وانشغالهم المستمرّ بالتفكير في مستقبل الأبناء... وهذه الروابط العاطفية التي تنسج بين «البرباشات» هي التي تسمح لهن بالاستمرار والدفاع عن بعضهن البعض والتفكير في الحلول البديلة أو في أساليب جديدة للتفاوض.

لا تفقه «البرباشات» شيئاً عن برامج التمكين الاقتصادي ولا عن اللامساواة الجندرية، أو اللاعدالة الجندرية، أو الفجوة الجندرية أو الحيف الجندري أو النظريات النسويات وما وفّرت من مفاهيم ومصطلحات واستراتيجيات ولكنّ خبرات الحياة اليومية مكّنتهن من اكتساب وعي جعلهن يطالبن بالضمان الاجتماعي و«كارني» الصحة وتنظيم «الكار» وتوفير الحماية «من الكلاب والعباد». أمّا حكمة «نساء بكرى» والجدّات فقد مكّنتهن من تجاوز المحن والعراقيل والتشبّث بالحياة. وفي السياق نفسه لا يمكن التغاضي عن الرأسمال النسائي الإيماني/الروحاني الذي جعل أغلب «البرباشات» لا ييأسن من رحمة الله. «ارمي توكالك على ربّي» كما تردّد أمّ الزين دائماً «فإنّ مع العسر يسراً» (سورة الشرح/آية 5)، وهو أمر يجعلنا نتساءل عن مدى إدراك الجمعيات النسوية لهذا الوعي الذي لا يكتسب في الندوات التي تقام في «الفنادق 5 نجوم» حيث يكون الكلام نيابة عن الفئات الهشّة وتغيب أصواتهن أو يحضرن لتقديم بعض الشهادات التي تضيي مسحة من الشرعية على أعمال الجمعيات ثمّ ينقطع بعدها التواصل بانقطاع التمويلات...

## 5/ «البرباشات» والعلاقة بالدولة

تومئ خطابات «البرباشات» وتجاربهن المتنوّعة إلى فشل السياسات العامّة والمنظومة الاجتماعية في الاعتراف بهذه الفئات التي تعرّض مسارها التعليمي فلم تستطع أن تكون في عداد أصحاب/ات الكفاءات العالية، بالإضافة إلى غياب الإرادة السياسية والرغبة الصادقة في صياغة برامج تعمل على إدماج هذه الفئات الهشّة. ففي ظلّ المناويل الاقتصادية الرأسمالية الاستهلاكية/ النيولبرالية لا يُلتفت إلى الأفراد الذين تعوزهم الشهادات العلمية والكفاءة والمهارات، مع أنّهم يحاولون بكلّ جهد وثقة في النفس، العمل والمساهمة في الإنتاج، ولا يكثرث واضعو السياسات بالمشاعر الفردية (الإحباط، الحزن، الألم،...) ولا ينتبهون إلى حاجة هذه الفئات المنسية إلى

الاعتراف والكرامة والعدالة الاجتماعية ولذا لا يتغيّر وضع من هم على هامش الهامش. ففي «مجتمع الاحتقار» و«اللامرئية الاجتماعية» تكون المواطنة التامة والشاملة امتيازاً لا حقاً ينتفع به الجميع.

يفضح واقع «البرباشة» مجموعة من التناقضات. فالأنظمة النيولبرالية/الليبرالية الجديدة تشجّع الفرد على إثبات ذاته من خلال العمل وتحصيل التجارب المتنوعة، ولكنها تضع قيوداً تكبل كل من صدق سرديّة التحرر وإثبات الذات ومن ثمة تحوّل إلى آلة. ولكن هل يمكن لأداة العمل أن تثبت ذاتها؟ وينجم عن تلك التناقضات الاستلاب والشعور بانعدام القيمة. وعلاوة على ما سبق تعلّم هذه الأنظمة النيولبرالية الفرد بأن يكون مسؤولاً عن نفسه فقط وتغرس لديه قناعة بأنه غير معنيّ بالآخرين ولكنّ الدروس الأخيرة المستفادة من تجربة التعرّض لفيروس (كورونا)، ومؤخراً تجربة مواجهة الكوارث الطبيعية تثبت أنّ قوانين الحياة ومبادئ العيش معا باختلافاتنا تقتضي تحمّل المسؤولية الرعائية. ولكن إلى أي مدى يفقه السياسيون دلالات واجب الرعاية؟ وانطلاقاً من هذا الوعي بالتحوّلات الجديدة تقترح النسويات وضع سياسات تثمّن الإنتاج والرعاية على حدّ سواء.

وبعيداً عن انتقاد الأنظمة التي فشلت في ضمان حقوق جميع الأفراد وعجزت عن توفير الخدمات والضمانات التي تجعل الفرد يشعر بالأمان يفضح خطاب «البرباشات» وتجاربهن المتنوّعة البنية الاجتماعية المكّسة للتراتبيات والمنمّطات والتبعية والفردانية.

يحاول «البرباشة» كسب الرزق بهدوء وسط حياة المدينة التي تعجّ بالحركة والضجيج. يهرعون منذ الفجر، إلى حاويات القمامة ويسابقون الزمن قبل أن يبدأ عمّال البلدية جولاتهم المحدّدة لتفريغها فيفرزون ويصنّفون ويجمعون وينقلون «الغنائم»، في العربات أو يحملونها على ظهورهم. ولكن كلّ فرز يعري التراتبيات فيظهر التمايز بين من يملك عربة ومن لا يملك، وبين من يستطيع حمل الأكياس مسافات طويلة وبين من تتعثر خطاه ويجاهد حتى يصل إلى المستودعات في ضواحي المدينة لتفريغ الحمولة والحصول على مقدار من المال يعينه على توفير لقمة العيش. وهذا الواقع المرسخ للتراتبية واللاعادلة يقيم الدليل على أنّ مشروع تأسيس «مجتمع الرعاية» بعيد المنال أو هو بمثابة (يوتوبيا)، غير قابلة للتحقق.

ويمكن القول إنّ نظاماً يشجّع الأفراد على الربح السريع، والرغبة في الاستهلاك، ويُعلي من قيمة المال على حساب بقية القيم الجوهرية (كالحرية، المساواة، الكرامة، العدالة الاجتماعية...) لا نتوقع منه أن يعزّز ثقافة الرعاية والمواطنة المسؤولة والشاملة، وأن يعمل بجدّ على فرض مشروع دمج القطاع الموازي والاعتراف الرسميّ بمهن لا توفّر لأصحابها الضمان الاجتماعي والتأمين الصحيّ والكرامة وغيرها من الحقوق. تقول ألفة الموم في هذا الصدد: إنّ هؤلاء العاملين «غير مؤهلين للحصول على الحقوق الاجتماعية والتغطية الطبية والتقاعد، الممنوحة للمهن ذات الوضع القانوني. ويعدّ هذا الأمر مفارقة قاسية خاصّة وأنّ هذا التغييب القانوني يتناقض مع التواجد الواقعي لهذه الظاهرة بشكل متزايد في شوارع المدن الكبرى في تونس»<sup>15</sup>.

وبالرغم من عدم الاعتراف الرسمي والاجتماعي «بالبرباشة» وغياب الإطار التشريعي والتنظيمي فإنّ تأسيس جمعية «البرباشة» في حيّ التضامن يعتبر «بديلاً اجتماعياً وتضامنياً عن الاستغلال الذي يعاني منه البرباشة. وهذه التجربة لا تخلق فرص عمل فقط، بل تعزّز الحقوق الاجتماعية وتساعد على تحسين الوضع البيئي أيضاً»<sup>16</sup>.

## الخاتمة

تتضاعف اليوم، أعداد «البرباشة»، «الفتاشة»، «جامعو القمامة»، «جامعو الخردة» في لبنان، وتركيا وتونس وغيرها من البلدان، ويتّسع حضورهم في الفضاءات العامّة لاسيما بعد انضمام فئات جديدة إليهم كالمراهقين/ات والأطفال الذين يساعدون أهاليهم على تحطّي الأزمات، وهو أمر يحفّز على مزيد إجراء البحوث الميدانية التي تعنى بتحليل قصص النساء والفتيات الممارسات للمهنة.

ينتقل «البرباشة» اليوم، من وضع اللامرئية إلى المرئية فتتطرق السينما والدراما وأغاني الراب وفنون الشارع والمسرح وغيرها إلى مشاكلهم/ن ومعاناتهم/ن ومحاولاتهم/ن للصمود

15 فريدريك بوبين، المراسل الخاص لصحيفة لوموند الفرنسية في العاصمة التونسية، جامعو الخردة في العاصمة التونسية يخرجون من طي النسيان، ترجمة نون بوست، نشر في 30 مايو، 2019  
جامعو الخردة في العاصمة التونسية يخرجون من طي النسيان • نون بوست (noonpost.com)

16 المرجع نفسه.

وطرائق تجاوزهم/ن للمصاعب. وفي السياق نفسه نلاحظ أنّ بروز بعض المشتغلين بالقطاعات الموازية قد أدّى إلى الاعتراف النسبي بـ «البرباشة» و«جامعي الخردة والأشياء البالية» وبالأدوار التي يؤديها هؤلاء «الفاعلون الجدد» لاسيما بعد تسليط الأضواء على إعادة التدويل ومشاكل البيئة.

ولكنّ تحوّل «البرباشة» إلى موضوع أثير للبحث أو الدرس (السوسيولوجي، الأيكولوجي، السياسي...) أو المتابعة الإعلامية أو النقاش الاقتصادي لا يجب أن يحجب عنا حقيقة لا مرية فيها، وهي أن تموقع «البرباشة» الذي تغيّر بفعل الاقتصاد المعولم والتغيرات المناخية وغيرها من التحولات التي تعيشها المجتمعات المعاصرة، قد عرّى التناقضات والمفارقات. فقد أفرز «الاستعمار الجديد» والمناويل الاقتصادية المكرّسة لثقافة الاستهلاك ظهور فئات اجتماعية تزداد هشاشة يوما بعد آخر في مجتمعات تزعم أنّها تحتفي بقيم التضامن والرعاية وتلح على ضرورة احترام حقوق الإنسان. وفي الوقت الذي تنتصب فيه «الدول العظمى» لتعطينا دروسا حول تغيير طرائق تعاملنا مع البيئة وضرورة حماية الطبيعة تتحوّل دول الجنوب إلى «مصب للزبلية»، وبينما تثمّن قيمة الفرد في الدول المتقدّمة وتوضع السياسات لحماية جودة الحياة وغيرها يجرد الأفراد في دول الجنوب من إنسانيتهم فتذهب حياتهم سدى. وهو أمر يتطلّب وعياً بالرهانات والتحديات والشروع في بناء التحالفات بين دول الجنوب والإفادة من البلدان اللاتينو أمريكية والأفريقية وغيرها (البرازيل وكولومبيا والأرجنتين وأندونيسيا والهند والصين وغانا) التي أطلقت المبادرات ونجحت بفضل نشاطية (activism) «الطبقة العمالية الجديدة» في اكتساب بعض الحقوق لفائدة «البرباشة» وغيرهم من الفئات المسحوقة، وفي الضغط من أجل فرض سياسات أكثر عدالة.

---

## ببليوغرافيا مختارة :

Mosquera (Daniel), What does Trash have to do with Revolutions? Re-thinking Trash and the Renewal of Political Ecologies, in, University and Society within The Context of Arab Revolutions and New Humanism,(edited by Mohsen El Khouni, Mouldi Guessoumi and Mohamed Salah Omri, Rosa Luxemburg Stiftung,Tunis2016.

Dorra MAHFOUDH – DRAOUI, LES FEMMES TUNISIENNES DANS LE TRAVAIL ET LE MOUVEMENT SYNDICAL, Friedrich-Ebert-Stiftung,Tunis-décembre 2018

Franco Barchiesi, The precariousness of work in postcolonial Africa; April 2017

<https://www.researchgate.net/publication/345061889>

# البرباش تحت مجهر الدراسات الرجولية: الرجولة بين المصّب والحاوية

د. رضا كارم

باحث في الدراسات الرجولية

## مقدمة

ينخرط هذا المحور ضمن سلسلة من الأعمال المعنّية بدراسة المهّمّش القابع خارج مجال رؤية الدولة وخارج اهتماماتها وعواجلها. وإن درسنا سابقا الألتراس<sup>1</sup>، والمنتصب في سوق نهج إسبانيا<sup>2</sup>، فإننا ندرس في لحظتنا البحثية هذه «البرباش». وقد ركّزنا على الرجال والرجولة موضوعا للدرس في جميع هذه المقالات، مبيّين أعمالنا تحت باب إخراج الرجال من العتمة الاجتماعية وسحبهم من مواقع المراقبين والمختبرين والمشاهدين، والزّجّ بهم على الرّكح مؤدّين وفاعلين مختبرين. ولا ننضمّ بهذا التّوجّه إلى حقول الدّراسات النسوية والجندرية فحسب، بل نطمح إلى الاستئناس بها وجعلها أعمدة تسند مقاربة الدّراسات الرجولية<sup>3</sup> التي نعتمدها نبراسا رئيسا نتحرّى على ضوءه مهامّ كشف ما يخفى خلف الرّكح<sup>4</sup> والقناع وما يهرب من الكاميرا ومن

1 رضا كارم، «الألتراس والانزياح الرجولي»، في أنماط الرجولة، إشراف وتقديم آمال قرامي، (بغداد، وبيروت: دار الزّافدين، 2022).

2 رضا كارم، «البائع المنتصب في سوق نهج إسبانيا بين ذكورة الأنموذج وذكورة الهامش» في سوق نهج إسبانيا أو منهاج الاقتصاد الشارعي في تونس مقارنة سوسيوأنثروبولوجية، تحرير وتنسيق سفيان جاب الله، (تونس: المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2023).

3 الدّراسات الرجولية مقارنة علمية متعدّدة التخصصات ومبحث مستقلّ أفرده بماجستير بحث في جامعة نيويورك تحت إشراف مايكل كيمل. يهتمّ هذا المبحث بدراسة الرجال باعتبارهم جنرا جديرا بالبحث والفهم والتّشريح، وتجاوز التّركيز على مسرحة النّساء بحثيا وحدهنّ. نشأت هذه الدّراسات ضمن الحاضنة النسوية وهي في تقاطع معها ومع الدّراسات الجندرية. وتعدّ رايوين كونل وميسرشميدت ومايكل كيمل وتود ريزر من أعيان هذا المبحث ومؤسّسيه. ويمكن القول إنّ مي بيضون وفادية حطيط وأمال قرامي وعبد الصّمد الديالمي من أهمّ أعلام هذه الدّراسات عربيا.

4 يؤكّد هاري برود على ضرورة الكفّ عن أفراد المرأة بالخشبة، وأهمّية تشريك الرّجل وإخراجه إلى الوجود البحثي وتحويله إلى موضوع للدرس. فموضوعة الرّجل بحثيا تفكّ عنه أسر المركزية وتجعله ملحوظا وقد تساعد في فهم مشكلاته المعاصرة. لمزيد الاطلاع ينظر في:

Harry, Brod, The Making of Masculinities The New Men's Studies, (Boston : Allen & Unwyn, 1987).

رقابة الصورة؛ صورة المجتمع - المخرج.

ونتناول البرباش بالدّرس وقد بات فاعلا مرئيًا بارزا لا تنكره عين المجتمع، ولا تغفل عنه تجارب الأفراد وعلاقاتهم ويوميّاتهم. ومن ثمّ، يفرض البرباش نفسه حاضرا ضاغطا على العين البحثية ساحبا لها من حقل التّضامن الوطنيّ المجرّد إلى حقل تجربة الكتابة العلميّة، والدّراسة الجدّية. أي أنّ البرباش يتحوّل من خلال حضوره الطّاعني في الرّكح الاجتماعيّ إلى مؤثّر في الوعي البحثي يفرض على الباحث الكفّ عن الملاحظة وحدها والانتقال إلى مرحلة صياغة بدايات الفهم. وهكذا، يعبر هذا المحور وغيره من المحاور المجاورة له ضمن هذه الدّراسة متعدّدة المناهج والتّخصّصات البحثية، عن زحزة زاوية النّظر لتنتفتح على أفق قليل الحظّ من الدّرس والفهم والتّأويل، لا باعتباره أفقا هامشياّ منسياّ فحسب، بل باعتباره أفقا جنديرياّ وطبقياّ يخوض علاقات ملتبسة بالسلطة الطبّقيّة البطرقيّة وأنموذج الرّجولة المهيمنة كونياّ<sup>5</sup>.

وإذا كان البرباش في «مصبّ برج شاكير» أو في «أحياء تونس المرفّهة»، ملاحقا للنّفايات نابشا في محتوياتها باحثا عن غنيمته فيها، فإنّه أثناء جهوده تلك يرسم ملمحا اجتماعياّ وثقافياّ وسياسياّ واقتصاديّا مميّزا، كما يرسم صورة رجولة ذات عناوين حقيقة بالبحث ومحاولة الفهم. وانطلاقا من مادّة إمبريقيّة واسعة استبيانات وملاحظة مباشرة ومقابلات نصف موجّهة، أي انطلاقا من مادّة إثنوغرافيّة ثريّة، نحاول مقارنة هذا النّمط الرّجوليّ وسبر أغواره ومقارنته بأنماط رجوليّة سبق لنا أن اجتهدنا في تحديد ملامحها. فأيّ رجولة هي رجولة البرباش؟ وما جواز القول بتمايزها عن غيرها من الرّجولات؟ ومن ثمّ، أيّ فوارق بين الرجل برباشا داخل المصبّ والرّجل برباشا خارجه وفي حاويات المنازه والمنارات وحي النّصر تحديدا؟ وأخيرا بأيّ معنى يمكن الحديث عن برباش ذي نمط رجولي واحد، وهو المتعدّد المختلف تعدّد تجاربه ومواقع عمله وخبراته؟

5 مفهوم الرّجولة المهيمنة هو مفهوم مركزي من اجترح الباحثة الأستراليّة رايون كونل وقد بلورته في النّمانيات ثمّ توسّعت فيه وراجعته مرّات بعد جملة النّقود التي واجهت المفهوم. وتقصّد كونل بالرّجولة المهيمنة تلك الرّجولة التي تقوم على بنيات اجتماعيّة متعدّدة مثل العرق الأبيض والطّبقة والسّنّ والجندر الرّجالي والمغايرة الجنسيّة والمهيمنة الجندريّة. وبذلك فإنّ غربياّ بورجوازياّ أبيض متعدّد العلاقات مع النّساء وراشدا فحلا مغايرا جنسيّا، هو مثال عن رجولة مهيمنة. لمزيد الاطلاع يُنظر:

R.W., Connell, Masculinities, (Berkeley and Los Angeles : University of California, 2005), p 77.

## 1/ فضاء العمل مؤثرا في تمثّل البرباش لعلاقته بالآخر

أكد 107 مبحوثاً من جملة 144 على تعرّضهم لـ «الحقرة» والتقليل من الشأن. وسواء كانت هذه الممارسات عنفاً لفظياً أو بدنياً أو نظرات مثقلة بمعاني الاحتقار، فإنّها عند البرباشة تعبير عن واقع اجتماعي عامّ يزيد في فيه الآخر البرباش. وهي «حقرة» تُمارس في الفضاء العامّ بنسبة 50.5 %، ومن قبل أجهزة الدولة بنسبة 27.7 %، وبنسبة 17.8 % من قبل المحيط الاجتماعيّ الدّولة بوليسا وأعاون إدارة بنسبة 53.1 %، ثمّ المحيط الاجتماعيّ الضيق بنسبة 32.6 %، ثمّ المواطنون بنسبة 10.2 %. غير أنّ البرباش خارج المصّب يشير إلى أنّ مصدر «الحقرة» الأساسيّ هو المواطن في الفضاء العمومي بنسبة 84.5 %، ثمّ أجهزة الدولة بنسبة 13.7 %، ثمّ المحيط الاجتماعيّ الضيق بنسبة 1.7 %. ويمكننا القول إنّ المقابلات مع برباشة الحاويات تدعم هذه النسب، وتذهب إلى حدّ اعتبار حضور البوليس حضوراً شديداً الأهميّة يحميهم من العنف والسّطو المسلّح كما صرّح بذلك «عادل» وهو برباش من حي التّضامن.

تمنحنا الأرقام أعلاه صورة عن فضاءات العمل المختلفة وحجم تأثيرها في تمثّل البرباش لذاته انطلاقاً من أحكام الآخر عليه. فإذا كان البرباش في المصّب موصولاً إلى علاقات محدودة بالفضاء العمومي فإنّ انعكاس جغرافيا العمل بدا واضحاً في مصادر إهانته واحتقاره والتقليل من شأنه. ومن ثمّ فإنّ سؤال الكرامة سيُطرح في علاقة بالآخر الواصم باعتباره جزءاً من مؤسسات الدولة. أمّا البرباش في الفضاء العمومي المفتوح فقد كشف عن تواشج ما مع مؤسسات الدولة وكشف عن أزمة تواصل مع المواطنين. وتصرّ المقابلات مع برباشة المنزه والمنار على وجود مواطنين يتفهمون طبيعة المهنة وتعقيدها ويساعدون في تجميع البلاستيك، وعلى وجود مواطنين آخرين يمارسون شتى أشكال العنف ضدّ البرباش ومنها السّطو المسلّح والسّرقة والتحرّش الجنسي ومحاولات الإغتصاب.

وهكذا فإنّ فضاء العمل هو عامل ضاغط في تشكيل علاقة البرباش بالآخر، وهو بعبارة «غوفمان» ركح تؤدّي عليه مختلف الأدوار وتُبنى التّواصلات الرّمزيّة وتُرسّم العلاقات وتُصاغ الأحكام. ولذلك يتهرّب بعض البرباشة من الإجابة عن سؤال «ماذا تعمل؟». يقول عادل: «أهرب

من الإجابة وأدعي أنني نجار». ويضيف: «تقبل الناس لي يتغير بمجرد معرفة مهنتي هذه. ومنهم من يستغرب وجود أناس مثلنا على قيد الحياة أصلاً». ويكرّر عصام الأمر ذاته بقوله: «أنا عامل يومي. لا أستطيع أن أقول أنني برياش أشعر بالخجل». ونرى أنّ عادل وعصام تمثيل صارخ لمعنى أن يُضطرّ البرباش لأن يكذب لتفادي الوصم، وهما يرتديان من أجل تحقيق ذلك، قناعاً لفظياً دخلياً ويخفيان القناع الاجتماعي الأصيل. ومن ثمّ يحدثان انحرافات في مسارات التّواصل تساعدتهما على تفادي «الحقرة»، وعلى التّموقع ضمن المقبول عند عموم النّاس.

أمّا البرباش في المصبّ، فقد أبدى أشكالاً مختلفة من التّواصل مع الآخر. ويمكننا إجمالها في الاعتراض، وأهمّها الاعتراض على «الحقرة». فمن بين 48 مبحوثاً أكدوا تعرّضهم للتقليل من الشّأن، أوضح 34 مبحوثاً أي 70.9% أنّهم يمتعضون من إهانتهم، ويكظم 5 من بينهم غيظهم، فيما يردّ 26 آخرون الفعل دون عنف، ويصل الأمر إلى الرّدّ العنيف عند 3 مبحوثين. وإذا ما قارننا ردّات الفعل واستقبال كلّ فريق للإهانات وأشكال تعاطيه معها، يتّضح أنّ البرباش داخل المصبّ يبدي استعدادات أوضح للتّواصل النّدي على الرّكح الاجتماعي، ويرفض بذلك أن يكون خاضعاً وتابعا يُقاد إلى عمليّة وصم مستسلماً مطيعاً. وتتّسع الهوة بين الرّجلين النّابشين في الحاويات وفي مصبّ «برج شاكير»، عند البحث في خصائص العلاقات بين البرباشة في كلّ فضاء.

تشير الأعمال الإمبريقيّة إلى أنّ 68% من البرباشة في الحاويات خارج المصبّ لا يعقدون أيّ علاقات فيما بينهم. ويسود العلاقات برود ونفور شديداً وصراع خفي بين الأجيال. مع أنّ عرفاً يحكم البرباشة في الأحياء المعنيّة بالبحث، يفرض على كلّ برياش الابتعاد عن الحاوية التي سبقه غيره إليها. فيما ينسب «عصام»، وهو برياش من المنزه، هذا الحكم، ويقول: «فما العروشية، أولاد عيار يخدموا مع بعضهم ما ياخذوش من عندك انت حتى كان مش ياخذوا، يأخذوا بسوم رخيص ومن عندهم هوما بسوم غالي». وهو ما يؤكّده الصّغير، برياش من حاجب العيون قائلاً: «كل واحد على روجو لا فمة صداقة لا عداوة. وقت نلقى واحد في حاوية نخليه ونتعدى». ويضيف الصّغير: «تتواجد العروشية في هذا المجال. فمثلاً: حي النصر حكر على عرش معين، هناك أولاد عمّ يعملون بحي النصر وأي عامل من غير أبناء عرشهم يُطرد من المنطقة». وهو ما ينسب الحكم بغياب صلات قويّة تعاونيّة داخل مجموعة البرباشة.

على أنّ الأمر يصبح أكثر جلاءً ووضوحاً في مصبّ برج شاكير، حيث تعتمد المهنة على هيمنة عرش بعينه. وتغلب على المصبّ علاقات قوّة وصراع دائمين داخل العرش ذاته بين من

استقرّوا عائلًا وباتوا يرفضون العنف، ومن يتّقدون حماسة وعنفوان شباب ويقبلون على المهنة ببرامغامية عالية طلبا للمال الوفير من أجل تهيئة شروط «الحرقة». وكشف البحث الإثنوغرافي والملاحظة بالمشاركة عن طغيان عرش البوثوري على المصبّ. وقد ورث البرباشة المذكورون العمل في «برج شاكير» عن قومهم الذين كانوا يعملون في مصبّ اليهودية قبل إغلاقه نهاية التسعينات<sup>7</sup>. ويتّضح من المادّة الإثنوغرافية أنّ البرباشة داخل المصبّ ليسوا كتلة منسجمة واحدة، بل تشقّهم صراعات كثيرة، أجملتها المادّة الإثنوغرافية في أربع مجموعات. الأولى من بينها توقّفت عن العنف وباتت تحتكم إلى العقل وتجنّب الصراعات، وهي تكتفي بجمع ما عافته أيادي البرباشة أو أخطأته ملاحظتهم. والمجموعة الثانية أكثر ضعفا وأقبل على الهدوء والسّلامة وهي تجمع ما بقي من فتات غيرها. أمّا المجموعة الثالثة فهي كتلة عروشيّة تحتكم إلى مطلق القوّة وتتفرد بأفضل ما تجود به شاحنات نقل القمامة. ثمّ المجموعة الرابعة وهي جماعة صاحبي الشّاحنات ومن يوظّفونهم من عمّال بسطاء.

وبناء على ما تقدّم، يكشف البحث الإمبريقي بمختلف مستوياته عن مجتمع برباشة تشقّه تمايزات كبرى وتنازعات لا يمكن إغفالها. ويمكننا القول إنّ مجتمع الرّجال البرباشة أميل ما يكون إلى براغماتيّة فرضها مطلب العمل ذاته وما يقوم عليه من ضرورة تكديس النّفايات لتحصيل أكبر قدر ممكن من البضاعة القابلة للبيع. ولما كان ثمن الكغ الواحد من البلاستيك مثلا بخسا ضئيلا، فإنّ رهان البرباش يتّصل بالضرورة بجمع المزيد دون سقف. ومن الطّبيعي ساعتها أن يصبح تحصيل مادّة أكثر مرهونا بإفراغ مجال المصبّ من المنافسين، والانفراد بأفضل المواطنين المتعاونين في مجال المنزه- المنار. وفي الحالين، تبدو عصبية القطاع ضعيفة أو هي منعدمة كليًا، فيما تتسيّد الرّكح عصبية العرش في وضعيّات مخصوصة. وهي عصبية موصولة إلى براغماتيّة تجميع المال وتحصيل الرّبح الأقصى، وما يعتمد عليه هذا من تشكيل حمية وثقى تحمي محصول البرباش وتحصر المنافسة في أفراد محدودين العدد.

7 لمزيد الاطلاع يُنظر: بلعيد أولاد عبدالله، ظاهرة النّفايات في تونس دراسة سوسولوجية حول « البرباشة » في هنشير اليهودية : أطروحة ختم الدروس في الإدارة الاجتماعية، تحت إشراف الدكتور التيجاني بن ساسي، أكتوبر 1991.

## 2/ الفردانية وبناء الرجولة في المصّب وفي حاويات الأحياء

إجابة عن سؤال: «وقت تاخو قرارات في حياتك شنوة المرجعية الأساسية اللي تعتمد عليها؟»، أجاب 86 برباشا من جملة 144 مبحوثا أي ما نسبته 59.7 %، بأنّ الدّين هو المرجع الأكبر ثمّ المصلحة الفردية بنسبة 16 %، ثمّ القانون بنسبة 11.8 %. ونعتبر أنّ هذه الأرقام دالة ومفيدة في رسم ملامح رجولة البرباش وتقفي آثارها من خلال البحث الإمبريقي. فالدين مرجعية جماعية ضاغطة تحمل المبحوث على جعلها فوق كلّ مرجعية ثانية. بمعنى أنّ كلّ استبيان يطرح خيارات حول مرجعيات المبحوثين يضع الدين بينها، هو استبيان محكوم سلفا بنتيجة محسومة تجعل الدين مرجعا أوّل لا يمكن زحزحته. وهذا يحملنا على تأويل الاستبيان تأويلا يعيد ترتيب المرجعيات خارج مسلمة أسبقية الدين وثقله على المخيال الجمعي وأنظمة التّمثلات والرّموز.

ومن ثمّ، يتبيّن أنّ المصلحة الفردية هي المحدّد الأساس للفعل والحركة وبناء الموقف وردّ الفعل عند البرباش في المصّب وخارجه. بل إنّنا نجزم بأنّ المصلحة الفردية هي المرجعية الحاسمة التي تسبق الدين وتعطلّ أحكامه في المصّب وفي حاويات المنازه والمنارات. فهذا مجيد واقعا تحت هول انكسار الأعراف يجيب عن سؤال: «هل وُجد في الماضي اتّفاق وعرف في العمل؟»، فيقول: «نعم بالتأكيد، ينصّ الاتفاق على أنّ من يسبق إلى حاوية تصبح حصرا له. وإذا وجدك برباش بنهج يواصل طريقه دون أن تحتاج إلى التّنبيه عليه (...)، الآن العكس إما أن يشق عليك الطريق أو يمر من أمامك بطريقة عادية ولا يبالي». ويضيف مجيد: «من الطبيعي إذا دخل أحد منا نهجا لا يتبعه برباش آخر. أمّا الآن فقد اختلف الأمر. يجدك بمكان تجمع منه القوارير يقترب منك ويجمع معك». وفي مقابلة أخرى مع العم حميدة يقول هذا البرباش: «زوجتي امرأة جيدة تعينيني وتعتني بي. وأنقذتني مرّات من الموت؛ تجدني أتصبب عرقا، فتقوم في الليل البهيم وتضع في فمي السكر والأعمار بيد الله، ولكن زوجتي أنقذتني كثيرا. أنا متزوج منذ 30 سنة ولم تطلب منّي زوجتي اصطحابها إلى البحر ولو مرّة واحدة». ويقول عادل مجيبا عن علاقته بأعوان الأمن: «إنّهم جيّدون فهم يساعدونني، أمّا في عمدون فالأمر مختلف لأنني لم أجد منهم غير الصّدّ».

ولزيد فهم مرجعية المصلحة الفردية عدنا إلى الملاحظة بالمشاركة ونجمل مادّتها في التّالي: «البرباشة طبقات ومن بينهم: البرباش الجامع، والبرباش الحّمّال، والبرباش الشّاري. وتتأسّس

العلاقات بين البرباشة في برج شاكير على العروضية. لكن المحدد الأساسي للفعل هو المصلحة الفردية وحدها. أي أن البرباش في مزاولته لمهنته ومباشرته للمادة لا يعترف بأيّ عرش أو قرابة أو صلات. وهو على العكس من ذلك مقبل على جمع الصالح من المصّب والعناية بأرباحه وإبعاد كلّ منافس عن طريقه وبوسائل عنيفة خطابية وبدنية، تهديدا وتنفيذا. والبرباش في المصّب رياضي في الغالب وهو من حي النور في الكبارية. ويجمع بين البرباشة الانتماء إلى حاسي الفريد من ولاية القصيرين، وتفرّقهم التزاماتهم المهنية وضرورات تحصيل أكبر قدر ممكن من الأرباح ولذلك هم لا يلتزمون كثيرا قيم التضامن، وينحون نحو صريحا نحو مصالحهم الفردية».

وتحملنا هذه المعطيات الإمبريقية على الإقرار: إنّ البرباش سواء في برج شاكير أو في حاويات المنازه والمنارات، رجل منتصر إلى فرديته منحا إلى نفسه نافر من سواه متربّص به مغلب لربحه الأوفر ومدرك أنّ ذاك الرّبح يمرّ حتما عبر انفراده بشاحنة أو حاوية أو نهج. ومن ثمّ، نكون إزاء رجولة نازعة إلى الفردانية الطبيعية البدائية المتوغلة في أنويتها المنغلقة عليها والمنصرفة عن كلّ تضامن ساعة مزاولتها لمهنة البرباش وفي فضاء المصّب وخارجه. إنّها إذن رجولة تستعمل العنف ضدّ ذويها من أجل مادة أكثر تملأ أكياس البرباش، وهي لا تتورّع عن اختراق الأنظمة العرفية الصّامدة عقودا، فتبذل من أجل فردانيتها غريب الأعمال ومستهجنها وفظيعها. وهي بذلك رجولة الغريزة والطبيعة البكر والحيوانية الأصل التي تسبق ذاتها وفرديتها على كلّ جماعة وعلى كلّ قيمة سواها.

وإذا تتبّعنا تأويلات جيمس سي سكوت (James C. Scott<sup>8</sup>) لهذا الضرب من الأفعال الاجتماعية، فإننا نقول: إنّ البرباش في فردانيتها وانتهاجه رجولة الغريزة منهاجا إنّما يبني صموده ضدّ الجوع والهشاشة والفقر والاحتياج الفظيع. إنّها رجولة تؤسس كيانها ضدّا للوضع الاجتماعي والاقتصادي<sup>9</sup> والسياسي والثقافي السائد. فإذا كنا إزاء رجولة أمية أو قليلة الحظّ من

8 تتأسس مقارنة جيمس سي سكوت للسياسة والتاريخ والأنثروبولوجيا على منهج نقدي يرفض النتائج الرّاسخة في العلم وما يسمّيه الطبواوية العلمية، وينخرط في بديل نظري مبني على تراث الثورات الاجتماعية وما ابتدعه الإنسان لتجاوز أزماته سابقا، ثمّ ما يحصل اليوم من ممارسات ضدّ الهامش ومن سياسات الاستبعاد التي تمرّ باسم دولة هوبز أي باسم مغلّنا ومعتقلنا ومأزقنا الجماعي. لمزيد الاطلاع يُنظر:

James C Scott, Two cheers for anarchism, (New Jersey : Princeton University Press, 2012), p vii- viv.

9 نسب البطالة تفوق 15%، ووصل التّضخّم حدود 9 %، وبلغ عجز الميزان التجاري 1784.6 مليون دينار. وتكشف هذه الأرقام عن وضع اقتصادي صعب. يُنظر الرّابط التّالي: <https://www.ins.tn/ar>. كما ارتفعت أسعار المواد الغذائية وموادّ وخدمات التّعليم والموادّ المصنّعة. يُنظر في الرّابط التّالي: <https://www.ins.tn/ar/publication/mwshr-asar>

المعارف، وضعيفة التّحصيل التّقافي أو منعدمته، وفقيرة شديدة الفقر، فإنّنا أيضا إزاء خبرات من المعاناة والآلام والحسرات وضياح الأمنيات والأحلام. وهي أمنيات ضاعت في واقع اجتماعي مجبول على تهميش الثقافات الفرعية<sup>10</sup> لمن أقصتهم المدرسة العمومية لدولة الحداثة التّونسية، وعلى التّفور الجماعي من الأشدّ فقرا وخصاصة<sup>11</sup>، والبرباش أحدهم، فكيف تكون ردّة فعله وهو في وضع مكتنز تهميشا وتجاهلا واحتقارا وإهانات؟

نعتبر إذن أنّ الفردانية التي تنتهجها رجولة الغريزة هي فردانية تردّ الفعل وقد دخلت من الآلام ما يجعلها متحفّزة إلى تحويل الواقع من واقع تهميشها وسلبها وجودها الكريم إلى واقع تسوده الفردانية النّاحية إلى تأسيس الذات المفردة قبل كلّ واقع وكلّ آخر وكلّ قيمة. إنّهُ ضرب من افتضاض بدايات الواقع المبني على بلاغة التّضامن واستعارات القيم الجمعيّة ودولة المواطنة والحقّ والمؤسّسات، واصطناع واقع الذات في وحشتها وتمايّزها وأنويّتها وعنادها. وهي «صناعة» بعبارة الجاحظ لبدائل الأنا المفردة الهائمة في توحّشها وفق المعنى الأرسطي<sup>12</sup>. ولعلّ بناء رجولة الغريزة يستوحي شروطه من منبؤ أغامبن<sup>13</sup> الذي هجر واستبعد وحُرّم دمه. غير أنّ منبؤ المصبّ والحاوية رفض استبعاده وردّ فاستبعد غيره وابتنى له واقعا مختلفا من خلال حركة ارتدادية نحو مطلق الغريزة والطّبيعة الأولى التي نسيتها حضارة المجتمع وأفراده وسياسات الدّولة.

.alasthlak-alayly-sbtmbr-2023

- 10 الثقافة الفرعية هي كلّ ثقافة من درجة ثانية بناء على بنية اجتماعية معيارية، سواء كانت طبقة أو سنّا أو عرقا أو إثنية أو انتماء وطنيا أو خلافه. فالمهاجرون يشكّلون ثقافة فرعية مقابل ثقافة «أصيلي بلاد ما». والأحياء الشعبيّة تنتج ثقافة موسومة بالفرعية قياسا إلى الثقافة الرّسمية السائدة أو التي يُراد لها أن تسود. في مقالنا، ينهض البرابشة بثقافة فرعية بناء على معطى الطبقة الاجتماعية الاقتصادية.
- 11 خلال أعمالنا السابقة حول «الهامش» والمهمّش رجلا كان أو امرأة، كانت عبارات «الحقرة» و«الإهانة» تتكرّر في مناسبات كثيرة على ألسن المبحوثات والمبحوثين. ونجد صدق لهذه الملاحظة في هذا المحور.
- 12 أرسطو، السياسة، ترجمه عن الإغريقية، بارتملي سانتهيلير، ترجمة، أحمد لطفي السّيّد، (بغداد، وبيروت: منشورات الجمل، 2009)، ص 99.
- 13 جورجيو، أغامبن، المنبؤ السلطة السيادية والحياة العارية، ترجمة، عبد العزيز العيادي، بيروت: منشورات الجمل، (2018)، ص 6.

### 3/ الرجولة والمعنى: أزمة الهوية وانهيار المعيار

#### 1.3 العنف ظاهرا ومضمرا واستعارة الطير المتوحش<sup>14</sup>

أكدت الملاحظة المباشرة على معطى الفردانية مثلما أكدت على حضور العنف في خطاب البرباش وسلوكه. وظهر في الاستبيان مثل ذلك مما سبق ذكره في العنصر الأول من المحور. ويتلازم العنف والفردانية تلازما حاسما في برج شاكير وفي أنهج المنارات والمنازه. ولذلك يبدي حميدة امتنانا كبيرا لزوجته لأنها مسخرة في خدمته دون مقابل، حتى أنه لم يضطر يوما لاصطحابها إلى البحر. إن خطاب حميدة ينضح عنفا وشدّة وفردانية. فهو خطاب يفهم العالم باعتباره عالم صناعة مُتّع الأنا ومرحها وقضاء شؤونها وعدم انتظار مقابل مهما كان ضئيلا. وقد كانت عبارة حميدة الفخورة بزوجته، عبارة فضحت رجولة الطير المتوحش، وكشفت عن سياسات بائسة تقودها الذات لإنقاذ ذاتها من مشكلات العيني وتعقيدهاته وآلامه.

ووجه البؤس في سياسات حميدة، كامن في ما اختاره لنفسه من سبل لتجاوز أزمته. لقد أبان عن عنف صارخ ضد زوجته وأظهرها في صورة الأمة التابعة الصامتة التي لا تحتاج شيئا غير خدمة السيد والحرص على مراكمة لحظات بهجته وصناعة تلك اللحظات من عذاباتها وتضحياتها. أي أنها مسخرة في ذهنها وفهمها وتمثلها وطبيعة العقد الذي يربطها بحميدة من أجل خدمته دون مقابل، ولو كان مجرد البقاء العاري بعبارة أغامبن. أليس هذا أكثر أشكال العنف عنفا؟ ذاك العنف الذي يُمارس ضد الفرد وهو يستقبله باعتباره شأنا مقبولا لا احتجاج عليه، بل هو عنف شرعي حتى وإن نتجت عنه دونية الزوجة لقاء رفاة حميدة في علاقته بها. ويصل به الأمر حدّ اعتبار خضوعها وصمتها دليل محبة ورسالة إلهية تنبئ عن رحمة الله لحميدة وعطفه عليه.

وسنجد موقفا قريبا من هذا عند عادل وهو ينظر إلى أعوان الشرطة من خلال تجربته الفرديّة معهم. فهم جيّدون في تونس لأنّهم يساعدونه، ولكنّهم سيئون في عمدون حيث لم يستفد من حضورهم. وهكذا فإنّ ما يقع في العالم لا يعني عادل في شيء. ولا تحرّكه آلام غيره وعذاباته وما يُنشر يوميا من أزمة المجلّة الجزائيّة والمقاربة البوليسيّة لقضايا المجتمع وحجم العنف البوليسي

14 يشبه أرسطو البربري غير المتحضّر والمتشبع بقيم المدينة بالطير المتوحش في وحدته واعتزاله سائر الكائنات. وإنّ نخلص الاستعارة من شحنتها العنصريّة فإنّنا نحفظ منها أزمة الانغلاق على الذات واعتبار العالم محض انعكاس لها. ولذلك نؤوّل هذا السلوك بما هو سلوك الطير المتوحش.

المسلّط على الأفراد. إنّ ما تقدّم لا قيمة له طالما أنّ عادل يجد حماية لشخصه. وحتىّ اعتراضه على أعوان عمدون، هو اعتراض فرديّ وعرضي، ويزول بزوال أسبابه. ويكشف هذا السلوك عن رجولة تبني تاريخها بمعزل عن التّاريخ الجماعي ولا يعينها العالم من حولها إلاّ عندما يؤثّر فيها بشكل مباشر ومرئيّ تظهر نتائجه في حياتها اليوميّة جليّة. ويستدعي ذلك تفاعلا عرضيّا مع هذا العالم وانشغالا مؤقتا وفهما عالقا بالأنا وحدها منصرفا عن كلّ ما سواها. ومن ثمّ، فإنّ عادل بهذا الصّرب من السلوك يؤسّس لموقف عنيف عنفا مضمرا لا يعلن عن نفسه ويتوارى خلف الخوف والعجز، لكنّه سرعان ما ينكشف عندما يتعلّق الأمر بتقييم أعوان شرطة عمدون والنّوع التي نعتهم بها. وفي حالتها حميدة وعادل كما في حالات برباشة آخرين يعملون في الأنهج والأحياء المشار إليها، يمكن الحديث عن عنف رمزي في حالة حميدة ضحيّته تلك الرّوجة الخاضعة المقبلة على خضوعها باعتباره شرعيّا وحالة طبيعيّة، وعن عنف مضمّر يكشف عن شرّ خبيء ويتّصل في كلّ أحواله بالفرد، ومصالحه وحاجاته وحدها.

وبالعودة إلى البرباش في المصبّ، فإنّ العنف الممارس هناك هو في أغلبه عنف ظاهر بارز للعيان متأسّس على مطلب الرّبح ومجبول بدوره على فردانيّة المنطلق والرّهان. وتبني رجولة البرباش في المصبّ نظامها التّفاعلي مع الآخر بناء يقوم على مصلحة الأنا وهواجسها وانتظاراتها. فالحرقة كما تكشف الملاحظة بالمشاركة، هي المراد الذي يحمل شبّان حيّ النور بالكبارية من عرش البوثوري تحديدا، على خرق الأعراف القبليّة وتجاوز أفراد من عائلاتهم الموسّعة، مقابل الانفراد بشاحنة أو مجموعة شاحنات. ويستعمل البرباش خبراته في المصارعة لتحقيق نصره وفرض شروطه. ومن ثمّ، تتحوّل الرّياضة ذاتها من مطلب صحّي وجمالي وترفيهي إلى مطلب توظّفه الفردانيّة في خدمة مشروعها الخاصّ، وبأسلوب فجّ متسرّع. بل ورد في بحث إثنوغرافي ثان<sup>15</sup>، أنّ البرباش في المصبّ مؤدّ يصعد ركح برج شاكير ويضع على الفور قناع الرّجل الغليظ والمصارع ثابت اللّكّات. فهو مصارع حسن التّدريب يحمل حديدا يتّخذ أداة لنبش الموادّ، ومن ثمّ يتغذّى على بقايا الأطعمة ومنها ما انقضى أجل استهلاكه غير عابئ بمخاطر التّعفن الجرثومي وسواها، معربا بذلك عن رجولة تتحدّى المهالك وتخوض غمارها. ولا يفوت برباش المصبّ أن يتسلّح بمخدر من تلك الأقراص التي يتمّ تداولها للنّسيان من جهة، ولتحفيز آلة العنف من جهة أخرى.

لا شكّ عندنا أنّ السّياق المهني وفضاء العمل وشخصيّاته وتاريخ تأسيسه وتاريخ الفاعلين فيه، أورت البرباشة نسقا من القيم. وإن كانت الفردانيّة واقعا وليست وهما، فهي مع ذلك ردّ فعل حمائيّ. إذ أنّ الانتقال من برباش نظامي إلى برباش مواز للأنظمة وخالق لنظام فردي هشّ، هو انتقال ألزم البرباشة منطقا خاصّا. ولعلّ هذا ممّا ساهم في تخليق نمط سلوكي جديد ينتصر إلى مطلق القوّة. وهكذا أصبح العنف وحده ما يحدّد العلاقات داخل المصبّ باعتبارها علاقات صراع حول مادّة. وقد جرّ تحويل النفايات إلى ثروة، البرباش إلى تحويل إنسانيّة إلى سلعة تبادليّة وقايض أنظمتها القيميّة وتنشئته على الفضيلة بتوحّش الفضاء الجديد والرّهانات الطارئة.

لقد هزّ الوضع الاقتصادي والاجتماعيّ أركان المجتمع بأسره وازداد حضور البرباشة في المشهد التّونسي عامّة، ولم يعد وجودهم غريبا أو مثيرا لأيّ شكل من أشكال العجب. وقد كشفت المقابلات على حقيقة أنّ البرباش احترف مهنا سابقة، ثمّ حملة وضعه الصّحيّ أو نتائج الأزمة الاقتصاديّة بعد جائحة كوفيد 19، إلى اختيار مهنة البرباش مؤقتا كما يتوقّع بعضهم واختيارا دائما كما هو حال البعض الآخر. كما كشفت المقابلات والاستبيان عن أنّ جميع البرباشة من أصول ريفيّة استقرّت في العاصمة. وتبيّن من الأعمال الإمبريقيّة أنّ البرباش مازال يعتبر قيم الرّيف قيما تأسيسيّة أصيلة يجدر بالمجتمع اتّباعها. ولعلّ المقابلة مع مجيد ورضوان وعادل وحميدة، تُظهر الاختلالات بين تمثّلات البرباش وميولاته القيميّة، وحقيقة سلوكاته وواقعه وخياراته.

ومن ثمّ، يمكننا القول إنّ الأعمال الإمبريقيّة تعيد صدام الرّيف والمدينة إلى الواجهة، ولكنّها تثبّت الرّيف باعتباره مصدر القيم الإنسانيّة والمدينة باعتبارها مصدر نهاية الإنسان وابتداع الإنسان السلعة. وبهذا المعنى فإنّ رجولة الطّير المتوحّش هي عمل تحويلي ناتج عن تصنيع المدينة وتسليع الرّأسماليّة وتشريع الدّولة وتبرير مؤسّسات التّفكير التّابعة. والفردانيّة بهذا المعنى ليست خيارا واعيا ولا هي ردّ فعل واع فقط، بل هي كذلك ضرورة اضطرّ البرباش إلى نسجها لكي يوجد. أي أنّ رجولة الطّير المتوحّش هي صناعة أمّلتها سياقات العولمة وسياسات الرّأسماليّة وخيارات الدّولة في تونس وتقنينها للاحتكار وفرضها لمونوبولات عائليّة وجهويّة بقوة القانون وعقل الدّولة وسلطويّتها.

ونذهب في هذا المذهب الذي يفهم رجولة الطير المتوحّش باعتبارها ضرورة وقيدا وفرضا، عندما نضع في الحسبان تجربة تأسيس فعل جمعي ينهض بواقع البرباش ويحاول تنظيمها ومساعدة البرباشة. وبين بلحسن في المقابلة التي أجريت معه أنّ «جمعيّة حماية المحيط والرّسكلة» استفادت من دعم جمعي ألماني وبلورت مجموعة من الرّوى وتمكّنت في مرحلة معيّنة من مساعدة البرباشة العاملين خارج المصبّ. وقد استفاد بعض أعضاء الجمعيّة من حلقات تكوينيّة وتدريبات أهلتهم لتأسيس هذا التّنظيم والاتّصال بالبرباشة وتشريكهم وتعميم الفائدة عليهم. وقد انخرطت الدّولة في المشروع واعترفت به وكان لحضورها دور مهمّ في منح الجمعيّة غطاء قانونيّا. ويعني ذلك أنّ البرباش ليس متوحّشا مطلقا، بل هو متأثر ومتفاعل مع محيطه ومستعدّ لكتابة الفعل التّعاوني ومغادرة سياقات الفردانيّة بتوفّر شروط العمل التّضامني الجماعيّ.

### 2.3 رجولة المودة فنّا للعيش

في المقابلة مع مجيد وحميدة ورضوان وعادل ثمة استعادة دائمة لعرف سائد بين برباشة الأحياء يقوم على عدم انخراط برباشين في نبش حاوية واحدة أو البحث في نهج واحد، وذلك تجنّبا للصّدام. يقول الهادي في هذا المعنى: «لا أتدخّل في عمله (البرباش) ولا أجمع معه من المكان نفسه حتّى لا يغضب أيّ منّا». ويؤكد الهادي أنّ هذا العرف سائد. غير أنّ مجيدا يخالفه الرّأي ويكشف أنّ وضع البرباشة اليوم تغير وثمة من يدفع عربته بجانب برباش سبقه إلى حاوية ما. يقول مجيد: «يجدك البرباش قد ملأت كيسك، وهو لم يجمع بعد ما يكفيه، فيشاركك حاويتك مبديا قلقا وانزعاجا منك». ويفسّر مجيد هذا قائلا: «هذا ما يحدث في جل الحكايات، أو مثلا يجدك تتعامل مع مصنع، أنا مثلا أقدم له سلعة تزن 60 أو 70 كغ فيما لا تتجاوز معروضاته 15 كغ. ويجد أن مدير المصنع يكن لك احتراما ويقول لك: «إذا كنت محتاجا للنقود، أعطيك». وهو هنا يحسدك، ويعلم أنهم يقدرونك ويكثرون لك الإحترام وهو يحمل 10 كغ فحسب، وأنت وصلت إلى 60 كغ. فيطلب منه صاحب المصنع أن ينتظر، ويعطيني الأولوية ويقول: «هذا الرجل متعب». يعرف المجمع الشخص الدّووب في عمله ذاك يبدأ العمل من 4 صباحا فيما يذهب غيره للعمل على الساعة 8 صباحا».

يكشف خطاب مجيد عن شخص مقبل على عمله عليم بخبايا الأنهج وأوقات امتلاء الحاويات وخبير بجزء من ساكنة مناطق النّبش أي المنازه والمنارات. كما أنّ علاقة مجيد المتميّزة مع

صاحب المصنع وفق روايته، هي علاقة بُنيت على قيمة العمل أساسا، أي على الكمّيات الهامّة التي يجمعها مجيد بشكل يومي. وقد سبّب له عمله وحسن تقديره من المتدخلين في المهنة والمتعاملين مع البرباشة، مشكلات مهنيّة مع بعضهم. ويفسّر مجيد تلك العلاقات المتشنّجة بجهل خصومه بأعراف المهنة من جهة، وبحسده باعتباره مجتهدا مثابرا وباعتبارهم أميل إلى الخمول. لكنّ مجيدا في خطابه يمرّر ما به تُفهم أنماط تفكير وتدبير في الذات والآخر. فقد بين مجيد أنّ المجمعين للبلاستيك يعرفونه ويقدرّون إقباله الشّديد على العمل ومهاراته في تجميع أكياسه وقدراته في ملء الكثير منها. ومقارنة بغيره فمجيد يمثّل العامل المثالي الذي يوفّر أكثر الكمّيات، ويحصد مقابلها التّقدير المالي والرّمزيّ.

ومن ثمّ، يدخلن مجيد هويّة الفرد الذي يُنضح مساره الحيّاتي بتعبئة مكانة اعتباريّة بين المجتمع من خلال مبدأ إتقان العمل وتحقيق أعلى مستوى من الإنتاجيّة. ويتيح هذا الرّصيد الرّمزي وهذه المكانة المهنيّة لمجيد مجالات للتّباهي والظهور بقناع ركحيّ يؤدّي من خلاله دور العامل المجتهد في مستوى التّفاعل الرّمزيّ. وإذا عدنا إلى بناء مشهد مجيد ومناقسه الشّابّ وهما في حضرة صاحب المصنع يعرضان عليه بضاعتهم، يمكننا القول: إنّ الرّكح شهد واجهتين تبدوان للوهلة الأولى موحّدين حول قناع واحد جامع هو قناع البرباش. ويستعرض كلّ برباش واجهة أماميّة قُدّت من أثواب رتّة وعربة مكنتزة أكياسا تبرز من جنباتها قوارير البلاستيك تتهادى كأنّها تحمل العرائس وتخفي خلف حجبها انتظارات صاحب المصنع. غير أنّ عربة مجيد مثقلة بحملها تكاد عجلاتها تلتصق بهيكل العربة ذاته، تنبئ مجيدا بعائد ثمين، وتتفاعل مع صاحب المصنع فتخبره عن صيد أثنى. في حين يكتفي ديكور منافس مجيد بالإخبار عن عائد شحيح وصيد ضنين.

وهكذا يتراجع المنافس خطوات خلف مجيد تاركا له سيادة الرّكح ويظلّ محتشما داخل قناعه يكاد يختفي خلف عربته منتظرا انقضاء المشهد والانصراف بعيدا عن تقييمات صاحب المصنع واختبارات الرّجولة. ولعلّ قسوة نتائج الاختبار هي ممّا يحمل البرباش الآخر كما سمّاه مجيد، على دوس الأعراف المهنيّة وبذل مشاعر الحسد واقتناص فرص الإساءة في كلّ مرّة واستعادة لرجولته من خلال التّهديد بالعنف. ومن ثمّ، تمنحنا شهادة مجيد ملامح متداخلة أولها ملمح رجولتين متنافستين حول مطلب استرضاء صاحب المصنع وإثارة شفقتة وإحسانه واستدرار عطفه. وملمح ثانٍ حول رجولة تظفر بمطلبها ورجولة تفشل فيه. وملمح ثالث حول ردّ فعل

الرَّجولة الخائبة على نجاحات الرَّجولة المظفّرة في ركح المصنع وأمام صاحبه المتحكّم في التّفاعل والمحدّد للأحكام على أداء كلّ برباش.

وعندما يقول مجيد: إنّ صاحب المصنع يحترمه ويعرض عليه المال لأنّه يعلم مدى مثابرتة في عمله مقارنة بغيره، فإنّه يكشف عن ركح اجتماعي منقسم على ذاته بسبب سيادة الفردانيّة سواء كانت خياراً أو ضرورة، ونتيجة لتحكّم صاحب المصنع بالركح وبالمؤدّين عليه أي جمهور البرباشة. ثمّ عندما يردف حميدة فيؤكّد على كسر غيره لنواميس المهنة والاعتداء على حاويته، ومقابلة فعله بمغادرة المكان وتجنّب كلّ صدام، فإنّ ذلك يشير إلى أداء يميل إلى استدرار العطف في علاقة بفاعل قويّ طبقيّاً والهروب من الركح في علاقة بفاعل قويّ جسديّاً. ولذلك فإنّ مجيدا وحميدة ورضوان في علاقته بمن يهينونه وعماد وعلاقته بالشرطة، يكشفون عن رجولة تصطنع سياقات الشّفقة لتستفيد من عائدها المباشر المنتظر أيّ تجاوز مآزق ما وحلّ عقدة طارئة. كما أنّ حميدة والعم الهادي لا يغادران ركح الحاوية إلّا وقد اصطنعا سياقا جديدا يكفّ عنهما أذى المهجّم الباحث عن سيادة ركحية بأيّ ثمن. إنّهما بمغادرتهما الركح يدفعان ثمن نجاتهما ويستدرّان رمزيّاً عطف رجولة منحازة إلى العنف.

وفي وضعيّات مماثلة، يميل البرباشة الحاضرون في العمل الإمبريقي، إلى وضع أسس جدل تفاعلي رمزيّاً. وينبني هذا الجدل على نقاشات دراماتورجية بعبارة غوفمان، يحتاج خلالها المؤدّي إلى وعي الواجهة الأمامية لجمهوره حتّى يتمكّن من تمرير خطابه أو مطلبه. ومن ثمّ، نفهم صنيع البرباشة وفق المقابلات التي أجريت معهم، فهما يتأسّس على «مناشدة الشّفقة»<sup>16</sup> وتحويلها من مجال العاطفة إلى مجال العقل ومن ثمّ اعتمادها حجة للإقناع وعلّة للبرهنة. وإذا استعملنا خطاباً منطقيّاً في سياق التّفاعل الرمزي، يمكننا القول: إنّ مجموعة البرباشة ممّن التقيناهم يميلون في حجاجهم دفاعاً عن أرباحهم ومواقعهم وأدوارهم وأداءاتهم في الركح الاجتماعي إلى مغالطة منطقيّة كبرى وهي تحويل الشّفقة في التّفاعل مع القويّ من عاطفة وانفعال إلى بيّنة ودليل على مهنيّة وفراة وقبول حسن عند صاحب المصنع، وحكمة ورجاحة عقل عند المنافس المعتدي. والواقع قد يكون عكس ذلك في الحالين، وقد لا يكون البحث عن الشّفقة أكثر من أداء فُرض على البرباش وهو في موقع ضعف في مواجهة صاحب المصنع، أو برباش متحفّز للعنف أو جاهل بنواميس النّبش في الحاويات وقواعدها.

16 عادل مصطفى، شيء من المنطق المغالطات المنطقيّة طبيعتنا التّانية وخبزنا اليومي (فصول في المنطق غير الصّوري)، (القاهرة: دار رؤية للنشر والتّوزيع، 2019)، ص -117 120.

وفي الحالين، يبدو البرباش في الشواهد المنقولة أميل إلى رجولة تستدرّ العطف وتناشد الشفقة لتحيا. أي هي رجولة لا تهتمّ لاختبارات الرجولة كثيرا قدر اهتمامها لاختبار وجودها ذاته. ولا يعني مجيدا أو العم الهادي أن يُقال جينا الرّجلان، بقدر ما تعنيه أهمية أن يتجاوزا هذا المأزق أو ذاك ويواصلوا القيام بعملهما ومغالبة ما يطرأ من صعوبات. وبهذا المعنى نفهم خطابهما ومحاولاتهما إقناعنا بأنّهما حكيمان باعتبارها أدوارا اختارها خلال المقابلة، كما نفهم تلك المحاولات في الواقع الواقعي وساعة حصولها بما هي «مقاومة بالحيلة» للنّفاذ من مشهد بلا آفاق مقبولة. وندعم هذا الرّأي بالعودة إلى مقابلة الإهانة بالصّمت أو الابتسامة أو برفع الأمر إلى محكمة الإله، مثلما ورد في الاستبيان. والرّأي أنّ هذه الأشكال من التّفاعل مع الإهانة و«الحقرة»، وهي أشكال غالبية عند برباشة الأحياء تحديدا كما ورد في الاستبيان وأثبتته المقابلات، هي أقرب إلى ما يسمّيه جايمس سي سكوت «تدريب على السّهولة الكلاميّة لا يمكن الجماعات الضّعيفة من ضبط غضبها فقط، بل إقامة ما يوازي نقاشا مقنعا عن الكرامة والتّأكيد على الذات»<sup>17</sup>. وهو ما حملنا سابقا على اعتبار دخلنة مجيد لهويّة مهنيّة تنال قدرا عاليا من التّثمين الإيجابي من وجهة نظره، هو أيضا بحث عن مكانة وكرامة ومقام اجتماعي مقبول لإقناع الباحث بقيمة المبحوث.

## خاتمة

تتأسّس هويّة البرباش في فضاء المصبّ وفي أحياء المنازه والمنارات على فردانيّة الممارسة ورهان الأنا ومطلب الرّيح الذي يواجه البرباش المنافس بحدّة ظاهرة في المقابلات والمشاركات بالملاحظة ويمكن تأويلها من خلال الاستبيان. والفردانيّة في فضاء المصبّ وخارجه محدّد أساسي في خيارات كلّ برباش وثابت في ممارساته مهما تعدّدت أوجه التّبرير. ولذلك نعتبر البرباش فردانيّا منحازا إلى أنه مكثفيا بها معبرا عن رجولة الطّير المتوحّش، سواء كان هذا التّوحّش ظاهرا ومعلنا في برج شاكير، من خلال ممارسة العنف ضدّ بقيّة البرباشة باعتبارهم منافسين، أو مضمرا وخفيا في خطاب برباشة المنازه والمنارات وتعبيرا عن ضرب من المواجهة بالصّمت، أو تصعيديا في التعلّق بالمهنة.

17 جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم، ترجمة، إبراهيم العريس وميخائيل خوري، (بيروت: دار الساقي، 1995)، ص 172.

وإذا كانت الفردانية لازمة في الفضاءين، فإنَّ النمط السلوكي للبرباش خارج المصَّب يعبر عن أداء رجولي أميل ما يكون إلى توقّي كلِّ مواجهة واجتراح فنِّ للعيش مبنيّ على التّجاوز وتخيّر السّلامة وموادة الغالب. وهي «مقاومة بالحيلة» واستدعاء لاستراتيجية حذرة تؤسّس أهدافها على البقاء وتخيّر كرامتها في استدرار الشّفقة والثّبات ضدّ السّقوط في العنف ومغالبة النّفس حتّى تصمد ضدّ نزعات ردود الفعل<sup>18</sup>. ولكنّ البرباش في المصَّب غير ذلك تماما. وهو وإن أبدى فردانية عنيفة مجاهرة لعنفها لفظا وتنفيذا مباشرا، فهو يكشف عن نمط رجولي لا يتوخّى الحذر ولا يهتمّ لسلامته قدر اهتمامه برهانه أي الرّبح الوفير من أجل تأمين حاجاته سواء كانت هجرة إلى الخارج أو خلافها.

وقد تبين من البحوث الميدانية أنّ البرباش يعيش تمرّقا عميقا بين الماضي الأنموذج والحاضر السّيء. ولذلك تفرّ الرجولة في مصبّ برج شاكير وفي حاويات أحياء العاصمة المرقّهة من حاضرها وهي تعي حجم ما تتعرّض له من وصم وتعريض وإهانات و«حقرة». وترتبط بماض يبدو لها سعيدا مؤسّسا على التّضامن والتّعاون وحضور الأمّ والأب وعطفهما. ويعبر هذا السلوك الارتداديّ نحو الماضي الأنموذج المثالي بقيمه وأنظمتها، عن رفض الحاضر والهروب منه من زاوية أولى، ولكنّه في العمق ليس مجرد رفض للحاضر، بل هو ضرب من الصّمود ضدّه ومواجهة عنيفة داخلية تفتحها الدّات ضدّ الواقع المائل والإساءات التي يتضمّنهما. وهو ما يحملنا على القول: إنّ البرباش وفق ما أبدته الأعمال الإمبريقية، أميل ما يكون إلى إعلان مظهر وإضمار آخر.

ومن ثمّ تبدو الرجولة في مسرح الدّاخل قويّة صلبة عظيمة متماسكة، وتظهر في مسرح الخارج ضعيفة عاجزة مستدرّة للعطف والشّفقة متسوّلة. ولا نقول إنّ العمّ الهادي وحميدة ورضوان وغيرهم خطّطوا لفنّ العيش المبنيّ على مسرحي الدّاخل والخارج بالضرورة، فوضعوا استراتيجيات مكتوبة ونظريات معلومة، بل نذهب إلى أنّ المبحوثين أظهروا بوضوح أشكالاً من مواجهة هشاشاتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية. وليس تنظّم بعضهم ضمن عمل جمعيّ بالأمر اليسير. فهو شاهد من داخل التّجربة ذاتها على إمكانات واحتمالات كثيرة ومتعدّدة ينهض بها البرباش عامّة. ويمكننا الجزم بأنّ البرباشة ليسوا مثلا واحدا بأيّ معنى، وهم تبعا لذلك رجولات متعدّدة. بل نذهب إلى التّأكيد أنّ البرباش الواحد تعبير عن رجولات تتكرّر

18 نعود دائما إلى أطروحة جيمس سكوت في كتابه المذكور سابقا.

فيه كثرة أدواره وتفاعلاته وأدائه بعبارة جوديت باتلر<sup>19</sup>. والبين، أنّ تجربة النّيش باعتبارها تجربة مهنيّة تشكّل بذاتها مسرحاً معقّداً يصعب فهمه مجملاً. ولذلك فإنّ بحوثاً أخرى تركّز أكثر على مناهج الملاحظة بالمشاركة والمقابلات السيريّة والوثائقيّات المرافقة ليوميّات البرباش في المهنة وفي المنزل وتعمّق البحث في تفاصيل اليومي وعلاقة البرباش بمحيطة الاجتماعي حيث يقطن، ستكون ذات أهميّة بالغة في مواصلة فهم هذه الرّجولة وسبر أغوارها بطريقة أعمق.

19 الأداء عند جوديت باتلر هو إنجاز لفعل ضمن مقام محدّد وهو ليس إنجازاً مرتبطاً بمبدأٍ قيمي سابق للفعل ذاته، بل هو في ارتباط أظهر بسياق الإنجاز ذاته ومقتضياته. لمزيد الاطلاع يُنظر: جوديث، باتلر، قلق الجندر النسويّة وتخريب الهوية، ترجمة، فتحي المسكيني، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022) ص 288-299.

## ببليوغرافيا مختارة :

- أرسطو. السياسة. ترجمه عن الإغريقية. بارتملي سانتهيلير. ترجمة. أحمد لطفي السيّد. بغداد، بيروت: منشورات الجمل. 2009.
- أغامبن. جورجيو. المنبؤ السلطة السيادية والحياة العارية. ترجمة. عبد العزيز العيادي. بيروت: منشورات الجمل. 2018.
- أولاد عبدالله. بلعيد. ظاهرة النفايات في تونس دراسة سوسولوجية حول « البرباشة » في هنشير اليهودية : أطروحة ختم الدروس في الإدارة الاجتماعية. تحت إشراف الدكتور التيجاني بن ساسي. أكتوبر 1991.
- باتلر. جوديث. قلق الجندر النسويّة وتخریب الهوية. ترجمة. فتحي المسكيني. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2022.
- غوفمان. إرفنغ. تقديم الذات في الحياة اليومية. ترجمة. ثائر ديب. دار معنى للنشر والتوزيع. 2021.
- سكوت. جيمس. المقاومة بالحيلة كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم. ترجمة. إبراهيم العريس وميخائيل خوري. بيروت: دار الساقى. 1995.
- مصطفى. عادل. شيء من المنطق المغالطات المنطقيّة طبيعتنا الثّانية وخبزنا اليومي (فصول في المنطق غير الصّوري). القاهرة: دار رؤية للنشر والتّوزيع. 2019.

Connell. (R.W.). Masculinities. Berkeley and Los Angeles : University of California. 2005.

Brod. Harry. The Making of Masculinities The New Men's Studies. Boston : Allen & Unwyn. 1987.

Scott. James C. Two cheers for anarchism. New Jersey : Princeton University Press. 2012.

## البرباشة: فرز للقمامة أم مقاومة لتلوث المناخ؟

سمر الزايدي

باحثة في البيئة والمناخ

### مقدمة

تصنّف تونس في المرتبة 35 من بين 183 دولة عالمياً من حيث القابلية للتأثر بالظواهر المناخية المتطرفة، استناداً إلى بيانات الدورة الخامسة والعشرين لمؤتمر الأطراف لعام 2020<sup>1</sup>. يبرز هذا التصنيف العالمي مدى تعرض البلاد لتأثيرات تغيّر المناخ، وللتقليل من هذه الآثار السلبية وضمان الاستدامة البيئية، يُعد من الضروريّ تطبيق استراتيجيات فعّالة على مستويين مختلفين.

يتعلق المستوى الأول بعواقب تغيّر المناخ ويشمل التكيف من خلال الاعتراف بهذه الظاهرة العالمية باعتبارها حقيقة لا جدال فيها<sup>2</sup>؛ إذ أنّ الآثار السلبية للتغيّر المناخي تظهر بشكل يومي، ممّا يُحتمّ الوعي بضرورة التأقلم مع هذه التأثيرات. لذا، يتطلّب هذا التكيف تحولاً واسع النطاق في المجتمعات والأنظمة والأفراد، بهدف تعزيز القدرات على التأقلم وبالتالي تعزيز القدرة على الصمود في مواجهة التغيرات المناخية.

أمّا نطاق العمل الثاني، فيتمثل في اتخاذ التدابير اللازمة لمعالجة الأسباب الجذرية لتغير المناخ، بما في ذلك تلك التي تستهدف بشكل خاص التقليل من تركيزات غازات الدفيئة في الغلاف الجوي. هذه الغازات تعمل على احتجاز الحرارة الشمسية المنبعثة من سطح الأرض، ممّا يؤدي

1 Le rapport spécial du GIEC sur le changement climatique et les terres émergées, Quels impacts pour l'Afrique ?). Disponible sur [http://cdkn.org/sites/default/files/2021-07/IPCC%20Land\\_Africa\\_French\\_WEB\\_7Apr2020.pdf](http://cdkn.org/sites/default/files/2021-07/IPCC%20Land_Africa_French_WEB_7Apr2020.pdf)

2 Résumé à l'intention des décideurs. Disponible sur : <https://www.ipcc.ch/site/assets/uploads/2018/03/ar4-wg2-spm-fr.pdf>

إلى ظاهرة الاحتباس الحراري، العامل الأساسي وراء الاحترار المناخي<sup>3</sup>. ومن هذا المنظور، يصبح من الضروري الانخراط في إجراءات تهدف إلى الحدّ هذه الآثار المدمرة؛ وهذا يشمل التحوّل إلى مصادر الطاقة المتجددة، وتعزيز الاستدامة في مختلف الميادين، والحفاظ على الغابات، وتبني ممارسات زراعية مستدامة وصديقة للبيئة.

ومن جانب آخر، يُعدّ تعزيز الانتقال من الاقتصاد الخطّي إلى الاقتصاد الدائري ضروريًا أيضًا للتخفيف من تأثيرات التغيّر المناخي؛ إذ يشمل اتخاذ تدابير مثل الحدّ من إنتاج المواد الخام، وبخاصة البلاستيك، بالإضافة إلى الإدارة الفعّالة للنفايات.

في هذا السياق، يتعيّن التأكيد على الدور الحيوي للجهات الفاعلة التي غالبًا ما يُغفل دورها، ويُستبعد من استراتيجيات مكافحة الآثار السلبية للتغيرات المناخية. ومن بين هذه الجهات، البرباشة، الذين يقدمون مساهمات جوهرية في العملية البيئية من خلال جهودهم في إعادة التدوير والتقليل من النفايات، وبالتالي، يلعبون دوراً مهماً في تعزيز الاقتصاد الدائري.

يُعدّ هذا الفصل جزءاً من دراسة اجتماعية وأنثروبولوجية متعدّدة التخصصات هدفها الرئيسي تحليل العوامل الكامنة وراء قرار التحوّل إلى «برباش» في تونس، كما تسعى أيضًا إلى توضيح الآليات التي تؤدي إلى تحويل مصب النفايات أو سلة المهملات البسيطة إلى اقتصاد بحد ذاته، وبالتالي المساهمة في فهم الديناميكيات الاجتماعية والاقتصادية التي تكمن وراء هذا التحوّل.

على الرغم من القيود المفروضة على ظروف عملهم ومواردهم المحدودة، يقدّم البرباشة مساهمات ملموسة في تقليل انبعاثات غازات الدفيئة من خلال مشاركتهم النشطة في جمع المواد وإعادة تدويرها؛ هذه المشاركة تلعب دوراً محورياً في تقليل النفايات والحفاظ على الموارد الطبيعية. يُعنى هذا الفصل بدراسة وتحليل الدور الجوهري الذي يؤديه البرباشة في الحدّ من انبعاثات غازات الدفيئة وتعزيز الاقتصاد الدائري. سيتم تقسيم الفصل إلى قسمين: الأول يركز على تحليل الوضعية الاجتماعية والديموغرافية لمجموعة البحث، والثاني يسلط الضوء على دورهم في مواجهة التغيرات المناخية.

3 Cinquième rapport d'évaluation du GIEC, rapport de synthèse. Disponible sur : [https://climate-adapt.eea.europa.eu/fr/metadata/publications/ipcc-fifth-assessment-report-synthesis-report?set\\_language=fr](https://climate-adapt.eea.europa.eu/fr/metadata/publications/ipcc-fifth-assessment-report-synthesis-report?set_language=fr).

يعمل البرباشة، الذين يجوبون الشوارع بعرباتهم لجمع كميات كبيرة من الزجاجات البلاستيكية ويستكشفون مواقع رمي النفايات غير الصحيّة، في أنشطة جمع النفايات وفرزها وإعادة تدويرها بكفاءة. وعلى هذا الأساس تركّز هذه الدراسة بشكل خاص على مجموعتين من البرباشة: الأولى تعمل في موقع برج شاكير، والثانية تجمع النفايات في منطقة المنار بالعاصمة تونس.

ولتحقيق هدف بحثنا سنحاول الإجابة على سؤالين أساسيين:

- ما هو تأثير أنشطة البرباشة في الحدّ من انبعاثات غازات الدفيئة؟
- إلى أيّ مدى يتوافق الدور الاجتماعي للبرباشة بشكل جوهري مع وضعهم الاجتماعي والاقتصادي؟

## تحليل البيانات الاجتماعية والديموغرافية للعينة

يُعدّ التوصيف الاجتماعي والديموغرافي للعينة جزءاً أساسياً من هذه الدراسة، بهدف تحديد ووصف البرباشة. المشاركون في العينة ينقسمون إلى فئتين: الفئة الأولى تتألف من برباشة برج شاكير، بينما تشمل الفئة الثانية برباشة الفضاء العام المتواجدين بمنطقة المنار.

في البداية، من الضروري التنويه إلى الدلالة السلبية المرتبطة بمصطلح «البرباشة» في اللهجة التونسية، حيث يشير إلى أفراد يعملون في جمع النفايات والأشياء المستعملة لاسترجاعها وفرزها. هؤلاء الأفراد ينتمون عادةً إلى الشرائح الاجتماعية المهمشة وغالباً ما يواجهون صعوبات في الوصول إلى الخدمات الأساسية مثل التعليم والرعاية الصحية. سيُظهر التحليل اللاحق للمتغيرات التي تم جمعها كيف تعيش هذه الفئة ظروفًا معيشية هشة وغير مستقرة، وهو ما يعني أنّ هذه الفئة الاجتماعية المتضررة تواجه تحديات كبيرة مرتبطة بوضعها الاقتصادي والتعليمي والصحي والديمغرافي.

يكشف تحليل العينة عن حضور غالب وملحوظ للرجال، الذين يشكّلون حوالي 77% من المشاركين، في حين أنّ النساء يمثلن فقط 23% من العينة. هذا التفاوت بين الجنسين يلقي الضوء على الإفراط في تمثيل الرجال مقارنةً بالنساء في دراستنا، ما يعكس بدوره الواقع العام لقطاع جمع النفايات في تونس، حيث تظهر البيانات أنّ مشاركة الرجال تفوق بكثير مشاركة النساء.

تتميز تركيبة العينة بشكل رئيسي بسيادة البالغين. وتكشف البيانات التي تم جمعها أن 41% من المستطلعين تزيد أعمارهم عن 50 عاماً، في حين أنّ 37% تتراوح أعمارهم بين 35 إلى 49 عاماً. علاوة على ذلك، فإن 7% من المشاركين تتراوح أعمارهم بين 30 و34 سنة، بينما تبلغ نسبة الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و29 سنة حوالي 13.2% من العينة. يسلط هذا التوزيع العمري داخل العينة الضوء على غلبة الأفراد الأكبر سنّاً في دراستنا، مما يطرح تحديات خاصة نظراً لطبيعة عملهم الجسدية والمخاطر المحتملة المرتبطة بذلك.

تنطوي مهام البرباشة على جمع وفرز ونقل المواد القابلة لإعادة التدوير، التي قد تكون في بعض الأحيان ثقيلة أو ضخمة. في الشيخوخة، يمكن أن تقل القدرات البدنية والتحمل، ممّا يجعل العمل أكثر صعوبة ويزيد من المخاطر. بالإضافة إلى ذلك، قد يكون التعرض لظروف العمل غير الصحية والمواد السامة أو النفايات الخطرة شديد التأثير على الأفراد الأكبر سنّاً، نظراً لانخفاض قدرتهم على مقاومة الأمراض مع تقدّم العمر.

أمّا من الناحية المالية، فقد يواجه البرباشة الأكبر سنّاً صعوبات في الحفاظ على دخل مستقر وكافٍ لتلبية احتياجاتهم، خصوصاً في غياب الضمانات الاجتماعية. مع تقدم العمر، تزداد الحاجة إلى الرعاية الصحية والمصاريف المتعلقة بالاحتياجات الأساسية، مما قد يفاقم من تحديات الأمن المالي لهذه الفئة.

تكشف النتائج الكمية عن تنوع المستويات التعليمية بين البرباشة. يُظهر تحليل البيانات توزيع مستويات التعليم الموضح على النحو التالي: 22.2% من البرباشة الذين تمت مقابلتهم يُعتبرون أميين، ولكن قد يمتلكون بعض المهارات الأساسية للقراءة والكتابة؛ 47% لديهم مستوى تعليم ابتدائي، مما يدل على حصولهم على التعليم الأساسي؛ 28.5% من العينة بلغوا المستوى الثانوي، في حين أن شخصاً واحداً فقط من بين جميع البرباشة قد بلغ المستوى الجامعي.

ومن الضروري أيضاً التأكيد على أن 76.5% من الذين تم سؤالهم ينحدرون من أميّة و56.9% ينحدرون من أب أمّي. وهذا يدل على هيمنة المستوى التعليمي المنخفض للغاية والذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى صعوبات في الوصول إلى أنواع أخرى من الوظائف، خاصة وأن 92.4% ممن تم سؤالهم أشاروا إلى رغبتهم في تغيير حياتهم المهنية. وقد يؤدي الافتقار إلى المؤهلات التعليمية إلى حصرهم في الوظائف غير الرسمية ومنخفضة الأجر، مما يحد من آفاقهم الاقتصادية.

من الجدير بالذكر أيضاً أنّ 76.5% من المشاركين في الدراسة ينحدرون من خلفيات أسرية حيث الأمهات أميّات، و56.9% منهم لديهم آباء أميون. هذا الواقع يُظهر سيطرة المستويات

التعليمية المنخفضة جداً، التي تؤدي غالباً إلى مواجهة صعوبات في الوصول إلى فرص عمل أخرى. بالإضافة إلى ذلك، أفاد 92.4% من المبحوثين برغبتهم في تغيير مسارهم المهني، ما يُعدّ مؤشراً على الرغبة في تحسين ظروفهم الحياتية. بيد أنّ غياب المؤهلات التعليمية يقود غالباً إلى الاقتصار على العمل في قطاعات غير رسمية ومنخفضة الأجر، ممّا يحدّ من فرصهم الاقتصادية من جهة، ويضطرهم للعمل في ظروف صعبة قد تُعرضهم لمخاطر تهدّد صحتهم وسلامتهم من جهة ثانية.

تكشف البيانات أنّ 67.4% من المشاركين متزوجون، بينما يُشكّل العازبون 24.3%، ويُمثّل المطلقون والأرامل 8%. بالإضافة إلى ذلك، تُظهر البيانات أنّ 68% من البرياشة يُعلون أطفالاً.

تُعدّ هذه المسؤوليات تحدياً كبيراً، حيث يعتمد العمال وأسرهم، وخصوصاً الأطفال، على الدخل المُتحصّل عليه من هذه المهنة لتغطية الاحتياجات الأساسية كالغذاء، والتعليم، والرعاية الصحية. يُسلط هذا الوضع الضوء على التحديات المعقدة التي يواجهها البرياشة في توليد الدخل وتحمل مسؤوليات رعاية أسرهم في ظل ظروف عمل صعبة.

تُظهر البيانات أنّ الوضع الاقتصادي للبرياشة يتّسم بالهشاشة. فقط 16% من المشاركين يعتبرون أنّ دخلهم الشهري يغطي نفقات أسرهم الحالية دون مواجهة صعوبات. بالمقابل، ذكرت نسبة أكبر، وهي 32%، أنّ دخلهم الشهري يكفي لتغطية النفقات الجارية ولكن مع وجود قيود مالية ملحوظة، ما يعكس عدم استقرارهم المالي. في حين صرحت الأغلبية الكبرى، أي 47.2%، بأن الدخل الناتج عن عملهم لا يكفي لتلبية الاحتياجات الأساسية لأسرهم، ممّا يبرز بوضوح الهشاشة الاقتصادية التي يعانون منها.

من الجدير بالذكر أنّه خلال المقابلات، أفاد 8 من 14 من البرياشة الذين تمّت مقابلتهم أنّهم لا يتمتعون بتغطية صحيّة كافية، وأشاروا إلى اللجوء إلى الخدمات الطبية الخاصة عند الضرورة. بالإضافة إلى ذلك، أعرب جميع المشاركين الـ 14 عن اعتقادهم بأنّ تدخل الدولة لضمان أمنهم وتحقيق رفاههم الاجتماعي والاقتصادي إمّا غير موجود أو غير كافٍ. هذا الإحساس يؤدي إلى شعورهم بأنّ الدولة تنتهج معهم سياسة التهميش وتبدي موقفاً عدائياً تجاههم.

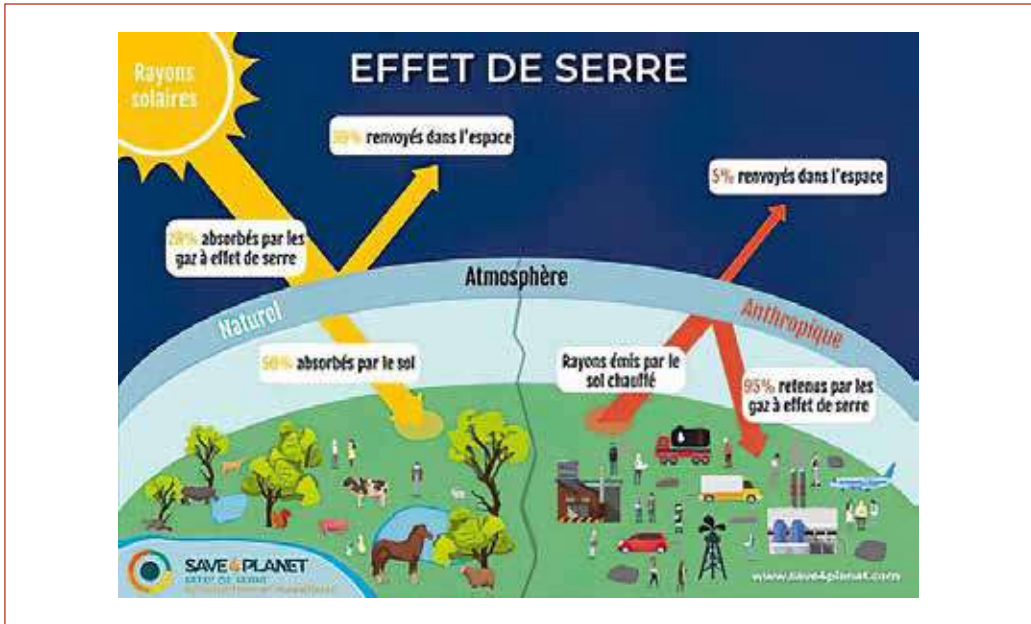
في إطار دراستنا، اعتمدنا تعريف «الهشاشة» كما وردت في كتاب «تحولات المسألة الاجتماعية» لروبرت كاستل. وفقاً للمؤلف، تتجاوز الهشاشة مجرد الفقر المادي لتشمل عدم الاستقرار المهني، فقدان المعايير الاجتماعية، وهشاشة الروابط الاجتماعية. يُعتبر عدم الاستقرار أيضاً مرتبطاً بعدم اليقين الوظيفي، وانعدام الأمن السكني، والصعوبات المتعلقة بالوصول إلى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

هذا التعريف يشير إلى مجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية التي تجعل الأفراد يعانون من ظروف حياة قاسية، مما يعرضهم لخطر متزايد من انعدام الأمن الاقتصادي والاجتماعي والصحي.

## دور «البرباشة» في التخفيف من الغازات الدفيئة

على الرغم من ظروف عملهم الصعبة ومحدودية حصولهم على الموارد، يساهم البرباشة بشكل كبير في التخفيف من انبعاثات غازات الدفيئة من خلال مشاركتهم في عملية جمع المواد وإعادة تدويرها، وبالتالي المساهمة في الحد من النفايات والحفاظ على الموارد الطبيعية. ويهدف الجزء التالي إلى تسليط الضوء على أهمية دورهم في السياق الأوسع لمكافحة تغيّر المناخ.

لتسهيل الفهم وضمان الوضوح، سنقوم أولاً بشرح ظاهرة الاحتباس الحراري وتعريف غازات الدفيئة. وتجدر الإشارة إلى كون هذه الغازات ضرورية للحفاظ على ظروف معيشية ملائمة على الأرض، ولكن يجب الانتباه إلى ضرورة المحافظة على التوازن الطبيعي لهذه الغازات في الغلاف الجوي.



الصورة 1: ملخص لظاهرة الاحتباس الحراري

تلخص الصورة أعلاه ظاهرة الاحتباس الحراري، وهي عملية طبيعية تحدث على كواكب مثل الأرض. وفي الغلاف الجوي، تلعب الغازات الدفيئة دورًا حاسمًا من خلال امتصاص والاحتفاظ بجزء من الطاقة الشمسية والأشعة تحت الحمراء المنبعثة من سطح الأرض. يخلق هذا الإجراء توازنًا حراريًا يحافظ على درجات الحرارة الملائمة للحياة على سطح الكوكب. إلا أن الخلل في تركيز هذه الغازات يمكن أن يؤدي إلى الاحترار المناخي. ويعود جزء كبير من هذا الاحترار العالمي إلى الوجود المفرط للغازات الدفيئة في الغلاف الجوي. ورغم أن بعض هذه الغازات تتواجد بشكل طبيعي، إلا أن الأنشطة البشرية هي المسؤولة عن معظم زيادتها، مما له من آثار ضارة على البيئة.

وفقًا للتقرير السادس للهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ فإن الاحتباس الحراري نتيجة للأنشطة البشرية التي تنتج انبعاثات إضافية من غازات الدفيئة<sup>4</sup>، مما يمنع الإشعاع الشمسي من مغادرة الغلاف الجوي. وينبع هذا بشكل رئيسي من التصنيع والاستخدام المكثف للوقود الأحفوري مثل الفحم والنفط والغاز الطبيعي، فضلًا عن تعديل الأراضي، بما في ذلك إزالة الغابات المطيرة والتلوث. هذا العمل البشري يُفاقم تأثير الاحتباس الحراري الطبيعي ويساهم في ظاهرة الاحترار المناخي.

بالإضافة إلى ثاني أكسيد الكربون (CO<sub>2</sub>)، فإن الغازات الأخرى المنبعثة من النشاط البشري تعزز ظاهرة الاحتباس الحراري. وتشمل هذه الغازات الميثان (CH<sub>4</sub>)، وأكسيد النيتروز (N<sub>2</sub>O)، وكذلك الأوزون (O<sub>3</sub>)، ومركبات الهيدروفلوروكربون (HFCs).

## 1 / جمع النفايات وفرزها الانتقائي

يشكل جمع النفايات وفرزها الانتقائي خطوة حاسمة في الإدارة المستدامة للنفايات وفي الحد من التأثير البيئي للأنشطة البشرية. تتضمن هذه الخطوة فصل أنواع مختلفة من النفايات من أجل استعادة المواد القابلة لإعادة التدوير، مثل الورق والبلاستيك والمعادن، بغرض إعادة دمجها في سلسلة الإنتاج وتقليل كمية النفايات المرسلة إلى مدافن النفايات.

غالبًا ما يكون البرباشة في الخطوط الأمامية لهذه العملية، حيث يتجولون في الشوارع والأحياء والمناطق الحضرية لجمع المواد القابلة لإعادة التدوير. إن معرفتهم المتعمقة بأنماط توليد

4 Le sixième Rapport du Groupe d'experts intergouvernemental sur l'évolution du climat relatif. Disponible sur : <https://www.ipcc.ch/report/ar6/wg3/>

النفائيات في مجتمعاتهم تسمح لهم بتحديد المواد القيّمة وجمعها بكفاءة. وهي تستهدف بشكل فعّال المناطق ذات الإمكانيات العالية لجمع المواد القابلة لإعادة التدوير، وبالتالي زيادة كفاءتها في استعادة النفائيات. يساعد نشاط التجميع المباشر هذا على منع وصول المواد القابلة لإعادة التدوير إلى مدافن النفائيات أو حرقها، وبالتالي تقليل انبعاثات غازات الدفيئة.<sup>5</sup> يقوم البرباشة بفرز المواد القابلة لإعادة التدوير بعناية من النفائيات غير القابلة لإعادة التدوير. يتضمن ذلك فصل أنواع مختلفة من المواد بناءً على خصائصها، مثل البلاستيك والورق والكرتون والزجاج والمعادن. ويضمن هذا الفرز أن تكون المواد القابلة لإعادة التدوير نظيفة وجاهزة للتحويل إلى مواد خام جديدة. من خلال تجنب التلوث المتبادل بين المواد والفرز الانتقائي، وهي عملية فصل النفائيات إلى فئات، يسهل إعادة التدوير ويحسن كفاءة العملية ممّا يساعد على الحفاظ على البيئة وتقليل التلوث بالمواد غير القابلة للتحلل، الأمر الذي يسهم بشكل كبير في الحدّ من انبعاثات غازات الدفيئة والحفاظ على البيئة والموارد الطبيعية.<sup>6</sup>

## 2 / تخفيض إنتاج المواد الخام

يرتكز مفهوم إعادة التدوير على تحويل هذه المواد المجمعة إلى مواد خام جديدة، ممّا يقلل بشكل كبير من الحاجة إلى القيام باستخراج وإنتاج موارد طبيعية جديدة. يلعب خفض إنتاج المواد الخام دورًا حاسمًا في الاستراتيجيات الدولية والوطنية التي تهدف إلى تخفيف غازات الدفيئة لأنه يعمل على عدة مستويات لتقليل البصمة الكربونية الإجمالية للمجتمع والحفاظ على الموارد الطبيعية وتعزيز اقتصاد أكثر استدامة من خلال:

• تقليل انبعاثات غازات الدفيئة في سلاسل التوريد: لأنها غالبًا ما تكون كثيفة الاستخدام للطاقة وتؤدي إلى انبعاث غازات الدفيئة. وبالتالي فإنّ تقليل الطلب على المواد الخام يقلل من انبعاثات الغازات الدفيئة المرتبطة باستخراجها ونقلها ومعالجتها.

• توفير الطاقة: يتطلب تصنيع المنتجات من المواد الخام كمية كبيرة من الطاقة، والتي غالبًا ما يتم توليدها من الوقود الأحفوري. ومن خلال تقليل إنتاج المواد الخام الجديدة، نقوم أيضًا بتقليل استهلاك الطاقة وانبعاثات الغازات الدفيئة المرتبطة بهذا الإنتاج.

5 Marta Marello and Ann Helwege; 2014. Solid Waste Management and Social Inclusion of Waste Pickers: Opportunities and Challenges Marta Marello and Ann Helwege.

6 Coy, Peter. "The Scorned but Valuable Work of Waste Pickers." Bloomberg Business Week. 2014. Disponible sur: <http://www.businessweek.com/articles/2014-04>.

• الحد من إزالة الغابات: تأتي بعض المواد الخام، مثل الخشب، من إزالة الغابات. ويساعد خفض الطلب على هذه المواد الخام في الحفاظ على الغابات، التي تعمل كمصارف أساسية للكربون عن طريق امتصاص ثاني أكسيد الكربون من الغلاف الجوي.

• تقليل الضغوط على النظم البيئية: يؤدي تقليل إنتاج المواد الخام إلى تخفيف الضغط على النظم البيئية الطبيعية، مما يساعد على الحفاظ على التنوع البيولوجي والحفاظ على النظم البيئية الصحية التي يمكنها امتصاص المزيد من ثاني أكسيد الكربون.<sup>987</sup>

يلعب البرياشة دورًا أساسيًا في استعادة المواد الخام، وفي إعادة تدوير المواد القابلة لإعادة التدوير المستردة من النفايات. إنهم يُشكّلون حلقة وصل حاسمة في سلسلة إعادة التدوير. وباستخدام المواد المعاد تدويرها بدلاً من الموارد الطبيعية، تتطلب العمليات الصناعية عمومًا طاقة أقل، وتنطوي إعادة التدوير على تحويل المواد المجمعّة إلى مواد خام جديدة، مما يقلل الحاجة إلى استخراج وإنتاج موارد طبيعية جديدة. على سبيل المثال، إعادة تدوير الورق ينقذ الأشجار، وإعادة تدوير البلاستيك يقلل الاعتماد على الهيدروكربونات الأحفورية.

### 3 / الحد من التلوث المرتبط بمدافن النفايات

يساهم البرياشة بشكل كبير في الحد من التلوث المرتبط بمدافن النفايات من خلال أنشطة التجميع والفرز الانتقائي للمواد القابلة لإعادة التدوير سواء خارج مقابر النفايات أو داخلها.

يقوم البرياشة بجمع المواد القابلة لإعادة التدوير مباشرة من المنازل والشركات والأماكن العامة. ومن خلال استعادة هذه المواد قبل وصولها إلى مدافن النفايات، فإنها تمنع تراكم كميات كبيرة من النفايات وهذا الانخفاض في كمية النفايات في مكان النفايات له تأثير مباشر على تقليل التلوث البيئي وانبعاثات غازات الدفيئة المرتبطة بتحلل النفايات<sup>10</sup>.

7 Bringezu, S., et al. (2018). A Global Resource Use Database for in-Depth Assessment of the Environmental Impacts of Consumption and Production—Part 1: Methodology and Exemplary Results. Resources, Conservation and Recycling.

8 Hertwich, E. G., et al. (2015). Assessing the Environmental Impacts of Consumption and Production: Priority Products and Materials. Environmental Science & Technology.

9 Agamuthu, P. (2015). Recycling of waste from polymer materials: An overview of the recent works. Waste Management, 40, 1-10

10 Siddharth Hande; 2019. The informal waste sector: a solution to the recycling problem in developing countries. Open edition journal

يساهم هذا الدور في منع تلوث التربة والمياه. وفي الواقع، تشكل مدافن النفايات غير الخاضعة للرقابة مصدرا رئيسيا لتلوث التربة والمياه. ويمكن أن تحتوي النفايات المتراكمة هناك على مواد سامة تتسرب إلى التربة والمياه الجوفية، مما يتسبب في أضرار بيئية دائمة. ومن خلال منع بعض هذه النفايات من الوصول إلى مدافن النفايات، يساعد البرباشة على منع تلوث النظم البيئية المحلية وحماية جودة مياه الشرب<sup>12 11</sup>.

ومن ناحية أخرى، يؤدي تحلل النفايات العضوية في مدافن النفايات إلى توليد غاز الميثان، وهو أقوى غازات الدفيئة. من خلال استعادة المواد القابلة لإعادة التدوير قبل أن تتحلل في مدافن النفايات، يقلل البرباشة من إنتاج غاز الميثان وبالتالي يساهمون في الحد من انبعاثات غازات الدفيئة، وهذه المساهمة أساسية للتخفيف من آثار تغير المناخ.<sup>13</sup>

#### 4/ رفع مستوى الوعي بأهمية إعادة التدوير

يلعب البرباشة دورًا حيويًا في رفع مستوى الوعي بين المجتمعات المحلية حول أهمية إعادة التدوير وإعادة استخدام المواد. ويتجلى التزامهم بهذا الوعي بعدة طرق، ولكن إحدى أكثر الطرق فعالية هي من خلال دورهم كنموذج يُحتذى به في إعادة التدوير. ومن خلال فرز النفايات واستعادة المواد القابلة لإعادة التدوير بشكل واضح داخل الأحياء والمجتمعات، فإنهم يجسدون بشكل ملموس كيف يمكن أن يكون للعمل الفردي تأثير بيئي إيجابي. إن تفانيهم يُلهم أفراد المجتمع ليحذوا حذوهم، مما يؤدي إلى زيادة المشاركة في فرز النفايات محليًا. في أيامنا هذه، في أحيائنا ومنازلنا، أصبح الفرز الانتقائي للبلاستيك والورق والمواد الأخرى ممارسة شائعة، مما يُسهل مهمة البرباشة الذين يعملون في التجميع اللاحق للمواد القابلة لإعادة التدوير. لقد قاموا بتوفير التعليم غير الرسمي الذي غالبا ما يكون فعالا للغاية لأنه يحدث في سياق الحياة اليومية. إنهم يساعدون في تعزيز ممارسات الإدارة المستدامة للنفايات داخل مجتمعاتهم، والتي يمكن أن

11 Mathilde Bouvier and Sonia Dias, 2021. Waste Pickers in Brazil: A Statistical Profile. Women in Informal Employment: Globalizing and Organizing, Statistical Brief No 29.

12 Mathilde Bouvier and Sonia Dias, 2021. Waste Pickers in Brazil: A Statistical Profile. Women in Informal Employment: Globalizing and Organizing, Statistical Brief No 29.

13 Medina, M., & Prendes-Gero, A. J. (2013). Solid waste management in developing countries: A review of collectors, gatherers, and pickers. Journal of Environmental Management,.

يكون لها تأثير كبير في الحدّ من التلوث والحفاظ على البيئة<sup>14 15</sup>.

## 5 / المساهمة في الاقتصاد الدائري

الاقتصاد الدائري هو مفهوم اقتصادي يهدف إلى تقليل هدر الموارد الطبيعية من خلال تشجيع إعادة استخدام وإعادة تدوير وتجديد المنتجات والمواد والموارد. على عكس النموذج الاقتصادي الخطي التقليدي، حيث يتم استخراج الموارد وتحويلها إلى منتجات واستخدامها والتخلص منها في النهاية كنفائات، يسعى الاقتصاد الدائري إلى الحفاظ على قيمة الموارد في الاقتصاد لأطول فترة ممكنة. يعمل البرباشة على تغذية الاقتصاد الدائري من خلال توفير المواد القابلة لإعادة التدوير للصناعات التحويلية<sup>16</sup>. وهذا يقلل الضغط على الموارد الطبيعية والمساهمة في الحد من النفائات في المكبات، وبالتالي تعزيز إدارة أكثر استدامة للموارد.<sup>17 18 19</sup>

## خاتمة

في هذا الفصل، حاولنا تسليط الضوء على مساهمة البرباشة، التي غالباً ما يتم تجاهلها، في مكافحة ظاهرة التغيّر المناخي، مع التركيز على دورهم المهم في إدارة النفائات. إنّ تونس، باعتبارها دولة معرضة لتغيّر المناخ ومنخرطة في مبادرات للتخفيف من انبعاثات غازات الدفيئة، تجد نفسها في مفترق طرق؛ إذ من الضروري الاعتراف الكامل بدور البرباشة والعمل على تحسين ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والمهنية. يستحق هؤلاء اللاعبون الأساسيون التقدير والدعم لضمان استدامتهم وتعزيز تأثيرهم الإيجابي على البيئة.

- 14 Medina, M., & Prendes-Gero, A. J. (2013). Solid waste management in developing countries: A review of collectors, gatherers, and pickers. *Journal of Environmental Management*,
- 15 Hong Thi Thu Nguyen et Al, 2019. Determinants of Residents' E-Waste Recycling Behavioral Intention: A Case Study from Vietnam. *Sustainability journal*.
- 16 Sonia Dias, 2012. Waste and Development – Perspectives from the Ground. *Open Edition Journal*.
- 17 Ellen MacArthur Foundation. (2013). "Towards the Circular Economy: Economic and Business Rationale for an Accelerated Transition."
- 18 Kirchherr, J., Reike, D., & Hekkert, M. (2017). "Conceptualizing the circular economy: An analysis of 114 definitions."
- 19 European Commission. (2020). "Circular Economy Action Plan: For a Cleaner and More Competitive Europe."

إنّ البيانات الاجتماعية والديموغرافية للبرباشة تُسلط الضوء على واقع محفوف بالمخاطر والهشاشة. إذ يعيش هؤلاء العمال، الذين ينحدرون في كثير من الأحيان من خلفيات محرومة، في ظروف محفوفة بالمخاطر وهشة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والديموغرافي. وتتفاقم حالة الضعف هذه بسبب عوامل مثل تقدمهم في السن، وانخفاض مستوى تعليمهم، وحالتهم الزوجية غير المستقرة، ووضعهم الاقتصادي غير المستقر.

وعلى الرغم من هذه التحديات، يلعب البرباشة دورًا حيويًا في الحدّ من انبعاثات غازات الدفيئة. كما تساهم مشاركتهم في جمع النفايات وفرزها الانتقائي بشكل مباشر في تقليل الانبعاثات عن طريق منع وصول المواد القابلة لإعادة التدوير إلى مدافن النفايات. بالإضافة إلى ذلك، يشجع عملهم على تقليل إنتاج المواد الخام من خلال تشجيع إعادة التدوير، ممّا يقلل الطلب على الموارد الطبيعية ويقلل الانبعاثات المرتبطة باستخراجها ومعالجتها. ويساعد البرباشة أيضًا في تقليل تلوث مدافن النفايات عن طريق فرز المواد قبل أن تتحلل، ممّا يمنع تكوين غاز الميثان، وهو غاز قوي من غازات الدفيئة. ومن خلال رفع مستوى الوعي في مجتمعاتهم بأهمية إعادة التدوير، فإنهم يشجعون ممارسات الإدارة المستدامة للنفايات وبالتالي يساهمون في الحفاظ على البيئة.

يلعب البرباشة دورًا رئيسيًا في الاقتصاد الدائري من خلال توفير المواد القابلة لإعادة التدوير للصناعات التحويلية، مما يساعد في الحفاظ على قيمة الموارد في الاقتصاد. ولعملهم تأثير كبير في الحدّ من النفايات وتعزيز إدارة الموارد بشكل أكثر استدامة.

أخيرًا، يقدم عملنا هذا فرصة لتسليط الضوء على أهمية دور البرباشة في التصدي للتحدي العالمي للتغيرات المناخية، والذي يؤثر بشكل مباشر ويومي على حياتنا ويهدد حتى إمكانية العيش المستدام على هذا الكوكب. إنّه مدخل لتعزيز الأبحاث المستقبلية حول هذه الظاهرة المعقدة والمركبة، وهو أيضًا دعوة للباحثين والباحثات للتعلم في دراستها وإيلاءها الأولوية. وربما من أهم النقاط التي يجب التركيز عليها في المستقبل هو جمع أكبر قدر من البيانات الكمية والنوعية لفهم ديناميكيات التصدي للتغيرات المناخية ومحاولة التكيف معها. وذلك بما أننا واجهنا صعوبة كبيرة في الحصول على إحصائيات رسمية، حيث لم تعترف الدولة بعدُ بأهمية هذا الفاعل الاجتماعي «البرباش» ودوره الحيوي في بناء بيئة صحية؛ إذ علاوةً على تهميشه اقتصاديا واجتماعيا، فهو حتى الآن مغيبٌ في الإحصائيات الرسمية.



ملحق

رسوم

# النسبة



# الجنس

22,9%

أنثى



77,1%

ذكر



## مهنة الأم



86,8%



عاملة

4,9%

4,9%

مهنة  
آخري



3,4%

برباشة

وسيلة النقل المستعملة  
للوصول إلى العمل

خارج المصّب



دراجة نارية **75,0%**

**4,2%**

دراجة هوائية

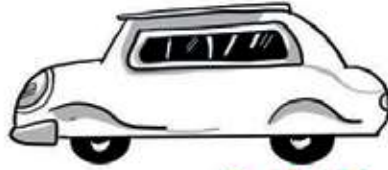


**20,8%**

سيارة نقل  
جماعي



داخل  
المصّب



سيارة خاصة **64,9%**



**15,8%**  
سيارة جماعية

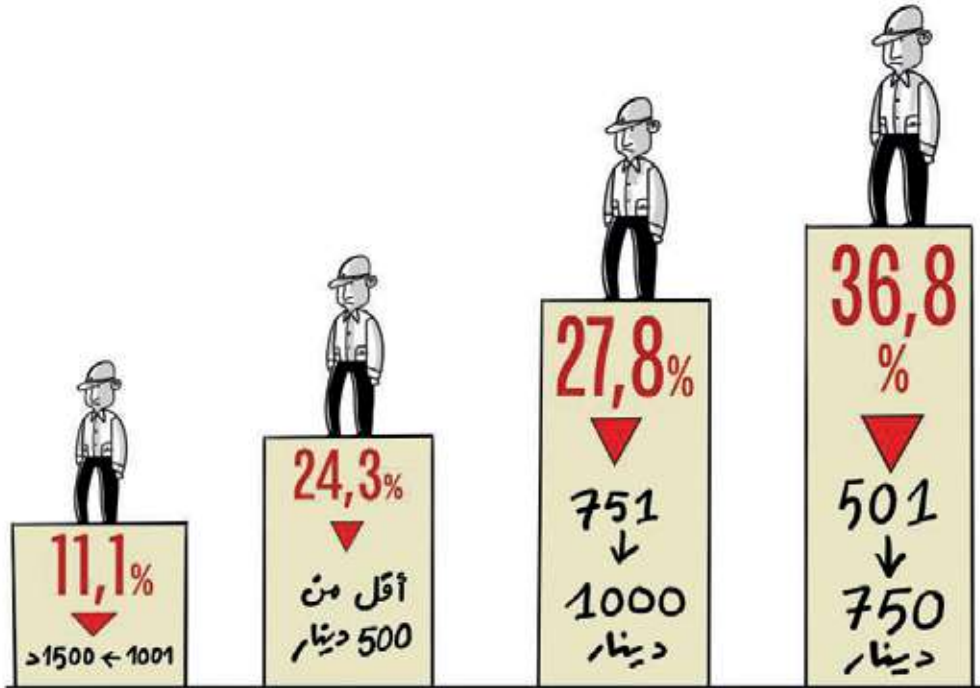


**15,8%**  
سيارة نقل جماعي



**3,5%**  
سيارة أجرة فردية

# قيمة مصروف العائلة في الشهر



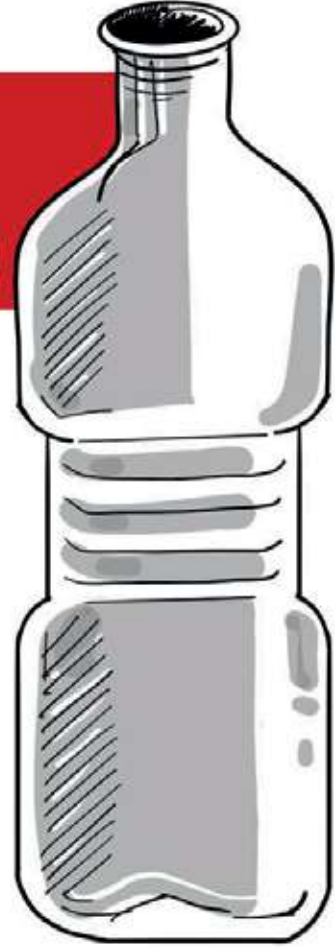
# مع أو ضد استعمال كلمة "بدياش"؟



# نوعية النفايات

نفايات  
بلاستيكية

90,2%



5,6%

نفايات حديدية  
ومعدنية

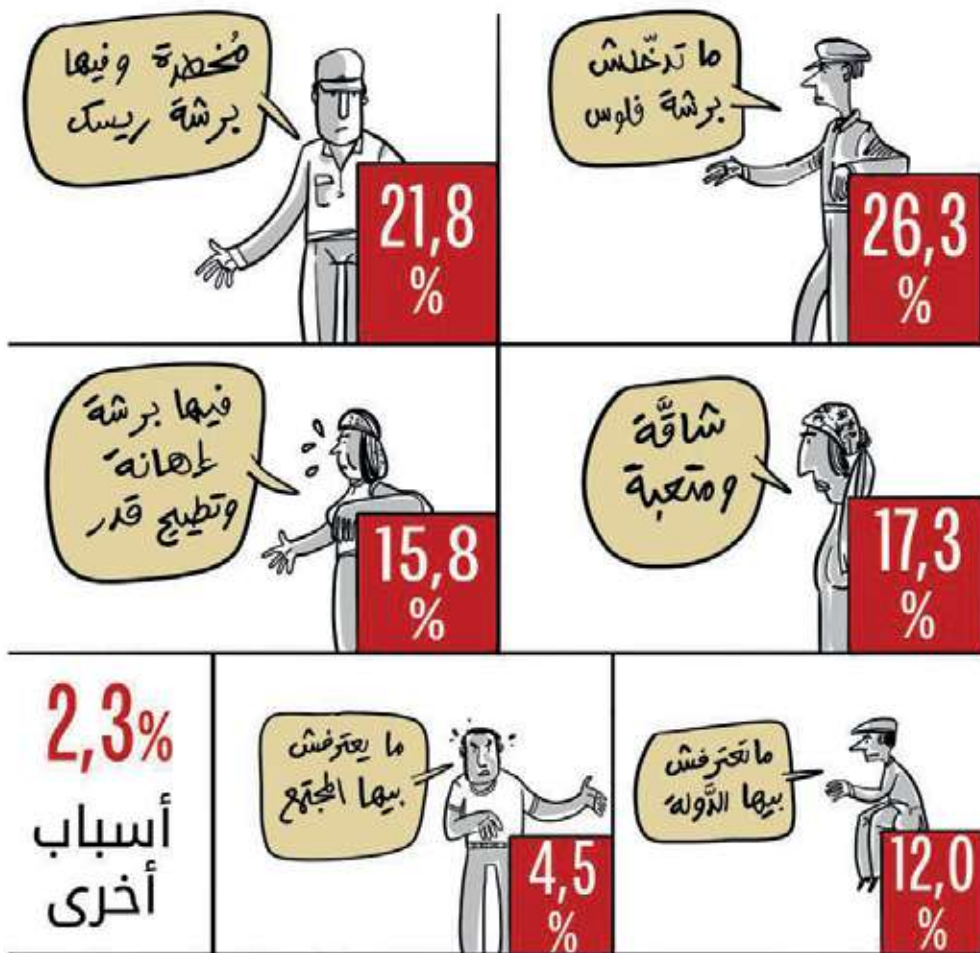


4,2%

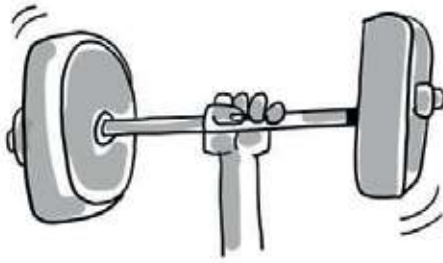
نفايات ورقية



## لماذا تفكر في تغيير العمل؟



## الممارسات الثقافية والترفيهية



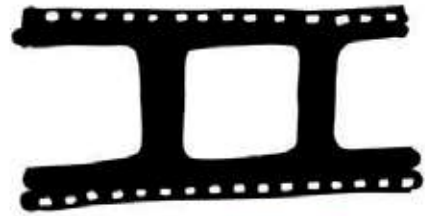
الملاعب  
والقاعات  
الرياضية **31,3%**



المقهى **73,6%**



الحانات **21,6%**



السينما **7,0%**



المهرجانات **15,3%**



نوادي  
الإنترنت **10,0%**

# مسألة الهجرة

## خارج المصب

## داخل المصب

كان نعطيوك الخيار  
في الخدمة، هل تختار؟

كان نعطيوك الخيار  
في الخدمة، هل تختار؟

27,4%

موقع في  
وظيفة عمومية



16,9%

موقع في  
وظيفة عمومية



37,0%

فتح  
مشروع مستقل



43,7%

فتح  
مشروع مستقل



7,0%

تنظيم أمور  
عمل البرياشة



17,8%

تنظيم أمور  
عمل البرياشة



4,2%

موقع في  
القطاع الخاص



تهاجر من تونس

17,8%



1,4%

لا أعرف

تهاجر من تونس



26,8%

# الحالة المدنية

67,4%

متزوج



24,3%

أعزب



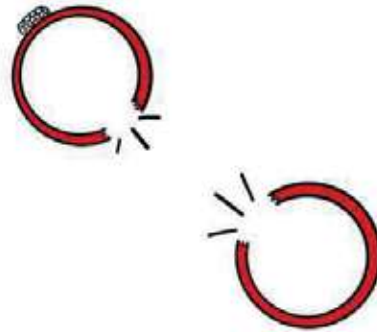
4,9%

أرمل



3,4%

مطلق



# المستوى التعليمي

48,6%

ابتدائي



22,2%

لم يزاول  
التعليم



0,7

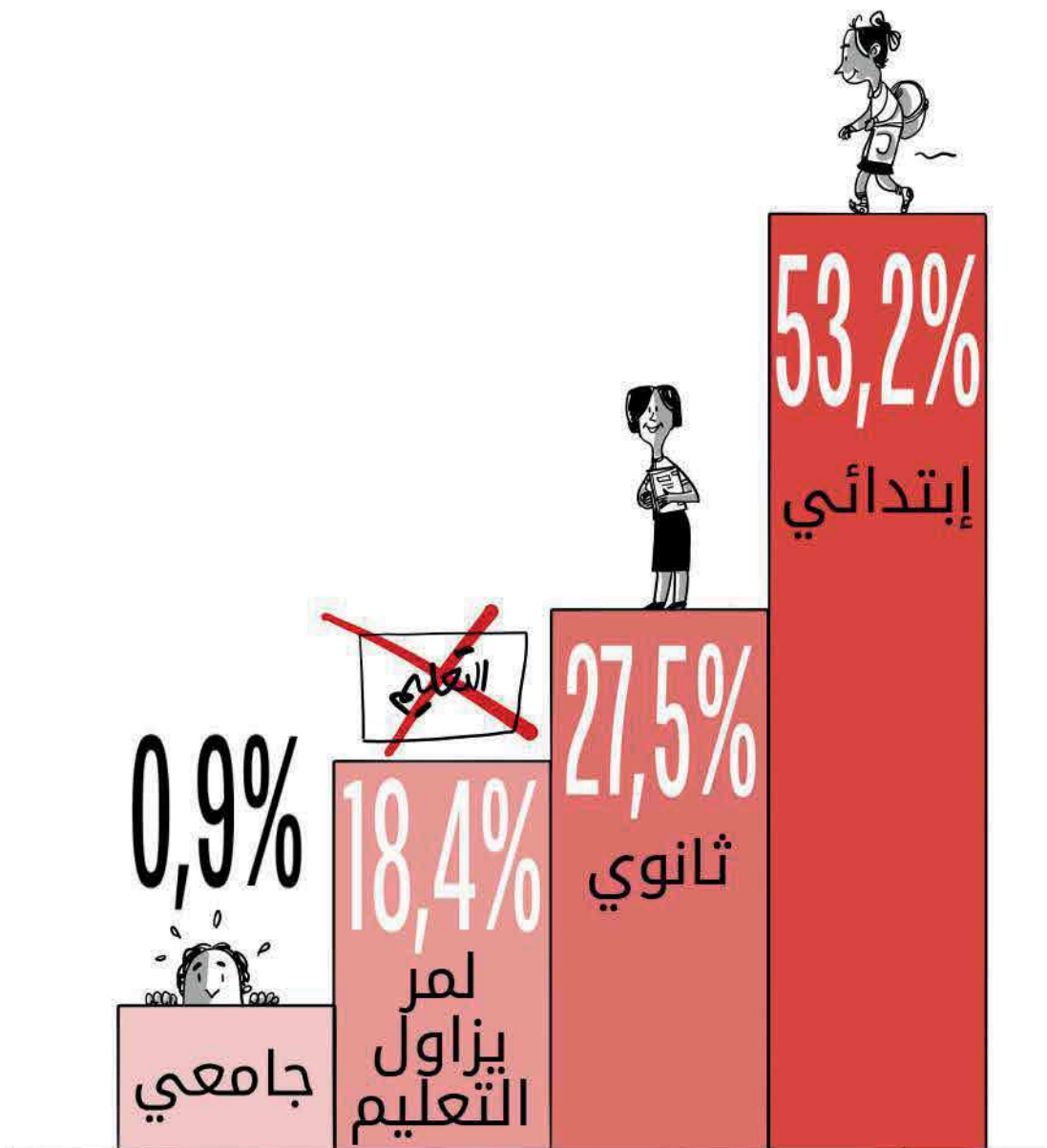
جامعي

28,5%

ثانوي



# المستوى التعليمي للشريك



# مكان الولادة

خارج المصّب

46,7%

تونس الكبرى

39,6%

باجة، الكاف، سليانة  
جندوبة، بنزرت

13,7%

القصرين، القيروان  
قابس، سوسة  
المهدية



داخل  
المصّب

73,2%

تونس الكبرى

16,9%

ولاية القصرين

2,8

زغوان

7,1%

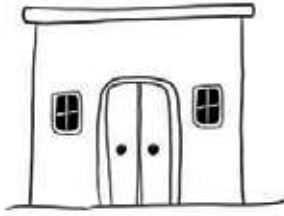
الكاف، جندوبة  
سليانة، القيروان



# مكان الإقامة

خارج المصعب

داخل  
المصعب



حي التضامن 26%



20,5%  
الجبل الأحمر



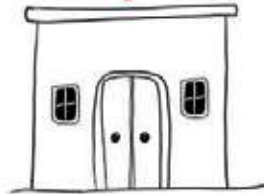
53,5%  
تونس  
العاصمة

73,2%



الكبارية

26,8%



سيدي حسين - بير الجزائر - المرناقية  
العطار - المروج - بورقبة - جبل الجلود

# التنقل من مكان الإقامة إلى مكان العمل

## خارج المصّب



67,1%



وسيلة نقل واحدة

28,8%



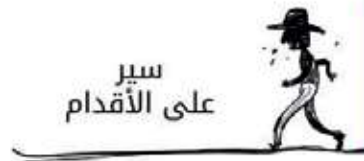
4,1  
%

## داخل المصّب



وسيلة نقل واحدة

71,8%



سير  
على الأقدام

11,2  
%



وسيلة نقل واحدة

8,5  
%



عدم الإجابة  
عن السؤال

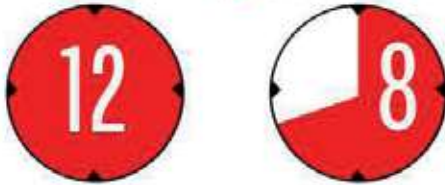
8,5  
%

# عدد ساعات العمل

خارج المصّب

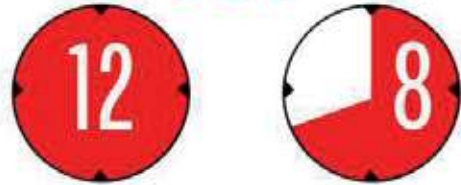
داخل  
المصّب

68,5%



من 8 إلى 12 ساعة

83%



من 8 إلى 12 ساعة

12,3%

أقل من 8 ساعات



14,1%

أقل من 8 ساعات



19,2%

أكثر من 12 ساعة



2,8%

أكثر من 12 ساعة

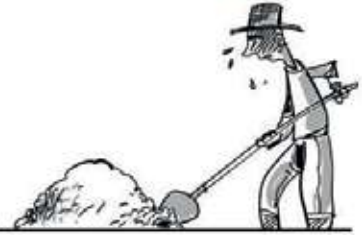


# مهنة الأب

برباش 10,4%



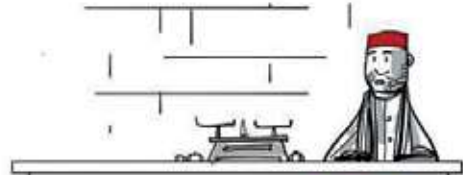
عامل 55,6%



8,3%  
فلاح



9,7%  
حرفي  
أو تاجر



3,5%

مهنة  
أخرى

4,9%  
عاطل  
عن العمل



7,6%  
موظف



# البرباشة

أو اقتصاد القمامة في تونس  
من مصبّ برج شاكير  
إلى شوارع العاصمة

يُعدّ هذا الكتاب الجماعي ثمرة عمل بحثي متكامل جمع أكثر من ثلاثين باحثًا وباحثة من مجالات علمية متعدّدة، من السوسيوولوجيا، الجغرافيا، التاريخ، الأنثروبولوجيا، الدراسات الأمنية والجنديرية، إلى علم النفس والطب النفسي، لتقديم قراءة معمّقة لظاهرة «البرباشة»، جامعي ونابشي القمامة في تونس.

يستند هذا العمل إلى تحقيقات ميدانية موسّعة ودراسات كمية وكيفية أنجزت في مصبّ برج شاكير وفي الفضاءات العامة بالعاصمة، في محاولة لفهم من هم البرباشة؟ لتفسير لماذا تحولوا إلى هذه المهنة؟ وكيف يتفاعلون مع ديناميكيات الاقتصاد غير الرسمي والهشاشة الاجتماعية؟

من خلال تحليل معقّد يمزج بين الاقتصاد، المجتمع، السلطة، والبيئة، يكشف الكتاب عن ديناميات غير مرئية تنظم هذا القطاع غير النظامي، مستندًا إلى مقارنة بحثية تعيد النظر في النظريات الغربية الجاهزة وتقدّم إطارًا تحليليًا مبتكرًا تونسي الهوية.

هذا العمل هو مساهمة أساسية لفهم هذا الاقتصاد والهشاشة الاجتماعية في تونس، كما أنه يسائل السياسات العامة في التعاطي مع الفئات المهمّشة والعمال غير النظاميين، ويقدم مفاتيح سوسيوولوجية لفهم التحولات العميقة التي يشهدها النسيج الاجتماعي والاقتصادي في البلاد.

